الإسلام السياسي

شخصيات

حسن البنا | ابن تيمية | علي الغاياتي
محمود خطاب السبكي | عمر مكرم | حسن الهضيبي
حافظ سلامة | جمال الدين الأفغاني | سيد قطب
أحمد المحلاوي | محمد عبده | عمر المختار
فتحي الشقاقي | عبد الله النديم | عز الدين القسام
نجم الدين أربكان | محمد الغزالي | عبد الحميد كشك
روجيه جارودي

د. محمد مورو



مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الإسلامي السياسي شخصيات

المؤلف : د. محمد مورو

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢١٠٤٣

الطبعة الأولى ٢٠١١



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

1

الباب الأول

حسن البنا
رجل على موعد

المقدمة

لولا حسن البنَّا لأصبحنا أمة من الهنود الحمر – نعم لولا هذا الرجل القرآني – والإنسان الفذ – لضاعت أمتنا وأصبحت في خبر كان.

كان الاستعمار قد استطاع أن يحتل كل البلاد الإسلاميَّة ويفرض عليها نفوذه وثقافته وحضارته – وكانت الخلافة الإسلاميَّة باعتبارها جامعًا للمسلمين، وباعتبارها أساس وحدتهم وتماسكهم قد سقطت. وفي مصر ذاتها كان الحزب الوطني الذي رفع راية الكفاح والجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الإنجليزي قد ضعف إلى درجة التلاشي. وكانت زروع المستعمر قد ضُربت جذورها في التربة المصرية وأصبح لها مؤسسات وأحزاب ومفكرين وكتّاب وصحافة ونظم.

وكانت العلمانيَّة باعتبارها أحد الزروع الشيطانية التي غرسها الاستعمار قد سيطرت على الواقع السياسي والثقافي في مصر «قلب العالم الإسلامي».

وكان من الطبيعي أن يسفر ذلك كله عن ضياع ثقافة الأمة وتميزها وحضارتها الذاتية – وأن تنقطع صلة الأمة بتاريخها، وأن يحاول الاستعمار وأبناء المدرسة الاستعماريَّة أن يربطوا مصر خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا بالحضارة الأوروبية، وأن يقطعوا صلة مصر بالعالم الإسلامي ويقطعوا صلات العالم الإسلامي ببعضه بعضًا – وأن يستبدلوا الثقافة الإسلاميَّة بالثقافة الأوروبية .

ولم يكتف الاستعمار بتقطيع أوصال العالم الإسلامي وإسقاط الخلافة والسيطرة على مقدرات الأمة الإسلاميَّة، وإنما أرادوا أن يجتثوا قيمها الإيجابيَّة المستمدة من الإسلام، مثل الوحدة الإسلاميَّة تحت راية الخلافة ومثل الجهاد وغيرها، وهكذا ظهر على عبد الرازق ليحاول أن يدعي كذبًا عدم وجود

الجانب السياسي ونظام الحكم في الإسلام، وظهرت القاديانية لتحاول أن تدعي أنه لا جهاد في الإسلام – وظهرت المدارس الثقافية التي تدعي أن مصر ترتبط حضاريًا بما يسمى حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل طه حسين. وظهرت الأحزاب والصحف، ومدارس الفكر العلمانيَّة التي تستلهم الحضارة الأوروبية في سلوكها السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

وكان معنى هذا كله أن يتحول الإنسان المسلم إلى مسخ مقلِّد للحضارة الأوروبية -- وأن يفقد ذاتيته وهويته وتوجهه الحضاري الخاص به – كان معنى هذا أن تضيع الأمة حضاريًا – وأن تتحول إلى أمة من التوابع للاستعمار، تفكر بطريقته وتخضع لتوجهه الثقافي والنتيجة الحتمية لكل هذا أن تتحول أمتنا إلى أمة من الهنود الحمر بلا حضارة ولا ثقافة ولا كيان.

وتكمن قيمة حسن البنَّا في أنه جاء على موعد جاء في عام ١٩٢٩م – ١٩٤٩م وكانت الأمة تمر بأقسى مراحل حياتها في لحظة مفصلية – تعرضت فيها لسقوط الخلافة كجامع وموحد للأمة ١٩٢٤م – وانهار الحزب الوطني في مصر وامتلك العلمانيون زمام الإدارة السياسيَّة سواء في حزب الوفد أو أحزاب الأقلية، وتفشَّتْ الدَّعوات الإقليمية الانعزالية والدَّعوات الغربية وتراثها – جاء حسن البنّا في هذا الوقت ليعيد إلى الأمة تماسكها بدينها وتمسكها به وليجلو الوجه الحقيقي والمشرق للإسلام. وليجعله معيارًا للسياسة والسلوك والمنهج – أي أنه يؤكِّد وجود حضارة خاصة وذاتية لأمتنا، تستطيع بها أن تصمد في وجه الغزو الحضاري – جاء حسن البنّا ليقيم مؤسسة سياسيّة وتربويّة واجتماعيّة واقتصاديّة مرتبطة ونابعة من الإسلام في مواجهة المؤسسات المغتربة والعميلة والدّاعية إلى حضارة الغرب – جاء حسن البنّا ليعيد إلى الأمة قيمها الإيجابيَّة في الوحدة والجهاد، وهي القيم الكفيلة باستمرار أمتنا ووجودها ذاته – جاء حسن البنّا ليفعل ذلك كله، ولولا أنه فعله لكنا أمة من الهنود الحمر.

***

وقد يسأل البعض سؤالاً يقول: « ولكن حسن البنَّا لم يقض على الاستعمار تمامًا ولم يجتث مدارس الفكر الغربي ومؤسساته العلمانيَّة والتغريبيَّة ، فما زال

الاستعمار يتحكم فينا بوسائل شتى اقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة وتعليميَّة ومنهجيَّة، وما زال الحكم الإسلامي غائبًا عن السلطة ومطارد ويعاني من الاستبداد والعسف والقهر...؟».

ولكن هذا السائل يتجاهل أمرًا هامًا – وهو أن ظروف المعركة ونتائجها لا تُحسب بهذا الشكل البسيط – فلنتخيل جيشين في معركة – الجيش الأول يريد اجتثاث الجيش الثاني – وقيَّض الله للجيش الثاني رجلاً استطاع أن يحقق تماسك هذا الجيش، وأن يستمر في المعركة حتى يومنا هذا – ولم يُمكّن الجيش الأول من تحقيق نتائجه – وبالرغم من أنه لم يلحق الهزيمة كاملة بالجيش الأول، إلا أن تحقيقه لأسباب الصمود لدى الجيش الثاني إنجاز هام في حد ذاته.

إن الحساب البسيط يقول إن المجاهدين الذين وقفوا ضد الاستعمار من أمثال عمر المختار – عبد الكريم الخطابي – عز الدين القسَّام – عمر مكرم – الأفغاني – النديم – مصطفى كامل – حسن البنَّا – لم يستطيعوا هزيمة ذلك الاستعمار – ولكن جهاد هؤلاء رغم استشهادهم جعل من المستحيل اجتثاث جذور الأمة – وقلل إلى حد كبير من العجلة الاستعماريَّة وعطلها عن تحقيق أهدافها وبالتالي أعطى التماسك للأمة، ومنحها الأمل والاستمرار في الجهاد .

إن مدرسة حسن البنَّا مازالت تعمل، بل واستطاعت أن تخرج الرجال وأن تحقق للأمة اعتزازها بحضارتها ورفضها للاستعمار وقيمه وحضارته، وأن تجعل المدرسة الاستعماريَّة بكل أحزابها وصحفها ومؤسساتها شيئًا لقيطًا هامشيًا لا قيمة له، وقللت إلى حد كبير آثارها التخريبيَّة والتدميريَّة.

حسن البنَّا... هل تستطيع الكلمات البسيطة أن تحدد ملامح شخصيته..؟ هل هو رجل من طراز فريد؟ هل هو الملهم الموهوب؟ هل هو أستاذ الجيل؟ - هل هو إمام أنقذ أمة؟ هل هو الإمام الشهيد؟ - هل هو داعية فوق المساومات؟ هل هو روح تسري في كل البقاع، هل هو رجل تطابق قوله مع عمله؟ هل هو زعيم يمتلك فراسة وخبرة؟ هل هو عطاء كامل لدعوته؟ هل هو الشجاع الصابر المؤدب؟ هل هو الرجل الواضح والعملي؟ هل هو الرجل

المتجرد؟ نعم هو كل هذا وليس شيئًا من هذا وحده.

ولكن قبيل هذا وبعده هو إنسان غير معصوم من الخطأ، واتخاذه قدوة واجب عظيم بشرط أن ندرك أن الجوانب الفذة في شخصيته، لا تكتمل الاستفادة منها إلا بإدراك تلك النقطة الهامة، وهو أنه إنسان اجتهد وهو غير معصوم خاضع للصواب والخطأ.

ملامح وجوانب من شخصية الإمام الشهيد

رجل متواضع – ملبس نظيف في تواضع – مسكن نظيف في تواضع – لم يكن بالفارع الطول – يلفت الأنظار بطوله وجسامته – كان أقرب إلى القصر منه إلى الطول – مليح القسمات، بعينيه بريق يلتمع فيه الذكاء. تسعد العين بالنظر إليه، وترتاح النفس بالقرب منه – ولكنها ملاحة الرجل التي يلتمس من وضاءتها الخير الكثير. ولم يكن – رخيم الصوت ولكنه واضح المخارج، عذب الإرسال، له في قراءة القرآن نغم خاشع يحملك إلى الاستماع إليه بكل حواسك، إذا تحدث ملك الأسماع وصمت المجلس كله، وإذا اعتلى المنبر فالفصاحة والبيان وعفة اللفظ وطُهر اللسان وجرأة الحق وثبات الجنان، يطول به الكلام في الخطبة الواحدة ساعات فيزداد الشوق في نفوس السامعين إلى المزيد، وألا ينتهي الكلام، لم تكن كتاباته ولا خطبه مُحلاَّة، ولكن ينطلق قوله كالسهم فيصل إلى غايته صدق القول، واضح الحجة قوي البرهان – لا تكلف ولا تصنع – تشعر وأنت تصغي إليه أن الأفكار تتزاحم على شفتي لسانه، وكأنه لسان الحر الصادق في رويَّة واتزان وتدفق[١].

كان يتتبع ويقتدي بالرسول ﷺ في سلوكه وفي حياته كلها. وكانت غايته هي إرضاء الله سبحانه وتعالى أولاً وأخيرًا – لم يسع إلى مال أو منصب، وإنما سعى إلى رضاء ربه والعمل على خُطى رسوله ﷺ – والتفاني في خدمة دعوة الإسلام وأمة الإسلام.

كان مدرسًا إلزاميًا – يحسن عمله ويحرص عليه – ويستغل كل وقته في العمل وفي الأجازة من أجل الدعوة الإسلاميَّة. تربى حسن البنَّا في أسرة بسيطة لأب كان يعمل بإصلاح الساعات – حصل على تعليمه الأوَّلي في قريته

(١) عمر التلمساني – حسن البنَّا أستاذ الجيل – دار النشر والتوزيع الإسلامية ١٩٨٤م.

«المحمودية» محافظة البحيرة – تلقى العلم لمدة ثلاث سنوات في معهد لإعداد المدرسين للمدارس الابتدائية في دمنهور ثم التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة وتخرج منها ١٩٢٧م حيث عمل مدرسًا في مدرسة ابتدائية حكومية بمدينة الإسماعيلية – نقل سنة ١٩٣٤م إلى القاهرة حيث عمل حتى عام ١٩٤٦م وبعد ذلك استقال وتفرغ للنشاط السياسي.

كان حسن البنّا قد انضم في أثناء دراسته بكلية العلوم إلى جمعية الشبان المسلمين وانضم إلى المجموعة التي تحرر مجلة «الفتح».

كان يحرص على نظافة ملابسه دون تكلف – فلم يكن يحرص على أناقة الملابس وزخرفها – وإن كان يحرص على التعطر وتمشيط الشعر. كان دائم التلاوة لكتاب الله تعالى – يقوم الليل ويكثر من الصيام.

وكان يمتلك ذاكرة قوية غير مألوفة في قوتها – إذا سأل أخًا عن اسمه مرة ثم التقى به بعد أشهر طوال حيَّاهُ باسمه وسأله عن والده وابنه فلان – وكان يعرف عدد شُعب الإخوان والمسئول عن كل شُعبة – وما كان ذاكرته تخونه أبدًا بل كانت تواتيه بالوقائع على وجهها الصحيح مهما تباعد بها الزمن.

كان يمتلك الحب لكل من يعرفه ومن لا يعرفه – كان مثالاً للحب لكل الناس مؤيدوه -- وأعداؤه على السواء لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا في الله. ولا يتخذ موقفًا شخصيًا أبدًا. بل كل موقف نابع من صالح الدعوة الإسلاميَّة وأهدافها.

كان لا يهدأ – وكان يتحرك في كل بلاد مصر – يجوب قراها ومدنها – نجوعها وكفورها لنشر دعوة الإخوان المسلمين واستنهاض هِمم الجماهير – يتحمل في ذلك الحر والبرد وينام على الطرقات لا يحمل معه إلا حقيبة جلدية ومصحفًا ومشطًا وزجاجة عطر.

كان رقيقًا من مشاعره – مجاملاً للناس بما يحبونه في غير تكلف ولا إطراء. لا يتصدر المجلس – ويجلس حيث يقضي به المجلس – وإذا صلَّى في المسجد لا يتقدم للإمامة.

وكان يُشعر المشايخ أنه تلميذ لهم – يخاطب الصغير منهم والكبير بأبرع آيات

الأدب والرقة والتواضع.

ما أحرجَ يومًا عالِمًا أو أوقفه موقف المخطِئ بل كان يسلك أسلوبًا هينًا لينًا مهذبًا مقنعًا.

كان صادقًا مع نفسه ومع الناس ما جرب عليه أحد كذبًا قط. كان يثق في الله ثقة مطلقة – ثم كان يثق في نفسه أيضًا بغير تعالٍ ولا غرور ولا غفلة ولا عنجهية – كان شجاعًا لا يخشى في الله لومة لائم.

***

يحكي الأستاذ عمر الأميري – الأستاذ بجامعة المغرب – أنه كان يحب الزهور – وكان يومًا في زيارة الإمام الشهيد وعلم الإمام الشهيد أن الأستاذ عمر الأميري سوف يسافر مع والده إلى الإسكندرية في صباح اليوم التالي في تمام السابعة صباحًا، وقبل أن يتحرك القطار بدقيقتين، إذا به يرى الإمام الشهيد يسرع الخُطى على رصيف القطار يحمل باقة من الورود الناضرة يقدمها تحية لوالد الأستاذ عمر، بمناسبة سفره إلى الإسكندرية.

ويحكي الأستاذ عمر التلمساني – يقول: «دعا أحد الإخوان الإمام الشهيد إلى الغذاء في قريته بالقرب من شبين القناطر وكنت محاميًا ومقيمًا في هذا البندر، وفي نفس الوقت كنت عضوًا في مكتب الإرشاد ولم يدعُني الدَّاعي مع فضيلته – وأحب المرشد أن يشعر الدَّاعي بتقصيره دون أن يحرجه وكان يرى وجوب وجودي في الوليمة دون أن يحرجني – فجاء من القاهرة في سيارة، وأوقفها في أحد ميادين البندر وأرسل من يستدعيني من المحكمة فوزعت قضاياي على بعض الزملاء، وأسرعت إلى حيث يقف المرشد الذي قال لي: اركبْ.. قلت: إلى أين..؟ قال: لتناول الغذاء عند فلان. قلت: ولكني لم أُدع وفضيلتك تعرف مدى حساسيتي في مثل هذا المجال.. قال: أعلم حقًا.. ولكني لا أستطيع أن أمر من شبين القناطر دون استئذان الأخ المسئول عنها فكيف تريدني أن أتخطاك..؟ فإما أن تركب وإما أن أرسل إلى الدَّاعي ليحضر ويدعوك معنا ».

ويعلق الأستاذ عمر التلمساني على ذلك قائلاً: «كان التصوير رائعًا

والدرس بارعًا، والتربية عالية والموقف دقيقًا – وكيف يستطيع الأخ مع هذه الرقة البالغة من مرشده الذي يقول: «إنني لا أستطيع اجتياز منطقتك دون اصطحابك في أي شأن، مَن يستطيع إلا أن يطيع».

في إحدى المرات صحبه أحد الإخوان يومًا إلى مؤتمر بالمنزلة دقهلية وبعد الفراغ من المؤتمر والذهاب إلى النوم دخل هذا الرفيق مع المرشد إلى حجرة بها سريرين وعلى كل سرير «ناموسية»، ورقد كل منهما على سريره، وأرخى ناموسيته، وبعد دقائق قال المرشد للأخ : أنمت يا فلان؟ وكان الجواب بالنفي، وتكرر السؤال.. وتكرر الرد، حتى ضاق الأخ فلم يرد على المرشد، وظن المرشد أن الأخ قد نام فتسلل من ناموسيته على أطراف أصابعه خارجًا من الحجرة وأخذ مداسه في يده وذهب إلى دورة المياه؛ حيث جدد وضوءه ثم اتجه إلى آخر الصالة حيث فرش سجادة وأخذ يتهجد، وكان المرشد لا يريد إحراج الأخ، فربما يضطر إلى التهجد موافقة لأستاذه، والأستاذ لا يرضى بإرغام الطالب على تنفُّل غير مفروض عليه.

– في إحدى المرات ذهب الإمام الشهيد إلى حفل في مدينة الزقازيق، وكانت الإضاءة بواسطة الكلوبات، وأثناء خطبته انحلت عُقدة أحد الكلوبات، فهوى إلى الأرض محشرجًا مدخنا يكاد ينفجر ولو انفجر وتعلقت النار بالحبل الذي انحلت إحدى فَرْدَتَيْهِ وبقيت الأخرى متصلة بسقف السرادق لكان الحريق مروِّعًا -- وهرول الجميع مبتعدين عن هذا الكلوب – وبكل البساطة وفي منتهى الهدوء وبالثقة الكاملة ترك المرشد المنصة، وأخرج مدية الجوَّالة وتقدم إلى الكلوب في غير هرولة وفصله عن السقف وحمله إلى خارج السرادق[1].

يقول الأستاذ عمر التلمساني «غاضبته مرة وانصرفت، وشعرت بخطئي فعدت في اليوم التالي معتذرًا؛ فلم يقبل وأمرني بالرجوع من حيث أتيت؛ فعدت كاسفَ البال ولكن لست ناقمًا لأننا موقنون بصواب تصرفاته معنا – وما راعني إلا أنني بعد عودتي إلى منزلي – أجده يدق بابي ومعه أحد الإخوان ويقول جئنا لنتغدَّى معك – هكذا يؤاخذنا وهكذا يسترضي بلا معقبات في

(١) عمر التلمساني – مرجع سابق.

النفس ولا رواسب في الصدر».

***

كان الإمام الشهيد شجاعًا – كان يقود المظاهرات وخاصة للتضامن مع الشعب الفلسطيني – ويوم أن خرج يقود مظاهرة من الأزهر لمناصرة فلسطين وأطلق الرصاص على المتظاهرين، وأصيب الإمام الشهيد في يده وظل في مقدمة المسيرة. ويوم أن أطلقت عليه سبع رصاصات أصابته كلها فنزل من السيارة متأنيًا ـ لا فزعًا ولا مضطربًا ـ وأمسك بتليفون جمعية الشبان المسلمين وطلب الإسعاف بنفسه.

وكان حسن البنَّا عفوفًا – ولم يجنح إلى جمع المال والاهتمام به. فلم يُعرف عنه أنه امتلك ضيعة أو عقارًا – بل إنه لم يمتلك حتى منزلاً طوال حياته ولا مسمارًا في شباك.

كان واضح العبارة قويّها – وكانت شعاراته بسيطة واضحة تصل إلى عقول الناس وقلوبهم بسهولة شديدة، كان يخاطب الناس بلغتهم وبما يفهمونه وبما يحسونه.

انظر إلى شعار الإخوان: «الله غايتنا، القرآن دستورنا والرسول ﷺ زعيمنا، الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا » لقد وضعه شعارًا لدعوته مثل «دعوة الحق والقوة والحرية».

كان حسن البنَّا شديد المروءة يعرف حق الطريق – يحكي أحد القضاة أنه كان في بلدته وفي طريق عودته إلى القاهرة وفي وقت متأخر من الليل فرغ البنزين من السيارة؛ فتوقفت على الطريق الزراعي في مكان بعيد عن القرى والضياع، وكان الظلام حالكًا ورهبة السطو تسيطر على المشاعر – وكان هذا القاضي كلما أشار إلى سيارة لم تستجب خوفًا من السطو والسرقة – وعندما أوشك ذلك القاضي على اليأس وأيقن أنه وزوجته سيبيتون على الطريق – إذا به يشير إلى سيارة فتقف، وينزل منها رجل يرتدي الزي الأفرنكي – ملتحٍ توحي ملامحه بالاطمئنان الكامل، وتحقق أمله، وقام راكب تلك السيارة بإعطائه البنزين، وطلب منه أن يسير أمامه بسيارته فربما احتاج شيئًا آخر – وعلم فيما بعد أن هذا الرجل هو حسن البنَّا.

رجل جاء على موعد

«لقد كان حسن البنَّا أمل الشرق في صراعه مع المستعمر».

روبير جاكسون
مؤلف كتاب «حسن البنَّا»
ترجمة الأستاذ أنور الجندي

نستطيع أن نقول إن حسن البنَّا كان مؤمنًا أشد الإيمان بفكرته – وأنه كان يثق بنفسه إلى حدٍ بعيد – وأنه جمع بين الإصلاح عن طريق الحكم وعن طريق التربية معًا، وأنه قد جمع حوله أكثر من نصف مليون من الأتباع المخلصين، نستطيع أن نقول إنه أفلت من غوائل المرأة والمال والحياة وهي المغريات الثلاثة التي سلطها المستعمر على المجاهدين، وقد فشلت كل المحاولات التي بُذلت في سبيل إغرائه، نستطيع أن نقول إنه أفاد من تجارب من سبقه من المجاهدين، وأنه أمضى حياته القصيرة العريضة مجانبًا لميادين الشهرة الكاذبة وأسباب الترف الرخيص، وأنه كان عجيبًا في معاملة خصومه وأنصاره على السواء، كان لا يهاجم خصومه ولا يصارعهم بقدر ما يحاول إقناعهم وكسبهم إلى صفِّه. وأنه كان يؤمن بالخصومة الفكرية ولا يحولها إلى خصومة شخصية.

ونستطيع أن نقول إن حياته وتصرفاته كانت تطبيقًا صادقًا للمبادئ التي نادى بها – وأنه رفض المساومة وأنصاف الحلول – وأنه كان عفَّ اللسان – عفَّ القلم متواضعًا تواضعَ من يعرف قدره – وأنه كان واقعيًا يفهم الأشياء على حقيقتها. وأنه جمع حوله من الأنصار من كل الفئات وخاصة العُمَّال والفلاحين والطلبة المثقفين – وأنه كان يجوب الحواري الضيقة والمدن والقرى والنجوع متحملاً مشاق السفر في غير كلل ولا تعب. وأنه استطاع أن يكوِّن أقوى تشكيل سياسي في الشرق في غضون عدة أعوام.

ونستطيع أن نقول إنه كان خارق الذكاء – يخاطب كل فئة بما تفهم وبما هي مستعدة له، وأنه كان قادرًا على الوصول إلى العقول والقلوب من أيسر طريق. نستطيع أن نقول إنه كان بسيطًا، ولكنه في نفس الوقت كان مُلمًا بكل ما حوله من رجال وعلوم وأحداث – وأنه كان كيسًا لبقًا في مواجهة كل أمر وكل حدث وكل أزمة، كان يعرف لغة الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السُنة – ويعرف لهجات الأقاليم في الدلتا والصعيد والصحراء، ويعرف تقاليد كل منها – كان يعرف لهجات الفلاحين والجزارين والفتوات – وكان يُحدِّث كل فئة بما يتفق مع ذوقها وفنها.

كان يلتهم كل شيء – لا تجد علمًا ولا فكرًا ولا نظرية جديدة في الأدب أو السياسة أو القانون أو الاجتماع لم يقرأها ولم يلم بها.

نستطيع أن نقول هذا وأكثر منه – ولكننا لا نستطيع أن نوفي الرجل حقه ما لم نعرف الأرضية السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافية التي واجهها والتي عمل في إطارها.

سقوط الخلافة الإسلاميَّة:

ظلت الخلافة الإسلاميَّة منذ عهد الخليفة الصديق رضي الله عنه وحتى أوائل هذا القرن – متصلة الحلقات ينتقل فيها مركز الخلافة من عاصمة إلى أخرى – وتكون قوية أحيانًا – ضعيفة أحيانًا أخرى – عادلة مرة – وجائرة مرة، إلا أنها في كل حال كانت رمزًا للرابطة التي تجمع المسلمين في شتى بقاع الأرض – وهذه الرابطة كانت من الأهمية بمكان لدرجة نستطيع معها أن نقول: إن الوحدة تحت راية الخلافة هي التي حفظت للأمة الإسلاميَّة هويتها واستمرارها وصمودها أمام مختلف التحديات.

وبعد الصعود الحضاري الأوروبي – تجلت أهمية الخلافة الإسلاميَّة العثمانية في الذود عن حياض المسلمين والإسلام وحفظ الأمة، والتصدي للهمجية الاستعماريَّة، ووضع العصا في عجلتها وتقليل آثارها التدميرية.

ولم يكن من الغريب أن تقوم الدول الاستعماريَّة بصنع المؤامرات ومحاولة

إجهاض تلك الخلافة، وتفكيك عراها وتحطيمها – لأن الاستعمار أدرك منذ فترة طويلة أن وحدة المسلمين تحت راية الخلافة هي أهم دروع الأمة في مواجهته.

كان شعور «الجامعة الإسلاميَّة» لدى شعوب المسلمين شعورًا قويًا سائدًا، وكان حب الخلافة والدفاع عنها من أركان الإسلام كما يقول مصطفى كامل. ولعل هذا الشعور المرتبط بالعقيدة كان صخرة قوية أمام المستعمر.

في ١٨ ديسمبر ١٩١٤م أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وأعلنت معها زوال السيادة العثمانية عليها. ثم أعلنت في اليوم التالي خلع الخديوي عباس وتولية الأمير حسين عرش مصر مع منحه لقب «سُلطان» استكمالاً لمظاهر انفصال مصر عن تركيا – وأقرَّ مجلس الوزراء في أول اجتماع له برئاسة السلطان حسين إلغاء وظيفة قاضي قضاة مصر التركي – وبذلك قطعت آخر علاقة بالخليفة.

ومع هذا ظل الولاء لدى المصريين موجهًا إلى الخلافة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلاميَّة، برغم إعلان الأحكام العرفية ووضع الصحف تحت الرقابة لكبت هذا الشعور. وقد تجلى ذلك الشعور عند المصريين في عدد من الحركات والمواقف منها امتناع طلبة كلية الحقوق عن الذهاب إلى كليتهم لاستقبال السلطان حسين في اليوم الذي حدد للزيارة «١٨ فبراير سنة ١٩١٥م» ومنها إطلاق النار على السلطان حسين عند مرور موكبه بشارع عابدين في ٨ أبريل سنة ١٩١٥م، ولم يمض على هذا الحادث شهران حتى وقع عليه اعتداء آخر في الإسكندرية، حين أُلقيت قنبلة من نوافذ أحد المنازل في شارع رأس التين على مركبته وهو في طريقه لصلاة الجمعة – كما أن وزير الأوقاف قد طُعن بسكين في محطة القاهرة في ٥ ديسمبر سنة ١٩١٥م – بل إن أحد الخدم في قصر عابدين حاول أن يحرق القصر على السلطان – كما أن المنشورات التي تندد بزوال السيادة العثمانية وإعلان الحماية البريطانية على مصر قد تفشَّتْ في كل مكان، ووجدت طريقها إلى القصر ذاته، كما أن بعض قبائل العُربان قد رفضوا أن يقسموا يمين الطاعة للإنجليز، وقام الضابط والجنود المصريون بالإسماعيلية

برفض إطلاق النار على إخوانهم الأتراك، واحتجبت صحيفة الشعب عن الظهور احتجاجًا على إعلان الحماية، ورفض أمين الرافعي إصدارها حين طلب منه السلطان حسين ذلك.

وفي أوائل الحرب العالمية الأولى قام جماعة من علماء الأزهر بحركة ضد الاحتلال لتأييد الخديوي عباس – وهتف الأزهريون للخديوي عباس حين شاهدوا أخاه محمد علي يؤدي صلاة الجمعة في مسجد الأزهر، وتكونت في مصر جماعة سرية في عام ١٩١٨م اتصلت بالسنوسيِّين للهجوم على الإنجليز في مصر، وقد حاربت جماعة من المصريين مع السنوسيِّين الزاحفين إلى مصر مثل عبد الرحمن عزام ومحمد صالح حرب.

ولعب محمد فريد في منفاه دورًا هامًا في تغذية الشعور بالولاء للخلافة والعداء للإنجليز.

وبفعل تلك المواقف والحركات وغيرها انفجرت ثورة ١٩١٩م بمجرد انتهاء الحرب العالمية الأولى – وظل العامل الإسلامي هو محرك الثورة ووقودها – إلا أن محترفي السياسة وأرباب الاستعمار استطاعوا أن يسرقوا نتيجة الثورة، وأن تتمخض تلك الثورة عن قيام حزب علماني هو الوفد، أسقط ولاء مصر للخلافة ونحا نحوًا يتسم باللاإسلاميَّة.

وفي الوقت نفسه – كانت دول الخلافة «تركيا» تعاني من فترات ومؤامرت بفعل دعاة الاستعمار وعملاؤه، وانتهت تلك الفتن والمؤامرات بسقوط الخلافة الإسلاميَّة عام ١٩٢٤م.

وبسقوط الخلافة الإسلاميَّة – كان المسلمون قد فقدوا أهم وأقوى حصونهم وأصبحوا في مهب الريح – بل وأصبحت حضارتهم كأمة مهددة – وانقلبوا إلى عدد كبير من الدويلات يأخذ بعضها برقاب بعض.

محاولة اجتثاث فكرة «الجامعة الإسلاميَّة»:

لم يكتف الاستعمار بالطبع بإسقاط الخلافة الإسلاميَّة باعتبارها أهم دروع الأمة الإسلاميَّة – ولكنه دأب قبل وبعد إسقاطها على محاولة اجتثاث فكرة

«الجامعة الإسلاميَّة» باعتبارها الفكرة القادرة على المحافظة على كيان الخلافة أو بعث الحياة فيها من جديد، ومحاولة جمع شمل المسلمين تحت قيادة واحدة مرة أخرى – ليس هذا فحسب بل إن هذه الفكرة ذاتها كانت المحرك الأساسي في مقاومة الاحتلال ورفض التشرب بروح الحضارة الأوروبية التي تريد تذويب أمتنا وإخضاعها وإلحاقها بها حضاريًا.

وقد استخدم المستعمر أبواقًا محلية لترديد أفكار لمناهضة تلك الفكرة – إلا أن تلك الأفكار ظلت محصورة لدى قليل من المثقفين – الذين حاولوا بث أفكار مثل الوطنيَّة بطريقة لا تثير حساسية المسلمين – وروَّجوا لكون الوطنيَّة لا تتعارض مع المفاهيم الإسلاميَّة.

وفي مطلع القرن العشرين ظهرت فكرة القوميَّة العربيَّة وقد لعب نصارَى الشام دورًا هامًا في ترديد ونشر تلك الأفكار وقد دعا هؤلاء إلى تأسيس دولة على أساس وطني لا على أساس ديني – كما سعوا إلى تأليب الرأي العام المصري ضد الأجانب وخاصة الأتراك رافعين شعار «مصر للمصريين» وغيرها من الشعارات التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. كما ظهرت الدَّعوات الفرعونية التي موَّلها الأجانب – وتلقت تلك الدَّعوات دعمًا قويًا من الحكام المرتبطين بالاستعمار، مثل الخديوي سعيد الذي أمر بأن تُلحن وتُغنَّى أغنية تتغنى بالوطنيَّة على أساس قُطري وليس إسلامي فقط كان قد ألفها «صالح مجدي» وأن تُغنَّى في المحافل والمواسم. كما ظهرت دورات للكتابة بالعامية. ولكن ظلت كل هذه الدَّعوات لا تجد لها صدىً لدى الجماهير وانحصرت في الأوساط المرتبطة بالاستعمار. وذلك بفضل تصدِّي الزعماء الإسلاميين، مثل السيد جمال الدين الأفغاني الذي هاجم هؤلاء الذين يتعصبون للفكرة الوطنية، ويحطون من شأن العصبية الدينيَّة ورماهم بالغفلة واتهم أبواق الاستعمار وسار على هذا النحو المشرف عبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش، الذين تصدُّوا للكواكبي حين دعا إلى فكرة الخلافة العربيَّة، وكذلك هؤلاء الذين دعوا إلى فصل السلطة الدينيَّة عن السلطة (الزولية) التي تبناها مؤتمر المبشرين الذي عقد في مصر ١٩٠٦، واستمر الاستعمار يغذي

الأفكار المنحرفة في محاولة لإلقاء الضباب على فكرة الجامعة الإسلاميَّة؛ فنجد أن أبواق الاستعمار مثل شبلي شيل. وعناصر حزب الأمة الذي أسسه الاستعمار أساسًا، وكذلك ما يُسمى بالحزب الوطني الحر - وصحف المقطم والمقتطف. ويُعد كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» هو أخطر الكتب وأكثرها جرأة في ذلك الوقت (١٩٢٥م) بمهاجمة فكرة الجامعة الإسلاميَّة والخلافة الإسلاميَّة على السواء.

ظهور الأحزاب الاستعماريَّة:

اعتمد الاحتلال على عدد من المؤسسات السياسيَّة والثقافية والاجتماعيَّة في تمرير سياسته، وضرب هوية الأمة وإخضاعها له. وفي هذا الصدد شجع كرومر قيام حزب من كبار الملاك وذوي المصالح المرتبطة بالاستعمار، وكذلك ظهر الحزب الوطني الحر كحزب عميل للاستعمار، وقد اتخذ هذا الاسم في محاولة لضرب الحزب الوطني - كما ظهر بعد نهاية الحرب وكنتيجة للمطالبة بالجلاء حزب الوفد الذي استغل الحماس الإسلامي للجماهير ومشاركتهم في الثورة - ولكنه تحول إلى حزب علماني - ونحَّى الفكرة الإسلاميَّة جانبًا. وقد تشابهت تلك الأحزاب برغم اختلاف زعمائها في كونها ترفض الجامعة الإسلاميَّة، وترى وجوب بناء الدولة على أسس وطنيَّة لا دينيَّة، كما أنها لم تأخذ الكفاح المسلح كطريق لتحرير البلاد من الاستعمار، بل كطريق للمفاوضات - ووصل الحد ببعضها إلى تأييد الاحتلال.

كما ظهرت أحزاب أخرى كانشقاق على الوفد، ولكنها لم تتميز عنه في هذا الإطار شيئًا. وهكذا كانت الحياة السياسيَّة في مصر قد بدأت تأخذ شكل مؤسسات سياسيَّة لا إسلاميَّة وتعتمد على برامج لا دينيَّة.

ضعف الحزب الوطني:

عقب ثورة ١٩١٩م - وبالرغم من أن الحزب الوطني قد لعب دورًا هامًا في الإعداد لها، وتزكية أُوارها، وبرغم الدافع الإسلامي الواضح للجماهير المشاركة في ثورة ١٩١٩م - إلا أن سعد زغلول وأضرابه استطاعوا أن يسرقوا

الثورة وأن يُجهضوا توجهها الإسلامي – بل وأن يستفيدوا من نتائجها في قيام حزب علماني كبير هو حزب الوفد – في الوقت الذي عانى فيه الحزب الوطني من موت مصطفى كامل ونَفي محمد فريد وسقوط الخلافة الإسلاميَّة، الذي كان ضربة قاصمة للحزب الوطني، الذي كان يركز مبادِئَهُ على دعم تلك الخلافة، ودعم فكرة الجامعة الإسلاميَّة، ولا شك أن الحزب الوطني قد لعب دورًا هامًا في تزكية الشعور بالانتماء الإسلامي، والوقوف في وجه التيارات الفكرية المنحرفة المرتبطة بالاستعمار – كما لعب دورًا هامًا في الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي والدفاع عن ارتباط مصر بالخلافة وصلاتها الإسلاميَّة القوية بغيرها من بلدان العالم الإسلامي – كما خاض الحزب المعارك الضارية ضد أرباب الفتنة الطائفية واستطاع أن يجهض كثيرًا من تلك الفتن. إلا أنه مع بداية العشرينات من هذا القرن كان الحزب الوطني قد أصبح ضعيفًا إلى درجة التلاشِي.

ظهور الأفكار التغريبيَّة وإفساد التعليم والقضاء:

قلت فيما سبق أن الأفكار اللادينيَّة مثل الوطنيَّة والقوميَّة وغيرها قد ظهرت بتشجيع ودعم كامل من الاستعمار، وقد اعتبرنا أن كِتاب «الإسلام وأصول الحكم» كان قمة تلك الأفكار وأكثرها وقاحة. ولم يكتف الاستعمار ـ بالطبع ـ بذلك بل راح يوعز إلى أتباعه بإنشاء مدرسة فكرية كاملة طالبت بالإضافة إلى ما سبق بإلغاء المحاكم الشرعية وتعديل قوانين الأحوال الشخصية، ونشر الأفكار المتحررة وخاصة في قضية السفور والحجاب ومجمل قضايا المرأة عمومًا وعلاقتها بالرجل والأسرة. وفي عام ١٩٢٦ أي بعد عام واحد من صدور كتاب علي عبد الرازق صدر كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» حاول فيه أن يشكك في بعض الحقائق التي وردت في القرآن الكريم – وفي نفس الوقت بدأ سلامة موسى في نشر أفكاره التي تنادي بالارتباط بأوروبا وأن الحضارة الحقيقية هي حضارتها – كما نادى بإلغاء دراسة اللغة العربيَّة وإحلال العامية محلها، وهاجم فكرة الجامعة الإسلاميَّة – وانضم إلى تلك الجوقة عدد آخر من المثقفين مثل إميل زيدان صاحب الهلال ومحمد حسين هيكل في جريدة السياسة لسان

حال حزب الأحرار الدستوريِّين – وأطلَّت الدعوة الفرعونية برأسها – وتمَّ تغيير المناهج في المدارس على يد المستشار الإنجليزي ليخدم هذا التوجه – كما تم استبدال القوانين الإسلاميَّة في المحاكم بالقوانين الفرنسية، وذلك في محاولة لقطع صلة مصر بكل ما هو إسلامي، أضف إلى هذا كله دخول بعض العادات والتقاليد الغربية إلى مجتمعاتنا مثل انتشار حانات الخُمور ودور البَغاء الرسمي وأوراق القمار واليانصيب، وخلعت بعض النساء حجابهن وكثرت حفلات الرقص في بيوت الأغنياء.

***

الحالة الاقتصاديَّة:

تعرَّضت مصر بفعل الاستعمار إلى عملية نهب منظَّم – وقد تمَّ ضرب وتصفية كافة أشكال الصناعة الوطنيَّة، وحاول المستعمر أن يربط مصر به اقتصاديًا عن طريق تغيير نمط الإنتاج والاستهلاك، بحيث يصبح كل نشاط اقتصادي مرتبطًا في تفصيلاته وكلياته بالعجلة الاقتصاديَّة الاستعماريَّة. كما أن إدارة الاقتصاد عن طريق النمط الغربي وخاصة البنوك الربويَّة قد أدى إلى مزيد من الفوارق الطبقيَّة – كما كانت الآلة الصناعية الاستعماريَّة تظلم العُمَّال، وتسبب البطالة لهم – واستطاع الأجانب وخاصة اليهود أن يسيطروا على النشاط الصناعي والتجاري – ومن ناحية أخرى تدهورت أحوال الفلاحين تحت ربقة الظلم الذي مارسه عليهم كبار الملاك.

التبشير:

لعب بعض الأقباط المصريين دورًا في تأييد الاحتلال – كما أنشأ الإنجليز وغيرهم من الدول الاستعماريَّة مدارس للتبشير، وقد قام الحزب الوطني بكشف مثل هذه الألاعيب مبكرًا فكتب أحد كتاب الحزب الوطني معلقة على ذلك في جريدة اللواء قائلاً: «أيها اللواء الذي طالما بسط علمنا – ومد إلينا حمايته وكان سيفًا مشهورًا على الدساسين والمنافقين – كيف صبرت الآن على قوم من الزعانف لا هم من المسلمين ولا هم من الأقباط، ولكنهم يدسون

الدسائس بين أهل الوطن الواحد – تنفيذًا لسياسة معينة يقصد بها التفريق وبذر بذور الشقاق.

ويعلق الشيخ عبد العزيز جاويش على ذلك قائلاً: «يسرنا توارد الكتب علينا من مثل هذا الكتاب – لأن في ذلك دليلاً على أن المسلمين المصريين متألمون تألمًا شديدًا من دس الدسائس بينهم وبين إخوانهم الأقباط، ويعتقدون كما نحن نعتقد أن عقلاء إخواننا بريئون من هذه الحركة التي تقوم بها آلات متأثرة بسياسة الاحتلال، ونقول في الختام إننا ما سكتنا عن هذه الحركة إلا استهانة بأمرها، واحتقارًا لشأنها واعتقادًا أن الأقباط بريئون منها».

وكان الاحتلال البريطاني يلعب على هذه النغمة دائمًا – فقام بإرسال «قرياقص ميخائيل» كممثل للصحافة القبطية إلى لندن لينشر في صحفها مقالات عن الخلاف بين المسلمين والأقباط – كما كان وراء انعقاد مؤتمر للأقباط في أعقاب حادث اغتيال بطرس غالي، من ناحية أخرى أغلق الاحتلال عددًا كبيرًا من المدارس وجعل التعليم بمصروفات غالية – في الوقت الذي انتشرت فيه مدارس الإرساليات التبشيرية ومستشفياتها ومؤسساتها الاجتماعيَّة – ولم يكتف المبشرون بمهاجمة العقيدة الإسلاميَّة في محاضرات عامة بل قاموا بالتقاط صبية من المسلمين، وردّهم عن دينهم مما أدَّى إلى ذعر واستفزاز الرأي العام المسلم.

***

إذن فقد كان مُنحنَى الحضارة الإسلاميَّة قد وصل إلى انحدار خطير – يهدد بزوال وانهيار تلك الحضارة من أساسها – كانت الخلافة الإسلاميَّة قد سقطت – وكان عملاء المدرسة الاستعماريَّة يحاولون اجتثاث فكرة الجامعة الإسلاميَّة، ويروجون لأفكار سياسيَّة وأخلاقية واجتماعيَّة منحرفة – وكانت الأوضاع الاقتصاديَّة متردية والفقر يضرب بقوة في أوساط العُمَّال والفلاحين – وكان التعليم والقضاء قد تم صبغهما بالصبغة الغربية – كما نشط المبشرون يعملون على قدم وساق. وقامت مؤسسات سياسيَّة علمانيَّة قوية مثل الوفد – وأحزاب أخرى مثل الأمة – الوطني الحر – الأحرار الدستوريين وغيرها – ونشطت صحافة عميلة للاستعمار، وكان الحزب الوطني قد غاب عن الساحة بسبب

ضعفه إلى حد التلاشي – وجاء حسن البنَّا ليجد كل هذا – لقد جاء على موعد.

***

في مواجهة الاستعمار

اعتبر حسن البنَّا، الإنجليز هم رأس البلاء ومصدر الشقاء، فالإنجليز هم الذين يقفون وراء كل فتنة ووراء كل شقاء، ليس لمصر وحدها بل للعالم الإسلامي كله. فقد رأى حسن البنَّا أن مظاهر التدهور في مصر في كافة نواحيها ترجع إلى تدبير الإنجليز، وأن سياستهم في ذلك تنبع من كره دفين للإسلام والحضارة الإسلاميَّة[1] وأن الإنجليز وراء الترويج لمذهب الشك والإلحاد ومحاولة مسخ التاريخ المصري والإسلامي حتى لا يجد المسلمون في تاريخهم ما يدفعهم إلى الاعتزاز والرفعة، فضلاً عن محاولة تأكيد فصل الدين عن الدولة، وتصوير الإسلام بصورة الدين الروحي والتعبدي، وشغل الناس بالأوهام وخلافات البيزنطيين وأساليب التواكل والذلة وطاعة الحاكمين والمستعمرين[2].

واعتبر حسن البنَّا أن الإنجليز وغيرهم من دول الغرب الاستعماريَّة العدو الأول للعرب والمسلمين؛ فالاستعمار الإنجليزي في مصر والسودان والعراق وشرق الأردن والإيطالي في ليبيا والاستعمار الفرنسي والأسباني في تونس والجزائر ومراكش والهولندي في أندونيسيا، كل ذلك لون واحد من العذاب، وهَمٌّ واحد نزل بساحة العرب والمسلمين، فاستذلهم بعد عزة وأضعفهم بعد قوة، وفرّقهم بعد وحدة وأفقرهم بعد غِنَى، وجهَّلهم بعد عِلم وأمرضهم بعد صحة ودنَّسهم بعد طُهر وعِفَّة [3].

(١) زكريا سليمان بيومي – الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية – مكتبة وهبة ١٩٧٩م.
(٢) مجلة الإخوان المسلمون – العدد ١٩١.
(٣) مجلة الدعوة – العدد ٨.

وكانت جماعة الإخوان ترى أن الإنجليز الذين خانوا في فلسطين – وهم الذين يحولون دون استقلال ليبيا ووحدتها وهم الذين يثيرون الفتنة بين الهند وباكستان وهم الذين كانوا يعارضون في تأميم البترول في إيران – هم الذين يريدون حل جماعة الإخوان في مصر.

وعلى أثر قيام ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الإنجليز – كشف البوليس المصري عن تحركات تغذيها جماعة الإخوان في مصر للقيام بثورة مصر ضد الإنجليز، وقد وجّد الإنجليز في هذه الأعمال مبررًا لكي تطلب من وزارة حسن سرّي الحد من نشاط الإخوان، واتهمت حسن البنّا بأنه يعمل لحساب إيطاليا، كما قامت قوات الاحتلال باعتقال حسن البنّا وأحمد السُكري وعبد الحكيم عابدين.

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية قامت جماعة الإخوان بالعديد من المظاهرات الصاخبة وطالبوا بإعداد الجماهير للكفاح المسلح ضد الإنجليز [1].

وفي أعقاب معاهدة ١٩٣٦م التي اعتبرت فيها الأحزاب الموقعة على المعاهدة أن الإنجليز حلفاء أو أصدقاء، دعت الجماعة إلى وجوب تصحيح ذلك المفهوم لدى جماهير المصريين، واعتبارهم أعداء ومحتلين وأن لا سبيل لإخراجهم إلا السّلاح [2].

وقد وضع الإمام الشهيد دعاءً يُتلَى عقب كل صلاة «اللهم رب العالمين وأمان الخائفين ومُذل المتكبرين وقاصم الجبارين تقبَّل دعاءنا وأجب نداءنا وأنلنا حقنا واستقلالنا. اللهم إن هؤلاء الغاصبين من البريطانيين قد احتلوا أرضنا وجحدوا حقنا ووطِئُوا في البلاد وأكثروا في الفساد – اللهم فرُدّ كيدهم عنَّا وفرّق جمعهم وخذهم ومَن ناصرَهم أو هادنهم أو أعانهم أخذ عزيز مقتدر – اللهم اجعل الدائرة عليهم وسُق الوبال عليهم – وأذل دولتهم – وأذهب عن أرضك سلطانهم ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من المؤمنين».

كما قامت الجماعة بتنظيم عمليات اغتيال في شوارع القاهرة لجنود الاحتلال

(١) زكريا سليمان بيومي مرجع سابق.
(٢) النذير العددين ٢٥، ٢٦.

البريطاني وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية – كما قامت عناصر الجماعة بدور هام جدًا وحيوي في قتال الإنجليز في ضفاف القناة، وخاصة عام ١٩٥١م – وقد فسر الإمام الشهيد حسن البنَّا سرَّ تكوين الجهاز الخاص وجمع السِّلاح بالاستعداد للتخلص من الجيش البريطاني [1].

***

كان من الطبيعي إذن أن يحدث الصدام بين الإخوان والإنجليز، فالإخوان قد حملوا على عاتقهم مهمة بعث الأمة الإسلاميَّة، وكان يقف على رأس أعداء تلك الأمة الاحتلال الإنجليزي، ومن الأمور الهامة هنا توضيح رؤية الجماعة للإنجليز؛ فقد رأت الجماعة أن الاحتلال ليس مجرد جيش احتلال ولكنه عملية حضارية أساسًا تستهدف كيان وحضارة الأمة – فنجد دوريات ومجلات الإخوان تركز على أن الإنجليز وراء كل المصائب – فهم الذين ينشرون الإلحاد، وأنهم يحاولون مسخ التاريخ الإسلامي، كما يروجون لفكرة فصل الدين عن الدولة، وأنهم وراء المحاولات التي تستهدف اجتثاث فكرة الجامعة الإسلاميَّة، وأن الإنجليز وراء التردي الاقتصادي والاجتماعي وسوء أحوال العُمَّال الفلاحين – وأنهم وراء بعثات التبشير ووراء مسخ مناهج التعليم وإغلاق المدارس وتغيير القوانين وغيرها – أي أن حسن البنَّا وجماعة الإخوان كانوا يرون الاحتلال عملية حضارية ذات أبعاد سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة.

ومن ناحية أخرى – لم يفهم الإخوان عملية الاستقلال كمجرد خروج جيوش الاحتلال من مصر – بل ربطوا ذلك بتحرير مجمل العالم الإسلامي وبناء نهضة تستند على الإسلام.

وفي مواجهة ذلك الاحتلال، نجد أن الإخوان وقفوا دائمًا إلى جانب الشعوب الأخرى في ثوراتها ضد الاستعمار، وكانوا يعدون العدة للثورة إبان ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق.

وقد حدَّد الإخوان موقفهم من الاحتلال بوضوح بأن السبيل الوحيد

(١) ريتشارد ميتشل – الإخوان المسلمون وإسحاق الحسيني – وعبد العظيم رمضان.

لإخراجه من البلاد هو السِّلاح، وقد عبرت عن ذلك صحف الإخوان ووسائلهم العملية أيضًا – فقد جمعوا السِّلاح وأنشأوا التنظيم الخاص وقاتلوا في القناة – كما قاموا بعمليات اغتيال ضد الجنود الإنجليز في شوارع القاهرة. في حين اكتفت الأحزاب الأخرى بالمهادنة أو التعاون مع الإنجليز أو في أحسن الأحوال إدارة الصراع معهم بالطرق التفاوضية والدبلوماسية.

إننا سوف نحلل الدُّعاء الذي كان حسن البنَّا وجماعة الإخوان تردِّده عقب كل صلاة. فهو أولاً دعاء يطلب من الله تعالى أن يحقق للبلاد استقلالها، وأن يدمر حضارة البريطانيين ودولتهم، وأن ينتقم مِمَّن والاهم أو عاونهم أو حتى هادنهم.

إذن فالدُّعاء موجَّهٌ إلى الله تعالى لطلب الاستقلال. ليس هذا فحسب بل وتدمير حضارة الغرب – أي أن البنَّا فهم أن الصراع بين حضارتين إما نحن وإما هُمْ -- كما أن الدُّعاء يشتمل على الانتقام من هؤلاء الذين يعاونون الاحتلال أو يوالونه أو حتى يقفون موقف المتفرج منه.

وبديهيٌ أن الدُّعاء يأتي عقب كل صلاة – أي خمس مرات في اليوم على الأقل – أي أن قضية الاستعمار كانت زادًا يوميًا بل قل لحظيًا لدى الجماعة. وبديهيٌ أيضا أنَّ الدُّعاء سوف يُترجم إلى عمل ويشحذ همة الدّاعي إلى تنفيذ مضمون الدُّعاء وذلك بدعوة الآخرين – أو جمع السّلاح أو التدريب عليه وأخيرًا قتال هؤلاء الغاصبين. كما حدث في القناة أو قبلها في شوارع القاهرة.

في مواجهة الغزو اليهودي لفلسطين

اهتم حسن البنَّا وجماعة الإخوان المسلمين اهتمامًا خاصًا بالقضية الفلسطينية منذ وقت مبكر – واعتبرتها الجماعة أهم قضية إسلاميّة مُدركةً الخطر اليهودي على الحضارة الإسلاميّة وأبعاد المُخطط الاستعماري بالتحالف مع اليهود. ويقول ريتشارد ميتشيل في هذا الصدد: «إن مشكلة فلسطين هي أكثر المشكلات الخارجية إلحاحًا وأهمية بالنسبة للجماعة».

وقد زار عبد الرحمن البنَّا (شقيق حسن البنَّا) فلسطين عام ١٩٣٥ والتقى

بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى في ذلك الوقت – وظهر دعم الجماعة واضحًا تجاه تلك القضية خلال عامي ١٩٣٦، ١٩٣٧ وكان البنَّا قد طالب في المؤتمر الثالث للجماعة المنعقد في مارس ١٩٣٥ – طالب بجمع المال لمساندة قضية العرب – وشكَّل لجنة للدعاية للموضوع عن طريق الصحافة والمنشورات والخطب، وتم تعزيز ذلك بالمظاهرات التي خرجت تؤيد الفلسطينيِّين، كما تم إرسال المؤن والمُعدات – ويذكر الأستاذ كامل الشريف أن المتطوعين قد أرسلوا لشد أزر الثورة العربيَّة في فلسطين عام ١٩٣٦.

كما أن الجماعة قد أرسلت رجالها إلى فلسطين للحث على مناهضة الصهيونية، وكذلك الخبراء والفنيين في شئون التدريب العسكري. ومن أبرز هؤلاء الفنيِّين محمود لبيب الضابط المتقاعد، وقد أُرسل إلى فلسطين للمساعدة في تدريب المجموعات المدنية تدريبًا عسكريًا. وفي عام ١٩٤٧م طلبت السلطات البريطانية منه ومن أعضاء آخرين مغادرة فلسطين – ويمكننا أن ندرك مدى الاهتمام الذي أولته الجماعة لتلك القضية إذا علمنا أن محمود لبيب كان نائب المرشد العام للشئون العسكرية.

وظلت مشكلة فلسطين محتفظة بخطورتها وحضورها السياسي لدى الجماعات، ومن خلال الإشارة الدائمة لها في الصحف والكتيبات والخطب والأحاديث العامة والاجتماعات الشعبية وفي المظاهرات – وعندما وصل المفتي الحاج أمين الحسيني إلى القاهرة عام ١٩٤٦م قادت صحيفة الجماعة حملة مناشدة ناجحة للحكومة، لمنحِهِ حق اللجوء السياسي، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية كان البنَّا على اتصال وثيق بالجامعة العربيَّة وأمينها العام عزام باشا صديقه القديم، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، وبعد صدور قرار التقسيم في نوفمبر ١٩٤٧م اشترك البنَّا مع بعض الشخصيات الإسلاميَّة، مثل صالح حرب من جمعية الشبان المسلمين، ومحمد علوبة باشا في تشكيل لجنة وادي النيل، لجمع المال والسِّلاح للمتطوعين الذين أصبحوا يجندون علنًا لإنقاذ فلسطين.

وفي أكتوبر ١٩٤٧م أصدر البنَّا أوامره لشعب الجماعة ببدء الاستعداد للجهاد –

وفي ٢٠ أكتوبر توجهت الكتيبة الأولى من مجندي الإخوان إلى الميدان وبالطبع كانت التعبئة السريعة ممكنة، نتيجة أن أعضاء هذه الكتيبة الأولى والكتائب الأخرى التي أرسلتها الجماعة كانوا قد دربوا بالفعل قبل ذلك في فرق الجوالة والجهاز السري، وقد قام متطوعو الإخوان بجهد كبير في القتال، وخاصة في النقب وفي الدفاع عن القدس وبيت لحم – كما قدموا مساعدات هائلة للقوات المصرية المحاصرة في الفالوجا.

ومن العجيب أنه برغم نجاح متطوعي الإخوان في القتال وخدماتهم الهائلة للقوات النظامية، وقيامهم بأروع أعمال البطولة – فإن الحكومة المصرية أصدرت قرارًا بحل الجماعة في ديسمبر ١٩٤٨م – وأصدرت الحكومة أوامرها لقوات الإخوان في فلسطين بالعودة إلى المعسكرات، وفي الصباح التالي وجدوا أنفسهم محاطين بقوات من الجيش المصري، ثم تمَّ إبلاغهم بقرار حل الجماعة [١] – وخيروا بين تسليم أسلحتهم والعودة إلى القاهرة وبين البقاء في إطار الانضباط العسكري للقوات النظامية، وقد وصلتهم أوامر من البنّا بتفضيل البقاء في الجبهة ولاءً للمهمة التي جاءوا من أجلها.

وعقب اتفاقية رودس وإعادة توزيع ونقل القوّات لحق هؤلاء الإخوان مصادرة أسلحتهم بإخوانهم في محنة القاهرة.



(١) انظر التفاصيل في كتاب : الإخوان في حرب فلسطين ، كامل الشريف.

حسن البنا نصير المستضعفين

يقول باجرات سيرانيان في كتابه «الوفد والإخوان المسلمون» ترجمة بشير السباعي – مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٨٦م – في ص٣٧ «كان كُل أعضاء الجمعية من العمال غير الماهرين والفلاحين الفقراء، وجزء صغير من المدرسين وذوي الرواتب المنخفضة، وكذلك الأشخاص العاملين في مجال الخدمات الخاصة ـ وكان المستوى المعيشي لهم منخفضًا للغاية – كما انضم إلى الجمعية طُلابُ المعاهد الدراسية المتوسطة والعالية والتُّجارُ الصغار والحرفيون وعدد من الضباط وكثيرٌ من الجنود – أما ممثلوا الطبقات السائدة فلم ينضموا إلى الجمعية، واتخذوا منها موقفَ الحذر».

وفي الواقع فإن الجماعة قد تأسست على يد ستة من العُمَّال في مدينة الإسماعيلية – كما انضم إليها عدد من عمال شركة قناة السويس – وطالبت الجماعة دائمًا بإنصاف العُمَّال ودفع الفقر والمرض، ونددَّت بما يلاقونه من اضطهاد على يد أصحاب الأعمال – وقد نشرت صحيفة الجماعة مقالاً لأحد العُمَّال أكَّد فيه أن انضمامه إلى الجماعة يرجع إلى خلو منهاج الأحزاب السياسيَّة من الاهتمام بقضاياهم مما جعلهم نهبًا للرأسماليِّين والسياسيِّين [١].

وعلى أثر قيام إضراب عُمَّالي – هاجمت الصحف الإخوانيَّة الحكومات المصرية التي لم تف بوعودها تجاه العُمَّال، وطالبت بسن تشريعات تتضمن إنصافهم [٢] واتهمت نفس الصحيفة في مقال آخر طبقة الرأسماليِّين بأنها تقف وراء الحكومة الجائرة على العُمَّال – وطالبت بالاعتراف بهم كطبقة لها شخصيتها الاجتماعيَّة، وكذلك بحمايتهم بضمانات اجتماعيَّة في الشيخوخة والعجز والضعف [٣].

(١) النذير – عدد ١٣ – شوال ١٣٥٧ هـ.

(٢) النذير – عدد ١٩ – ٦ – ١٩٣٩م.

(٣) النذير – عدد ١٠ – ٧ – ١٩٣٩م.

ووجهت صحف الإخوان نقدًا لقانون النقابات الذي صدر ١٩٤٠م لكونه قد حرّم تكوين اتحادات عمالية، كما حرَّم العُمَّال من حق الإضراب الذي هو سلاح العُمّال الوحيد في مواجهة بطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم[(١)].

كما تم عمل قسم خاص بالعُمَّال في الجماعة يعمل وفق لائحة معلنة – وحاول الإخوان إقامة نقابة عُمَّالية تستوحي أفكارها من دعوتهم، وقد حققوا نجاحًا نسبيًا في ذلك، وخاصة في قطاع النقل والبترول والنسيج – وخصصت مجلة الإخوان بابًا ثابتًا للعمال ناقشت فيه العديد من قضاياهم، وطالبت بكسر احتكار الرأسماليين وزيادة أجور العُمَّال والحد من البطالة.

كما اهتم حسن البنَّا اهتمامًا خاصًا بالفلاحين – ودأب البنَّا وكثير من أعضاء الجماعة على القيام برحلات أسبوعية إلى الريف – بل إن البنَّا كان يقضي أغلب أجازته الصيفية للدعوة بين الفلاحين، وقد تمكن البنَّا من خلال هذه الزيارات أن يفتح شُعَبًا عديدة لجماعته في القرى المصرية، وكان من أهم عوامل الدعوة في الريف إسهام أعضاء الجماعة في محو الأمية في هذه القرى فضلاً عن بروز دور الجوالة في مكافحة الكوليرا والملاريا [(٢)].

وقد اعتمد الإخوان في نشر دعوتهم في الريف على إلقاء المحاضرات، وتشييد المقابر للفقراء – وإطعام الفقراء على مستوى الشعب وإنارة القرى، وتوزيع زكاة رمضان ومصالحة المتخاصمين، وحماية الأطفال من التشرد بتشغيلهم وإنشاء المساجد والمستشفيات والمستوصفات [(٣)].

وكان رأي البنَّا والجماعة أن من أهم مظاهر الفساد في النظام الاجتماعي انقسام الشعب إلى: قلة مستغلة مالكة وكثرة مظلومة لا يملك معظمها شيئًا [(٤)].

كما نبهت الجماعة إلى خطورة الاعتماد على محصول واحد. وطالب الإخوان بتحديد الملكية الزراعية وتشجيع الملكيات الصغيرة.

---

(١) الدعوة – العدد ٣٠، ٢٨/ ٨/ ١٩٥١م.

(٢) زكريا سليمان بيومي – المرجع السابق.

(٣) د. إسحاق الحسيني – الإخوان المسلمين.

(٤) مجلة الإخوان المسلمون – عدد اغسطس ١٩٣٥م.

من ناحية أخرى اهتم البنَّا أيَّما اهتمام بالأحوال الصحية المتردية للطبقات المحرومة – فأنشأ عددًا من المستوصفات تابعة للشعب – كما أنشأ مستشفى لعلاج الفقراء وخاصة من أهل الريف بلغ عدد المتردِّدين عليه سنة ١٩٤٧م، ٥١,٣٠٠ مريضًا. كما اهتم حسن البنَّا بمقاومة الأوبئة وخاصة الكوليرا عن طريق فِرَق الكشافة – واهتم بمحو الأمية وإنشاء المدارس والأندية الرياضية في الشعب التي انتشرت في طول البلاد وعرضها.

الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي

اهتم حسن البنَّا – اهتمامًا كبيرًا بتأكيد وحدة العالم الإسلامي والدفاع عن فكرة الجماعة الإسلاميَّة – وكان يؤكِّد في كل خطبه وأحاديثه على ضرورة توحيد العالم الإسلامي وضرورة تحريره من ربقة الاستعمار. ولقد أفردت صحافة الجماعة صفحاتٍ كثيرة لمناقشة قضايا العالم الإسلامي ومشاكله – كما شُغل الإمام الشهيد بذلك دائمًا، على اعتبار أن الأمة الإسلاميَّة ترتبط ببعضها بعضًا برباط عضوي وثيق.

ففي شمال أفريقيا حرص الإخوان على مراسلة المجاهدين المسلمين في المغرب العربي مثل علاَّل الفاسي في المغرب وعبد الحميد بن باديس في الجزائر – ودافعت الجماعة دفاعًا مستميتا عن حق الشعب الأندونيسي في التحرر من ربقة الاستعمار، وايدت ثورات ذلك الشعب – كما شارك الإخوان في ثورة اليمن سنة ١٩٤٨م.

وتابعت صحافة الإخوان أحداث البترول في إيران في أوائل الخمسينات. ولعل ذلك كله يرجع إلى الأسس التي غرسها حسن البنَّا في وحدة العالم الإسلامي وارتباطه العضوي – على أن العمل الأهم في هذا الإطار هو ما قام به حسن البنَّا وجماعة الإخوان المسلمين من أجل القضية الفلسطينية.

ولعل ما يبرز اهتمام الجماعة بأحوال العالم الإسلامي قول الأستاذ عمر التلمساني في كتابه عن الإمام الشهيد «أن دار الإخوان المسلمين في مصر كانت مأوىً لكل المكافحين ضد الاستعمار فكان من نُزلائها بورقيبة – علاَّل الفاسي

- أمين الحُسيني - عليم الله صديقي من مجاهدي الهند - هواري بومدين وغيرهم، كما يؤكّد ذلك الأمر قول أهالي كشمير والهند عندما اشتدَّ بهم الضِّيق من ظلم الهندوك «سيأتي الإخوان المسلمون ويخلصوننا».

على أن أهم النقاط في هذا الإطار هو انتشار دعوة الإخوان المسلمين في كل بلاد العالم العربي والإسلامي بصورة لا تقل عن انتشارها ـ إن لم تزد ـ في موطن نشأتها «مصر».

اغتيال الإمام الشهيد

كان من الطبيعي أن تتربص كل القوى الاستعماريَّة وعملائها بحسن البنَّا – كان الاستعمار الإنجليزي يريد استمرار السيطرة على مصر وكان البنَّا وجماعة الإخوان تشهر السِّلاح في وجه ذلك الاحتلال. فمنذ عام ١٩٤٦م وصاعدًا كان من الشائع أن تنفجر القنابل في عربات نقل البريطانيين ومنشآتهم، وأماكن سكنهم في المدن، حتى تم جلاء القوَّات البريطانيَّة عنها، ثم في منطقة القناة بعد ذلك، وكان الإخوان المسلمون وراء ذلك – ولم يكتف الإخوان بمناشدة الإنجليز بالجلاء أو التفاوض معهم كالأحزاب الأخرى – ولكن الإخوان جمعوا السِّلاح وقاموا بالتدريب عليه وبثوا فكرة الجهاد لدى صفوف الأمة، واعتبروا الكفاح المُسلَّح هو الطريق الوحيد والطبيعي لتحرير البلاد من براثن الاستعمار. ففي يناير ١٩٤٨م تم اكتشاف ١٦٥ قنبلة ومجموعة من الأسلحة في بقعة منعزلة عند تلال المقطم – وصودرت جميعُها بعد معركة بين رجال البوليس وبعض شباب الإخوان المسلمين الذين كانوا يتدرَّبون في المقطم (١).

وفي الإسكندرية قام اثنان من الإخوان المسلمين بمهاجمة مجموعة من الجنود البريطانيِّين في أحد الملاهي الليلية وسرعان ما تم القبضُ عليهما، وحُكم عليهما بالسجن المؤبَّد مع الأشغال، وتم احتجاز حسن البنَّا، إلا أنه أُطلق سراحه لعدم توافر الأدلة – وقد ترتب على هذا الحُكم القاسي الذي أصدره القاضي أحمد الخازاندار بك أنْ أُغتيل فيما بعد على أساس أنه أمر بسجن وطنيٍّ كل جريمته أنه هاجم المحتل البغيض.

كما تم اكتشاف مخبأ للسلاح والمعدات في عزبة الشيخ فرغلي قائد كتائب الإخوان في فلسطين. وهكذا كان واضحًا أن جماعة الإخوان قد بدأت طريقها

(١) المصري ٢٢ يناير ١٩٤٨م.

العملي في الكفاح المسلَّح ضد الاستعمار الإنجليزي – أضف إلى هذا ذلك البلاء العظيم الذي أبلته كتائب الإخوان في حرب فلسطين، وقيام الإخوان بتجنيد المتطوّعين وتدريبهم على السِّلاح – وقد خاضوا معاركَ مُشرِّفة على أرض فلسطين – كما قاموا بجهد كبير في محاصرة النفوذ اليهودي في مصر – والدعاية للقضية الفلسطينية وتأييدها بكافة السبل والوسائل.

وكان من الطبيعي أن يصبح البنَّا، وتصبح جماعة الإخوان ـ وقد أصبحت ـ الخطر الأكبر والأهم، وربما الوحيد على مصالح الاستعمار الإنجليزي، ومن مصالح اليهود أن يصبح حسن البنَّا هدفًا للتصفية، وتصبح الجماعة عُرضة للضرب والمؤامرات من جانب الإنجليز واليهود.

أضف إلى هذا أن حسن البنَّا – استطاع أن يبني تنظيمًا دقيقًا بلغ عدد أعضائه حوالي ١/ ٢ مليون ووراءهم كل الجماهير في مصر.

وانتشرت شُعَب الإخوان في كل قرية ومدينة مصرية – كما امتد تأثير الإخوان إلى جميع الأقطار العربيَّة والإسلاميَّة. ولم يكن أعضاء الإخوان مجرد أعضاء عاديين بل كانوا يمتلكون التربية الروحيَّة الهائلة والطاعة والنظام والتدريب العسكري – أي أن الحركة أصبحت من القوة بحيث أصبحت خطرًا على النظام كله، وهكذا فإن كل القوى كانت تتربص بتلك الجماعة وبهذا القائد الدؤوب. يقول ريتشارد ميتشل: «كان الباعث على حل الجماعة في ١٩٤٨م الاعتقاد بأن الجماعة كانت تخطط سرًا للثورة»[١].

إذن فقد كانت الجماعة خطرًا على الإنجليز وعلى اليهود، وعلى القصر الذي بات يخشى من إطاحة الجماعة به وبنظامه الملكي وإقامة نظام إسلامي على أنقاض النظام القديم. وكان القصر قد أدرك مغزى أحداث اليمن التي قام بها الإخوان المسلمون للإطاحة بالنظام الملكي القديم فيها، وإقامة نظام دستوري يعتمد على الإسلام.

وفي هذا الصدد يروي الأستاذ عمر التلمساني في ص٤٥ من كتابه «حسن البنّا»: «أن ملك السعوديَّة عندما زار مصر حذَّر الملك فاروق من حسن البنَّا،

---

(١) ريتشارد ميتشل – الإخوان المسلمون.

وأكَّد له أن هذا الفتى خطر عليه، وأنه أشد خطرًا على الملوك والرؤساء من الجيوش المُجيّشة».

وعلى مستوى الأحزاب العلمانيَّة – كان حسن البنّا وكانت جماعة الإخوان خطرًا شديدًا عليهم – فقد كان منطق البنّا سهلاً ومُقنعًا – واستطاع أن يضم كل صفوف الشعب إلى جانبه لأن البنَّا أخذ من المواقف ما يؤكِّد إخلاصَهُ وإسلاميَّتَهُ، ولأن منطقه وبيانه كان مفهومًا للناس، ولأن الناس بفطرتها تعشق الإسلام وتهفو نفوسهم إلى كل ما هو إسلامي – وهكذا استطاع حسن البنَّا بحركته الدؤوبَة أن يحول تلك الأحزاب إلى أحزاب هامشية لا جماهير لها – بل أصبحت ديكورًا في مسرح العرائس الذي يضم الإنجليز والملك ورؤساء هذه الأحزاب، كان حسن البنّا وجماعة الإخوان خطرًا على القوى الموجودة في مصر. ومن ضمنها قوى الإقطاع والرأسماليّة، وكان حسن البنَّا يطالب بتحديد الملكية الزراعية وإنصاف الفلاحين من الظلم والقهر، وكان يسعَى لإنشاء نقابات عُمّالية، ويطالب بتحسين الأجور ويؤيد إضرابات العُمَّال المظلومين - وكانت الجماعة تقدم التعليم وتقوم بمحو الأمية وتقاوم الأوبئة، وتنشئ الأندية والمدارس والمستشفيات - وكل هذا يرفع مستوى الوعي لدى الطبقات الشعبية مما يجعلها خطرًا على تلك القوى.

كان حسن البنّا شوكة في عيون أعداء الحضارة الإسلاميّة – لقيامه وجماعة الإخوان بجهود جبارة في [illegible] تمسُّك الأمة بدينها [illegible] هويتها [illegible] وعرْض الإسلام قويًا ناصعًا قاطعًا على الجميع وبعْث الروح الإيجابية لقيم الحرية والجهاد والوحدة.

كان حسن البنّا، وكانت جماعة الإخوان خطرًا على كل التركيبة الاستعماريّة التي تضم جيش الاحتلال - والقصر - القوى الصهيونية -- الأحزاب العلمانيّة - مدارس التفكير الغربي – الإقطاع - الراسماليَّة – وغيرها. وقد أصبح واضحًا للعيان أن حسن البنَّا زعيمٌ مطاعٌ يمتلك قلوب وعقول جماهيره، وأن جماعته أصبحت تمتلك السّلاح والتدريب، وها هي قد حققت بطولاتٍ فذّة

على أرض فلسطين، وهكذا كان من الطبيعي أن تتحالف كل القوى لضرب الجماعة ومحاولة استئصالها.

وكان من الواضح أن الأسلوب التقليدي لضرب الجماعة لم يعُدْ يجدي - فالجماعة ووراءها كل الشعب أصبحت من القوة والوعي بحيث يصعب استخدام الأسلوب التقليدي في تصفية الجماعة.

كانت القوى الاستعماريَّة تعرف أنها أمام مجموعة من الحقائق كالتالي.

* جماعة قوية - متماسكة - موحَّدة - أفرادها مدربون تمتلك السِّلاح أو تستطيع امتلاكه، لها برنامج واضح يحظَى بالقبول الشعبي على أساس لغة الإسلام المشتركة بينها وبين الجماهير.

* قيادة فذة - نظيفة - ذكيَّة تمتلك مقومات هائلة في التحريك وفي الحسابات السياسيَّة.

* نظام منهار - فقدَ كل مبرِّرات وجوده - مع أزمة اقتصاديَّة وسياسيَّة واجتماعيّة طاحنة.

والنتيجة الطبيعية لكل هذا أن يقوم نظام إسلامي على أنقاض النظام القديم البالي، وكان على القوى الاستعماريَّة أن تعمل على منع تلك النتيجة الطبيعية وأن تطوّقها - لأنه يترتب عليها كثيرٌ من النتائج الخطيرة على مصالح الاستعمار، وعلى مستقبل دولة اليهود الناشئة في فلسطين، وهكذا دبُّروا بليل، وشتملت خُطتهم على عدة أبعاد، وأولها حَلّ الجماعة ومصادرة أموالها واعتقال أعضائها - مع عدم اعتقال حسن البنّا تمهيدًا لاغتياله. على أن يعقب ذلك استبدال للنظام البالي بنظام جديد، يحاول أن يلتف على المطالب الشعبية وتَبَنِّي بعض أماني الشعب، بشرط ألا يشترك الشعب في شيء من هذا؛ أي أن تتحقق تلك المطالب بإرادة قيادة النظام الجديد فقط في مقابل تسريح الشعب من العمل السياسي، وكبت اي رأي معارض أو حتى موافق، وإدخال الشعب في حلبة القمع والكبت لعزله عن المشاركة في بناء حياته - ليسهل بعد ذلك تصفية تلك المكاسب المزعومة - ما دامت قيادة النظام الجديد مُسيطَرٌ عليها من قبل أجهزة الاستخبارات الاستعماريَّة.

وهكذا أعدُّوا لتلك الخُطة الجهنميَّة – ففي ١٢ فبراير ١٩٤٩م دُعيَ حسن البنَّا على نحو غامض إلى لقاء بالمركز العام لجمعية الشبان المسلمين، وأُطلق عليه الرصاص وهو في الطريق خارجًا من المبنى، بينما كان يتأهب ليستقل إحدى سيارات التاكسي، ومات بعد دقائق قليلة في إحدى المستشفيات القريبة – وكان حسن البنَّا قد سبق له أن أخبر إخوانه – على نحو نبوئي أن عدم قيام الحكومة بالقبض عليه هو دليل رسمي على انتواء قتله – وأوضحت الأدلة التي ظهرت فيما بعد أن القصر كان وراء تلك العملية، وقد نفَّذها البوليس السياسي على يد رجال البوليس السياسي أحمد حسين جاد، والضابطين أحمد عبد الحميد ومحمود محفوظ، وأحد قيادات البوليس السياسي ويُدعى محمد الجزار.

ولكن هل كان القصر وحده وراء المؤامرة..؟ لقد كانت المؤامرة بما تبعها بعد ذلك أكبر من القصر ومن البوليس السياسي، كان وراءها القوى الاستعماريَّة والمنظمات اليهودية، وتحالف الإقطاع والرأسماليَّة.. كان وراءها كل من يتربص الشر بمصر وبالعالم الإسلامي.

وباغتيال البنَّا – كانت الدوائر الاستعماريَّة قد حققت أولى مراحل خطتها – فمما لا شك فيه أن التخلص من شخصية البنَّا بما لها من ثقل جماهيري وذكاء سياسي كان خطوة هامة – وكان من الطبيعي أن يحدث شيءٌ من الاضطراب في صفوف الحركة لاختيار خليفة البنّا – وفي مثل هذا الجو كان الاستعمار قد استطاع أن يمرر اتفاقية رودس – وأن تقوم قوى تابعة له بانقلاب عسكري في ١٩٥٢م – وأن تتم الخطة بالضرب المستمر للجماعة ونزع فتيل الوعي لدى الجماهير وتسريح الشعب من الحياة السياسيَّة في مقابل بعض الإصلاحات المحسوبة جيدًا.

لم تكن الرصاصات التي أطلقتها الأيدي الآثمة على الإمام الشهيد طلقات الموت، ولكنها طلقات الخلود والشهادة، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران] صدق الله العظيم.

والله غالب على أمره.



2

الباب الثاني

الجوانب السياسية في حركة الإمام محمود خطاب السبكي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

[إبراهيم]

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

[نوح]

حياة الشيط الإمام في سطور

- ولد الشيخ الإمام محمود خطاب السبكي في قرية « سبك الأحد »[1] بمحافظة المنوفية في التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٢٧٤ هـ الموافق أول يوليو سنة ١٨٥٨م.

- تعلم بالأزهر وحصل على العالمية في ٢٩ رجب ١٣١٣ هـ الموافق ١٦ يناير سنة ١٨٩٦م

- تزوج وأنجب عددًا من الأبناء هم:

- محمد

- أمين

- وخمسة من البنات.

- أسس الشيخ الإمام الجمعية الشرعية في غرة المحرم سنة ١٣٢١ هـ

- انتقل الإمام إلى رحمة الله تعالى يوم الجمعة ١٤ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ هـ

- خلفه في رياسة الجمعية ابنه صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أمين محمود خطاب، المدرس بكلية الشريعة – جامعة الأزهر.

- وبعد وفاة الشيخ أمين خلفه نجله الشيخ يوسف أمين خطاب، حتى انتقل إلى جوار ربه في ٣٠ من صفر سنة ١٣٩٦ هـ.

- وتم اختيار الشيخ عبد اللطيف مشتهرى إبراهيم رئيسًا للجمعية الشرعية وذلك عن طريق هيئة علماء الجمعية. وما زال الشيخ عبد اللطيف إمامًا شرعيًا للجمعية الشرعية منذ ١٣٩٦ – ١٩٧٦ وحتى الآن، حيث يعمل بهمة ونشاط لخدمة الإسلام والمسلمين.

---

(١) في خرائط المساحة اسمها سبك الأحد وحصتها وكفر العويضات وكفر الزارقة، وهي قرية تابعة لمحافظة المنوفية.

مقدمة

يمكننا أن نقول إن هناك نظامًا سياسيًا في الإسلام. فهذا من الأمور المعلومة من الإسلام بالضرورة. ولكننا لا يمكننا أن نقول إن هناك جوانب سياسية في الإسلام، أو بمعنى آخر جوانب دنيوية وأخرى أخروية. لأن الدين والدنيا في الإسلام شيء واحد. فكل حركة المسلم تدخل في الجانب الشرعي سواء كانت علاقات دنيوية أو أمورًا تعبدية. أي أن الإسلام ليس له جانب سياسي وآخر تعبدي. بل إن السياسة تدخل في كل صغيرة وكبيرة من حياة المسلم دنيا وآخره.

وإذا قلنا إن الشرائع السياسية والاجتماعية والاقتصادية تشكل سياقًا سياسيًا في الإسلام. فإن لها جانبًا تعبديًا أيضًا، فتلك الشرائع أولاً تنظم العلاقة بين العباد وهي في ذات الوقت تمثل عبادة، لأن تطبيق النظم الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية امتثالاً لأمر الله تعالى وبديهي أنها تحقق مصالح البشر﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]. إذن فتطبيق النظم الإسلامية يعد شكلاً من أشكال طاعة الله وبالتالي عبادة له سبحانه وتعالى.

وبالمثل فإن الجوانب التعبدية ذات بعد سياسي أيضًا فمن يقول لا إله إلا الله يعني في الوقت نفسه أنه لا حاكم ولا مشرع ولا مهيمن إلا الله تعالى. يعني في الوقت نفسه أن الله هو الأقوى، وبالتالي فمن الحرام أن يخاف ممن دونه. وهذه دعوة مباشرة للثورة ضد أي شكل من أشكال الظلم. ولا إله إلا الله تعني أن الله هو الرازق.. فلا محل للخوف على الرزق.. أو السكوت على ظالم بدعوى المحافظة على لقمة العيش وتعني أيضًا أن على الإنسان أن يبحث عن رزقه بطريق حلال فلا يسرق ولا يرتشي. أليس هذا سياسة......؟

والصلاة التي جعلها الإسلام فريضة على المسلمين. فهي أولاً اجتماع سياسي وخاصة في صلاة الجمعة.. وثانيًا هي تعني أن الإنسان لا يركع ولا

يسجد لغير الله. أليس ذلك مدعاة للعزة في مواجهة الظالمين...؟

والزكاة أليست شكلاً من أشكال العلاقة الاقتصادية والتضامن الاجتماعي ومسئولية المسلم على المسلم...؟

وصوم رمضان – أليس الصوم تدريبًا على رفض الإغراءات، وبالتالي فهو تدريب على بناء شخصية قادرة على رفض الرشوة والسرقة والمتاع الحرام...؟

والحج ـ أليس اجتماعًا سنويًا سياسيًا للمسلمين ـ لتبادل الرأي والمشورة ومعرفة حال بعضهم بعضًا...؟

إذن فالسياسة تدخل في العبادات، والعبادات تدخل في السياسة ـ ولا سبيل للتفريق بينهما فالتداخل شديد ـ وهذا هو الإسلام نسيج متكامل.

إذن فالحديث عن الجوانب السياسية في حركة الإمام خطاب السُبكي يدخل فيه كل حركة وسكنة من حياة الشيخ، فالعبادة تؤثر في السلوك السياسي للإنسان. والسلوك السياسي للإنسان يؤثر في العبادة – فضلاً عن أنه عبادة: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾.

ولكن لدواعي البحث سنقصر بحثنا على الجوانب السياسية المباشرة في حياة الشيخ الإمام، أو تلك الجوانب ذات الصلة المباشرة بمجمل جهاد الشعب المسلم في مصر ضد تحديات عصر الإمام التي عاناها الشعب المصري في مواجهة أعدائه.

الخلفية السياسية والاجتماعية والاقتصادية:

ولد الشيخ الإمام في أول يوليو ١٨٥٨ م – وتوفي في ٧ يوليو ١٩٣٣ – أي أنه عاصر عمليات الاحتلال الإنجليزي لمصر. ثم محاولة فصم مصر عن الخلافة الإسلامية العثمانية رسميًا بعد أن فصلت عمليًا – وكذلك عمليات الاستعمار ضد كل ما هو وطني، سواء بتغريب الثقافة والتعليم أو ضرب الصناعات الوطنية أو قمع الوطنيين.

وأهم من هذا وذاك محاولة فصم الإسلام عن الحياة وتشجيع الخرافات، وأشكال الوثنية المختلفة التي تبعد بالإسلام عن جوهره كدين فاعل وحيوى

وإيجابي، إلى مجرد طقوس ميتة لا حياة فيها.

وفي الوقت نفسه عاصر الشيخ حركات الجهاد الشعبي لعبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد، ثم انتفاضة الشعب المسلم في مصر في ثورة ١٩١٩، ثم سرقة الجهاد الشعبي على يد العلمانيين متمثلاً في ظهور الأحزاب العلمانية وخاصة حزب الوفد - وشهد الشيخ أيضاً المحاولات المبكرة لاغتصاب فلسطين بتواطؤ الغرب والشرق مع اليهود الأنجاس.



طرف من الجهاد السياسي للشيط الإمام

اعتقال الشيخ:

فرضت سلطات الاحتلال الإنجليزي رقابة على دروس الشيخ، وعلى ما يصله من رسائل، وخاصة ما يصل إليه من الخارج.

ويبدو أنهم اكتشفوا أن الشيخ الإمام تصله بعض رسائل من مسلمي الدولة العثمانية « تركيا» فأثارت شكوكهم، وخشوا أن يكون وراء ذلك قيام حركة في داخل مصر تستند إلى الجماهير تتخذ سبيلها لتقويض نفوذهم النامي في البلاد، لذا بادروا بالقبض على الشيخ الإمام في ١٩١٤، وتم تفتيش منزله بالقاهرة، ومنزل أسرته في سبك الأحد في وقت واحد.

ولبث الشيخ معتقلاً مدة دون أن يعرف أحد عنه شيئًا وكان يقدم له طعام السجن فلا يمسه ولا يقربه كلون من ألوان الإضراب عن الطعام أو الاحتجاج على اعتقاله.

ونقل الشيخ الإمام إلى سجن محافظة القاهرة بميدان أحمد ماهر « باب الخلق » وأصر الشيخ على ألا يأكل طعام الاحتلال، فسمح له بأن يأتيه الطعام من بيته. وأعلم ابنه الشيخ أمين خطاب برغبة الشيخ، فاستبشر الجميع بأنه ما زال في القاهرة وعلموا مكانه، فصار الطعام يصل إليه من منزله.

وظل كذلك حتى أتم في الاعتقال ثلاثة أشهر ثم أفرج عنه – فكانت فترة اعتقاله خلوة واتصالاً بالله رب العالمين. ومنع الشيخ الإمام من مزاولة نشاطه وحددت انتقالاته خلال فترة الحرب العالمية، أي بين ١٩١٤ – ١٩١٨، والدليل على ذلك أن محاضر اجتماعات مجلس الإدارة توقفت فيما بين سنة ١٣٣٢ هـ - ١٣٣٦ هـ، ولم يسمح أيضًا ببيان أسباب هذا التوقف في محاضر الجلسات[1].

(١) د. عبد العظيم حامد خطاب – لمحات من تاريخ الإمام الشيخ محمود محمد خطاب السبكي – دار الاعتصام ١٩٨٥.

إذن فهناك اتهام من سلطات الاحتلال للشيخ بأنه يتصل بالمسلمين من الدولة العثمانية « تركيا »، وأنه يسعى مع أتباعه لتقويض سلطة الاحتلال، وأنهم يشكون في وجود سلاح لديه أو لدى أتباعه.

ومجرد هذا الاتهام وهذا الشك يعطي الانطباع بأن الشيخ كان يسعى بوسيلة ما لاستعادة مصر إلى الخلافة الإسلامية – أو بتعبير آخر هو من دعاة الوحدة الإسلامية، وأن الطريق الأقصر إليها هو المحافظة على وحدة الخلافة العثمانية أيًا كانت عيوبها. وأن الشيخ كان مناهضًا للاحتلال الإنجليزي لدرجة أن تقوم سلطات الاحتلال باعتقاله لمدة ثلاثة أشهر.

ومن ناحية أخرى فإن الشيخ الإمام كان إيجابيًا في سجنه، واستخدم سلاح الإضراب عن الطعام كوسيلة من وسائل المقاومة داخل السجن. ولعل التفسير الذي قدمه الشيخ لإضرابه عن الطعام كان أروع من الإضراب ذاته، حيث قال إنه لا يذوق طعام الاحتلال. أي أنه هنا يقول لأتباعه: إن الاحتلال مرفوض جملة وتفصيلاً حتى في طعام السجون.....!!.

وهي دعوى لمقاومة الاحتلال بكل صوره، حتى أبسط صورة وهي سلاح المقاطعة؛ إنه يحرم على المسلمين الركون إلى الاحتلال ولو بأكل طعامه.

تأسيس الجمعة الشرعية – كتنظيم اجتماعي ذي نشاط سياسي:

في المحرم سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٢م أسس الإمام الجمعية الشرعية ووضع لها نظامًا أساسيًا، ولم يكن هناك نظام سابق لإنشاء الجمعيات.. ولكنه رغب أن يؤلف بين جماعته وينظم شئونها على أساس ثابت، وقصد أن يكون النظام الأساسي ملزمًا للجميع بنصوصه ومواده، وأراد أن يكتسب النظام الصفة الشرعية بأن يكون نابعًا من أعضاء الجماعة، فتقر مواده ولائحته ونظامه فدعا إلى اجتماع تأسيسي في الثاني من المحرم سنة ١٣٣٢ هـ.

وتقرر فيه أن يكون للجمعية مجلس يديرها يتكون من سبعة أعضاء، وسُمى هذا المجلس « اللجنة التحضيرية » ويجتمع أسبوعيًا في مقر الجمعية.

وقد اعتبر الوعظ والإرشاد أهم أغراض الجمعية، فاقتضى ذلك أن تشرع

الجمعية في اختيار وعاظ ومرشدين يقومون ببث التعاليم الدينية بين المسلمين بعد تزويدهم بالمؤهلات الضرورية للداعي إلى الله..

وقد عهد مجلس الإدارة « اللجنة التحضيرية » إلى فضيلة الإمام المؤسس مهمة اختيار الوعاظ وتدريبهم على الطريقة المثلى في تأدية مهمتهم السامية، واحترامًا لجماعية العمل وأخذا بمبدأ الشورى تقرر أن يؤخذ على هؤلاء الدعاة التعهدات بالتزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة[1].

كما تقرر أن تكون جلسات مجلس الإدارة أسبوعيًا، وتحدد الموعد بأن يكون ليلة الخميس من كل أسبوع، وتمسكت الجمعية بالتاريخ الهجري والتوقيت العربي، فكان الاجتماع في الساعة الثانية من غروب الشمس أدى بعد العشاء على ألا يزيد الاجتماع عن ساعتين إلا إذا دعت ضرورة لذلك.

ولما كان الاجتماع قد تحدد بيوم معين فقد رأى المجتمعون أن يكون حضورهم للاجتماعات بغير دعوة خاصة.. ومن يتخلف عن الحضور فعليه إخطار المجلس قبل انعقاده، ولا يجوز أن يجتمع المجلس أكثر من مرة في الأسبوع. وكانت محاضر المجلس تدون في سجل خاص ويكتفى بتوقيع أمين السر « أو كاتب الجلسة » أولاً.. ثم رأى المجتمعون أن يوقعوا على المحضر علامة على تصديقهم على قراراته عندما يتلى عليهم في الاجتماع الثاني.. ليتأكد الأعضاء مما تقرر فعلاً أنه مدون. ويبحثون عن وسائل تنفيذه وليطلع من كان غائبًا عن الاجتماع السابق على ما تقرر في غيبته.

وفي مطلع العام الهجري الثاني ١٣٣٢هـ تم انتخاب فضيلة الشيخ الإمام محمود محمد خطاب السُبكي رئيسًا بالإجماع وقبل حضرته الرياسة، وتقرر في هذا الاجتماع إقرار المبادئ التالية:

١- ألا يتخلف أحد من أعضاء مجلس الإدارة عن حضور الجلسات التي كانت تعقد أسبوعيًا.

٢- أن يعمل الجميع على النهوض بالجمعية وبذل كل غال ونفيس في تأييد

(١) انظر نص منشور الوعاظ في كتاب الدين الخالص - ج١ ص ١٥-١٧.

مبادئها.

٣- تضامن أعضاء مجلس الإدارة في كل شئون الجمعية وما يصدرونه من قرارات.

٤- أن تكون الصراحة التامة والدقة في البحث والمناقشة مع الأدب هدفًا أساسيا أثناء المناقشات.

٥- أن يكون مقر الجمعية في منزل فضيلة الرئيس بحي الأربعين بالكحكيين بمصر.

٦- طبع قانون الجمعية والتقدم به إلى الجهات المسئولة مع طلب تسجيل الجمعية.

٧- رفض المقترحات الشفوية، إذ لابد للعضو أن يتقدم باقتراحات مكتوبة [1].

إذن فنحن أمام تنظيم اجتماعي دقيق – نشأ على يد مجموعة من العلماء والجماهير بهدف إحياء سنن الإسلام ومبادئه – أي أنها لم تنشأ من النخبة الحاكمة، وإذا أدركنا أن الاستعمار كان يستهدف إذابة الشعور الإسلامي ليسهل عليه حكم مصر ويقطع صلتها بالعالم الإسلامي تمامًا – فإن مجرد قيام جمعية بهذا الطابع من قلب الجماهير هو في حد ذاته شكلاً من أشكال المقاومة للمستعمر.

ليس هذا فحسب- بل إنها جمعية ذات لائحة وقانون مطبوع ولها مجلس إدارة – أي أنها اصبحت هيئة لها اعتبارها.

وفي مثل هذه الظروف فليس من العجيب أن تعتبرها السلطة الاستعمارية خطرا عليها، وأن تعتقل الإمام الشيخ خطاب السُبكي أو تعطل اجتماعات الجمعية من الفترة ١٩١٤ – ١٩١٨، وأن تراقب بريد الشيخ وأن تتهمه بالعمل على إعادة مصر إلى الخلافة العثمانية، وأن تشك في إعداده لثورة مسلحة لمقاومة الاحتلال، وأن تفتش عن السلاح في بيته في القاهرة وفي سبك الأحد.

واذا كان قيام عمل منظم « جمعية » هو في حد ذاته مقاومة للاحتلال –

[1] د. عبد العظيم حامد خطاب – مرجع سابق

وشكلاً من أشكال التدريب على العمل المنظم وتعبئة طاقة الأعضاء والمتعاطفين في اتجاه معين.

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام - والأخلاق الإسلامية في حد ذاته - شكلاً من أشكال مقاومة الاستعمار باعتبار الاستعمار حالة حضارية في المقام الأول وباعتبار أن الخلق الإسلامي القويم ومحاربة البدع والخرافات والارتقاء بسلوك وعقل المسلم يجعل منه طاقة إيجابية في مواجهة الاستعمار، وباعتبار أن الاستعمار حريص على إذابة الشعور المتميز للمستعمرين - فإن قيام الجمعية بهذا الشكل يعد عملاً متقدمًا من أعمال المقاومة للاستعمار.

إننا هنا سنحاول أن نتتبع بعض أعمال الجمعية التفصيلية لننظر أثرها في الحياة السياسية التي عاصرها الشيخ.

إنشاء المساجد والمدارس:

يقول د. عبد العظيم حامد السُبكي -- في المرجع المشار إليه سابقًا ص ١٤٤:

«ومن الاتجاهات العلمية التي حققتها الجمعية بناء المساجد وتطهيرها ونظافتها وإعدادها للمصلين في كل وقت، وتنقيتها مما شاب غيرها من البدع، وجعلها مدارس للفقه والتعليم»، وألحق بها مدارس لتحفيظ القرآن الكريم.. ومدارس لتربية الناشئة، الأمر الذي دفع إلى أن تكون معاهد دينية أزهرية تعد الأجيال للمحافظة على دينهم وللكبار لتلقي دروس في التجويد والتعليم.

وقد ألحقت بأغلب المساجد مؤسسات منها:

١- دور للتدريب المهني للفتيات، وتعليمهن الحياكة بالتفصيل والتطريز، وذلك حتى يستطعن أن يتكسبن بدلاً من الاعتماد على المساعدات التي تقدمها الجمعية للأسر الفقيرة، مع تقديم المعلومات الدينية لهن عن طريق الدروس الدينية.

٢- مستشفيات ومستوصفات لعلاج مرضى المسلمين بأجور رمزية مع تيسير أسباب الفحص الطبي وإجراء العمليات الجراحية.

٣- فصول لتقوية تلاميذ المدارس لإعدادهم لدخول الامتحانات بالمجان

تشجيعًا لهم على ارتياد المسجد وتعلم أحكام الدين.

٤- إنشاء المعاهد الدينية وتربية الناشئة تربية دينية، وترتب على ذلك نمو الوعي الديني واستمساك كثير من الرجال بأهداف الدين والتحلي بحلية الشرع الشريف... مع النفقة في الدين وإرشاد الكافة إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

٥- إنشاء معاهد لتخريج الدعاة والمرشدين وفق دراسة منظمة يقودها معهد الإقامة للدراسات الإسلامية الذي يديرهن مجلس إدارة على مستوى عال وفق لائحة معتمدة، والدراسة فيه لمدة عامين يدرس الطالب فيه الفقه والحديث والتفسير والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي واللغة العربية والتربية الإسلامية والطب النبوي والهدى الإسلامي ومسائل السنة والبدعة والدعوة والدعاة والخطابة، وغيرها من ثقافة طلابه ويجعلهم أهلا للتصدي للوعظ والإرشاد في مساجد الجمعية.

٦- وقامت بعض الفروع بإنشاء دور للإسكان الإسلامي والإشراف الديني والتربوي على سلوك الطلاب وتنظيم دراساتهم ومراقبة سلوكهم مع اتصال تلك الدور بالمسجد حتى يؤدي الطلاب الصلاة مع الجماعة.

وهكذا استطاعت الجمعية أن تجعل المسجد محور الحياة - وهو الشكل الذي رسمه الإسلام للمسجد، ليجعل منه محور العمل الجماعي الإسلامي- وتعد هذه الإضافة وإحياء دور المسجد من الخطورة بمكان في المحافظة على حيوية الأمة وتميزها، وتحصينها ضد الذوبان الحضاري، خصوصًا أن ذلك تم في مرحلة هبوط حاد في منحنى الحضارة الإسلامية.

على أن الإضافة الأخرى التي أدتها الجمعية الشرعية – وهي تدريب الفتيات – تعليم الطلاب – محو أمية – مساعدة الأسر الفقيرة – تقديم العلاج بأجور رمزية – إنشاء المعاهد الدينية – إقامة مساكن – إعالة الطلاب.

كل هذا من خلال المسجد – أي أنها أقامت مؤسسات اجتماعية تحقق للمجتمع حياة مستقلة عن تلك الحياة المرتبطة بنظام الحكم السياسي المرتبط بالسلطة الاستعمارية. أي إقامة مقاطعة اجتماعية شاملة لسلطات الاحتلال.

وتعد هذه المؤسسات الاجتماعية مؤسسات بديلة للمؤسسات المرتبطة بنظام الحكم، وهي وسيلة هامة في قطع صلة المجتمع المحلي بالمؤسسات الاستعمارية من ناحية – وتقوية الترابط بين عناصر المجتمع من ناحية أخرى. وربط كل هذا الترابط بين عناصر المجتمع من ناحية أخرى. وربط كل هذا بالإسلام – عقيدة الأمة ودرعها الواقي ضد الاستعمار.

على أن لتلك المؤسسات دورًا مباشرًا في مقاومة الاستعمار. فالاستعمار أراد أن يزرع في التربة المصرية أفكاره وسلوكه ونمط تفكيره، واستخدم في ذلك أكثر من وسيلة منها الأحزاب السياسية العميلة. ومنها المؤسسات الاجتماعية المرتبطة به، وخاصة مؤسسات التبشير التي كانت – وما زالت – تمارس نشاطها من خلال المدارس – العلاج الطبي – المساعدات الاجتماعية – وغيرها من الوسائل.

ولعل حاجة بعض الناس إلى العلاج أو المساعدات كانت تدفعهم للجوء إلى تلك المؤسسات التبشيرية – وبالتالي فإن قيام الجمعية الشرعية بإنشاء مثل هذه المؤسسات يعد طريقًا رائعًا لمقاومة نشاط هذه الجمعيات.

أضف إلى ذلك أن قيام الجمعية بنشر الوعي الديني – ومحو الأمية – وتقوية الطلاب علميًا- بالإضافة إلى إنشاء معاهد للوعظ والإرشاد يؤدي إلى زيادة الرقي العلمي والديني للمجتمع المصري – وهي إحدى الوسائل الهامة في مقاومة الاحتلال حيث يحرص الاحتلال دائمًا على ضرب العلم والتعليم في الدول المستعمرة.

ضرورة تحكيم كتاب الله ورفض الاحتكام إلى القانون الوضعي. إعداد القوة المادية والمعنوية:

دعا الشيخ الإمام محمود خطاب السُبكي إلى ضرورة الاحتكام إلى كتاب الله تعالى ونبذ القانون الوضعي – وهذا يعني فضلاً عن أنه طاعة لله تعالى – رفض القوانين الاستعمارية والتمسك بالشريعة الإسلامية وبالتالي رفض الاستعمار، لأن الاستعمار يحرص على زرع قوانينه وأنماط سلوكه ليسلب المجتمع تميزه

وهويته، ويجعله نسخة مشوهة من حضارته.

جاء في كتاب « الدين الخالص » جـ ٥ ص ٢١٧ - ٢١٨ على لسان الشيخ الإمام « محمود خطاب السُبكي » في هذا الصدد:

« إن المسلمين الآن تحت سيطرة غيرهم، لأنهم لم يقيموا الدين كما أمروا فلم يتخلوا عن النواهي ولم يتحلوا بالأوامر - بل أفرطوا في تقليد الأجنبي في الضار دون النافع - قلدوه في أكل الربا وشرب الخمر وإباحة الزنا والتبرج وخروج النساء ... متحسناتهن في ... - قلدوهم في الحكم بالقانون الوضعي ونبذ القانون السماوي ولم يرتدعوا بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وتركوا ما أمرهم به مولاهم بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فخذلهم الله وسلط عليهم من لا يرحمهم، لأنهم تركوا الدين وراء الظهر.. فركنوا إلى الذل والهوان.. وذلك لأن الانتصار على الأجنبي خاص بمن نصر دين الله وتمسك به وسلك طريق النبي ﷺ.

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ فنصر الدين من الإيمان... ومن نصره نصره في الدنيا والآخرة.. ومن لم ينصره فقد باء بالخزي والذل والهون في الدارين ، والشيخ الإمام هنا يحدد بوضوح أن المسلمين وقعوا فريسة للاستعمار نتيجة تخليهم عن الإسلام، وشيوع أمراض الفرقة، ومحاكاة الأجنبي بينهم. والشيخ هنا يدعو إلى عدم تقليد الأجنبي كخطوة أولى في طريق المقاومة.

ليس هذا فحسب، بل إن الشيخ يدعو إلى عدم الاحتكام إلى القانون الوضعي، ويستدل بالآية الكريمة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذه الخطوة الثانية في مقاومة الاحتلال.

ولم يكتف الشيخ بهذا، بل هو يدعو دعوى صريحة إلى إعداد القوة واستخدامها ضد الاحتلال مستدلا بالآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ . وربط بين الإعداد المادي

بالسلاح وبين التمسك بالسلوك الإسلامي كنوع من التعبئة المعنوية والإعداد المعنوي للإنسان.

ولأن الشيخ كان رجلاً عمليًا يشفع قوله بالعمل – فقد قام بعمل مؤسسة بديلة للقضاء الوضعي، وهو عمل يتسم بقدر كبير من الإيجابية والذكاء – فقد نص قانون الجمعية الأول على أن يعاون مجلس الإدارة لجنتان:

إحداهما: لجنة المحكمين، وتكونت من سبعة أعضاء في بدء الأمر، ولكن رأى مجلس الإدارة زيادة عدد أعضاء هذه اللجنة إلى أحد عشر عضوًا، بحيث لا يصح انعقادها إلا بحضور سبعة أعضاء، ويختار لكل جلسة رئيس للاجتماع، وتقوم هذه بالتحكيم في المنازعات التي تقع بين الأعضاء وغيرهم، حتى لا يلجأ المسلمون إلى تحكيم القانون الوضعي في المحاكم، وحتى تبقى الألفة بين المسلمين وتكون قراراتها نهائية ما لم يظهر خطؤها جليًا [1].

المقاومة عن طريق الزيّ والسلوك:

يحرص الاستعمار في محاولة لقتل إيجابية المجتمع المستعمر وإفقاده تميزه في الهوية و الانتماء على نشر وسائل الفساد والإفساد. وتحويل أفراد المجتمع إلى مقلدين له في زيه وسلوكه. ولعل دعوة الشيخ إلى التمسك بالسلوك الإسلامي هي دعوة في نفس الوقت لمقاومة الاحتلال وإعادة الإيجابية والحيوية إلى المجتمع.

وكذلك تعد دعوة الشيخ إلى التمسك بسنة الرسول ﷺ بالنسبة لإعفاء اللحية، وارتداء الزي الأبيض والعمائم التي لا زر لها والعذبة المسدلة فوق الظهور شكلاً من أشكال المقاومة – وهذا أمر تعرفه كل المجتمعات المكافحة – فالمرأة الجزائرية كانت تقاوم الاحتلال بالتمسك بالزي الإسلامي.

وليس عجيبًا أيضًا أن يحرص كمال أتاتورك في محاولة قطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي وربطها بأوروبا أن يصدر قانونًا بمنع لبس الحجاب على المرأة ومنع لبس الطربوش على الرجل. إن الاستعمار وأذنابه يدركون هنا الآثار النفسية

(١) د. عبد العظيم حامد خطاب - مرجع سابق.

والمعنوية المترتبة على الارتباط بالزي الوطني.

المستشرقون يهتمون بالشيخ الإمام:

من الأمور المعروفة أن حركة الاستشراق ذات صلة مباشرة بالاستعمار وبالتالي فإن اهتمام المستشرقين بحركة الشيخ الإمام يعطي الدلالة الواضحة على ما لحركة الشيخ من خطر مباشر على الاستعمار.. وقد أثبتت دائرة المعارف الإسلامية أن الدكتور (شاخت) «أحد المستشرقين» سعى للقاء الإمام في مقر الجمعية. وكتب عددًا من الدراسات عن الشيخ والحركة[1]

تحقيق التماسك الاجتماعي للأسرة والمجتمع:

كان للدروس والمواعظ والتوجيهات الدينية التي كان الشيخ الإمام يقوم بها أثر كبير في إصلاح الفرد والأسرة، وتنبيه المجتمع إلى أخطار العصيان والفسق والاجتراء على حدود الله، ومحاولة إحياء الضمير الإنساني والإسلامي مما كان له أثر في منع كثير من الجرائم مثل حرق المزروعات في الريف والأخذ بالثأر.

وقد نهج الوعاظ نفس المنهج فأصلحوا بين العائلات المتخاصمة، وهذا كله كان يقلل من آثار الدعاية الاستعمارية التي تستهدف التفريق بين أبناء المجتمع «فرق تسد» ونشر وإشاعة الفسق والفساد حتى لا تظهر شخصيات سوية تقاوم الاستعمار.

مساعدة الشعب الفلسطيني:

برغم أن الهجمة الاستعمارية الصهيونية على فلسطين كانت في بدايتها، ولم يظهر خطرها في وقتها واضحًا. إلا أن الشيخ كان متنبهًا لهذا الخطر – وانطلاقًا من واجبه الإسلامي أدرك ضرورة مساعدة الشعب الفلسطيني.

فقامت الجمعية الشرعية بإرسال كمية من المنسوجات إلى بيت المقدس لتوزيعها على منكوبي فلسطين، فأرسلت الطرود بطريق سكة حديد مصر فلسطين وتلقى مجلس إدارة الجمعية رسالة محررة في ١٧ رجب ١٣٤٩هـ الموافق ٨ كانون الأول «ديسمبر» ١٩٣٠ م موقعًا عليها من رئيس المجلس الشرعي

(١) دائرة المعارف الإسلامية مترجمة عن الألمانية والإنجليزية – المجلد الحادي عشر – ص ٢٦٤.

الإسلامي الأعلى بفلسطين، وهو الشيخ محمد أمين الحسيني يشكر الجمعية على تبرعها وتضامنها مع العالم الإسلامي.

وفي الأربعينيات فتحت الجمعية مجالاً للتبرعات في مساعدة الشعب الفلسطيني. وكان أعضاء الجماعة يحملون الدفاتر في الأماكن العامة. وشاركت الجمعية في المظاهرات الصاخبة التي شهدتها القاهرة عقب الإعلان عن قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ مع غيرها من الجمعيات الإسلامية.

استخدام التقويم الهجري:

حرصت الجمعية الشرعية على النص في لائحتها الأساسية على استخدام التاريخ الهجري بدلاً من الميلادي – ولعل هذا هو أحد أشكال التميز عن الثقافة الاستعمارية، وبالتالي شكل من أشكال المقاومة.

سلاح المقاطعة الاقتصادية - بناء الصناعة الوطنية:

يعد سلاح المقاطعة الاقتصادية أحد أهم الأسلحة التي تستخدمها الشعوب في مقاومة سلطات الاحتلال - ويحرص الاستعمار دائمًا على ترويج منتجاته في البلاد المستعمرة، وهذه أحد أهم أهداف الاستعمار – وبالتالي فإن قيام صناعة وطنية عمل هام من أعمال القضاء على أهداف هذا الاستعمار – وكذلك رفض استخدام منتجاته.

ولقد مارس الشيخ سلاح المقاطعة الاقتصادية بعدة طرق – منها قيامه هو شخصيًا برفض تناول طعام المستعمر، وهذه دعوة - في حد ذاتها – لمقاطعة الأطعمة الاستعمارية. وكذلك فإن الدعوة إلى استخدام زي خاص وسمت خاص للرجل والمرأة متمشيًا مع الإسلام - يجعل أمر استخدام الأزياء الأجنبية وخطوط الموضة وغيرها من مستحضرات التجميل الأجنبية أمرًا مرفوضًا، وهو ما يعود بالخسارة الاقتصادية على بيوت الأزياء الغربية ومصانع الأقمشة والملابس الأجنبية.

ومن ناحية ثانية فإن الجمعية حرصت على إقامة صناعة نسيج وطنية، فقد نص قانون الجمعية الأول على أن يعاون مجلس الإدارة لجنتان – سبق أن تحدثنا

عن أولاهما – « الثانية » لجنة المراقبة وتتكون من خمسة أعضاء، ثم صارت تتكون من سبعة أعضاء ولها رئيسها ومهمتها النظر في أعمال الجمعية والاطلاع على دفترها وأعمال التشغيل لمصنع النسيج الذي أقامته الجمعية لاستثمار أموالها ومحاسبة الموظفين.

إذن فهذه لجنة اقتصادية أساسا. الأمر الذي يجعلنا نقول أن الجمعية اهتمت بالجانب الاقتصادي أيما اهتمام.

يقول د. عبد العظيم حامد خطاب – في كتابه المشار إليه سابقا:

« وقد عنى الشيخ الإمام محمود بهذا المشروع – فتحرى أن تكون الألوان ثابتة بإجراء تجارب على ثبات الألوان واستبعاد الألوان غير الثابتة، وعدم تشغيلها. كما اهتم بتجهيز أدق الأقمشة واستخدام أرفع الخيوط.

ولقد ظهر نجاح هذا المشروع وسده لحاجة المجتمع بدون خسائر تصيب الجمعية، إذ قام المشروع من أول الأمر بتصنيعه لدى الغير، ثم بواسطة موزعين يعرضون تلك المنتجات في محالهم مقابل عمولة نقدية ودون حاجة إلى فتح أماكن اعتماد وكلاء في أنحاء البلاد.

و[illegible] ربيع الأول أنشأت الجمعية مصنعا خاصا بها للنسيج اليدوي [illegible] تشغيل [illegible] مصانع قائمة [illegible] الإمام على تسجيل علامة على شكل هلال بداخله اسم الجمعية [illegible] نجوم وسجل في المحكمة المختلطة في مصر، وهي الجهة المسئولة [illegible] الاختراع وحقوق المبتكرين.

وصارت تلك العلامة التجارية تطبع على تلك المنتجات.. وأعدت الجمعية في مقرها ١٠ عطفة الشيخ السُبكي « الجوخدار سابقا » بشارع الخيامية معرضا لعرض تلك المنتجات وبيعها، ومع بقاء البيع لدى الوكلاء في أنحاء القاهرة وبلاد الأقاليم المصرية..

اعتبر المعرض بمقر الجمعية مركزًا رئيسيًا للتوزيع والبيع للأفراد، وقد نشرت الجمعية في الصحف والمجلات المحلية عن تلك المنتجات، وتطوعت احدى

الصحف اليومية أن تنشر مجانًا إعلانات عن تلك المنسوجات.

وبلغ من شهرة تلك المنسوجات وجودتها أن اقترحت مصلحة الصناعة والتجارة المصرية على الجمعيات وأصحاب مصانع النسيج المصرية أن يوافوا قنصل مصر بجدة بجارة الشوام بعينات من مصنوعاتها المختلفة مع بيان مقاساتها وأثمانها وعناوين تلك المؤسسات القائمة بهذا النوع من النشاط الصناعي.

وبالفعل أرسلت عينات من منسوجات الجمعية إلى القنصلية المصرية في جدة، لتعرض فيها على المهتمين بشئون التجارة والصناعة بها »[١]

وتعدى حديث تلك المنسوجات حدود البلاد المصرية فأفاد أحد المدرسين بحيفا وملحقاتها بفلسطين أنه قد افتتح محلاً لتوزيع تلك الأقمشة.

وبقيت تلك المنسوجات قائمة حتى سنة ١٣٨٤هـ إذ أبدت وزارة الشئون الاجتماعية اعتراضها على هذا النوع من النشاط على أساس أن ذلك يعرض أموال الجمعية إلى الخسارة، ولا يجوز للجمعيات أن تحتفظ بأرصدتها في مشروعات محتملة الخسارة.

والواضح أن الشيخ الامام اهتم بإقامة هذه الصناعة، وراعى أن تكون من الجودة والإتقان بمكان، وواضح أنها حازت نجاحًا ولاقت رواجًا، ونحن نشم رائحة السلطة الأجنبية في الإيعاز إلى وزارة الشئون الاجتماعية لوقف هذا النشاط الهام.

ويرجع ذلك إلى أن قيام صناعة وطنية يشكل خطرًا كبيرًا على الاستعمار ويضربه في أحد أهم أهدافه، فما بالك والأمر مرتبط بصناعة النسيج التي تعتبرها إنجلترا حكرًا عليها، وتعتبر مصر مزرعة للقطن لتلبية حاجات مصانعها.

إذن فصناعة النسيج في مصر تشكل خطرًا مباشرًا على المصالح الإنجليزية، وهكذا كان قرار وزارة الشئون الاجتماعية ضربة موجهة ليس إلى الجمعية الشرعية فحسب، ولكن لحركة النضال الوطني في مصر ككل.

ولعل في حيثيات إيقاف تلك الصناعة التي أوردتها وزارة الشئون الاجتماعية

---

(١) سجل محاضر جلسات مجلس الإدارة حـ١ ص ١٩٤.

ما يؤكد هذا المعنى – فقد ادَّعت أن هذا لصالح الجمعية منعا لاستثمار أموالها في مشروعات محتملة الخسارة – في حين أنها كانت صناعة تحقق مكسبًا كبيرًا للجمعية.

وبالإضافة إلى ذلك استهدفت الوزارة وفقًا لخطة سياسية مرسومة أن تقلص أي نفوذ اقتصادي للجمعيات الإسلامية، بهدف إخضاعها أولاً وتسهيل مهمة ضربها ثانيًا خاصة وأن ذلك الوقت ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م كان ذروة ضرب الاتجاه الإسلامي في مصر على يد حكومة عبد الناصر.

رفض التعامل مع البنوك الربوية:

يقول: د. عبد العظيم خطاب السُبكي- في مرجعه المشار إليه سابقًا:

« وكان فائض إيراد الفروع يرسل إلى الجمعية الشرعية بالقاهرة ليحفظ لدى أمين الصندوق في خزانة خاصة دون إيداعها في مكاتب البريد خشية اختلاطها بالأموال الربوية وبعيدًا عن الشبهات في هذا المجال »

ويعد هذا السلوك تفكيرًا مبكرًا في إقامة مؤسسات بنكية بديلة عن تلك البنوك الربوية المرتبطة بالنظام الاقتصادي العالمي الظالم والمصمم لخدمة أهداف الاستعمار.

تفكير نقابي مبكر:

يقول د. عبد العظيم حامد خطاب – مرجع سابق: « نشأ التفكير في إنشاء جميعة تضم العاملين بالسنة ليتكاتفوا ويتضامنوا لتأمين حياتهم ضد البطالة والعوز والحاجة، فكان أن وجدت الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، في وقت لم تكن قوانين العمل تعطي العامل أي حق، ولم تكن ثمة نقابات أو هيئات تحفظ على العامل حقه أو تنصفه إذا ما التجأ إليها ».

أليس هذا تفكيرًا مبكرًا في العمل النقابي – والنواة الأولى للعمل النقابي للعمال.

❊ ❊ ❊

مقال الأستاذ أحمد حسين مؤسس « مصر الفتاة » في مجلة « الاعتصام » عدد

ذي الحجة سنة ١٣٩٥ هـ، عن الجمعية الشرعية ومؤسسها: « إني أتصور أن حركة «السُبكية» كما كانت تسمى نسبة إلى مؤسسها المغفور له الشيخ محمود خطاب السُبكي هي أحد ردود فعل مصر الإسلامية ضد الاحتلال الإنجليزي - لقد كان الاحتلال الإنجليزي لمصر صدمة مدوخة - فلأول مرة وجد مسلمو مصر أنفسهم محكومين بقوة أجنبية غير إسلامية.

ولقد أخرج هذا الشعب من صفوفه من راح يحاول وضع يده على سبب هذه النكبة، فذهب البعض إلى أن السر فيها يرجع إلى قلة التعليم - فاندفعوا يبشرون بوجوب نشر التعليم وفتح المدارس. وقال آخرون: إنما هو انعدام الوعي السياسي، فراحوا ينشئون الأحزاب ويصدرون الصحف.

وقال ضمير الشعب المعن في الإيمان أن السر كل السر هو في انحراف المسلمين عن دينهم، وأنهم لو تمسكوا بما كان عليه السلف الصالح، وعضوًا بالنواجذ على قول نبيهم « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي**».

وهكذا كان الشيخ محمود خطاب السُبكي ترجمانًا لمشاعر الشعب وتعبيرًا عن إراداته في النهوض والإصلاح والتحرير عن طريق العودة إلى الإسلام عند منابعه الأولى، ذلك هو تصوري العام لقيام الشيخ محمود خطاب.

إن الذي أتصوره في عمل الشيخ محمود أنه أنشأ ما يمكن أن نصفه بأنه مزرعة روحية لإعادة مجد الإسلام عن طريق اتباع الكتاب والسنة كما طبقها السلف الصالح، وسرعان ما ازدهرت هذه المزرعة وبدأت تؤتي أكلها، فراحت تقدم للمجتمع المصري أروع النماذج والمثل في شتى أنواع الأنشطة.

فعندما قامت ثورة ١٩١٩ هذا الحدث العجيب الذي حطم كبرياء الإنجليز وجبروتهم، مما استرعى الانتباه إلى الدور العظيم الذي قامت به ورش عنابر السكة الحديد - وقد تكشفت الأيام عن أن قائدًا عماليًا من أعظم من عرفت مصر كان هو الشيخ أحمد جاد الله، والذي أعدم فيما بعد لاتهامه في حادث مقتل السير لي ستاك الإنجليزي وعشرات الإنجليز من قبله، ولم يكن الشيخ أحمد

جاد الله إلا عضوًا من أصدق أعضاء « الجمعية الشرعية ».

ما زالت ذاكرتي تحمل الانطباعات المنقوشة في نفسي عن صلاتي للجمعة في المسجد الكبير للجمعية الشرعية، ففي حياة الشيخ الكبير وقبل اشتغالي بالمسائل العامة جذبني لصلاة الجمعة في مسجد الجمعية الشرعية كثرة ما قيل عنها وأشيع من أنها شيء فذ ومثير، وأشهد أن ما رأيت وسمعت وعاينت كان أكبر بكثير وأعظم وأروع من كل ما قيل وأشيع.

إذ لا تكاد تقترب من مسجد السُبكية كما كان يسمى، حتى تشعر أن بُعدَي الزمان والمكان قد سقطا. وأنك أصبحت في أحد أحياء مدينة إسلامية من مدن صدر الإسلام. وأدع الأدباء والفنانين والشعراء أن يرسموا صورة لهذا الجو العبق بالإيمان والبعث لمسلمي الصدر الأول بأيدٍ مصرية.

على أن حقيقة واحدة من حقائق هذا المجتمع الإسلامي السلفي لا بد من ذكرها ليعلم أبناء الجمعية الشرعية أن مؤسس حركتهم في هدوء وصمت. كان قد وضع يده على أقوى سلاح للتحرر والانعتاق من سيطرة الاستعمار بدعوته إلى ارتداء الملابس المصرية بأيد مصرية.

بعد ثورة ٢٣ يوليو:

وكان ما كان بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥ وحلت الأحزاب، وتوقف كل نشاط سياسي، وقبعنا في عقر دورنا ولذنا بالصمت، وهنا تجلت حكمة مؤسس الحركة الشرعية عندما جعل مهمته قاصرة على إصلاح النفوس وتربيتها وتهذيبها عن طريق اتباع السنة، وخاصة في تأدية الصلاة فقد مكنها هذا الأسلوب من البقاء والاستمرار وسط جو الأعاصير والزوابع التي عصفت بكل شيء.

مشاركة أعضاء الجمعية الشرعية في الكفاح ضد الاستعمار

لا شك أن هناك علاقة ثابتة بين التمسك بالإسلام - وبين الإيجابية في الحياة. ولاشك أن التمسك بأخلاق الإسلام تجعل من المرء شخصية قوية وسوية وقادرة على المواجهة والرفض. ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة في قليل أو كثير إذا قلنا أن كل حركات المقاومة الحقيقية للاستعمار في مصر خرجت من عباءة

الإسلام.

وكان هناك نهجان لمواجهة المستعمر: أحدهما: مواجهته بالبندقية والانتفاض ومقاطعة بضائعه وأخلاقه وسلوكه، والتمسك بالجذور العقائدية والسلوكية لأمتنا.

والثاني: يتمثل في الاندماج في الحضارة الغربية – سلوكا وفكرًا وحكمًا واستخدام المحافل الدولية والتوازنات الدولية – وأسلوب المفاوضات في محاولة للحصول على الاستقلال.

وبالطبع انحاز إلى المنهج الأول كل المجاهدين الشرفاء والأحزاب الراديكالية والجماعات التي تستلهم الإسلام – مثل الحزب الوطني (حزب مصطفي كامل) – الجمعية الشرعية – الإخوان المسلمين – مصر الفتاة.. إلخ. وانحاز إلى المنهج الثاني الأحزاب العلمانية مثل الوفد – اليسار – أحزاب الأقلية.. إلخ..

وكان من الطبيعي والحالة هذه أن يجد رجال الجمعية الشرعية أنفسهم مشاركين في الكفاح المسلح وغير المسلح ضد الاستعمار الإنجليزي. وسوف نقدم هنا نموذجين لذلك الكفاح وتلك المشاركة.

مشاركة المجاهد إبراهيم موسى في عملية اغتيال السردار

إبراهيم موسى هو أحد أبناء الجمعية الشرعية – وكان من ضمن عمال العنابر وبقي بها حتى ضبط المتهمين في عملية اغتيال السردار وقد ثبت من التحقيق أنه اشترك في أكثر من عملية فدائية ضد الوجود الإنجليزي في مصر منها عمليات الاعتداء على المستر كيف وبيجوت وبراون بالجيزة وكذلك بعض المتعاونين مع الاحتلال مثل حسين عبد الرازق باشا وإسماعيل زهدي بك.

ومن باب الصدف أن نمرته في العنابر هي ٦٨٨ وهي توافق نمرة السيارة التي ركبها المتهمون بعد تنفيذهم الحادثة.

وقد ظهر نشاطه كمهيج سياسي بين عمال العنابر في عام ١٩١٤، وفي ١٩١٩ كان أحد زعماء العمال في الإضراب.

وكان مشهورًا بشجاعته وجرأته، وكان دائمًا يفخر بأنه لا يخشى الرصاص

ولا يهاب أحدًا، مما جعل تأثيره كبيرًا على العمال.

وقد انتخبه عمال العنابر أمينًا لصندوق النقابة فكان يجمع الاشتراكات منهم، كما أنه انتُخب ليكون مندوبًا عنهم.

وقد اشترك في إضراب العمال في سنة ١٩٢١ كزعيم من زعمائه، وبسبب هذا الإضراب أوقف عن العمل مدة ١٥ يومًا وأُنذر بالطرد من الخدمة[١].

وفي أثناء عملية تنفيذ حكم الإعدام بعد صدوره على المجاهد إبراهيم موسى، ظهر المجاهد قويًا، وطلب أن يرى أهله وأولاده، وصرح بأنه عليه خمسة جنيهات لأحد أصدقائه وهو محمد بيومي وثلاثة جنيهات لشركة المخابز، وقال أنه يدين مصلحته ببعض المبالغ وأنه يطالب بإعطائها لأمه.. ثم قال: « أنا قلبي مطمئن بالإسلام» وطلب تسليم جثته لأهله وأن يدفن بقرافة المحمدي، وأوصى أن يكون الوصي على أولاده ابن خالته الشيخ رجب[٢].

وقد وقعت عملية اغتيال السردار السير لي ستاك سردار الجيش المصري وحاكم عموم السودان يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ الساعة ١,٥ ظهرًا، بينما كان السردار عائدًا في سيارته من مكتبه بوزارة الحربية إلى داره بالزمالك.

وقد أطلق الرصاص عليه من خمسة من الشبان كانوا متربصين له في سيارة بشارع الطرقة الغربي « شارع إسماعيل باشا أباظة الآن»، فأصيب السردار إصابات خطيرة في بطنه ويده وقدمه وأصيب ياوره البكباشي كامبلن كما أصيب سائق سيارته وجندي بلوك الخفر من حرس وزارة المعارف الذي أراد أن يتعقب الجناة، وقد توفى السردار متأثرًا بجراحه يوم ٢٠ نوفمبر حوالي منتصف الليل[٣].

وقد اتضح من التحقيقات أن جمعية « الفدائية » وهي جمعية سرية – كانت مهمتها هي اغتيال الإنجليز والمصريين المتعاونين معهم – وكانت الجمعية تقوم

(١) د. محمد متولي – مصر وقضايا الاغتيالات السياسية – كتاب الحرية (٦) – ١٩٨٥.

(٢) الجمهورية – الخميس ٢٨ أغسطس ١٩٧٥ ص ٨ « كيف تم الإعدام في قتلة السردار».

(٣) عبد الرحمن الرافعي – في أعقاب الثورة المصرية – ج ١ ط٢ – مكتبة النهضة المصرية القاهرة – ١٩٥٩ ص ١٨٣.

بطبع المنشورات وتوزيعها في المناسبات الوطنية [1].

وقد صدر حكم بالإعدام على كل من عبد الحميد عنايت – عبد الفتاح عنايت – محمود صالح – إبراهيم موسى – محمود راشد – على إبراهيم محمد – شفيق منصور – راغب حسين وعلى محمود أحمد إسماعيل بالشغل لمدة سنتين- هذا وقد خفف حكم الإعدام على عبد الفتاح عنايت – ونفذ في الباقين.

* * *

إذا. فهذا هو أحد عناصر الجمعية الشرعية. يقوم بتأسيس وعضوية جمعية الفدائيين ليمارس من خلالها الكفاح المسلح ضد الإنجليز – وضد من يتعاون معهم من الخونة المصريين ويوزع المنشورات في المناسبات الوطنية المختلفة.

ليس هذا فحسب بل هو أيضًا نقابي بارز وقيادة عمالية صلبة فقد كان أمينًا لصندوق نقابة عمال العنابر – وكان يحظى بثقة زملائه – وهو أيضًا محرض سياسي ومهيج سياسي كما وصفته المصادر التي أرخت لتلك الفترة.

شارك بهمة ونشاط في الإضرابات العمالية المختلفة ابتداء من سنة ١٩١٤ – ١٩٢١ مرورًا بإضرابات ١٩١٩، وهذه الإضرابات كان بعضها ذا طابع وطني وكفاحي ضد الاستعمار مثل إضرابات ١٩١٤ – ١٩١٩ وكان بعضها ذا طابع نقابي.

أي أن المجاهد إبراهيم موسى كان سياسيًا ونقابيًا في نفس الوقت. فإذا أضفنا إلى ذلك شجاعته وإقدامه وجرأته ومواجهته الإعدام بصلابة وثبات لأدركنا نوعية الشخصيات التي أنجبتها الجمعية الشرعية.

المشاركة في ثورة ١٩١٩:

شارك أعضاء الجمعية الشرعية كغيرهم من المصريين في ثورة ١٩١٩ – ولكن الشيء المميز أن عددًا من قيادات الجمعية – كانوا على رأس عمال العنابر الذين أضربوا في يوم السبت ١٥ مارس ١٩١٩ – مثل أحمد جاد الله –

(١) د. محمود متولي ـ مرجع سابق.

إبراهيم موسى. يقول الرافعي[1] « وفي هذا اليوم أضرب عمال عنابر السكك الحديدية - وكان عددهم يزيد على أربعة آلاف عامل. وهؤلاء العمال يشتغلون في القطارات وبدونهم يتعطل سيرها. وعمد بعضهم إلى إتلاف مفاتيح قضبان السكة الحديدية ثم قطعوا الخط الحديدي بالقرب من إمبابة فتعطلت قطارات الوجه القبلي.»

يقول الشيخ عبد اللطيف مشتهري رئيس الجمعية الشرعية حاليًا: « إن إمامنا الشيخ محمود خطاب مؤسس هذه الجمعية كان يدعو أبناءه وتلاميذه إلى معاضدة الثورة سنة ١٩١٩ ضد الإنجليز – وكان هؤلاء في طليعة الثورة.. وفي طليعتهم المرحوم الشيخ أحمد جاد الله عضو الجمعية وأحد عمال عنابر بولاق – كان زعيم العمال في هذه الثورة وأحد أبطال الثورة وحكم عليه بالإعدام. الشيخ الإمام نفسه استضافه الإنجليز في سجن محافظة القاهرة فترة خلال هذه الثورة بعد أن وجدوه يؤجج نارها[2].

لم يتألم الشيخ للسجن ولا للقيد، فهو يؤمن أنه في سبيل الدين وحماية الوطن: (السجن خلوة والنفي سياحة والقتل شهادة).

وكان شيخنا الإمام يحمل هموم وطنه بوعي وبصيرة - لقد حول شعار مقاطعة البضائع الإنجليزية من مجرد كلام إلى عمل.. إلى « نول » - إلى « مصبغة » إلى ورشة – إلى مصنع- لصنع ما كنا نستورده من الإنجليز بخامات محلية وبأيدٍ مصرية.

أسباب نجاح الشيخ الإمام

تحتاج أية دعوة ناجحة إلى شرطين أساسيين لا يمكن بدونهما أن تقوم لها قائمة – الشرط الأول – شرط ذاتي خاص بصاحب تلك الدعوة وتلاميذه، والشرط الثاني خاص بالظروف الموضوعية التي ظهرت فيها تلك الدعوة.

الشروط الذاتية:

لا بد لكل مصلح أو داعية أن يتسم بعدد من السمات المتميزة والخاصة التي

(١) الرافعي – ثورة ١٩١٩ من ١٩١٤ – ١٩٢١ – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥.

(٢) مجلة الاعتصام – أول حديث صحفي للإمام الجديد لأهل السنة.

تؤهله لأن يكون متبعًا ومسموعًا، لقد حظىَ الشيخ الإمام خطاب السُبكي بعدد لا بأس به من تلك الشروط. فهو أولاً كان مؤمنًا شديد الإيمان بما يدعو الناس إلى اتباعه.

فقد اعتقد الإمام الشيخ اعتقادًا جازمًا بأن العلماء هم ورثة الأنبياء، لأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما وإنما ورثوا العلم.. كما آمن الإمام الشيخ بأن الساكت عن الحق شيطان أخرس. وآمن الشيخ الإمام بهدفه الذي يسعى إليه وهو إيقاظ همة المسلمين وتنظيم حركتهم.

وشفع كل هذا الإيمان بالعمل – أي أنه كان صاحب سلوك وعمل يتسق مع هذا الإيمان، ويؤكده بحيث لا يرى الناس إمامًا يدعو إلى شيء ويخالفه في سلوكه وإلا أحسوا بالتناقض في شخصيته وانفصامها.

وثانيًا: كان الشيخ الإمام راسخًا في العلم مطلعًا على أصول الدين والفقه والحديث والمعرفة المختلفة في كل نواحي العلم وأبوابه. مما جعله قادرًا على تأليف الكتب التي أحيا بها السنة وكشف بها عن البدع والعادات التي كانت تسود المجتمع.

ولا شك أن قوة الحجة وغزارة العلم ومكانة صاحب الدعوة العلمية يعد سببًا هامًا من أسباب ثقة الناس فيما يقول واطمئنانهم إلى صحة فتواه وقدرته على دحض دعاوي خصومه.

وثالثًا: كان الشيخ الإمام يتمتع بشخصية قوية مؤثرة. كان لها أثر كبير في استماع الناس إليه والتفافهم حوله. كما كان الشيخ يمتلك فصاحة اللسان وبلاغة الكلمة وقوة الحجة مما جعل كلامه يصل إلى القلوب والعقول بسهولة.

ورابعًا: كان الشيخ مثالاً للبذل والتضحية بالمال فقد بذل الشيخ الإمام من ماله الخاص ما تمكن به من طبع الكتب والمؤلفات المعينة على نشر الدعوة ووصولها إلى الناس في كل مكان.

وخامسًا: تمتع الشيخ بقوة الصبر على الأذى ومتابعة العمل رغم العقبات – فلم يهن عزمه ولم تفتر همته عن بلوغ قصده وغايته متوسلاً بالأناة والتحمل

والصبر مقتديًا في ذلك بالرسول ﷺ.

الشروط الموضوعية:

وإذا كان الشيخ الإمام قد امتلك عددًا من الشروط الذاتية والخصائص الشخصية العالية والسامية مما جعله كفؤا للنهوض بأعباء الدعوة إلى ما آمن به، فإن الشروط الموضوعية أيضًا ساعدت على ذلك ووضعت الخلفية الصالحة لنجاح دعوة الشيخ الإمام.

تتمثل تلك الشروط الموضوعية في غياب عالم دين تقي مجاهد في تلك الفترة التي ظهر فيها الشيخ الإمام.. وكانت مصر وشعبها المسلم في شوق ولهفة إلى أحد علماء الدين لتلتف حوله، لأن الشعب المسلم يدرك دائمًا أن العلماء هم قيادته الطبيعية، وأن قيادة العلماء المجاهدين للأمة شرط من شروط انتصارها.

لقد واجه الشعب المسلم في مصر الغزو الفرنسي في ١٧٩٨ – ١٨٠١ تحت قيادة العلماء، واستطاع أن يفجر مقاومة شاملة في كل جزء من أجزاء مصر تكللت بالنجاح واندحار الحملة الفرنسية ورحيلها. وتكررت محاولة الاستعمار وكانت هذه المرة من جانب الاستعمار الإنجليزي الذي جرد حملة فريزر على حماد ورشيد سنة ١٨٠٧ إلا أن توحد الأمة وجهادها تحت قيادة العلماء كان سببًا في فشل وهزيمة تلك الحملة كسابقتها.

وأدرك الاستعمار أنه لن يفلح في احتلال مصر وإيقاعها تحت الهيمنة الاستعمارية والقضاء على حيوية ومقاومة أهلها إلا بفصل العلاقة التاريخية بين الأمة والعلماء.

وهكذا بدأ المخطط الاستعماري في ضرب تلك العلاقة وإضعاف العلماء وتحويل الأزهر من قيادة طبيعية للأمة إلى مجرد مؤسسة ممتلئة بالنزاعات الشخصية – وصحيح أن الاستعمار لم ينجح في ذلك تمامًا إلا أن ما فعله في ذلك الوقت كان كافيًا لتخفيف قوة علاقة الأمة بالعلماء وتشذيب حيوية العلماء.

فقد جاء محمد على إلى حكم مصر بواسطة العلماء الذين قادوا الأمة، ولكنه

كان يفهم سر قوة الشعب في ارتباطه بعلمائه فحاول أن يفصمها وحاك المؤامرات، ونجح في إزاحة العلماء وزعماء الأمة عن طريقه.

وإذا كان العلماء الشرفاء قد حاولوا دائمًا التصدي للاستعمار والاستبداد والمحافظة باستمرار على الصلة التاريخية بين الأمة والعلماء فإن السيد جمال الدين الأفغاني يعد عالمًا مجاهدًا فذا في هذا الإطار. ولقد حاول جمال الدين أن يوقظ روح الأمة وينفخ في عوامل الوحدة والجهاد فيها، إلا أن محاولاته لم تجد الأرضية الصالحة بسبب عوامل كانت أقوى في وقتها.

وعلى النهج ذاته سار عبد الله النديم، ثم زعماء الحزب الوطني: مصطفى كامل – محمد فريد – عبد العزيز جاويش. وهكذا كان الشيخ الإمام خطاب السُبكي أحد هؤلاء العلماء المجاهدين وحلقة في تلك السلسلة ذاتها التي امتدت بعده على يد الشيخ الإمام الشهيد حسن البنا.

إذن فقد كانت الفترة التي عاشها الشيخ هي فترة متوسطة بين الأفغاني وحسن البنا – وكانت حركات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار المتمثلة في الحزب الوطني « مصطفى كامل – محمد فريد » على وشك أن تخبو – وكانت أوضاع الأمة في حالة يرثى لها.

فقد آلت الزعامة في الأمة إلى زعماء علمانيين مثل « سعد زغلول» الذين يريدون مواجهة الاستعمار بنفس أساليبه بل أن يصبحوا جزءًا من حضارة الاستعمار «الحضارة الغربية» لقد راحوا يزيحون بوعي أو بدون وعي عوامل التميز لدى الشعب ويسلمونه فريسة سهلة أمام أنماط الثقافة والحضارة والقيم الغربية – أي أن يفقدوه كل قواه الذاتية، ثم يحاولون بعد ذلك محاربة الاستعمار ـ وبديهي أن الاستعمار كان يشجع ذلك ويدعمه.

وهكذا كان لابد هنا للشعب أن يلتف حوله باحثا عن العلماء المجاهدين، باحثًا عن علماء لم يذوبوا في قيم الحضارة الغربية ولم يتشربوا بروحها، بل مازلوا متمسكين بقيم الحضارة الإسلامية وقادرين على تمثل تلك الحضارة وبعث قيمها وأنماط سلوكها وآدابها ومناهجها في الحياة – وهكذا كان اللقاء

بين الشيخ الإمام وبين الأمة.

إحياء السنة في صلاة العيدين خارج المساجد:

نجح الشيخ الإمام في أن يحقق إحياء السنة في صلاة العيدين خارج المسجد، فقد خرج الناس بدعوة من الشيخ الإمام إلى الصحراء بالعباسية لصلاة العيد في جماعة – وقد استهدف الشيخ من وراء ذلك إحياء السنة الشريفة، ولعل الرسول الكريم ﷺ قد أراد من هذه السنة بوحي من ربه إظهار وحدة المسلمين ومهابتهم حيث يصلون جميعًا في مكان واحد.

وفي حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرج ذوات الخدور يوم العيد، قيل: فالحيض...؟. قال: «**ليشهدن الخير ودعوة المسلمين**». فقالت امرأة: يا رسول الله إن لم يكن لإحداهن ثوب كيف تصنع...؟ قال: «**تلبسها صاحبتها طائفة من ثوبها**». قيل: يا رسول الله فهل تشهد الحيض...؟ فقال: «**نعم يخرجن ليشهدن مجامع الخير ودعوة المسلمين فيكبرن بتكبيرهم ويدعين بدعائهم ولا يصلين**».

ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ قد أمر حتى المرأة الحائض بالخروج لحضور صلاة العيد في الخلاء، وذلك حتى تكون صلاة العيد فرصة لتجمع كل المسلمين الرجال والنساء والأطفال، أي أن الحضور في حد ذاته واجب حتى لو لم تصلي المرأة الحائض، فيكفي أن تحضر لتشهد مجامع الخير ودعوة المسلمين وتكبر بتكبيرهم وتدعو بدعائهم.

وكل هذا يؤكد حرص الرسول ﷺ على جعل العيد مظهرًا من مظاهر وحدة المسلمين.

ولا شك أن قيام كل منطقة من مناطق المدينة بالتجمع والذهاب إلى مكان صلاة العيد وهي تردد التكبير « الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله – والله أكبر الله أكبر ولله الحمد..»، ثم يلتئم الجمع من كل مكان ليستمع إلى خطبة العيد ويؤدي صلاة العيد أو يشهدها فقط كما في حالة النساء الحيض، يشعر المسلمين بالعزة والقوة وتخيف أعداءهم ويوضح مدى وحدتهم.

ولا شك أن للشيخ الإمام خطاب السُبكي فضلاً كبيرًا في إعادة إحياء هذه السنة النبوية الشريفة والتي اتبعها من بعده رجال الحركة الإسلامية – فأصبحنا نشاهد الآن إصرارًا من الحركة الإسلامية على أداء هذه السنة في الخلاء إظهارًا للوحدة وتحفيزًا لهمم المسلمين.

ولا شك أن المحاولات المستمرة من قبل السلطات والحكومات المستبدة في إجهاض تلك السنة ومنعها بالعنف والشرطة وغيرها لدليل واضح على مدى أهمية تلك السنة المطهرة.

رجولة وجهاد مبكر:

بحكم الفطرة الإسلامية السليمة التي يعرفها كل مسلم – والتي لا ترضى بالسكوت على الظلم أو الجوار أو الاستكبار قام الشيخ وهو مازال فتى بالجهاد والعراك ضد اللصوص وقطاع الطرق – مستخدمًا بندقيته، فوضع بذلك حدًا للنهب المستمر الذي كانت تتعرض له حديقة والده الواقعة أمام الدوار والبالغة ستة أفدنة.

ولعل هذه الرجولة تثبت أن الكفاح والجهاد ضد كل أشكال الظلم صغيرًا أو كبيرًا هو فريضة إسلامية، ولعل كفاح الشيخ الإمام ضد الاستعمار بعد ذلك وغرس هذا المبدأ في نفوس أتباعه يؤكد هذا الأمر.

الآثار العلمية للشيخ الإمام

للشيخ الإمام عدد من المؤلفات الدينية كالتالي:

١- المنهل العذب المورود – شرح سنن الإمام أبي داود، تم منه عشرة أجزاء وشرح الإمام الشيخ أمين أربعة أجزاء أخرى تكملة للمنهل فصار أربعة عشر جزءًا.

٢- مفتاح المنهل العذب المورود.

٣- الدين الخالص. أو إرشاد الخلق إلى دين الحق – ثمانية أجزاء، أما التاسع فمن تأليف الإمام الشيخ أمين خطاب خليفته من بعده.

٤- إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابهات.

٥- هداية الأمة المحمدية في الحكم المحمودية السنية « خطب منبرية»

٦- الرسالة البديعة الرفيعة في الرد على من طغى فخالف الشريعة.

٧- المقالة الشرعية للرئاسة الإسلامية.

٨- تحفة الأبصار والبصائر في بيان كيفية السير مع الجنازة إلى المقابر.

٩- غاية التبيان – لما به ثبوت الصيام والإفطار في رمضان.

ولا شك أن اهتمام الشيخ الإمام بالتأليف والتصنيف يرجع إلى إدراكه أهمية الاشتغال بالعلم – وأن ذلك أولى من الاستغراق في العبادة مع قلة المحصول فجمع إلى العبادة والاجتهاد فيها التعليم والتوجيه – وكان الإمام الشيخ يدرك أن الاتجاه إلى العلم والتعليم أسمى ما يشغل المسلم به نفسه.

ومن شدة إيمان الشيخ الإمام بالعلم والتعليم وجه أبناءه نحو التعليم فأدخلهم جميعًا الأزهر، وطلب منهم سلوك سبيل الإرشاد والتعليم وكلفهم ببعض مهام الدعوة، وعندما علم أن ابنه الأكبر الشيخ محمد قد ترك التدريس واشتغل بالقضاء والمحاماة حزن وأسف ولام ابنه لومًا شديدًا.

ورغبة في الدعوة إلى الارتباط بالعلم قرر في الوقف الخيرى الذي أوقف به بيته في الخيامية إسقاط ربع الأجرة لمن يسكن فيه من أولاده وأولاد أخيه الحاج محمد محمد خطاب وكان مشتغلاً بالعلم تعليمًا وتعلمًا ثم أناط بهم إدارة وقفه ونظارته والإشراف على إعادة طبع كتبه.

وطلب منهم الأخذ بأسباب العلم، بل وطلب من الذرية المشار إليها في نظير هذا التخفيض في الأجرة إلقاء درس ديني في المسجد الكبير الذي بناه بالخيامية حتى لا تشغلهم الدنيا فيتركوا العلم الذي به شرفهم وليظلوا على طريقة التي رسمها باعتبار التعليم والاشتغال به أسمى الأهداف.

تجربة الجمعية الشرعية

لا شك أن نجاح الجمعية الشرعية في الصمود والاستمرار رغم كل ما مر بمصر من هزات سياسية واجتماعية عصفت بكثير من المؤسسات وخاصة الدينية منها، هو في حد ذاته دليل واضح على نضج قيادات وعناصر الجمعية التي استطاعت أن تصمد بمؤسسات الجمعية مستقلة، وأن تحافظ على وجودها ورسالتها.

ويمكننا أن نفهم هذا النجاح وهذا الصمود والانتشار إذا أدركنا عددًا من الحقائق التالية:

أن المؤسسات الإسلامية في مصر قد تعرضت لمرات عديدة من المصادرة والتأميم والضم إلى الأوقاف أو الإغلاق وعلى سبيل المثال حدث ذلك في سنة ١٩٥٤، ١٩٦٥، ١٩٨١.

أن هناك بمصر الآن أكثر من ٢٠٠٠ مسجد من مساجد الجمعية الشرعية، ولا شك أن هذا العدد من المساجد يوضح إلى أي مدى حققت الجمعية الشرعية انتشارها ونموها، برغم الأزمات ويوضح الدور الكبير الذي تلعبه الجمعية بالتالي في تشكيل العقل الإسلامي في مصر وأثرها على مجمل الحركة الإسلامية.

وأن تلك المساجد ملحق بها عدد من المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية

تحقق آثارًا طيبة على المستوى الاجتماعي، فهناك على سبيل المثال لا الحصر في منطقة المطرية بالقاهرة حوالي ٤٥ مؤسسة اجتماعية. ويتبع فرع الهداية في منطقة الشرابية ٢٦ مؤسسة تغطي نواحي اقتصادية وتعليمية وتدريب مهني.

تقييم تجربة الجمعية الشرعية:

إن التقييم الموضوعي لتجربة ما يجب أن يضعها في إطارها التاريخي وظروفها التي نشأت فيها والأهداف التي وضعتها تلك التجربة نصب أعينها.

إنه لا يستطيع أحد أن يدعي أن تجربة ما مثل تجربة الجمعية الشرعية كانت قادرة وحدها على اجتثاث التخلف أو النهوض بالأمة.

وبالتالي يجب أن نضع في اعتبارنا أن الجمعية لم تدع لنفسها يومًا أنها النموذج الوحيد أو النموذج الذي يقول بخلو الساحة من نماذج أخرى – بل على العكس من ذلك تفاعلت الجمعية مع غيرها من النماذج الإسلامية الموجودة في الساحة تفاعلاً إيجابيًا وخلاقًا.

إن دراسة أهداف الجمعية الشرعية وما حققته على أرض الواقع يسهم إسهامًا فعالاً في الحكم للجمعية بالنجاح بل والتفوق.

إن عدد أتباع الجمعية يصل إلى الملايين الآن في كل أنحاء مصر.

استطاعت الجمعية أن تقضي على كثير من البدع والخرافات، فعلى سبيل المثال لم يعد هناك من يؤمن بالاستغاثة بالأموات، وهذا في حد ذاته دعوة إلى إعمال العقل والتفاعل مع الحياة بإيجابية، وبالتالي فهو قضاء لا شك فيه على السلبية والتواكل اللذين يؤثران بدورهما على مستوى تقدم الأمة ونهوضها.

التخلص من الجمود، احتذاء بسنة الرسول ﷺ والمبادئ الإسلامية الأساسية – وكانت الآيات التي تنعي هذا الجمود هو سلاح أعضاء ووعاظ الجمعية الفعال إحياء قيمة العمل وبذل الجهد والمشي في مناكب الأرض والأكل من رزق الله، ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه ليس من المنتمين إليها عالة على غيره في رزقه أو متسول.

تجديد العقلانية التي كانت للمسلمين في الصدر الأول من الإسلام – حيث

حاربت الجمعية الاتكالية الخرقاء ـ والغيبية العمياء – والجبرية المدمرة.

كما قضت الجمعية على الانفصام بين الدنيا والآخرة – كما أعادت الجمعية الفهم الصحيح للقضاء والقدر، وقضت على أسباب التواكل والإهمال – وتصدت الجمعية للشعوذة والدجل بين المسلمين- فأتباع الجمعية مثلاً لا يقصدون الدجالين ولا يعتقدون في الخرافات وتراهم يعتمدون على المنهج العلمي.

إظهار الإسلام في الصورة المشرقة من التزام العمل الجاد، وتخليص واجهته من المزاولات التهريجية وغير الجادة مثل ما يحدث في الموالد مثلاً.

مشروعات الجمعية الشرعية في العشر سنوات الاخيرة:

واستمرارًا على منهج الشيخ الإمام محمود خطاب السُبكي في العمل الاجتماعي وتقديم الخدمات للجماهير المسلمة، فإننا نجد الآن على سبيل المثال لا الحصر مستشفى الفتح، ومدارس الفتح بالمعادي، والمشروعات الدراسية والتربوية والعلاجية الرائدة بفروع المطرية والمحلة الكبرى والمنيا وأبو قرقاص والإسكندرية وغيرها.

وهي مشروعات تضارع أحدث وأرقى المشروعات العلاجية والتربوية والدراسية في مصر والعالم العربي.

وفي العشر سنوات الأخيرة قفزت تلك المشروعات قفزة كبيرة وتميزت بعدد من المميزات الهامة على صعيد العمل الاجتماعي الإسلامي.

وتتميز مشروعات الجمعية في هذه المرحلة بأنها تراعي ربط الفروع بالفرع الرئيسي وتحقيق وحدة العمل ومحاولة ربط الفرد المسلم في بيته ومدرسته وعمله بالمسجد، وتحقيق العطاء المطلق مع استبعاد أي مجال للربح المادي. وتحديد الأهداف بطريقة واضحة ومحددة والتخطيط والتنظيم والتنسيق وتحقيق التمويل الواعي والمدروس.

وفي هذا الصدد فقد تحقق عدد من المشروعات الهامة مثل مشروع رعاية الطفل اليتيم، ومشروع رعاية الفتيات المسلمات، ومشروع رعاية المعوق المسلم.

ويهدف مشروع رعاية الطفل اليتيم إلى رعاية الطفل المسلم اليتيم منذ ولادته وحتى يشتد عوده ماديًا ومعنويًـا واستغلال هـذا الارتبـاط بـين الطفـل اليتـيم والمجتمع المسلم في غـرس مبـادئ الـدين الصـحيح والعقيـدة السـليمة في عقلـه وقلبه، حتى ينشأ قوى العقيدة سليم البنيان.

كما يهدف المشروع إلى تصحيح العلاقـة بـين الطفـل اليتـيم والمسـلمين مـن حوله، فبدلاً من ارتباط الطفل بفـرد أو أكثـر مـن فـاعلي الخـير الـذين يتولـون رعايته تصبح علاقته بالمجتمع المسلم كمسئول مباشر عنه.

ويقدم المشروع خدمات طبية وعلاجية وخدمات نسائية وكفالة مالية للطفـل اليتيم.

أما مشروع التربية الإسلامية فيهتم برعاية الطفـل المسـلم عامـة، سـواء كـان يتيمًا أو غير يتيم وذلك في النواحي الدينية والاجتماعية والدراسـية والرياضـية والترفيهية، وتنشئته على أسس من التربية الإسلامية من خلال منهـاج موضـوع بواسطة لجنة من كبار العلماء في الجمعية الشرعية الرئيسية، وذلك تبعًا للمراحل السنية المختلفة.

ويتم ذلك باحتضان الطفل المسلم من سن السادسة وحتـى الخامسـة عشـرة من عمره في مساجد الجمعية الشرعية المنتشرة في كافـة الفـروع، علـى أن يتـولى الإشراف على كل مجموعة من الأطفال أو الأولاد المتقاربين سنًا مشرف متطوع لهذا العمل هو مشرف المسجد، يقـوم بتـدريس منهـاج الطفـل المسـلم الخـاص بالجمعية الشرعية، بالإضافة إلى مساعدتهم في تحصـيل دروسـهم المدرسـية، ثـم القيام معهم ببعض الرحلات الترفيهية والدينية.

وإذا كانت ظروف المسجد تسمح بأي نشاط رياضي فإنه يشرف عليه ويجـوز أن يكون في المسـجد أكثـر مـن مشـرف تبعًـا لعـدد الأولاد ومراحلـهم السـنية المختلفة، بحيث يكون هناك تجانس وتوافق بين أفراد كل مجموعة مما يسهل مهمة التدريس والتربية.

ولضمان الجدية والاستمرار، فإن مشـرف المسـجد يتقاضـى مكافـأة شـهرية

رمزية من الفرع أو المسجد، كما يتلقى الأطفال الملتزمون بالحضور بعض الهدايا تشجيعًا لهم على الالتزام والارتباط بالمسجد.

كما يهدف المشروع أن يعود للمسجد دوره الرائد في المجتمع المسلم والذي كان له في صدر الإسلام حيث كان مركزًا للإشعاع الديني والعلمي والاجتماعي والاقتصادي.

أما مشروع رعاية الفتيات المسلمات فإنه يهدف إلى تعميق العلاقة بين الأخت المسلمة والمسجد، وتكوين نوع من الانتماء للجماعة المسلمة من خلال لقائها المستمر والمتكرر بأخواتها والإخوة العلماء والمحاضرين بالمشروع في المسجد.

وإعداد الأخت المسلمة إعدادا دينيًا وتربويًا وفكريًا وثقافيًا إعدادًا سليمًا، لكي تؤدي دورها في المجتمع المسلم، فهي نصف المجتمع من حيث القوة البشرية، ولها دورها المتميز في بناء المجتمع المسلم.

وثانيًا هي الأم حاليًا ومستقبلاً وعلى عاتقها تقع تربية الطفل المسلم، وبالتالي فإنه يجب تلقينها مبادئ تربية ورعاية الطفل المسلم والتنسيق مع المسجد في هذا الإطار، وكذلك تشجيع الأخوات المسلمات على الالتزام بالحجاب كمدخل طبيعي لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

* * *

وما لا شك فيه أن تلك المشروعات الثلاث تعد قفزة نوعية هامة في مجال عمل الجمعية الشرعية. وهي حائط صد هام وكبير في مواجهة الاختراق الاستعماري والصهيوني العلماني لبلادنا، لأن الغزو الحضاري والثقافي والاجتماعي والسياسي لبلادنا يهتم اهتمامًا خاصًا بقطاعي الطفل والمرأة المسلمة – على اعتبار أن هذين القطاعين قابلان أكثر من غيرهما للاستجابة السريعة من ناحية وللتأثير على المستقبل من ناحية أخرى.

وليس غريبًا أن نجد المؤسسات المرتبطة بالاستعمار وإرساليات التبشير تهتم دائمًا اهتمامًا خاصًا بملاجئ الأيتام، ومدارس الأطفال، وقطاع المرأة، بل إن أكبر الاهتمام والتمويل الاستعماري والتبشيري مركز على هذين القطاعين.

الإسلام دين ودولة / قضاء وسياسة / مصحف وسلاح / معاش وعاد

بقلم/ عبد اللطيف مشتهري
إمام أهل السنة

قضت حكمة العليم الخبير أن يجعل الإسلام خاتم الأديان على يد خاتم المرسلين ولآخر أمة في حياة هذه الدنيا، إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها، لذلك زوده تعالى بكل مقومات الحياة نصحًا وتخطيطًا، وشريعة كاملة، أوضحت للناس سبيل الهدى والحق في عقيدتهم وعباداتهم ومعاملاتهم.

كما سنت للمسلم أخلاق الكمال، وسلوك البر، وكيف يتعامل المسلم مع نفسه، ومع أهله، ومع وطنه ومع مواطنيه، وعلمه حق الحاكم وواجباته، وكيف يرتبط مع غيره محليًا وعالميًا.

وإذا فهم بعض الأجانب المغرضين، أو ادعى المستشرقون المفترون، أو بعض من لم يدرس حقيقة الإسلام من المتسبين إليه، إذا فهم هؤلاء أو ادعوا أن الإسلام سلوك خاص بين العبد وربه، لا صلة به بالحياة العامة، ولا بدنيا الناس وسياستهم، ولا بقضائهم وأمنهم، فهم إما جهال وإما ضلال.

وإلا فإن من درس شريعة الإسلام، حتى في مصادرها الأولية، التي يدرسها طلاب المرحلة الأولى في المعاهد الدينية، وجدها بعد أن تسرد أحكام العبادات من طهارة وصلاة وحج وزكاة، تذكر أحكام المعاملات، من بيع وشراء، وشركات ووكالة، ورهن وإجارة، وزواج وطلاق، وعدة وميراث، ونفقة وحضانة.

وتذكر الحدود الزاجرة عن الإضرار بالناس كحد الزنا والقتل والحرابة والقذف والسرقة والخمر والردة، كما تذكر أحكام القضاء والشهادات والبينة وشروط الحاكم، وكيف يتولى أمور الناس، وكيف يتحقق حكم الشعب

بالشعب ومن أجل الشعب، حتى أن الله تعالى خصص للشورى سورة باسمها وهي أعلى درجات الديمقراطية في الحكم.

وجعل أطول آيات القرآن آية توثيق الدين والبيوع والسلم، وعقد للمعاهدات أبوابًا طويلة في الفقه، وأوجب الوفاء بالعقود والعهود والوعود، وكيف يصنع المسلمون إذا تيقنوا الغدر من عدوهم المعاهد لهم وكيف ينبذون إليه عهده على سواء، وكيف إذا اقتضت الضرورة تعلن الحرب، وتعلن التعبئة العامة، وكيف تنظم صفوف الجيش وتطهر من الدخيل، وكيف يثبت المسلم عند اللقاء ويحرك عليه الفرار عند الزحف حتى النصر أو الشهادة، وكيف التصرف في الغنائم والفيء والأسرى.

ثم مع هذا كله نظام الصيد والذبح ما يحل من ذلك، وما يحرم، وأبواب الطب والتداوي، وما نصح به الإسلام في هذا، وتحريم الغش والرشوة والربا والظلم والتدليس والميسر، و الوثنية وضلالات العقول.

وتذكر كذلك الأحكام الودائع والعارية، وإحياء موات الأرض، وأبواب الغصب والضمانات، والشفعة واللقطة، والهبة والهدية، والوقف والوصايا، وعتق الأرقاء، وأحكام التفليس، والمصالحة وحق الجار، والحجر على السفيه، والمضاربات، والمزارعة والمساقاة، وأحكام التجارة والصناعة والزراعة، وأحكام العمل والعمال، والهجرة وأقسامها والصلح والأمان والمهادنة، ومعاملة المخالف في العقيدة، وكيف أباح للمسلم مصاهرة أهل الكتاب وطعامهم، وأبواب التدريب على الجهاد كالسبق والرمى وما يحرم من الحيوانات والطيور وما يحل، وأحكام الرضاع واللعان والظهار والخلع والرجعة والإيلاء، وأبواب القصاص والقسامة والديات.

وماذا بقى بعد هذا من شؤون العباد، لم يستوعبها الدين الإسلامي، حتى يتهم أنه قاصر عن قيادة البشرية......؟

إذا كانت هناك ملل أخرى قصرت عن استيعاب حياة الناس، وقصرت نفسها على بعض مواعظ أو ترنيمات بعيدة عن دنيا الناس، فما ذنب الإسلام

في هذا، وهو الدين الكامل الشامل الكافل، وصدق الله العظيم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]. وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١].

اللهم إنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً، على ذلك نحيا، وعلى ذلك نموت، وفي سبيل ذلك نجاهد، وعليها نلقى الله بعونه مؤمنين صادقين، والحمد لله رب العالمين..

3

الباب الثالث

الشيخ
حافظ سلامة

المقدمة

في البداية نود أن نوضح أمرًا في غاية الخطورة.. وهو التعتيم الإعلامي الرهيب على معركة السويس برغم أهميتها التاريخية والعسكرية والاستراتيجية على كل المستويات، ألا يوحي هذا باستمرار القوى الشيطانية في محاولة سحب أي وعي أو عزة لدى الجماهير.. عن طريق طمس معالم البطولة في تاريخنا المعاصر.. إن هذا ليس أمرًا غريبًا ولكنه مقصود لذاته.

إن معركة السويس هي آخر مراحل الصراع بين القوى الشيطانية والقوى الإسلامية.

قلنا دائما إن التاريخ هو سلسلة من الصراع بين القوى الشيطانية بما تمثله من استبداد سياسي وظلم اقتصادي وانحراف اجتماعي وبين القوى الإسلامية بما تمثله من حرية وعدالة واستقامة وبما تحمله من رسالة نحو العالم.. رسالة التحرير والتطوير.

تحرير الإنسان من الاستبداد السياسي.. والظلم الاقتصادي والتوجيهات الاجتماعية المنحرفة.

ولقد تطور ذلك الصراع بعد بعثة الرسول ﷺ في حلقات متواصلة تمثلت بصورة رئيسية في عدة مراحل أهمها:

- الصراع ضد الرسول ذاته وضد حركة الجماعة الإسلامية الأولى.
- الصراع بعد موت الرسول ﷺ في محاولة لإرساء معالم إسلام عشائري وطبقي بديلا عن الإسلام المحمدي.

الحروب الصليبية: واستهدفت الكيان العسكري للأمة.

الاستعمار والصهيونية (وهذه المرحلة ما زلنا نعيشها) وهي تستهدف وعي

الجماهير المسلمة تمهيدا لضرب الأمة الضربة القاضية بما أن الجماهير المسلمة هي المعقل الأخير والقوي للإسلام.

وهكذا فإن تاريخنا المعاصر هو سلسلة من الصراع الدامي والمتسع بين الجماهير المسلمة وبين القوى الشيطانية (الاستعمار - الصهيونية - القوى العميلة).

ولقد تنوع ذلك الصراع فشمل كل الميادين:

الميدان العسكري: (الحملة الفرنسية - حملة فريزر - الاحتلال الإنجليزي - وأخيرا الحروب ضد إسرائيل)..

الميدان الثقافي: نشر القيم الغربية من رأسمالية وشيوعية واشتراكية وفلسفات منحلة، وجودية- وعبثية - ومدارس فن مختلفة (العلمانية عموما).

الميدان السياسي: إقامة أنظمة حكم تمنع الجماهير من ممارسة حرياتها ومواجهة التحدي الاستعماري الصهيوني.

إفساد الحياة الاجتماعية: عبر الموضة والمفاهيم المدمرة للزواج وغيرها، والعلاقة بين الرجل والمرأة. ولقد ردت الجماهير المسلمة على ذلك.

- في مواجهة التحدي العسكري.
- الحملة الفرنسية
- ثورة القاهرة الأولى - ثورة القاهرة الثانية . اغتيال كليبر - المقاومة الشعبية المستمرة (محمد كريم - عمر مكرم) .
- حملة فريزر
- حرب الجماهير المسلمة بقيادة عمر مكرم في رشيد ودحر القوات الإنجليزية.
- الاحتلال الإنجليزي.
- تصدي الجماهير المسلمة بقيادة عرابي - وعبد الله النديم - جمال الدين الأفغاني - ثم استمرار ذلك الخط على يد مصطفى كامل - محمد فريد - حسن البنا.

- الغزو الصهيوني

- ثورة ١٩٢٠ ، ثورة ١٩٣٣ في فلسطين – ثورة الشيخ عز الدين القسام ١٩٣٥ ، ثورة ١٩٣٦ (فوزي القاوقجي – محمد الأشمر) معارك مستمرة حتى عام ٤٨. (عبد القادر الحسيني – أحمد عبد العزيز).

- معارك ٧٣

- معركة السويس – حافظ سلامة.

وهكذا فإن خط الجماهير المسلمة لم ينقطع يوما.

الميدان الثقافي:

غزو علماني بكافة اتجاهاته، وكان الرد عليه مؤلفات عبد الله النديم – مجلة اللواء (مصطفى كامل – محمد فريد – عبد العزيز جاويش) – ومؤلفات حسن البنا. وأخيرًا الشهيد سيد قطب. ومجلات الدعوة: النذير، الدعوة، الاعتصام، المختار الإسلامي.

الميدان السياسي

محاولات الحركات الإسلامية المستمرة لتحرير الإنسان من الاستبداد والإقطاع والرأسمالية (الأفغاني – النديم – مصطفى كامل – الإمام حسن البنا – اللواء سليمان سبل رئيس جماعة شباب محمد – عناني عواد وآخرين.. أبطال الانتفاض ضد الإقطاع).

الشيخ سيد قطب..

الشيخ أحمد المحلاوي.

***

الحياة الاجتماعية

إرساء قيم وممارسات إسلامية نموذج في مواجهة النموذج الغربي.

وهكذا فإن الجماهير المسلمة استمرت ومنذ أن بدأت الحقبة الاستعمارية كظاهرة تمثل آخر الوجوه الشيطانية.

ولقد واجهت الجماهير المسلمة الاستعمار – الصهيونية – الإقطاع – والأنظمة المستبدة على نحو مستمر ورائع.

وعلى هذا الأساس يمكن فهم طبيعة معركة السويس بقيادة الشيخ البطل حافظ سلامة.

حياة الشيخ تمثل

مراحل الصراع الإسلامي الاستعماري

بدأ الشيخ حياته النضالية في الأربعينات.. وكمسلم رسالي كان لابد له أن يصطدم بالحلقات الاستعمارية الثلاث (الاستعمار الإنجليزي – الصهيونية – الملك في مصر)..

انضم الشيخ إلى جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ، وهي جماعة وقفت بصلابة منذ اليوم الأول ضد الاستعمار والصهيونية والملك ورفضت أي شكل من أشكال المرونة والمهادنة معهم.

ويشاء الله سبحانه أن يصطدم الشيخ أول ما يصطدم بالصهيونية بما أنها هي التحدي المركزي للحركة الإسلامية.

ويقوم الشيخ بالعمل الفدائي داخل فلسطين عام ١٩٤٤ ليعود من مهمته ليدخل السجن وليكتشف ذلك الارتبط بين النظام الملكي في مصر والاستعمار الإنجليزي -- والصهيونية.

ويخرج الشيخ من السجن – ليقوم بنشاط من خلال جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ وليشارك في كتائبها المتوجهة إلى فلسطين عام ١٩٤٨ للمشاركة في القتال ضد اليهود (ذهب الإخوان المسلمون أيضا وقاتلوا قتالا بطوليا).

ويكتشف الشيخ مرة أخرى ذلك الارتباط بين الاستعمار والصهيونية ونظام فاروق (الأسلحة الفاسدة).

وبحيوية المسلم الرسالي يستمر الشيخ ويذهب إلى القناة ليمارس العمل الفدائي ضمن كتائب شباب محمد جنبًا إلى جنب مع كتائب الإخوان.. ومصر الفتاة والحزب (كل هذه الاتجاهات.. اتجاهات إسلامية).

ويرى الشيخ كيف يقوم شباب المسلمين (أحمد المنيسي – عمر شاهين) بالاستشهاد بعد الغارات الناجحة على الإنجليز في التل الكبير والقورين..

ولقد شارك الشيخ بنفسه (في منطقة السويس) في عملية تدمير قطار إنجليزي محملا بالبضائع والوقود والذخائر وذلك بالمشاركة مع الشيخ محمد الخطيب أحد أبناء الحركة الإسلامية في فلسطين وصديق الشيخ حافظ منذ عام ١٩٤٤ عندما شاركا معا في عملية فدائية.

ويستمر نضال الشيخ الذي لا ينقطع في مدن القناة.. ولقد اختار الشيخ السويس لأن الإنجليز يعتمدون عليها في الإمدادات من البحر الأحمر عن طريق ميناء الأدبية ولأنها مركز كبير من مراكز قوات الاحتلال الإنجليزي.

يستمر الشيخ في المشاركة في الجهاد الإسلامي المتمثل في الغارات على الإنجليز واقتحام مواقعهم وسرقة الأسلحة والذخيرة – والقيام بعمليات تدريب للأهالي على استخدام السلاح وتصنيع الذخائر والقنابل. كما كان الشيخ يشارك في عمليات محو الأمية وتحفيظ القرآن.

ويقوم الاستعمار الإنجليزي، وبعد تزايد المد الاسلامي الواسع جدًا والذي أصبح يمثل خطرا على كل الكيان الاستعماري – يقوم بحرق القاهرة والتمهيد لانقلاب عسكري (فكان الانقلاب الناصري). لكي يأتي بعبد الناصر ليلوح ببعض الإصلاحات، وليقوم في النهاية بضرب الجماهير وتعويقها وإقامة نظام مستبد يمنع الجماهير من المشاركة في مواجهة أعدائها.

وفي بادئ الأمر يرفع عبد الناصر وزمرته الشعارات الإسلامية لمحاولة امتصاص المد الجماهيري الإسلامي. وتقع بعض الحركات الإسلامية في الفخ المنصوب.

ولكن جماعة شباب محمد ترفض دعم هذا الاتجاه منذ اليوم الأول وتعلن أنها ليست بديلا عن الجماهير ولكنها حارسة وأمينة على مصالحها. وأن مصادرة الحريات وإلغاء الأحزاب ومهما كانت أسبابها وجيهة، هي في النهاية موجهة ضد حريات الجماهير، وأن الحرية حق طبيعي لكل إنسان وأن واجب الحركة

الإسلامية أن تقف مع الحريات وهذا واجب أخلاقي فضلا عن أن تلك هي رسالة الإسلام، فالإسلام جاء ليحرر الناس من الاستبداد السياسي والاقتصادي والاجتماعي وبالتالي فإنه ليس هناك أي مبرر لدعم حركة ٢٣ يوليو في ضرب القوى السياسية؛ لأن تلك الحركة ذاتها ستعود وتضرب الاتجاه الإسلامي في النهاية – فضلا عن أن ذلك عمل غير أخلاقي وتآمري ولا يتفق مع الإسلام.

وكان من نتيجة ذلك اعتقال اللواء سليمان عبد الواحد سبل رئيس جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ وهو أيضا رئيس الاتحاد العام للجمعيات الإسلامية.

وحينما طلب أعضاء شباب محمد من الاتجاهات الأخرى الاعتراض على ذلك الأمر رفض الآخرون وقالوا: إنكم لم تعطوا للثورة فرصة لإنجاز أعمالها. وأنكم تعجلتم.. و إلخ..

وعبثا حاول الشيخ ورفاقه توضيح أن حركة الجيش جاءت لتقطع على الجماهير المسلمة زحفها، مما ثبت بعد ذلك يقينا.

ولكن ما الذي جعل جماعة شباب محمد لا تقع في هذا الفخ – الذي وقعت فيه بقية الجماعات الأخرى إبان أزمة ١٩٥٤.

إنه ببساطة شديدة امتلاك المنهج الصحيح والوعي بالتاريخ وإدراك طبيعة الصراع، والتصرف كطليعة للأمة وليس بديلا لها، إنها ببساطة شديدة الإسلام الرسالي.

ويستمر نشاط الشيخ فما أن تحل جماعة شباب محمد حتى يبادر بإنشاء جماعة الهداية الإسلامية، وبعد إغلاق مجلة النذير أصدروا مجلة أخرى هي مجلة صوت الإسلام (هذا في وقت شديد السواد بالنسبة للحركة الإسلامية عمومًا).

ويستمر الشيخ ومعه بقية الرجال في عمل حلقات تدريس القرآن الكريم وإنشاء مراكز إسلامية (مسجد الشهداء في السويس – مسجد النور في العباسية – مسجد الفتح في رمسيس)، مسجد الشهداء هو المركز الذي انطلقت منه حركة المقاومة الشعبية في السويس عام ١٩٧٣.

وإنه لشيء منقطع النظير أن يستمر الشيخ في كفاحه في الستينات (الحقبة السوداء في تاريخ الحركة الإسلامية) ويستمر في محاولة بناء مركز إسلامي في العباسية ردًا على قيام عبد الناصر والنجاشي بوضع حجر الأساس للكاتدرائية، بل وقاما أيضا بافتتاحها.

واعتقل الشيخ في ١٩٦٦- وفي سجن أبي زعبل - وتحدث نكسة ٦٧ ويطالب الشيخ ومعه بقية الإخوان في ليمان أبي زعبل أن يذهبوا للقتال، ويجد الشيخ أن ملابسات نكسة ٦٧ تومئ بوجود خيانة في القيادة السياسية.

ويخرج الشيخ من السجن ويستمر في جهاده وعمله مجددًا: إن الاسلام هو الطريق الوحيد لهزيمة إسرائيل. ويقوم بعمل قوافل توعية إسلامية ويذهب إلى الجنود على جبهة القتال.

ولأن الشيخ يؤمن بوحدة الحركة الإسلامية في العالم. فيحاول الشيخ الاتصال بالإمام موسى الصدر في لبنان. بل إنه أزمع الذهاب إليه وقطع تذكرة إلى لبنان - وأبرق إلى الإمام موسى الصدر لينتظره في بيروت لولا قيام حرب ١٩٧٣.

قام الشيخ بذلك في صباح ١٠ رمضان ، ٦ أكتوبر. ولكنه يسمع البيانات العسكرية وهو في مدينة القاهرة، فيعود سريعا إلى السويس.

حاول الشيخ يومها الرجوع ولكنه منع بدعوى أن المدنيين ممنوعون من الذهاب إلى الجبهة. ولكن الشيخ ذهب معه الأخ عبد الحميد عطا إلى طريق القاهرة السويس الكيلو ٤٥. ومرة أخرى يمنع من السفر. إلا أن الشيخ استطاع أن يقنع أحد الضباط الشبان عندما توسم فيه الخير لما رآه يصلي. شارحا له ضرورة مشاركته في المعركة - ويذهب الشيخ إلى السويس على عربة مدفع.

وهكذا تبدأ معركة الشيخ ضد اليهود. داخل السويس - وينبغي أن نسجل هنا أن تاريخ الرجل وكفاحه قد هيأه لذلك تماما، وأن هذا العمل لم يكن عملا عفويا لأن المسلم الرسالي يقف دائما الموقف الصحيح في الوقت الصحيح.

أهمية معركة السويس

لن نستطيع أن نفهم معركة السويس ما لم نفهم بعض القضايا الآتية:

طبيعة الصراع ما قبل حرب ٧٣.

في البدء لابد أن نقرر حقيقة مركزية وهي أن الصراع في المنطقة حاليا يدور على مستويين:

تناقض رئيسي بين الجماهير المسلمة وبين (الاستعمار والصهيونية) وأن هذه الجماهير بما أنها تملك مصلحة حقيقية، وبما أنها مستهدفة كأمة وككيان وكوجود، هي الوحيدة القادرة على حسم هذا الصراع، وأن ما من مرة تشارك تلك الجماهير في معركة ضد الكيان الصهيوني إلا وتذيقه مرارة الهزيمة، وتثبت الجماهير المسلمة قدرتها على النصر.

تناقض ثانوي بين الأنظمة وبين الكيان الصهيوني. وتلك الأنظمة ما دامت لا تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني، فإنها تخوض معارك جزئية مهزومة قبل أن تبدأ – وفي كل مرة لا تسمح للجماهير بممارسة المواجهة حتى لا تطيح تلك الجماهير ضمن ما تطيح بالأنظمة ومصالح الاستعمار والكيان الصهيوني جميعا.

ظروف الصراع قبل ٧٣:

إنه لمن الأهمية بمكان أن نحدد ظروف الصراع بين القوى الإسلامية والقوى الشيطانية فيما قبل ٧٣ لكي نستطيع فهم حرب ٧٣ بوجه عام، ومعركة السويس بوجه خاص.

كانت القوى الشيطانية وبعد مرحلة طويلة من الصراع قد استطاعت أخيرا وعبر عبد الناصر أن تضرب نطاقا من العزلة حول الجماهير وأن تعيق حركتها وتخدر قواها.

وظنت تلك القوى الشيطانية أن الجماهير قد وقعت في السبات العميق،

وذلك في أعقاب حرب ٦٧.

وبات على القوى الشيطانية أن تتحرك لتحقق المرحلة التالية وهي القضاء الكامل على حركة الجماهير وإيقاع المنطقة بالكامل في النفوذ الاستعماري والصهيوني (تحقيق الحقبة الإسرائيلية) وذلك عبر عمل تسوية بين الأنظمة العربية وإسرائيل – وأن يتم تطبيع العلاقات مع إسرائيل وإخضاع الجماهير سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لليهود مما يعني القضاء النهائي على حضارة أمتنا ووجودنا ذاته.

ولقد حاولت القوى الشيطانية أن **تحقق ذلك عبر:**

- قرار ٢٤٢.
- مبادرة روجرز.
- المزيد من قمع الجماهير وتضليلها.
- التشكيك في قيمة المقاومة الفلسطينية وعبد الناصر يصفها بأنها رد فعل على النكسة ليس إلا.
- وهيكل يشكك في قيمتها وقدرتها (انظر مقالات الجمعة/ أغسطس ٦٨).
- ضرب المقاومة ضربا متواصلا بواسطة الجيش اللبناني ذي التوجهات المارونية.
- محاولة استدراج المقاومة لنزع إسلاميتها وبالتالي نزع سلاحها الحقيقي ووقوعها في الحقبة الإسرائيلية.

وفي كل الأحوال تدمير أي نواه تتجمع حولها حركة الجماهير. ولكن الجماهير المسلمة ردت على ذلك بعنف وحيوية – مما فاجأ القوى الشيطانية بأن تلك الجماهير ما زالت حية وغير مستأنسة. ولقد ظهرت حركة الجماهير المسلمة عبر: مظاهرات الطلبة والعمال ٦٨.

اشتداد عود المقاومة الفلسطينية والتفاف الجماهير حولها وصل إلى قمته في معركة الكرامة.

رفض واسع مع كافة جماهير العالم الإسلامي والعرب لقرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز وخرجت مظاهرات الجماهير تهتف: عبد الناصر يا جبان يا عميل

الأمريكان.

وكان على القوى الشيطانية أن تخرج من كيس أفاعيها ألعوبا جديدا تستكمل به حلقة الحصار حول الجماهير. تمثل في اتجاهين أساسيين:

١- فلقد بدأت الأبواق الاستعمارية وأعلام الأنظمة تركز على عملية غسيل مخ للجماهير مستمر ليلا ونهارًا على النحو التالي:

- إن إسرائيل أمر واقع يجب الاعتراف به - انظر الصحف المصرية.

- تخفيف حدة العداء لليهود. ومحاولة تزييف تفسير القرآن الذي يدين اليهود ويدمغهم بالخيانة. وذلك على يد مشايخ السلطة.

- إن الواقعية هي الشيء الصحيح. ولكنها كانت واقعية اليأس والهزيمة.

- انظر مقالات هيكل - أحمد بهاء الدين - وخصوصا كتاب أحمد بهاء الدين (إسرائيليات - ما بعد العدوان) .

- التركيز على التفوق العسكري الإسرائيلي.

- التركيز على أن الهدف هو إزالة آثار العدوان.

٢- بما أن حركة الجماهير ما زالت حية وقوية وخصوصا أن الحشد المعنوي لرجال القوات المسلحة كان إسلاميا وهو ما أدى إلى قيام الجيش البطل وبروح إسلامية بتحقيق نصر عسكري على إسرائيل بمجرد أن سمح له بالالتحام باليهود. ولكي تلتف القوى الشيطانية على هذا العنصر كان لابد لها من الآتي:

- الضغط على إسرائيل لكي تقبل التسوية.

- تخدير وعي الجماهير لتمرير التسوية.

ومن هذا الإطار يمكن فهم حرب التحريك في عام ١٩٧٣.

في ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣، وما أن يتلقى رجال القوات المسلحة الأبطال الأمر بمباشرة القتال (القوات المسلحة في النهاية جزء من الأمة) حتى تنطلق صيحة الله أكبر مدوية. والرجال الصائمون (١٠ رمضان) يعبرون ويجتاحون في أروع عملية عسكرية في التاريخ المعاصر. إن الرجال الأبطال في القوات المسلحة لأول مرة يأخذون فرصتهم في مواجهة العدو الصهيوني. وها هم يواجهون بشجاعة

بـرغم عـدم تكـافؤ التسـليح والمعـدات. ولكـن صـرخات الله أكـبر والـروح الإسلامية التي انطلقت كانت كفيلة باجتياح خـط بـارليف بمعداتـه الإلكترونيـة المتقدمة ورغم التفوق الجوي الإسرائيلي وذلك في أقل من ٦ ساعات.

وتتوالي انتصـارات الرجـال البواسـل. ويقـع اليهـود في الـذعر ويصـرخون ويلجئون لأمريكا.

وتدرك القوى الشيطانية أن الأمر سيفلت من أيديها، وسـوف يحقـق الجـيش البطل انتصارًا ساحقا، يمكن أن يكون بداية لتدمير الكيان الصهيوني والإطاحـة بمصالح الاستعمار.، خصوصًا وأن هناك تجاوبا شعبيا رائعا ومذهلا.

وتتحرك القـوى الشـيطانية بسـرعة، ويـتم دعـم الكيـان الصـهيوني بطـائرات ودبابات.

وكان لابد لذلك الكيان من أن يتحرك قبل فوات الأوان.

وتقوم قواته باختراق الجبهة المصرية وعبور القناة إلى الجهـة الأخـرى في عمليـة الثغرة. وتصل إلى الدفرسوار، والعجيب أنه لم يتم سـحق تلـك المحاولـة مـع قـدرة قواتنا ورجالنا على ذلك. وتصل القوات الإسرائيلية إلى مشـارف السـويس وكـان الهدف واضحا.

احتلال السويس – واستكمال حصار الجيش الثالث.

وبالتالي وضع حبل حول رقبة ذلك الجيش ومسدس مصوب نحو القاهرة.

تستطيع أمريكا (كيسنجر اليهودي) أن يأتي ليقول: إنني أطرح الحل السلمي.

وبما أن الجـيش الثالـث محاصـر، والسـويس محتلـة.. فـإن القيـادة الأمريكيـة ستنجح في تمرير التسوية.. تحت دعوى أن ذلك عمل سياسي بارع ينقذ الجـيش الثالث، وأننا استطعنا الانتصار على إسرائيل ولكن أمريكا تدخلت.. إلخ..

وهكذا يمكن البدء في تحقيق التسوية والوقوع مبكرًا في الحقبة الإسرائيلية.

ولكن جماهير السـويس المسـلمة – جمعيـة الهـلال الإسـلامية – أفـراد القـوات المسلحة الشرفاء. بقيادة الشيخ حافظ سلامة قد أفسدت تلك الطبخـة الأمريكيـة.. ووقفوا على مشارف السـويس يحطمـون الـدبابات الإسـرائيلية. ويحطمـون معهـا

التسوية ويحطمون أيضًا الحقبة الإسرائيلية، ويحطمون أحلام كيسنجر.

وهكذا انتصرت الجماهير المسلمة بقيادة الشيخ حافظ سلامة على كيسنجر الداهية وشارون الثعلب.

الأهمية الاستراتيجية لمعركة السويس:

إنقاذ الجيش الثالث.

إفساد الطبخة الأمريكية التي لو تمت وقتها - لا قدر الله - لكنا قد سقطنا سريعًا في التسوية – والحقبة الإسرائيلية – وصحيح أنه وقعت بعدها معاهدة كامب ديفيد. ولكن في وقت كانت الجماهير المسلمة في مصر وخارجها في وضع يسمح لها بالتصدي الكفء لتلك المواقف مما لم يكن متوافرا وقتها.

إثبات قيمة الجماهير المسلمة في التصدي للكيان الصهيوني وإثبات أن خط القسام – حافظ سلامة هو الخط الصحيح والقادر على تحقيق النصر.

إن الله سبحانه وتعالى حينما قيض الشيخ حافظ سلامة ليقود جماهير السويس في تلك المعركة إنما معناه أن خط الإسلام الرسالي هو المنوط بأداء تلك الأمانة وأنه ليس عبثا أن يكون الشيخ حافظ سلامة في ١٩٤٤، ١٩٤٨ ضد اليهود – والمجاهد في ١٩٥١ ضد الإنجليز هو نفسه المجاهد ضد اليهود في ١٩٧٣ وان ذلك ليس أمرًا عفويا.

يوميات معركة السويس

وصل الشيخ حافظ سلامة إلى السويس مساء ٦ أكتوبر العاشر من رمضان - ... كان الشيخ يجتمع برجاله من أعضاء جماعة الهداية الإسلامية بمسجد الشهداء ويقررون المساهمة في المعركة – بالمساعدة في تجهيز الشهداء وخدمة الجرحى. ويقررون تقديم علبة من الحلويات لكل جريح.

ويذهب الشيخ إلى المستشفى حيث يشاهد صور البطولة الإسلامية التي استطاعت أن تسحق غرور اليهود.

فها هو جريح قد فقد ساقيه ولا يريد أن يشرب إلا بعد المغرب حتى يظل صائما ويتمنى أن يعود إلى المعركة.

وها هو جريح يرفض تناول الماء رغم عطشه حتى يلقى الله وهو صائم.

وآخر يقود سيارته وهو جريح لينقذ أحد زملائه.

إنها روح بدر وروح المهاجرين والأنصار. إنها روح الإسلام والسلف الصالح.

واستمر الشيخ حافظ ومعه رجال جمعية الهداية يؤدون واجبهم في خدمة الجرحى حتى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣.

ويجد الشيخ أن عدد الجرحى والشهداء قد تزايد – ويكتشف الشيخ أن السويس محاصرة وذلك في يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ حيث إن قافلة من الجرحى قد تعرضت لضرب النيران الإسرائيلية عندما حاولت الخروج من مدينة السويس .

ويبادر الشيخ حافظ سلامة إلى العمل فورًا.. فيقوم بتوزيع المجاهدين على كمائن خشية دخول اليهود إلى المدينة ليلا (يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣).

ويقرر الشيخ أن يجعل مقر قيادة المجاهدين في مسجد الشهداء وهو مسجد أسسه الشيخ تحت اسم جماعة شباب محمد، ثم جماعة الهداية الإسلامية، وهكذا يدرك الشيخ ذلك البعد التاريخي بين المسجد والجهاد ضد اليهود.

ويأتي المحافظ في صلاة الفجر ليطلب من الناس أن يظلوا في أماكنهم وألا يتحركوا منها!

ويرفض الشيخ هذا المنطق ويقرر أنه لابد من التصدي لليهود. ويأمر الشيخ في التو الأخ المجاهد الشهيد أشرف عبد الدايم أحد أعضاء جمعية الهداية الإسلامية بأن يقوم بمحاولة سد مداخل المدينة ببعض السيارات بعد تدميرها وذلك لكي تكون كمتاريس لتعوق دخول اليهود المدينة. ويقفز الأخ أشرف كما لو كان يطير ويعود إلى الشيخ ليعطيه تمام قيامه بالمهمة.

يوم ٢٤ أكتوبر بدأت القوات الإسرائيلية في التحرك صوب السويس – فيما تستعد كمائن المجاهدين للعمل بعد أن أخذوا أسلحتهم من الجرحى والشهداء.

ويتصدى الكمين الأول لمجموعة من الدبابات مكونة من ثلاث عشرة دبابة ويصيب الكمين دبابة وتفر باقي الدبابات إلى داخل المدينة.

ويتصدى نفس الكمين لمجموعة أخرى من الدبابات ويصيب دبابة في مقتل ثم دبابة أخرى ثم توباز مما يشل حركة المجموعة ويفر أفراد المجموعة إلى قسم شرطة الأربعين الذي دارت المعركة بجواره تاركين وراءهم دباباتهم.

ويتصدى الكمين الثاني والموجود فوق مقهى أبو حجازية للدبابات التي فرت من الكمين الأول.. ويصيبون دبابة منها.

ويتصدى الكمين الثالث (الموجود فوق عمارة رونكا) لنفس المجموعة من الدبابات التي فرت من الكمين الأول مما يجعلها تفر في اتجاه بورتوفيق والتي كانت ملغومة فيتم تدمير تلك الدبابات (بواسطة تلك الألغام التي زرعها أبطال الصاعقة).

وتدور معركة أخرى في حي الأربعين بين المجاهدين وبين القوات اليهودية، وكان المجاهدون بقيادة الأخ الشهيد أحمد أبو هاشم، والأخ فايز حافظ والتي أسفرت عن تدمير ٦ دبابات بل وأحرقوها في أماكنها.

وتتوالى المعارك في داخل المدينة من منطقة إلى أخرى. وإذا بالقوات الإسرائيلية تأتي إلى منطقة مسجد الشهداء حيث أدركت تلك القوات أن المقاومة تنبع من المسجد. وتحاول تلك القوات محاصرة منطقة مسجد الشهداء وعمل كردون من سبعة دبابات حولها وكذلك ٣ مصفحات وتستطيع مصفحة منها أن تصل إلى أول شارع الشهداء وتضرب ضربات استكشافية في المنازل بل وتستطيع أن تصل إلى مسجد الشهداء بضرباتها. وأخرى تقف في أول الشارع وثالثة تقع في مدخل شارع سعد زغلول لضرب أي تحرك نحو المحافظة.

وكان بالدبابة التي تقف أمام المسجد حوالي ٨ أفراد وكان هدفها احتلال المسجد (مسجد الشهداء) بحراسة هذا الكردون من الدبابات والمصفحات.

ولكن عناية الله كانت لهم بالمرصاد فيقوم الملازم صفوت والجندي شوقي من القوات المسلحة الباسلة بضرب إحدى هذه الدبابات المحاصرة للمنطقة فإذا بهم يصيبونها – وتدرك باقي الدبابات مصدر النيران فتصوب مدافعها على المكان فيستشهد الملازم صفوت – وينجو الجندي شوقي. وكان أن تم فك الحصار وهروب الدبابات الإسرائيلية.

عودة إلى قسم شرطة الأربعين

بعد أن أتم الكمين الأول شل حركة الدبابات الإسرائيلية والمجموعة الثانية ودمر دبابتين منها وتوباز مما اضطر القوات الموجودة بها إلى تركها والالتجاء إلى قسم شرطة الأربعين.

و استطاع الجنود الإسرائيليون أن يحاصروا الضباط والجنود داخل خندق القسم حيث وقف جندي إسرائيلي أمام كل باب من أبواب الخندق وشهر سلاحة وطالب الموجودين بالخندق أن يلقوا أسلحتهم وأن يرفعوا أيديهم ويخرجوا. ولكن أحد الجنود الأبطال جاء من النافذة وأطلق النار على أحد الجنود اليهود مما جعل الآخر يفر.

وصعد جميع الجنود اليهود إلى الطابق الثاني من القسم..

وقام الشهيد إبراهيم محمد سليمان بمحاولة التسلق عن طريق دورة المياه للوصول إلى اليهود في الدور الثاني.. إلا أن اليهود استطاعوا أن يطلقوا عليه الرصاص فسقط شهيدا.

وقام الأخوة الشهداء إبراهيم محمد يوسف وأشرف عبد الدايم بالاشتباك مع اليهود. واستشهد الإخوان إبراهيم محمد يوسف – أشرف عبد الدايم.

وتجمع المجاهدون حول قسم الأربعين وبدءوا يضربون اليهود إلى أن حل الظلام وجاءت الطائرات الهليوكبتر وأخلتهم من القسم.

– ولقد حاول اليهود دخول المدينة لإنقاذهم ولكن المقاومة الصلبة حالت دون ذلك.

وهكذا لم يبق في المدينة جندي واحد يهودي حي – ولقد ترك اليهود خلفهم ٣٣ جثة غير ما سحبوه معهم من الجثث (اليهود يهتمون جدا بسحب جثثهم – ألا يدل هذا على صلابة المقاومة)..

وانتهى يوم ٢٤ أكتوبر بتدمير حوالي ١٨ دبابة ومصفحة و٥ عربات وقد قام بحرق هذه السيارات الأخ محمد عبد الرحيم مع بعض العمال العاملين معه في محل تصنيع كاوتش كان يملكه الأخ محمد عبد الرحيم.

ولقد استطاع الأخ محمد عبد الرحيم مهاجمة تلك السيارات وحرقها عن طريق إشعال النار فيها، ولم يكن مع الأخ ورجاله متفجرات.

يوم ٢٥ أكتوبر

وترفض المدينة الباسلة الإنذار بالتسليم – وتتضامن القيادة العسكرية الباسلة مع المدنيين المجاهدين في رفض الإنذار اليهودي والاستمرار في الدفاع عن المدينة، وكذلك تتضافر كافة الأجهزة الطبية والتموينية ومسئولو الكهرباء والمياه في عمل كل الجهود لإبقاء المدينة صامدة.. وتستمر المقاومة..

المقاومة تدمر ٦ دبابات في صباح ٢٥ أكتوبر.

الشيخ حافظ يدير حركة الجهاد من مسجد الشهداء.

أشاع اليهود عن طريق مكبرات الصوت أن المدينة قد استسلمت وأن على المدنيين والعسكريين أن يذهبوا إلى الإستاد الرياضي لتقوم القوات اليهودية بترحيلهم إلى القاهرة..

بيان تاريخي للشيخ حافظ سلامة

وهنا يتحرك الشيخ بوعي رسالي فذ ويصدر بيانا من مكبر الصوت الخاص بمسجد الشهداء.

نداء إلى المواطنين – بعد حمد الله تبارك وتعالى والثناء عليه - والصلاة والسلام على رسول الله [illegible] إن اليهود قد أنذروا المدينة بالاستسلام وأن المدينة قد قررت رفض الإنذار (بإذن الله تعالى) ومواصلة القتال إلى آخر قطرة من دمائنا – وعلى كل فرد من أفراد المقاومة أن يظل في موقعه ويدافع إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.. وما النصر إلا من عند الله.

وهكذا استمر المقاتلون في مواقعهم – واستمرت القوات الإسرائيلية في ضرب المدينة – وبلبلة الأفكار فيها.

وإزاء هذا قام الشيخ البطل بتوجيه إنذار إلى القوات الإسرائيلية عن طريق مكبر الصوت في مسجد الشهداء. جاء فيه:

(اعلموا أيها الجبناء أننا في حاجة إلى لقائكم مرة ثانية على أرض السويس–

وأن أرض السويس الطاهرة في حاجة أن تروى بدمائكم القذرة مرة ثانية – فإن استطعتم أن تدخلوا المدينة مرة ثانية فأهلا وسهلا بكم على أرض السويس ونحن في انتظاركم لنعطيكم دروسا أخرى بإذن الله تعالى).

وظل الشيخ يكرر هذا الإنذار مرارا وتكرارا.

فإذا اليهود الجبناء يوقفون إذاعتهم. وإذا بهم بعد رفض إنذارهم لا يطلقون طلقة واحدة. وألقى الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم.

وهكذا يأتي مدد الله سبحانه – للمجاهدين دائما.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

اليهود أدركوا أنهم أمام مقاومة إسلامية وبالتالي فلا يمكن قهرها.

مدد الله يأتي.. المعجزات تظهر..

في القرن الرابع عشر الهجري.. تظهر معجزات مباشرة.. فدائما مدد الله سبحانه وتعالى يأتي.. ولكن بعد أن يستكمل المجاهدون بذل ما في وسعهم.. ولقد بذل المجاهدون في السويس أقصى طاقاتهم.. فجاءهم مدد الله تعالى مباشرا.

كان بالمدينة جراج وقد ضرب ذلك الجراج واحترقت كل السيارات الموجودة به ما عدا سيارة واحدة حفظها الله. فإذا بها محملة بالذخيرة فقد كان بها ٧٦ صندوقا من مختلف الذخائر.

يوم ٢٦ أكتوبر – يوم عيد الفطر مزيدا من المعجزات. كان هناك اتجاهان..

الأول : هو أن نصلي وأن يكون هذا تحديا لليهود.

والثاني : هو عدم الصلاة على أساس أن صلاة العيد سنة. وأن المدفعية الإسرائيلية تصل إلى المسجد والمنازل المحيطة به.

وقرر المجاهدون إقامة الصلاة. وبمكبرات الصوت.. وبدأ التكبير والتحميد وتوافدت الجماهير المسلمة إلى المسجد. لتعلن إسلاميتها ولتعلن تحديها من مسجد الله لأعداء الله.. وكذلك جاء أفراد الجيش الثالث لأداء الصلاة وازدحم المسجد- وخارج المسجد بالمصلين.. وتتم الصلاة.. والطائرات تحوم – والمدفعية تقصف دون أن تستطيع طلقة واحدة.. أن تصيب فردا واحدا من المصلين..

الله أكبر.. لا إله إلا الله..

الله أكبر.. ولله الحمد..

الله أكبر كبيرا.. والحمد لله كثيرا.. وسبحان الله بكرة وأصيلا..

الله أكبر.. أعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله.. ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون...

ويحفظ الله المصلين.. ويحرسهم بجند من عنده.. إنها معجزة رائعة واضحة أوضح من الشمس.. لا أستطيع معها أن أكتب أي تعليق.

إنها معجزة نعجز حقا عن وصفها..

وتتصاعد الدعوات الطاهرة من القلوب المؤمنة.

ويخرج الشيخ حافظ سلامة إلى خارج المسجد ليعانق الناس فردًا فردًا وليعطي كلا منهم كعكة من كعك العيد وكوبا من الشاي، ويأتي من ينبهه إلى أن الطائرات اليهودية فوق رأسه فيقول الله أكبر الحافظ هو الله.. وأننا في رعاية الله وحفظه ولن نمس بسوء إن شاء الله تعالى..

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ حقا.. إنها أعظم اللحظات في تاريخنا المعاصر. يذكر بعض شهود توزيع الكعك أن الشيخ حافظ قد وزع الكعك على آلاف المصلين من أهالي السويس ومن جنود الجيش الثالث من صندوق كان معه، ويستعجبون كيف لم ينفذ ذلك الصندوق..

ويرددن إنها بركة من الله.. لا شك أن صلاة العيد كانت عملا مذهلا. فقد أصبحت السويس بعدها والجيش الثالث تملك روحا معنوية هائلة. ولم تعد قابلة للهزيمة على الإطلاق.

ولم ينس الشيخ المجاهد.. رجاله المجاهدين في مواقعهم فأرسل لهم النقيب البطل حسن أسامة بكعك العيد.. وتهنئة الشيخ.

هدية العيد من الله

أمام مدرسة التجارة الثانوية يشتبك المجاهدون مع الدبابات الإسرائيلية ويصاب سور المدرسة ويسقط شهيد.

عند مصنع الأزرار يشتبك كمين من المجاهدين مع الدبابات الإسرائيلية ويسقط شهيد آخر.

عند وابور المياه يشتبك المجاهدون مع دبابة كانت تريد اقتحام وابور المياه واحتلاله. فيدمرها المجاهدون...

وهكذا كانت هدية العيد من الله للمجاهدين ٦ دبابات.

وظل المجاهدون يقاومون إلى أن يئس العدو فأرسل الصواريخ وطلقات المدفعية دون جدوى.

وهكذا كانت حصيلة المعارك ٣٢ دبابة ومصفحة و٥ سيارات تحمل إمدادا ولم يستطع اليهود دخول المدينة.. بفضل الله تبارك وتعالى..

قوات الطوارئ الدولية تأتي.

أعطى الشيخ تعليماته بعدم التعرض لقوات الطوارئ الدولية فما كان من العدو الغادر إلا أن تسلل من خلال قوات الطوارئ ويتقدم نحو المدينة تحت علم قوات الطوارئ الدولية.

ودخل اليهود من منطقة المثلث تحت هذا الستار (القوات الدولية) وكان على الشيخ أن يتحرك، وأعطى تعليماته أن يتصدى المجاهدون لأية قوة تحمل سلاحا.

فقام المجاهدون بالتصدي لليهود في منطقة الرفيات وأجبروهم على الفرار.

وتستمر المدينة في الصمود.. برغم حصار الجوع والعطش وبرغم ضرب المدفعية المستمر مع وجود قوات الطوارئ...

وكان المجاهدون يقومون بغارات على اليهود في أطراف المدينة.. حتى صرخ اليهود ولعنوا جولدا مائير.

المدينة تصمد للحصار

قام اليهود بمنع المياه وذلك بقطع الترعة الحلوة عن المدينة.. ولكن عناية الله أكبر..

وتشح المياه تماما حتى أنه لا توجد مياه لغسل دورة مياه المسجد، ويشاء الله سبحانه أن يوفق الشيخ حافظ والشيخ عبد الله رضا (أحد المجاهدين الصامدين – وهو أحد الوعاظ الشرفاء)... فيقوم الشيخ عبد الله رضا بحفر بئر أمام المسجد

على أساس الحصول على مياه مالحة لتنظيف دوره المياه بها ويشاء الله سبحانه أن تخرج المياه عذبة – وتشرب المدينة الباسلة... إنه مدد الله سبحانه...

سكر وفاتحة

ويأتي إلى الشيخ حافظ أحد رجال السويس وهو الحاج مبارك (٩٠ سنة) ويخبر الشيخ أن هناك بئر قديمة اسمها بئر سيدي المدبولي، وأن هذه البئر كانت تستخرج منها المياه بعد قراءة الفاتحة..

وذهب الشيخ إلى البئر وقرأ الفاتحة وإذا بالمياه تتدفق – فتتغذى المدينة – وتغذي الجيش المحاصر بسيناء.. واستمر تدفق المياه حتى نهاية الحصار..

حصار الجوع

وتصمد المدينة للجوع – فكان تعيين كل فرد نصف كيلو سكر، وعلبة برلوبيف وعلبة سردين وعلبة باميا.. وهذا تعيين الفرد لمدة ٢٠ يوما.

وكانت روح الإيثار تظهر – فكان كل عشرة يشاركون في علبة واحدة ليوم كامل – ومعها رغيف خبز واحد لكل منهم.

وهكذا استطاع المسجد (مسجد الشهداء) أن يشرف على صمود المدينة للجوع..

ولكن من أين يأتي السولار لإدارة المخابز.. إنه مدد الله..

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يترك أحد الجنود سيارته المحملة بالسولار داخل أحد الحواري بالمدينة (خشية إصابتها بالطيران) ويقوم المجاهدون بالاستفادة منها وتوزيعها على المخابز – لتقوم بخبز حاجات المدينة..

وهكذا كان الله دائما مع المجاهدين..

واستمر صمود السويس.. وصمود الجيش المحاصر.. ليشكلا معا ملحمة إسلامية رائعة – وليفسدا معا طبخة كيسنجر اليهودي..

وهكذا فإن صمود السويس يشكل حلقة رائعة من حلقات الصمود العظيم على خط الإسلام الحنيف في مواجهة آخر حلقات التآمر الشيطاني وليثبت:

كيف أن المسجد يلعب دورا في قيادة حركة الجماهير المسلمة والمجاهدة.

وكيف كان المسجد يلعب دوره في التصدي للتضليل اليهودي ومنع استسلام

المدينة.

وكيف كان المسجد: مقر قيادة قوات المجاهدين والمقاومة بالسويس.

وكيف كان الشيخ حافظ ذلك المجاهد الذي قاتل اليهود ١٩٤٤، ١٩٤٨ والإنجليز ١٩٥١ كيف كان ذلك الشيخ هو القيادة الطبيعية للجماهير المسلمة.. التي التفت حوله لتعلن بوضوح أن القيادات الإسلامية الرسالية وحدها هي القادرة على مجابهة التحدي وتحريك الجماهير.

وكيف كان الإسلام – والإسلام وحده هو الإطار الصحيح للتحدي، وكيف كانت الطاقات الهائلة تنفجر من خلال ذلك الدين المكافح.

وكيف أن «الإسلامية – حرب التحرير الشعبية» هي الشعار الصحيح الذي ما إن تمارسه الجماهير حتى تخر الصهيونية راكعة ومدركة عدم قدرتها على مواجهته.

وكيف أن مدد الله تعالى دائما يأتي للمجاهدين.. انظر تفجر المياه العذبة والعربة المحملة بالسولار.. وكذلك احتراق كل السيارات ما عدا السيارة المحملة بالذخائر.. إنه مدد الله..

وكيف أن الرعب يصيب اليهود بمجرد الاحتكاك بالجماهير المسلمة..

وكيف أن الفتية المسلمين.. قد شاركوا في المعركة.. وذلك بمد المجاهدين بالذخائر.. شباب في سن ١٢ – ١٤ عامًا في المرحلة الإعدادية..

كيف حاولت الأجهزة العلمانية – والسلطة السياسية – وجميع القوى السياسية الحاكمة أن تتجاهل معارك السويس.. وشهداء جماعة الهداية الإسلامية وبطولة الشيخ حافظ سلامة.. حيث إن هذا يسقط كل قناعاتهم الفكرية وفلسفاتهم العلمانية الهشة يمينية – ويسارية. كما أن هذا الإطار يفسد كل حلول التسوية التي تؤمن بها تلك الجهات العلمانية المهادنة.

حقًا وما النصر إلا من عند الله..



قصة الشيخ حافظ مع المحافظ

في يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ تقدمت إسرائيل بإنذار إلى مدينة السويس وكان الإنذار عبارة عن تهديد بدك المدينة من الجو وبالمدفعية الثقيلة والدبابات الإسرائيلية على مشارف المدينة.. وقرر المحافظ وفقا لحساباته الخاصة تسليم المدينة.. ونما الخبر إلى علم الشيخ حافظ فقرر أن يتحرك بسرعة. واتصل الشيخ حافظ بالحاكم العسكري للمدينة وعقد اجتماعا في مقر جمعية الهداية بالدور الثاني في مسجد الشهداء.

وعرض الحاكم العسكري على الشيخ حافظ قرار المحافظ بالتسليم ورفض الشيخ حافظ بشدة. وكما يروي الشيخ حافظ بأن المحافظ اتصل بالحاكم العسكري أثناء وجوده مع الشيخ في مقر جمعية الهداية ودار حوار بين الحاكم العسكري وبين المحافظ. وقال المحافظ للحاكم العسكري لماذا لم تجهز الرايات البيضاء إنه لم يبق على موعد التسليم سوى ساعة، ورد الحاكم العسكري على المحافظ بأن الشيخ حافظ يرفض التسليم، وتعجب المحافظ وهل الشيخ حافظ مدني أم عسكري؟ هل هو القائد أم أنا؟ هل أنت تنفذ أوامري أم تنفذ أوامر الشيخ حافظ؟ ولماذا أصلا تجلس مع الشيخ حافظ؟ ورد الحاكم العسكري على المحافظ بأن هذه المعركة معركة مع اليهود وبالتالي فإن رجال الدين مثل الشيخ حافظ يجب أن نأخذ رأيهم.

ويروي الشيخ حافظ: وهنا انفعل المحافظ وقال له نفذ الأوامر ولكن الحاكم العسكري قال: حسنا أعطني عشر دقائق وسوف أتصل بك.

ووضع الحاكم العسكري سماعة التليفون والتفت الشيخ حافظ إلى الحاكم العسكري وقال له لن نسلم مهما كان الأمر ومهما كانت الظروف. وحدث نقاش بين الشيخ حافظ والحاكم العسكري حاول الحاكم العسكري أن يشرح للشيخ حافظ كيف أن المدينة مهددة بالتدمير. وكيف أن الأمور التموينية سيئة

للغاية.

ورد الشيخ حافظ على الحاكم العسكري بأن المدينة تتعرض للتدمير منذ ست سنوات فلنجعلها ست سنوات وأيام، وأن المدينة تتعرض للقصف بالطيران وبالمدفعية منذ ١٩٦٧. فما الداعي للخوف من القصف. وبالنسبة للمواد التموينية فمتى كان المسلمون يخافون حصار الجوع.

وكما يروي الشيخ حافظ فإن الحاكم العسكري للمدينة كان رجلا شجاعا. كان قلبه مع الشيخ حافظ. كان مع عدم التسليم والمقاومة حتى آخر رجل.

واتصل الشيخ حافظ بمدير التموين الذي أعلن بشجاعة نادرة أنه سوف يتكفل بأمر التموين وسينجح إن شاء الله.

وهنا اتصل الحاكم العسكري بالمحافظ وأخبره بأن الرأي قد استقر على عدم التسليم. وأسقط في يد المحافظ.

في ذلك الوقت كانت مكبرات الصوت التابعة للمحافظة تعلن للناس أن المدينة قررت الاستسلام وأن على الناس أن يذهبوا إلى الإستاد.

ولكن حركة الشيخ مع كل من الحاكم العسكري ومدير التموين استطاعت أن توقف أثر هذه المكبرات التابعة للمحافظ وأمسك الشيخ مكبر الصوت الخاص بالمسجد وأعلن أن المدينة لن تستسلم وأن الشيخ حافظ مسئول عن كل المدنيين والعسكريين في المدينة..

وذهب المحافظ كما يروي الشيخ إلى أحد البيوت ليقبع فيه مكتفيا بشرب العصير المثلج في الوقت الذي راح فيه الشيخ حافظ والحاكم العسكري ومدير التموين يعدون العدة للمقاومة. واستمرت المقاومة الباسلة. ولم تستسلم المدينة.

معجزة أخرى

كان الشهيد إبراهيم سليمان قد أوصى بأن يصلي عليه الشيخ حافظ شخصيا وأن يقوم الشيخ أيضًا بدفنه ولكن حالت ظروف المعركة دون ذلك.

بعد المعركة بحوالي عام كان قد تقرر نقل جثث الشهداء إلى مكان آخر. وجاء الشيخ ومعه مجموعة من الرجال ليقوموا بنقل الجثث. وكانت المفاجأة التي

اذهلت الجميع.. لقد وجدت جثة الشهيد كما هي دون أن تتحلل. كان الشهيد كما يروي الشيخ ما زال مبتسما برغم مرور عام على وفاته. كانت رائحة أطيب من المسك تنبعث منه.

ونادى الشيخ على كل الحاضرين. هل تذكرون وصية الشهيد؟ قالوا : نعم نذكر انه قد أوصى بأن تقوم أنت بالصلاة عليه ودفنه، وقال : ها هو جثمانه ما زال كما هو لم يتحلل. إنه ينتظر أن نوفي بوصيته، وقام الشيخ بالصلاة عليه ودفنه في المكان الجديد. وهكذا أراد الله لوصية الشهيد أن تتحقق.

4

الباب الرابع

النضال السياسي كوسط هندسي
بين التربية والعنف
الشيخ المحلاوي نموذجًا

لاشك أن الشيخ أحمد المحلاوي يأخذ أهميته التاريخية من عدة مسارات :

١- تطور الشيخ أحمد المحلاوي بالحركة الإسلامية في مصر من السبعينيات من حركة حض على مكارم الأخلاق والاهتمام بزي الجماعة وأسلوب التربية وبناء الصف إلى حركة الجهاد السياسي .

٢- الشيخ أحمد المحلاوي يمثل الطرح الإسلامي المتقدم الذي يترك حقيقة وأبعاد الصراع في المنطقة وبالتالي أولويات المهام الإسلامية . فقد دفع بالحركة الإسلامية صوب اعتبار القضية الفلسطينية : القضية المركزية للحركة الإسلامية وليست أحد وصايا الحركة الإسلامية .

٣- الشيخ أحمد المحلاوي يمثل رجل الدين الثائر ـ والذي رفض خدمة كل نظام كما يمثل الصلابة الإسلامية والعفة عبر رفض كل محاولات إغرائه بالعمل في دول النفط واختيار الإسلام المريح الذي يدر ريالات ونومًا مريحًا واختار الإسلام الخطر الذي يؤدي إلى السجون والحياة على الكفاف له ولأولاده .

٤- الشيخ أحمد المحلاوي يمثل القيادة الإسلامية التي تجمع العفة والنزاهة والقدرة على تحريك الجماهير المسلمة .

٥- الشيخ أحمد المحلاوي يمثل ذلك الفقيه المسلم الذي يقف مع الفقراء والمستضعفين .

ظاهرة النضال السياسي :

طرحت الحركة الإسلامية في السبعينيات أساليب عمل مختلفة منها :

(أ) الحض على مكارم الأخلاق عبر الدعوة إليها .

(ب) بناء الشخص المسلم في مجموعات داخل المساجد وبمعزل عن الجماهير .

(ج) دعوة الجماهير بوهم أنها قادرة على تنظيم كل الشعب أو ٧٥٪ منه كما جاء في بعض الكتابات وذلك لصنع الصف المسلم .

(د) العمل كبديل للجماهير وليس كقيادة لها . وهكذا وبصرف النظر عن مدى انطباق ذلك بالكامل أو انطباقًا هندسيًا على واقع الحركة الإسلامية في السبعينات وبصرف النظر عن ظروف الضربات القاسية والتصفيات الرهيبة

والمعاملة الوحشية التي لاقاها أبناء الحركة الإسلامية . فإنه لابد من وقفة مع تلك المقولات والتي تجعل المرء المسلم في ممارسة للنقد والنقد الذاتي يقف بالكامل مع أسلوب الشيخ أحمد في النضال السياسي .

طرح الشيخ أحمد المحلاوي في مواجهة ما سبق ـ طرح أسلوب النضال السياسي بالمعنى الإسلامي .

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق الأرض وجعل الإنسان خليفة لها فإنه سبحانه قد صممها بشكل رباني مكتملة الحكمة وملبية درجات الإنسان . وبالمقابل فإنه أعطى الإنسان العقل وجعله قادرًا على الخلافة في الأرض وزوده بكل ما يحتاج إليه في تلك الخلافة .

لقد صمم الله سبحانه الكون كله لخدمة الإنسان من ناحية ويقوده، الإنسان ببساطة شديدة إلى الله في كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون . إن كل ما في هذا الكون يقود إلى الله .

وخلق للإنسان عقله الذي يستطيع به وبسهولة تامة الوصول إلى الله ومعرفته .

وهكذا فإن الكون والعقل معًا يقودان إلى الله .

ولم يكتف بذلك بل إن الله قد أودع في فطرة الإنسان وجود الله ويأخذ عليه ميثاقًا قبل أن يستخلفه في الأرض .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف].

كما أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر الإنسان من فترة إلى أخرى وذلك الميثاق عبر الأنبياء والكتب السماوية والعلماء الذين يدعوان إلى الله .

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أقام على الناس الحجة الكاملة ولكن القوى الشيطانية وبالمقابل وضمن سنن الله سبحانه وتعالى كان عليها أن تحاول منع الإنسان من الوصول إلى الله .

ولما كان العقل والكون وكل شيء يقود إلى الله وأن التفكير الحر البسيط يقود إلى منهج الله ببساطة شديدة فإن القوى الشيطانية قد حددت دورها في :

١- منع الإنسان من حرية التفكير ـ وحرية المناقشة ومختلف الحريات السياسية ـ حتى لا يسمع الإنسان إلا صوتًا واحدًا وهو صوت الضلال ، ذلك أن تلك القوى تدرك أن إطلاق حرية الإنسان سوف يقود إلى اختيار الإنسان لطريق الله سبحانه وتعالى .

وبالتالي يترتب على القوى الإسلامية أن تقف مع إطلاق كافة الحريات السياسية ، لأن ذلك يقود الجماهير إلى الله .

٢- قمع الإنسان اقتصاديًا وحرمانه ودعم الطبقات المستغلة التي تكبل الإنسان بما أنه غارق في تأمين لقمة عيشه ـ من الوصول إلى الله .

وبالتالي فإن القوى الإسلامية تتصدى لكافة أشكال الظلم .

٣- إغراق الإنسان في الضلالات الاجتماعية المختلفة التي تعوقه عن الوصول إلى الله مثل الدعوات القومية والعرقية العنصرية والتعصب للوطن أو العائلة والقبيلة .

ولذا فإن القوى الإسلامية عليه أن تسقط كل تلك الانتماءات لتحرر الجماهير منها .

ولقد أدرك الشيخ أحمد المحلاوي ذلك وبالتالي فإنه فهم دور الحركة الإسلامية التي عليها أن تزيل كل تلك العقبات ثم تترك الناس حرية الاختيار .

وهكذا اختار الشيخ أحمد المحلاوي أسلوب النضال السياسي للتصدي مباشرة لمعالجة الجذور وبالتالي فقد وبصلابة مع :

١- إطلاق حق الجماهير في التفكير والمناقشة وحق الاجتماع وحق التظاهر وحق إصدار الصحف وحق إقامة التنظيمات العلنية مستقلة .

٢- وقف الشيخ أحمد بصلابة مع الفقراء ودعا إلى العدالة الاقتصادية وحق كل إنسان في المأكل والمشرب والمسكن والمواصلات .

٣- وقف الشيخ أحمد ضد كل أساليب التجهيل من دعوات وطنية أو قومية أو قبلية .

وهكذا أدرك الشيخ أحمد المحلاوي أنه بإسقاطه للاستبداد السياسي والظلم

الاقتصادي والتجهيل الاجتماعي فهو في الحقيقة يدفع الناس إلى الإيمان بالإسلام بيسر وسهولة مع الأخذ في الاعتبار أن انحدار الأخلاق ـ وخلاعة المرأة وغيرها ما هي إلا نتائج وأن الإصلاح الصحيح يبدأ من الجذور فالإسلام أصلا تحرير الإنسان من كافة القيود السياسية والاجتماعية وتركه يختار بحرية .

وقد رفض الشيخ أسلوب التربية بمعزل عن الجماهير فالحقيقة أن الدعوة الإسلامية موجهة أساسًا لكل الناس وعلى الجميع أن يدركوا أنهم ليسوا فرقة جديدة بل عليهم أن يناضلوا مع الجماهير في مشاكلهم اليومية وأن يلتحموا بها كأعمق ما يكون الالتحام وأيضًا رفض الشيخ أحمد مسألة تكفير الناس . فقبل أن نحكم على الناس علينا أن نحررهم من كل العوائق والسدود ثم نحكم عليهم .

(٢)

فهم الشيخ أحمد المحلاوي بوعيه الإسلامي الفذ حقيقة الصراع في المنطقة وأدرك أن إسرائيل في النهاية ليست إلا رأس جسر للقوى الشيطانية تستهدف قلب الأمة الإسلامية وأن توجهها الحقيقي هو الإسلام والجماهير المسلمة .. وأن أهم أهداف إسرائيل هو تطويق حركة الجماهير المسلمة وصرفها عن مهماتها وإغراقها في مشاكلها ليسهل لها بلع العالم الإسلامي وتدميره النهائي . وهكذا فإن الشيخ أحمد أدرك أن الصراع مع إسرائيل هو مع الجماهير المسلمة وحرياتها وأرضها وخبزها وهكذا فقد أدرك أن حرب التحرير الشعبية الإسلامية هي السبيل الوحيد لتحرير الأمة الإسلامية من الخط الصهيوني ، ولذا فقد رفع شعار أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية في هذه المرحلة ولم يساو بينها وبين غيرها من القضايا مع أهمية القضايا الأخرى .

(٣)

الشيخ أحمد المحلاوي يمثل رجل الدين الثائر . ولقد حاول الاستعمار بكل أجهزته ووسائله خلق انفصام بين العالم المسلم وبين الجماهير وخلق جو من عدم الثقة بينهما ، وذلك أن الاستعمار يدرك أنه بذلك ينفرد بتلك الجماهير بدون سلاحها العقيدي ويحمله بأسلحة زائفة من صنعه مثل الاشتراكية

والليبرالية والقومية وغيرها ليسهل عليه بعد ذلك هزيمة الجماهير وصرفها عن واجباتها وتحويلها إلى كيان لا وجود له وبالتالي إلى عبيد لخدمة مصالحه ومن ثم القضاء النهائي على الإسلام وعلى الجماهير المسلمة التي هي في الحقيقة الخطر الحقيقي على الاستعمار .

ولقد وقف الشيخ المحلاوي ضد كافة أساليب الترغيب والترهيب شامخًا . وقف مع الجماهير ولم يخنها عبر تركها وحيدة للذهاب حيث البترول والريالات والإسلام المريح . ولم يخنها عبر إغلاق بابه في وجهها ولذلك فإن الشيخ المحلاوي وبما أنه جزء من تلك الجماهير المسلمة الفقيرة فقد أصبح رائدًا لها :

الشيخ المحلاوي يسكن فوق سطح إحدى العمارات في غرفتين فقط .

الشيخ المحلاوي يتواجد في الحي الذي يسكن فيه بشكل مستمر عبر مشاركة الجماهير في كل مشاكلها اليومية وبالتالي فإنك في أي مكان في حمامات كليوباترا بالإسكندرية تستطيع أن تستدلي من أي شخص ـ رجل أو امرأة عجوز أو حتى طفل ـ على مسكن الشيخ أحمد .

(٤)

الشيخ أحمد المحلاوي وانطلاقًا مما سبق فقد أصبح موضع ثقة الجماهير وهو في الأصل يثق فيها وبالتالي فهو قادر على تحريكها في أي لحظة وفي الاتجاه الصحيح والشيخ أحمد يثق في الجماهير تمامًا ولا يتصرف بديلاً عنها ولكنه يسلحها بالوعي لتخوض هي معاركها بنفسها فهي صاحبة المصلحة في تلك المعارك وبالتالي فقد أسقط وهم أن يتصرف الإسلاميون بديلاً عن الجماهير .

(٥)

الشيخ أحمد يقف مع المستضعفين في كل مكان من العالم ويدافع عن حقوق الفقراء تمامًا ويدرك أن الحماية الحقيقية للطليعة المسلمة هي الجماهير وأن بناء الصف الإسلامي الطويل مهما طال فإنه يسهل ضربه . بل إن عليه أن يسلح الجماهير بالوعي ويقف معها ويخوض معها معاركها حتى النهاية فلسنا بديلاً للجماهير مهما كبر صفنا الطويل وأن حكاية دعوة الناس حتى يصبح ٧٥٪ من

الناس منظمين إنما هو وهم تاريخي ولم يحدث في تاريخ الدعوات الربانية ولكن على المسلم والداعية أن يدافع عن حقوق الجماهير المستضعفة فإن هذا هو السبيل الوحيد لتحريرها وتحقيق إسلامها فالإسلام منهج طليعة مؤمنة تقود أوسع الجماهير وبخاصة المستضعفة في اتجاه انتزاع حقهم في الحريات والحياة الكريمة وحق اختيار عقائدها ومشاركتها في رسم مستقبلها .

حياة الشيخ أحمد المحلاوي :

ولد الشيخ أحمد المحلاوي في إحدى قرى كفر الشيخ بمصر ونشأ يتيمًا وحفظ القرآن وقد عانى مثلما يعاني كل الفقراء من شظف الحياة والعمل بأجر يومي لدى المستكبرين وهكذا تحمل مسئوليته تجاه أسرته وهو في سن صغيرة .

ترعرع الشيخ أحمد في جو الفقراء والقرآن الكريم فخرج مسلمًا ثوريًا لأنه لم يمارس يومًا الاستكبار أو الترف .

وقد اختار أن يدخل كلية اللغة العربية وهكذا فقد كان هذا مدخلا رائعًا ليفهم القرآن ويتفاعل معه .

مارس الشيخ أحمد في كلية اللغة العربية بالأزهر النضال السياسي كما يمارسه الأزهريون الشرفاء لتعديل أحوال الأزهريين وإصلاح أسلوب الدراسة في الأزهر.

تخرج الشيخ من كلية اللغة العربية وكان خريجو تلك الكلية يعملون بالتدريس ولكنه رفض مهمة التدريس معلنا أنه لا بد أن يكون إمامًا في مسجد لأن هذا هو دور المسلم الأزهري الواعي واختار العمل بالمساجد مع الأخذ في الاعتبار أن ذلك العمل كان غير مجز ماديًا وهو في السلم الاجتماعي السائد أقل من مهنة التدريس (كان ذلك في أواخر الخمسينات) .

بدأ الشيخ أحمد حياته كإمام في إحدى قرى محافظة كفر الشيخ وقد قام بتعبئة الفلاحين للتضامن فيما بينهم وأسس منهم جمعيات تعاونية للبر والتعاون على قضاء حاجاتهم مثل مساعدة الأسر الفقيرة ووصل به الأمر أنه قاد الفلاحين لرفض كل ما هو غير إسلامي في الحياة اليومية وفي فترة قصيرة أصبح زعيمًا حقيقيًا لفلاحي القرية .

وقد بدأ الشيخ أحمد دروسًا خصوصية داخل المسجد لأبناء وبنات الفلاحين مستغلا ذلك في توعيتهم بالوعي الإسلامي الصحيح وتعويدهم على الصلاة ذكورًا وإناثًا كما أنه شيئًا فشيئًا دعا الفتيات إلى الزى الإسلامي .

نقل الشيخ أحمد إلى الإسكندرية وعمل بمسجد القائد إبراهيم واستمر في سعيه في الاندماج مع الجماهير المسلمة فاستمر في عمل الدروس الخصوصية في كافة التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي . كما قام بإعطاء دروس الإسلام عقب الصلوات وبمواعيد محددة ولم يقتصر على مسجد القائد إبراهيم بل سعى إلى كل المساجد .

ولقد خطا الشيخ أحمد خطوة رائدة إلى الإمام وذلك بتدبير وتوفير الأجهزة العلمية مثل الميكروسكوبات وغيرها والشرائح العلمية لطلبة الكليات العملية داخل المسجد ودعا الأساتذة المسلمين إلى إلقاء المحاضرات العلمية على طلبة الجامعة بالإسكندرية . وهكذا فإن الشيخ أحمد قد جعل محور الحركة ومركزها داخل التجمعات السكانية وخصوصا الفقيرة في الإسكندرية .

دعا الشيخ أحمد إلى زيادة الأجور وتخفيض الأسعار والمساواة الاجتماعية وندد بسياسة إفقار الجماهير بزيادة أسعار السلع دون أن يقابلها زيادة في الأجور .

وقف الشيخ أحمد بشدة ضد تزوير الانتخابات في الجامعات المصرية ودعا إلى إطلاق الحريات السياسية وإلى العدل الاجتماعي وحق الجماهير في الحياة الكريمة وحرية إصدار الصحف وتشكيل الأحزاب العلنية وحق الاجتماع والتظاهر وحرية إبداء الرأي .

دخل الشيخ أحمد المحلاوي انتخابات مجلس الشعب في ١٩٧٩ ضمن مجموعة من المرشحين المسلمين وأعلن برنامجه الانتخابي كل من عادل عيد المحامي والشيخ محمود عيد وغيرهم في الإسكندرية داعيًا إلى :

١ـ رفض الانفتاح وسلوك النمط الإسلامي في التنمية .

٢ـ حق الجماهير في الحريات والحياة الكريمة .

٣ـ رفض كل الاستبداد .

٤ـ ربط الأجور بالأسعار .

٥ـ رفض سياسة كامب ديفيد والتصالح مع رأس الهجمة الاستعمارية في الوطن المحتل .

ولكن النظام قام بتزوير الانتخابات مما جعل جماهير الإسكندرية على وشك الانفجار .

كان الشيخ أحمد يتصدى بشكل مستمر لمشاكل المسلمين اليومية في خطب الجمعة مما دفع أوسع الجماهير إلى الذهاب إلى مسجد القائد إبراهيم لسماع خطبه وذلك لأنه يعبر عن همومهم فلقد ناقش الشيخ أحمد في خطبه مشكلة الإسكان والمواصلات والغلاء والصراع مع اليهود والحريات العامة وغيرها .

وهكذا صعد الشيخ أحمد بسرعة إلى قيادة الجماهير في الإسكندرية لأنه وبالتحديد كان يوجه النقد إلى المسئول عن الإهمال والقصور محددًا أن لكل مسلم حقًا في رقبة رئيس الجمهورية مباشرة وأن رئيس الجمهورية بالتحديد هو المسئول الأول وأن أي خطأ أو قصور أو انحراف يمارسه أصغر مسئول فإنه يقع على عاتق رأس النظام وهكذا فقد قفز بوعي الجماهير خطوة هائلة إلى الأمام وأصبحت الثقة بينه وبين الجماهير قوية لدرجة لا يمكن فصمها .

رفض الشيخ أحمد من موقعه على المنبر كل أشكال الترف والبهرجة مثل إنفاق (٢٠مليون جنيه) على افتتاح قناة السويس معلنا أن هناك الكثيرين الذين لا يجدون مساكن كان من الأجدى أن تبنى بتلك الأموال مساكن لهم بدلا من سكناهم في القبور .

رفض سياسة الانفتاح لأنها تربط اقتصادنا بالغرب الذي لا يضمر لنا أي خير ودعا إلى سلوك نمط خاص في التنمية الاقتصادية يعتمد على الشريعة الإسلامية وعلى الاقتصاد الإسلامي .

استمر الشيخ أحمد في تنديده المستمر بسياسة كامب ديفيد معلنا أن لا صلح مع دولة اليهود لأنها كيان استعماري يستهدف قلب الأمة المسلمة وأن ها

توجهات عقائدية وتاريخية وأن التناقض بيننا كمسلمين وبينها تناقض لا يحله إلا فناء أحد الطرفين . فهي تستهدف حضارتنا وديننا وأرواحنا .

وهكذا فإن الشيخ أحمد كان الوجه الصحيح لنضال المسلمين في تلك المرحلة مما جعل الشرفاء من السياسيين يميلون إلى الاتجاه الإسلامي واتخذوا من مسجد القائد إبراهيم مجالا للحركة وعمل الندوات ، ولذا فقد أصبح مسجد القائد إبراهيم هو قيادة المعارضة في مصر جميعها وجاء إليها كل المعارضين ليلتقوا بالجماهير مباشرة .

ولم يكتف الشيخ أحمد بذلك بل أنه جاب كل قرى مصر ومدنها وجامعاتها داعيًا إلى الإسلام الحقيقي .

وقد ندد الشيخ أحمد المحلاوى باستقبال السادات لشاه إيران معددا جرائم الشاه وأعلن أن مصر الإسلامية لا يليق بها أن تستقبل جلادي الشعوب وسفاحيها وسافكي دمائها .

أيد الشيخ أحمد بلا تحفظ عملية احتجاز الجواسيس الأمريكان في وقر الجاسوسية الأمريكية في إيران وأعلن أن على كل مسلمي العالم أن يقفوا ضد الشيطان الأكبر أمريكا .

وهكذا فإن الشيخ أحمد قد أصبح بما يملك من وعي فذ ومن ثقة الجماهير يمثل خطرا حقيقيا على النظام وعلى المصالح الأمريكية التي يفضحها أسبوعيا وقد دعا إلى إلغاء القواعد الأمريكية (في رأس بناس على شاطئ البحر الأحمر) وهكذا تحرك المستكبرون ليضعوا سدا بين الشيخ وبين الجماهير .

بدءوا بإغرائه في العمل في دول النفط وبالبعثات إلى أوروبا والعمل في المراكز الإسلامية ولكنه رفض أن يخون الجماهير .

وهكذا جاء القرار بإيقاف الشيخ أحمد عن العمل ومنعه من خطبة الجمعة لينصلوا بين الرجل وجماهيره .

ولأن الشيخ أحمد كان أملاً للجماهير المسلمة . وقد دافع دائمًا عنها وقد عرفها وعرفته فإن تلك الجماهير رفضت القرار تمامًا وتدافعت الملايين إلى

مسجد القائد إبراهيم وأصبحت منطقة المسجد تغص بالجماهير المليونية التي تداعت إلى التظاهر لعودة الشيخ أحمد وقد أسقط في يد قوات الأمن التي جاءت بعرباتها بل ومدرعاتها التي أطاحت بها الجماهير من كل جانب، بل إن بعض الجماهير قد ركبت هذه العربات والمدرعات وتبادلت الحديث مع الجنود الذين يقفون بقلوبهم مع الشيخ أحمد ، وبدا أن مظاهرة مليونية ستخرج وأن عصر الجماهير المسلمة سيبدأ ولكن المرجفون والمثبطون دعوا الجماهير كالعادة إلى الهدوء والحذر والحكمة .. إلخ .

واستطاعوا أن يفرغوها من الحماس وهكذا انصرفت الناس وظل الشيخ وحيدًا بعد أن كان محروسًا من الملايين التي كانت قادرة على حمايته وإرجاعه إلى مكانه في المنبر وكانت قادرة على ما هو أكثر من ذلك لولا المثبطون ودعاة الحكمة .

وهكذا بعد أن فقد الشيخ أحمد الدرع سهل على النظام اعتقاله ولكن الرجل صمد صمود الأبطال في معتقله حتى أفرج عنه .

ولكن هناك إشارة نود أن نسجلها قبل أن ننهي هذا الفصل وهي : لماذا كان السادات منفعلاً أشد الانفعال تجاه الشيخ أحمد المحلاوي ، العالم المسلم الفقير لدرجة أن يطلب من زبانيته معاملته بوحشية وإيداعه السجن الخاص بالمجرمين خطرين ؟! بل إن الطاغية وعلى شاشة التليفزيون وبدون حياء يصف الشيخ الأعزل بأنه ملقى كالكلب في زنزانة انفرادية !!

إن انفعال النظام وحقده في معاملة الشيخ أحمد جاء بلا شك لأن الشيخ طرح الإطار الصحيح للعمل الإسلامي وهو النضال السياسي الجماهيري الإسلامي ، وأدرك أن العمل هو مع الناس وبهم وليس بديلاً عنهم ، وأن تبني وحمل هموم الأمة وإطلاقها هو الطريق الصحيح نحو التغيير الإسلامي .

إن رد فعل النظام وحقده إشارة هامة إلى أن هذا الخط الذي انتهجه الشيخ أحمد كان خطًا صوابًا وإشارة كذلك إلى الجماهير المسلمة والقيادات الواعية في مصر الإسلام إلى انتهاج هذا الطريق من أجل أن يشرق حكم الله ومجتمعه ثانية على أرض الكنانة .

الشيخ ودور المسجد في المجتمع

منذ الوهلة الأولى لاستلام الشيخ عمله سواء في البرلس أو في مسجد سيدي جابر أو في مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية والشيخ يدرك أن أمانة الله قد حملها . كان يدرك أن العلماء هم ورثة الأنبياء وقرر الشيخ أن يؤدي الأمانة . كان المسجد دائمًا هو محور الحياة بالنسبة للمجتمع الذي يوجد فيه هذا المسجد ففي قرية البرلس محافظة كفر الشيخ كان المسجد مكانا لتدريس الدين الإسلامي الحنيف ومكانًا لمحو الأمية وإقامة الدروس العلمية للطلاب ومناقشة مشاكل مجتمع القرية المشاكل الزراعية والاجتماعية والأسرية كان المسجد يقوم بدور العمودية وقسم الشرطة . يقوم بدور الشئون الاجتماعية ويقوم بدور الأجهزة الشعبية والمحلية . والمنازعات تفض داخل المسجد ويحكم فيها الشيخ أحمد ويقبل الناس حكمه برضا كبير وطيب نفس لأن الشيخ علمهم أن العلماء يوقعون عن رب العالمين . الفقراء تُجمع لهم الأموال وتوزع عليهم من داخل المسجد . الجميع يأتمن الشيخ أحمد على أسراره الأسرية والشخصية والشيخ أحمد بوجههم المشاريع العمرانية الخاصة بالقرية يقوم الشيخ أحمد بها من داخل المسجد . لم تعد القرية بحاجة إلى العمدة أو المأمور أو موظف الشئون الاجتماعية أو المحاكم أو غيرها كان المسجد محور كل شيء . وكان شيخ المسجد هو المرجع في كل شيء . يحمل هموم الفقراء ويصلح المتخاصمين . يزوج ويطلق ويفتى في كل الشئون وارتبط الناس بالمسجد أيما ارتباط وأصبح من النادر أن تجد إنسانًا في القرية لا يصلي ولا يغشى المسجد في كل صلاة .

وجاء الشيخ أحمد إلى مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية وكان من الطبيعي أن يواصل الشيخ رسالته التي حملها باعتباره عالمًا من علماء الإسلام . ومارس الشيخ دوره . وتتابعت حلقات محو الأمية . ودروس الدين بين المغرب والعشاء . واستدعى الشيخ المدرسين وأساتذة الجامعة بالمنطقة يقوموا بالتدريس للطلاب

ولم يكتف الشيخ بهذا بل اشترى بالجهود الذاتية الأجهزة العلمية المطلوبة للطلاب مثل الميكروسكوب والشرائح وغيرها . واستمر الشيخ في أداء دوره في فض المنازعات وجمع الأموال للفقراء ودعي الشيخ إلى ارتداء الزي الإسلامي للبنات واستجاب أهل المنطقة . وأصبح الشيخ والمسجد هي محور الحياة الاجتماعية في المنطقة وكان من الطبيعي أن يناقش الشيخ في خطب الجمعة القضايا السياسية التي تهم الإسكندرية ومصر عمومًا .

موقف الشيخ من القضايا السياسية والاجتماعية

أدرك الشيخ أن عالم الدين الإسلامي ليس كغيره من علماء الأديان الأخرى فعلماء الدين مطالبون أمام الله ثم الأمة بالتصدي لمشاكل الأمة ومناقشة قضاياها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأن يحمل هموم الأمة فوق كتفيه وإلا فإن حسابه أمام الله سيكون عسيرًا .

وفي كل مرة كان الشيخ يصعد المنبر ويشعر أنه يقف في المكان الذي وقف فيه رسول الله ﷺ كان يشعر بمسئولية ضخمة وبالتالي يناقش مشكلة من مشكلة الأمة وإلا فإن خطبته خيانة وخصوصًا أن الأمة الإسلامية في حالة انحطاط وتعاني من مشاكل ضخمة .

موقف الشيخ من قضية الحريات

حدد الشيخ موقفه من الحريات بوضوح شديد منذ اللحظة الأولى . أعلن الشيخ أن الإسلام هو الإيمان بالله وإقامة مجتمع الحرية والعدل وفقًا للشريعة الإسلامية . كان الشيخ يكرر في كل خطبة على حقوق الأمة تجاه حكامها . حقهم في الاعتراض السلمي وإقامة كياناتهم السياسية والنقابية المستقلة . وحقهم في إصدار الصحف ومناقشة قضاياهم بحرية ـ حقهم في الاجتماع وحقهم في التظاهر السلمي وهكذا أصبح مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية كعبة الحرية لقد جاء إلى المسجد كل من أراد أن يعبر عن رأيه بحرية لقد أصبح المسجد قلعة الحرية جاء إليه السياسيون وفتح لهم الشيخ صدره ومسجده وأقيمت الندوات في مختلف القضايا وكان الأستاذ محمد حلمي مراد وفتحي رضوان وكمال الدين حسين يذهبون إلى المسجد ويقيمون الندوات برعاية الشيخ وتحت إشرافه .

ولقد وقف الشيخ وقفة شجاعة ضد تزييف الانتخابات وخصوصا سنة ١٩٧٩ كما وقف الشيخ بجانب الطلاب في مطالبهم الخاصة بالانتخابات الطلابية وشجب الشيخ من على المنبر تصرفات الحكومة تجاه الطلاب حينما قامت إدارة جامعة الإسكندرية بشطب أسماء بعض المرشحين لاتحاد الطلاب .

كما وقف الشيخ مع حق النقابات في انتخابات ممثليهم بحرية وأعلن الشيخ أكثر من مرة تضامنه مع المعتقلين السياسيين وتعجب من تشدق النظام بسيادة القانون التي أصبحت حبرًا على ورق على حد قول الشيخ كما تضامن الشيخ مع الأسر المصرية في الصعيد التي تعاني من اعتداءات الشرطة أثناء التفتيش على السلاح في الصعيد .

موقف الشيخ من قضية العدالة الاجتماعية

دأب الشيخ أحمد المحلاوي في خطب الجمعة على شرح حقوق المسلم على

الحاكم: حقه في مسكن مريح وحقه في طعام متوفر ورخيص وحقه في مواصلات مريحة . وهكذا كان الشيخ دائمًا يناقش مشاكل المواصلات ومشاكل الإسكان ومشاكل الرغيف ومشكلة الأجور والأسعار .

كان الشيخ ينتقد ببذخ الرئيس السادات في بناء الاستراحات في وقت يسكن فيه الشعب المصري في المقابر . كما انتقد الاحتفالات المكلفة التي يقيمها السادات في كل مناسبة وعلى سبيل المثال حفل افتتاح قناة السويس وأعلن الشيخ احمد من على المنبر أنه كان أجدى للشعب بناء ثلاثة آلاف وحدة سكنية بدلا من احتفال الافتتاح . كما انتقد الشيخ أحمد المحلاوي بذخ السيدة جيهان السادات زوجة الرئيس الراحل وانتقد تصرفاتها كما انتقد تصرفات عصمت السادات في الميناء وغير الميناء .

في خطب الجمعة كان الشيخ أحمد يناقش المشكلة الاقتصادية ويحلل أسبابها معلنًا أن إقامة مجتمع لا طبقي هو هدف الإسلام ويجب أن نطبق الاقتصاد الإسلامي حتى لا يبقى فقير أو عاطل في مصر . دعا إلى عدم ربط اقتصادنا بالشرق أو الغرب وأن التنمية الحقيقية لابد أن تعتمد على شعبنا وفقًا لدينه وتراثه وتركيبه الشخصي وأن الارتباط بالشرق أو الغرب هو سبب أزماتنا . وأن الغرب والشرق لن يكونا قط مخلصين في مساعدة شعبنا على النهوض بل العكس هو الصحيح . وأن الاستقلال الحقيقي هو بناء نمط من التنمية غير تابع للشرق او للغرب .

وقف الشيخ أحمد ضد الانفتاح بما جره علينا من فساد اقتصادي وأخلاقي، ورفض الشيخ أحمد السماح ببنوك أجنبية في مصر حيث أنها سوف تقوم باستنزاف مواردنا ولن تشارك في التنمية .

دعا الشيخ أحمد إلى ربط الأجر بالأسعار ودافع عن العمال والفلاحين ودعا إلى إصلاح أحوال المناطق الشعبية من حيث مياه الشرب والمجاري ورصف الطرق وغيرها من الخدمات ودعم قصر ذلك على الشوارع التي يسكنها كبار المسئولين .

موقف الشيخ أحمد من الاستعمار والصهيونية

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الجهد الرئيسي للشيخ أحمد تمثل في اهتمامه بقضية الاستعمار والصهيونية .

لقد وضح الشيخ أحمد أن الاستعمار ليس مجرد احتلال عسكري إنه يكمن في كل توجه سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي مرتبط بالشرق أو الغرب وحدد الشيخ أحمد أنه لكي نصبح مستقلين لابد من تصفية النفوذ الاستعماري في توجهاتنا السياسية . يجب ألا نرتبط بأحلاف عسكرية أو سياسية ويجب ألا نسمح بقواعد أجنبية على أرضنا . يجب أن يكون توجهنا السياسي تجاه التكامل والوحدة مع العالم الإسلامي . يجب دعم الشعوب الإسلامية المضطهدة بل يجب دعم كل المستضعفين والمضطهدين في العالم .

لقد حيا الشيخ أحمد الثورة الإسلامية في إيران ورفض استقبال السادات للشاه في مصر لأن هذا استفزاز لمشاعر المسلمين والشاه جلاد ومجرم . فكيف نستقبل حاكما أذل شعبه واضطهده ونكل به .

كما دعا إلى التضامن مع الشعب الأفغاني المسلم ضد الاحتلال الروسي البشع . وأعلن الشيخ أحمد أنه لابد من تصفية الأشكال الاقتصادية من إقطاع ورأسمالية لأنها مرتبطة بالاستعمار والاستقلال الحقيقي يعني إقامة مجتمع يقوم على الاقتصاد الإسلامي .

كما حدد الشيخ موقفًا واضحًا تجاه زرع التقاليد الغربية في الثقافة والتعليم والأزياء ونادى بضرورة رسم السياسات التعليمية والثقافية والدينية بشكل إسلامي وخرج من مسجد القائد إبراهيم شعار أن الزي الإسلامي أحد وسائل الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية .

ودعا الشيخ أحمد إلى تطبيق القانون الإسلامي ؛ لأن القانون الفرنسي

المعمول به في محاكمنا يعني أننا مازلنا مستعمرين . فكيف ندعي أننا مستقلون والقانون الذي نتحاكم به قانون استعماري وطالب بضرورة تصفية الوجود الاستعماري في القوانين واستبدالها بالتشريع الإسلامي الحنيف .

القضية الفلسطينية

وبالنسبة للقضية الفلسطينية ، فإن تلك القضية ووفقًا لرؤية الشيخ هي القضية المركزية للعالم الإسلامي وبالتالي فهي أهم قضية تواجهنا وبالتالي فإن من النادر أن تجد خطبة من خطب الشيخ لم تتطرق لمناقشة تلك القضية كالآتي :

- الاستعمار والصهيونية هما آخر أشكال القوى الشيطانية تتآمر على أمتنا .
- المجتمع الإسرائيلي مجتمع توارتي حتى النخاع .
- المسلم والمسلمة وحده هو القادر على مواجهة الكيان الصهيوني لأن حياته وحضارته ودينه ومصالحه هي المستهدفة .
- أن الصراع مع إسرائيل صراع حضاري . يمتد في جغرافيا وتاريخ المنطقة بشكل جذري وأن محاولة تكييف الصراع على غير هذا الأساس يعد خيانة للأمة يسحب أهم أدوات في الصراع وهي العقيدة الإسلامية والحرب الشعبية طويلة المدى .
- رفض كافة أشكال المساومة والمفاوضات والصلح مع إسرائيل على أساس أنه لا توجد نقط التقاء بين أمتنا وبين إسرائيل فانتصار أي منهما يعني فناء الأخرى .
- وانطلاقًا مما سبق كان موقف الشيخ أحمد الصلب في رفض كامب ديفيد بل إن مسجد القائد إبراهيم أصبح مركز المعارضة الرئيسي لكامب ديفيد في مصر .



قصتي مع السادات أيام الصدام الأخير

في ذلك الصيف من عام ١٩٨١ . كانت سماء مصر كشأنها في الصيف صافية . وكانت الإسكندرية مثل كل مدن وقرى مصر تشهد نوعين من البشر . نوع يصطاف على الشواطئ ونوع آخر يحمل هموم مصر . يعاني من الفقر والجوع والخوف . يشعر بالمرارة تجاه ما تم من تصفية لقضية المسلمين الأولى (القضية الفلسطينية) في كامب ديفيد . فيجرع المذلة حينما يرى اليهود وقد جاءوا من كل حدب وصوب ليدخلوا مدن مصر وقراها باسم السياحة وباسم التطبيع (تطبيع العلاقات وفقًا لمقررات كامب ديفيد) كان الأمر قد بلغ حدًّا لا يحتمل وخصوصًا بعد أن استغل القطاع الانعزالي داخل الأقباط في مصر مأزق النظام للضغط عليه وانتهاك حرمات المسلمين في المساجد وفي خارج المساجد ووصل الأمر إلى حد إطلاق الرصاص مباشرة على المصلين في الزاوية الحمراء وقتل المسلمين جهارًا وكان من الطبيعي أن الفقراء والمستضعفين وعموم الأمة تتجه في ذلك الوقت العصيب إلى العلماء المجاهدين لتلوذ بهم كشأن الأمة دائمًا .

وكان من الطبيعي أن تتجه النخبة المغتربة المعادية للأمة إلى الحركة السريعة لفصم العلاقة التاريخية بين الأمة والعلماء . لقد أدركت القوى الاستعمارية والصهيونية والأرستقراطية المصرية أن الصدام قد أصبح وشيكًا . وأن حجم الانتهاك لمشاعر الأمة قد أصبح لا يحتمل وكان من الطبيعي أن تقوم تلك القوى بالعمل على إبعاد العلماء عن الجماهير تمهيدًا للاستفراد بتلك الجماهير وتمرير المزيد من المخططات المعادية للأمة .

كان الشيخ أحمد المحلاوي وبتراثه الطويل في الوقوف مع الأمة هو الملاذ والملجأ وكان من الطبيعي وبالتالي أن يكون الشيخ أحمد هو أول أهداف القوى المعادية للأمة . وهكذا وفي يوم ١٦/ ٧/ ١٩٨١ صدر القرار بإيقاف الشيخ أحمد المحلاوي عن العمل في المسجد .

لقد صدر القرار . وجاء إلى مديرية الأوقاف بالإسكندرية واتصلت مديرية الأوقاف بالشيخ أحمد وأبلغته أنه قد جاءت إشارة مؤداها وقف الشيخ أحمد المحلاوي عن العمل وانتداب إمام آخر للمسجد وتبليغ الأمن بذلك .

وفي مساء ١٦/ ٧/ ١٩٨١ جاءت للشيخ أحمد إشارة من مديرية الأمن تقول « مدير أمن إسكندرية ـ إدارة البحث الجنائي ـ فضيلة الشيخ أحمد المحلاوي . برجاء التواجد بمكتب المدعى العام الاشتراكي صباح يوم السبت ١٨/ ٧/ ١٩٨١ أمام السيد الأستاذ رفيق الدهشان وذلك للأهمية . وتفضلوا بقبول الشكر . مدير إدارة البحث الجنائي . عادل إسماعيل» .

وكان ذلك يوم الخميس ١٦/ ٧/ ١٩٨١ وأدرك الشيخ بحسه الرباني أن ذلك يعني ببساطة قرار الوقف أولا ثم لفصم الصلة التي بين الشيخ وجماهيره يستدعي الشيخ إلى مكتب المدعى العام الاشتراكي يوم السبت . وبالتالي لا توجد فرصة للشيخ للتفكير والاتصال بالجماهير حيث أن الأحداث متلاحقة مما يوقع الشيخ في الارتباك .

وكان على الشيخ أن يأخذ قراره بسرعة . ووازن الشيخ بين أمرين إما أن يصلي الجمعة كعادته في المسجد ويتجاهل قرار الإيقاف وإما أن يمتنع عن الذهاب إلى المسجد في يوم الجمعة انتظارًا لتحقيق المدعى الاشتراكي وكان الأمر الثاني يعني أن يصاب الناس بمرارة بالغة ربما تترجم في رد فعل عنيف تجاه النظام وخصوصًا أن الشباب قد جاءوا إلى الشيخ وأدرك الشيخ كم كان الجو مكهربًا وقرر الشيخ ألا يترك الجماهير وحدها وأن يبسط كل الحقائق أمامها وأن يخوض المعركة معها قرر الشيخ أن ينزل إلى المسجد ويقوم بخطبة الجمعة فهذا واجبه أمام ربه ثم أمام أمته .

كانت كل مصر مع الشيخ . الفقراء والمستضعفون والشرفاء من كل القطاعات . وجاءت مصر كلها عبر الوفود من كل مكان إلى المسجد . وصعد الشيخ المنبر . وكان موضوع الخطبة هو معركة ما وقع بين الرسول وصحابته ضد قريش ولكنها كل معركة بين الحق والباطل .

وفي تحليله لمعركة بدر قال الشيخ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله

الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران] ـ لقد جمع الله بين المسلمين وكانوا قلة على غير تعبئة وبين المشركين وكانوا كثرة قد أعدوا عدتهم . جمع الله بين فئتين . فئة تقاتل في سبيل الله . وفئة أخرى تصد عن سبيل الله . بين جماعة يقول زعيمهم ـ « **اللهم إنهم جياع فأشبعهم ـ عراة فاكسهم . حفاة فاحملهم** » وبين جماعة يقول زعيمهم المتغطرس « واللات والعزى لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم عليه ثلاثًا وننحر الجزور ونشرب الخمور . وتغنينا القيان » جمع الله بين فئتين فئة له وليس معها من أسباب النصر إلا هو. وفئة أخرى معها عدة الأرض كاملة ولكن ليس معها الله عز وجل.

وقال الشيخ : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنفال].

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال] واستنتج الشيخ أن المؤمنين إذا ما صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبذلوا جهدهم وأقبلوا على ربهم مخلصين . فإن مدد الله لابد آت ونصره لابد محقق

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

وختم الشيخ خطبته بتلك الكلمات « أيها المسلمون ، لا ينبغي النكوص عن واجب خوفا من تضحية فما ذل المسلمون ولا هانوا إلا يوم حرصوا على الدنيا وانكبوا عليها .. أيها المسلمون لن نُساوم في ديننا . لن نتخلى عن مبدئنا . لن نخضع لتهديد أو إرهاب ـ لن نستسلم أو نستكين ـ نحن نعلم ونؤمن أن ما

أصابك لم يكن ليخطئك . وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

نحن قد صممنا أن نفدي ديننا بدمائنا . وأسلمنا أمرنا لربنا .

وهكذا قال الشيخ كلمته . أعلن وقوفه مع الأمة ضد الفساد والتسيب والطغيان حمل الشيخ هموم الأمة . ولم يقبل أن يتركها وحدها في العراء أمام القوى الشيطانية . وكان على الجماهير أن تقول كلمتها .

وبالوعي التلقائي المميز للأمة في كل مراحل تاريخها . أعلنت الجماهير كلمتها . خرجت هتافات أكثر من مليون في المسجد وحوله تدوي في ضمير التاريخ وفي وعي الأمة . « إسلامية . إسلامية . لا شرقية ولا غربية .. إسلامية إسلامية لا صليبية ولا يهودية . » يسقط عملاء الصهيونية . لا إله إلا الله . محمد رسول الله . عليها نحيا . وعليها نموت . وفي سبيلها نجاهد . وعليها نلقى الله ـ « في سبيل الله قمنا ـ نبتغي رفع اللواء ـ لا لحزب قد عملنا . نحن للدين فداء . فليعد للدين مجده . أو ترق منا الدماء » .

وقامت الجماهير لتبايع الشيخ المجاهد تلك البيعة التاريخية الفذة : نعاهد الله تعالى ـ الذي أحببنا من أجله أحمد المحلاوي ـ أن يظل إخلاصنا له . وقوفنا معه ما دمنا على الطريق ـ ونعاهد الله أن نكون رهن إشارته . وطوع استدعائه في أي وقت من ليل أو نهار أو ضراء أو سراء حتى نلقي الله أعزة يرضي عنا . ويعلم أننا أحفاد خالد وأحفاد عمار بن ياسر . وأحفاد الشهداء من المسلمين . وأننا أحفاد رسول الله وأحفاد حمزة بن عبد المطلب الذي قطع ومضغت كبده . وأن نكون أوفياء أخوة نتسابق في حماية بعضنا البعض نكون جسدًا واحدًا على اليهود وعلى النصارى وعلى المرتدين وعلى المارقين وعلى الفاسقين وعلى الظالمين وعلى الحكام المعربدين الذي استذلوا البلاد وضيعوا العباد وأفقروهم وأجاعوهم اللهم فاشهد بيعة نقابلك عليها .

ولتكتمل البيعة التاريخية . بين الأمة والعلماء قام العالم الأزهري المجاهد سيد على محمود شحاته إمام وخطيب بأوقاف الإسكندرية . فقال العالم المجاهد : أيها المسلمون . إن الشيخ المحلاوي رجل قام بواجبه تجاه الله ونحن جميعًا نعلن أننا جميعًا نضع أموالنا ملكًا للشيخ المحلاوي . ويوم أن يصاب المحلاوي بخدش واحد

في ثوبه لابد أن تراق الدماء وليعلم الجميع أنا جميعًا سوف نعتصم في هـذا المكـان من أجل المحلاوي وأن السجن أحب إلينا من الذل ، إنني أعلن باسم زملائي علماء الأوقاف أن الجنة خير لنا والدنيا ليس فيها شيء كل من عليها فان .

ومرة أخرى يـتكلم الشـيخ أحمـد المحـلاوي . واسـتكمالاً لتلـك الصـلة بـين العلماء والجماهير يوضح الشيخ أحمد أن القضية ليست قضية فرد . وإنمـا هـي قضية أمة بدأت تصحو لتتصـدى لأعـداء الله مـن الاسـتعمار والصـهيونية وأن القوى الشيطانية قد حددت مطالبها بوضـوح في إبعـاد العلمـاء المجاهـدين عـن الجماهير . هكذا فإن المسألة على حد قول الشيخ أكبر من السادات.. إن إيقاف الشيخ أحمد مطلب أمريكي صهيوني وأن الشيخ سـوف يقـدم قربانًـا لأمريكـا وإسرائيل باعتبـار أن الشـيخ هـو المعـارض الرئيسـي لكامـب ديفيـد ولسياسـة الانفتاح الاقتصادي .

ومرة أخرى جدد الشيخ موقفه ضد أمريكـا والصـهيونية والفسـاد والرشـوة ومطالبته بإصلاح الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على أسـاس أن هذا هو واجب العلماء دائمًا .

وهكذا كانت لحظة فذة في تاريخ الأمة [illegible] فيها . والـتحم العلمـاء مـع الجماهير وبدا أن فجر الجماهير قريب . وكان آخر لحظـات اللقـاء التـاريخي أن حملت الجماهير الشيخ وهي تهتف « إسلامية [illegible] رغم أنف [illegible] » « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وتعاهدت الجماهير مرة أخرى على متابعة الشيخ [illegible] بيوم [illegible] مدن وقرى مصر .



الإمام الأعزل في مواجهة أجهزة السلطة

وفي يوم السبت ١٨/ ٧/ ١٩٨١ ذهب الشيخ إلى جهاز المدعى الاشتراكي لم يكن الشيخ مسلحًا بجاه أو سلطان لم يكن الشيخ مسلحًا إلا بقوة الله عز وجل ثم بالتفاف المسلمين حوله وكفى بهذا سلاحًا .

ومنذ الوهلة الأولى في تعامل الشيخ مع المدعى الاشتراكي وضح للشيخ أن المدعى الاشتراكي قد قصد أن يُفهم أن المسألة ليست مسألة قانون ولكنها مسألة فوق القانون فلقد أخبر المدعى الاشتراكي بطريقة فجة المحامي الذي حضر مع الشيخ بأنه ممنوع حضور المحامين فلما اعترض المحامي وطلب أن يريه قانونًا يمنع ذلك وبعد أخذ ورد خرج المدعى من الغرفة وغاب فترة ثم رجع وقال للمحامي : لا مانع أن تجلس ولكن لا تسجل اسمك ولقد رفض المحامي ذلك قائلاً : إنه لا يقبل منةً من أحد وأخيرًا خضع المدعى وحضر المحامي ولقد تساءل الشيخ متعجبًا « هل لا يعرف رئيس نيابة القانون ؟ أم تلك بادرة لها معنى محدد» .

ولقد كانت الملفات التي أمام المدعى الاشتراكي ضخمة بدءًا من شرائط للخطب منذ عام ١٩٨٠ . وتقرير من أمن الدولة ـ وتقرير من أوقاف وجهات متفرقة حتى خطبة الجمعة التي لم يمر عليها سوى ٢٤ ساعة كانت موجودة عنده ـ وبالطبع كانت التقارير كاذبة كانت التهم الموجهة على الشيخ كالآتي :

- التهجم على نظام الحكم .
- المساس بالوحدة الوطنية .
- المساس بمعاهدة السلام .
- إثارة الجماهير .

وكان رد الشيخ على التهمة الأولى أن لا يقبل الاحتكام إلا إلى كتاب الله . فإذا كان كتاب الله قد جعل من الرئيس أسطورة أو جعل منه قداسة لا تمس

حينها تصبح التهمة صحيحة ولكن إذا كان كتاب الله قد جعل منه فردًا عاديًا ، فإن من حقي ومن حق علماء الدين ومن حق كل صاحب رأي أن ينتقده لأنه يخطئ ويصيب .

وكان رد الشيخ على التهمة الثانية . أن النظام يعرف جيدًا من هو الذي داس الوحدة الوطنية بالنعال .. وقتل المسلمين .. وأقام المظاهرات .. إن هذا الأمر معناه وزن غير معتدل وكيل بمكيالين ثم إن قوانين الوحدة الوطنية قوانين غير منزلة إنها قوانين صنعها فرد وإذا قلت إنها قوانين قد استفتى عليها الشعب فأقول لك إنها استفتاءات مزورة. وإذا قلت : إن مجلس الشعب وافق عليها أقول لك إن مجلس الشعب انتخابات مزورة وبالتالي يصبح مرد الأمر كله إلى كلمة الحاكم وكلمة الحاكم غير مقدسة .

وكان رد الشيخ على التهمة الثالثة أنه إذن أنا أحاكم لحساب أمريكا وإسرائيل .

وبالنسبة للاتهام الرابع قال الشيخ إن الذي أثار الجماهير في الواقع هو من أصدر قرار إيقافي عن العمل في المسجد .

وأوضح الشيخ أن الأمر في النهاية هو محاولة إحنائه للسلطة وقرر الشيخ أنه لن يحنى رأسه إلا لله . وأن الموت جوعًا لن يجعله يخضع .

وفي نهاية الجلسة طلب المدعى الاشتراكي أن يعود إليه الشيخ في يوم الثلاثاء الموافق ٢١/ ٧/ ١٩٨١ . وحاول محامي الشيخ أن يفهمه أن هذا الأمر غير مقبول فليس من المعقول أن يأتي الشيخ إلى القاهرة خمس مرات ويمكن اختصار الأمر في جلسات متوالية ولكن المدعى أصر على رأيه .

وعاد الشيخ إلى الإسكندرية في مساء السبت . وتناول الشيخ فطوره وكان ذلك في نهاية رمضان ، ونزل إلى المسجد لصلاة العشاء وقرر الشيخ مع المصلين أن يبدأ الاعتكاف يوم الثلاثاء إحياء لسنة رسول الله وبالتالي فإنه لن يذهب إلى القاهرة أو إلى المدعى الاشتراكي وبالطبع كانت خطوط التلكس مفتوحة مع القاهرة وجاءت إشارة إلى الشيخ بتغيير الموعد إلى الإثنين ٢٠/ ٧/ ١٩٨١

وتفاهم الشيخ مع المحامي وأعلن المحامي أن هذا أمر مبيت لمنع الشيخ من الاعتكاف وقرر الشيخ عدم الذهاب وجاء أحد ضباط الأمن ليخبر الشيخ أن الأمر انتهى وأن المسالة لا تعدو أن تكون مجرد إجراءات قصيرة لا تستغرق سوى ساعة وكان ذلك الضابط يدعى أنه صديق للشيخ وأفهمه أنه اتصل بالجهات العليا وأن الخمس جلسات المقررة للتحقيق مع الشيخ قد تم إلغاؤها وسوف يكتفي بجلسة قصيرة يوم الإثنين وأن على الشيخ فقط ألا ينزل لصلاة العشاء يوم الأحد .

وكانت تلك خدعة للشيخ . فبعد منتصف ليلة الإثنين وفي حوالي الساعة الثانية والنصف جاءت قافلة من ثماني عربات لوري من الأمن المركزي مدججة بالسلاح ويمتلئ الشارع بالمسلحين بالمدافع والرشاشات والبنادق الآلية وأجهزة اتصال اللاسلكي .

كان هناك لواءات وعمداء وعقداء ومختلف الرتب وكان الشيخ أحمد تحول إلى كارلوس الشهير أو جيمس بوند الرهيب وليس مجرد شيخ أعزل ودخل الشيخ أحمد ليلبس ملابسه فدخلوا وراءه ـ مُنع ابن الشيخ من الاتصال بالتليفون ـ كانت بنات الشيخ وزوجته قد انخرطن في البكاء وكان الشيخ يحاول أن يهدئ من ثائرتهن قائلاً لا يصح أن تكون بيوت العلماء إلا صابرة لأن هذا قدر العلماء الشرفاء... كانت عربات البوليس تحيط بكل الشوارع .

ووصل موكب الشيخ إلى مبنى المحكمة في المنشية والتي كانت محاطة من كل الجوانب وأن الشوارع قد سدت بسيارات الأمن المركزي وبدأ التحقيق معه في نيابة المنشية وكانت نفس التهم هي نفسها في الأمن وفي النيابة وفي المدعى الاشتراكي ـ وبدأ الشيخ بسؤال رئيس النيابة هل أنت مقتنع بما تفعل ؟

ولم يكن وكيل النيابة وحده غير مقتنع . جاء كل رجال الأمن الذين اعتقلوا الشيخ ليعتذروا وأنهم لا دخل لهم في هذا الأمر وأنهم مغلوبون على أمرهم . وقال لهم الشيخ أين رجولة المصريين ؟ من المفروض ألا تنفذوا إلا ما تقتنعون به أو تستقيلوا لأن المناصب زائلة .

كانت كل مصر تسأل عن الشيخ ـ الوفود تأتي إلى الإسكندرية للسؤال عن

الشيخ . كان العلماء في كل مسجد يتكلمون عن قضية الشيخ وفي خطبة العيد كذلك كان هناك حديث عن قضية الشيخ أحمد المحلاوي . باعتبارها قضية الإسلام في كل مكان .

وتحركت أجهزة السلطة لتصغير حجم القضية . صوروا المسالة على أنها مجرد محاكمة الشيخ على التعرض لعرض زوجة الرئيس السادات ومن الطبيعي أن الشيخ لم يتعرض لعرض الرئيس السادات ولا لغيره وأن هذا أحد الأساليب القذرة لوضع القضية في غير وضعها الصحيح .

في الجمعة الثانية ٢٤/ ٧/ ١٩٨١ حوصر مسجد القائد إبراهيم ومنع الشيخ أحمد من دخوله . وذهب الشيخ احمد ليصلي في مسجد عمر بن الخطاب وفجأة فرغ مسجد القائد إبراهيم من المصلين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر بن الخطاب للصلاة خلف الشيخ المجاهد وأسقط في يد أجهزة السلطة . إن فراغ مسجد القائد إبراهيم من المصلين وانصرافهم إلى مسجد عمر بن الخطاب يعني أن جماهير الإسكندرية تقف وراء الشيخ وتحركت أجهزة السلطة بسرعة . فقامت باستقدام موظفي القطاع العام في أتوبيسات هيئة النقل العام للصلاة في مسجد القائد إبراهيم مقابل جنيه لكل من يؤدي الصلاة في المسجد ـ ومن الغريب أن يتواحد ثلاثة مسيحيون ساعة صرف الجنيه ليصرفوه على أساس أنهم أدوا الصلاة .

وحدث ذلك في الجمعة الثانية وفي الجمعة الثالثه ٧/ ٨/ ١٩٨١ قام الشيخ بشرح الموقف أمام المصلين وحكى للمصلين كل ما حدث له . وحدد الشيخ قضيته في أنه يحاكم لمصلحة أمريكا والصهيونية والصليبية وشرح الشيخ كيف أن خطباء المساجد ليسوا موظفين لدى الحكومة بل عند الله عز وجل وأن الأوقاف ليست ملكًا للحكومة ولكن ملكًا للخيرين من المسلمين الذين أوقفوها لصالح الدعوة الإسلامية . وتعجب الشيخ كيف يمتهن أحد العلماء في عهد السادات في حين أن الاحتلال الفرنسي أو الإنجليزي لم يجرؤ على عمل ذلك .

وكان موضوع الخطبة هو قضية الحكم في الإسلام وأوضح الشيخ أن الإسلام يعني الاستسلام الكامل لله في كل أمر وبالتالي لا يكون هناك سلطان لغير الله . والإسلام لابد أن يحكم كل ما يجرى في بلاد المسلمين فإذا جاءت جهات أو أفراد ليسلخوا من الإسلام جزءًا هامًا وهو الحكم ذلك الذي بين الله سبحانه وتعالى أنه ما لم يكن هناك حكم بالدين فلا إسلام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فأولئك هم الظالمون ـ فأولئك هم الفاسقون ـ بل الله يجعل في مقابلة حكم الإسلام حكم الجاهلية ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ـ إن الإسلام لم يجعل خارج إطاره شيئًا فيما يجري في دنيا الناس .

فماذا ترك الإسلام بعد ذلك حتى يأتي من يريد أن يجرد الإسلام من أهم مقوماته فيقول لا سياسة في الدين .

واستطرد الشيخ إلى مخطط الاستعمار بشأن الإسلام . ذلك الاستعمار الذي يريد أن يضع للمسلمين دينًا لا يقارن . دينًا لا يخرج من أبواب المسجد دينًا يجعل المسلمين راكعين ساجدين بلا فهم وبلا وعي وبلا دين ـ ولقد سار على نهج الاستعمار حكام يخافون من الإسلام على عروشهم المهتزة .

وأوضح الشيخ كيف أن الضوء الأخضر قد صدر من الرئيس السادات بتصفية الشيخ أحمد المحلاوي وذلك حينما تكلم الرئيس السادات في مؤتمر الحزب الوطني عن أئمة المساجد وراحت كل الأجهزة تعمل ضد الشيخ ـ جهاز المدعى الاشتراكي ـ وجهاز الأمن ـ وجهاز النيابة العامة وحتى الصحافة فقد أشارت صحيفة مايو إلى رسالة أحد الصحفيين الأمريكيين حول قيام المساجد بعمل معارضة تشبه معارضة الخميني في إيران وأن علماء الدين المسلمين قد أصبحوا خطرًا كبيرًا على النظام الساداتي ثم سرد الشيخ ما حدث له من اعتداء عليه والقبض عليه وتقديمه إلى النيابة وكيف أنه يرفض الاحتكام إلى غير كتاب الله وأنه بات يدرك أنه قربان مقدم من النظام للأمريكان والصهيونية وختم الشيخ كلمته بأن المسجد دائمًا كان منبعًا لكل الثورات .

خاتمة

كانت الأحداث تتوالى بسرعة . كان الرئيس السادات يفقد صوابه تجاه العلماء ورجال الدين تدريجيًا وفي يوم ٤ سبتمبر ١٩٨١ اعتقل الشيخ وذُهب به إلى سجن التجربة (وهو أسوأ السجون المصرية على الإطلاق ومخصص لكبار المجرمين والخطرين) ووقف السادات يخطب في الأمة مزهوًا في يوم ٥ سبتمبر بأن الشيخ البذيء (يقصد الشيخ أحمد المحلاوي) ملقى في السجن كالكلب .

كانت الأوامر تقضي بمعاملة الشيخ أسوأ معاملة . ولكن الله كان هناك كان في هذا السجن شخص يقضي عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بتهمة الإتجار في المخدرات وكان هذا الشخص يتمتع بنفوذ كبير داخل السجن بفضل ما يدفعه من رشاوي وإتاوات وشراء للذمم كانت أفخم الأطعمة تأتي إليه ساخنة أو باردة من أكبر المحلات في القاهرة وبنخوة مصري بسيط قرر هذا الرجل أن يشرك المحلاوي معه في طعامه أو شرابه بل لقد أرسل في طلب ملابس للشيخ وجاءته على وجه السرعة . بل إن ذلك الرجل قرر أن يصلي حتى يقبل الشيخ مشاركته في الطعام على أساس أنه ربما لا يقبل أن يشاركه بدعوى أنه لا يصلي وكانت مفاجأة للشيخ أن يجد أمامه طعاما لم يذقه في حياته وملابس فخمة وعدداً كبيرًا من الخراس رهن إشارته بحكم أموال ذلك الرجل التي تدفع لهم ويذهب السادات ويخرج الشيخ من السجن ـ والله غالب على أمره .

5

الباب الخامس

فتحي الشقاقي

صوت المستضعفين في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي

المقدمة

الحديث عن الشهيد فتحي الشقاقي، وعن جهاده، وعن مشروعه الفكري والحركي، بالنسبة لي، ليس أمرا محايدا... ذلك أن العلاقة مع الشهيد لم تكن فقد علاقة سياسية أو فكرية أو نضالية... بل كانت إنسانية في المقام الأول... ولعل إنسانية فتحي الشقاقي كانت أحد اسباب نجاحه المنقطع النظير في تحويل مشروعه الفكري إلى كيان واقعي وإلى مواقف ممهورة بالدم والفداء.

الزمان والمكان.. الحلم والأمل...الإطار التاريخي والإنساني كانوا جميعا يتشابكون كخيوط من نور لتنسج تلك العلاقة التي لم تنقطع شكلا ومضمونا منذ عام ١٩٧٨ وحتى عام١٩٨١ والتي لم تنقطع فكريا منذ عام١٩٨١ وحتى استشهاده في مالطة في ٢٦/١٠/١٩٩٥... والتي لن تنقطع بإذن الله لأن فكره ومنهجه ومواقفه تشكل ملحمة فكرية ونضالية تظل منارة لنا إلى أن نلقى الله تعالى...

كان اللقاء الأول في أواخر عام ١٩٧٨ على أرض جامعة الزقازيق حيث كان فتحي الشقاقي يدرس الطب بتلك الجامعة، وكنت أنا أدرس الصيدلة بنفس الجامعة... والكليتان متلاصقتان والعمل السياسي الطلابي الإسلامي يزيل حدود الكليات بل حدود الجنسيات.

كان هناك في خلفية العمل السياسي الطلابي وغير الطلابي في ذلك الوقت حدثان هامان : أولهما : تصاعد الثورة الإسلامية في إيران... التي انتصرت فيما بعد في فبراير ١٩٧٩ وأصبحت إحدى حقائق العصر وإحدى حقائق العمل الإسلامي المعاصر . وثانيهما: زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ والحديث عن السلام المزعوم مع الكيان الصهيوني.

عودة إلى وقائع لقائي الأول بالشهيد أواخر عام ١٩٧٨... كان الشهيد فتحي الشقاقي قد علق إحدى مقالات الحائط في كلية الطب جامعة

الزقازيق، وقد شدتني تلك المقالة وأدركت على الفور كم هي مختلفة ومتميزة عن أمثالها من مجلات الحائط التي يعلقها الطلاب الإسلاميون على الحائط وعن مجمل الطرح الإسلامي في ذلك الوقت، كان فيها شيء جديد لم نألفه عن الإسلاميين وعن أطروحاتهم وأفكارهم... هل هو المنهج؟... هل هو الصدق؟ هل هو الوعي المنقطع النظير؟ هل هو كل هذا؟...

المهم أنني وقفت أمام تلك المقالة الحائطية... وأدرت نقاشا مع باقي الطلاب حولها، وكان حوارا ساخنا اندمجت فيه معهم لدرجة كبيرة جدا... وبينما أنا في قمة اندماجي وانفعالي حول تلك المقالة، رأيت شخصا يتقدم... كان سنه أكبر من الطلاب بعدة سنوات ويرتدي بالطو من الجلد، فوقع في خاطري أنه ليس طالبا بالجامعة... ثم نزع هذا الشخص تلك المقالة، وراح يطويها ليحملها معه.. كان الوقت قبل العصر بقليل، ولا أدري لماذا اندفعت نحوه للتشاجر معه، طالبا منه أن يترك المقالة على الحائط عملا بحرية الرأي، وأنه لا يليق مصادرة أفكار الناس على هذا النحو، وفوجئت به يضحك سعيدا بل ويضحك عدد من الطلاب من حولي... ثم ربت على كتفي بحنان قائلا إنه هو نفسه صاحب المقالة، وأنه ينزعها اليوم حتى يعود غدا ليعلقها على الحائط، لأنه لا يأمن إن تركها أن يمزقها أحد، من الإدارة أو الاتحاد أو الأمن ولم أشعر بنفسي حتى اندفعت إليه أعانقه ثم أبدأ معه حوارا عرفت منه على الفور أنه فلسطيني جاء ليدرس الطب بالجامعة، وأنه بالسنة الرابعة بالكلية، وأن اسمه فتحي الشقاقي... وكعادتي في التسرع والانفعال. وبكل الحيوية التي كنا نملكها في ذلك السن وتلك الأيام رحت أناقش معه القضية الفلسطينية التي كنت أشعر أنها أهم القضايا، وأن التيار الإسلامي لا يعطيها حقها حين يضع تلك القضية على قدم المساواة مع القضايا الأخرى وأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية، أومن المفروض أن تكون كذلك، ولم يكد فتحي الشقاقي يسمع هذه الجملة..حتى بادر على الفور بدعوتي للذهاب معه إلى بيته الذي يقيم به في إحدى ضواحي الزقازيق، حيث كان قد استأجر شقة مع عدد من الطلاب الفلسطينيين في المساكن التعاونية، وهكذا كانت تسمي وقتها

ولا أدري ماذا أصبح اسمها الآن، وهي تقع بين مبنى المحافظة وطريق الزقازيق ـ القنايات في ذلك الوقت، ولم تكن بها مساكن أو عمارات كثيرة في ذلك الوقت، ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع لقائي به يوميا في ذلك المسكن أو في الجامعة حتى رحل عام ١٩٨١ وبالتحديد في أواخر أكتوبر من ذلك العام.

على مدى تلك الأعوام الثلاثة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨١، لم تنقطع حواراتنا ولقاءاتنا... وأذكر أني تعرفت من خلاله على عدد من الشباب الفلسطينيين، بل والمصريين أيضا، أذكر أنه كان مقيم معه في تلك الشقة طالب بالطب « فلسطيني طبعا » هو (باسل) وآخر اسمه باسم (يونس) بكلية الزراعة ثم لحق بهم فيما بعد طالب فلسطيني جاء ليدرس الطب أيضا يسمي (نافذ) وفي مساكن أخرى بالقرب من مسكنه عرفت رمضان عبد الله وكان يدرس بكلية التجارة.وأذكر أنه في أحد الأيام مرض (رمضان عبد الله الأمين العام الحالي لحركة الجهاد الإسلامي) وكان من المفروض أن يؤدي فتحي الشقاقي امتحانا في اليوم التالي وكان من المفروض أن يسهر الليل ليذاكر استعدادا لذلك الامتحان، ولكنه ترك كتبه وأخذ يهتم بتمريض (رمضان عبد الله)، والسهر عليه حتى اليوم التالي وذهب من عند (رمضان) مباشرة إلى الامتحان ومن العجيب أنه نجح بدون مذاكرة !!

أذكر أيضا أنني تعرفت على آخرين لم يكونوا في جامعة الزقازيق بل في جامعات أخرى كالقاهرة وعين شمس والإسكندرية وكانوا يترددون على فتحي في الزقازيق أو يصحبني لزيارتهم في القاهرة.

ومن المصريين الذين تعرفت بهم عن طريق فتحي الشقاقي أو عرّفته أنا بهم أذكر أسامة حميد الشهير بأسامة جغرافيا. وكان طالب بكلية العلوم جامعة الزقازيق ثم حصل فيما بعد على بكالوريوس اقتصاد وعلوم سياسية ثم ليسانس آداب قسم جغرافيا وماجستير في اجغرافيا وكان عبقرية جغرافية نادرة ولا أدري ماذا حدث له بعد ذلك حيث إنه اعتقل لمدة طويلة جدا وكان يحصل على تلك الشهادات من داخل السجون غالباً.

كان الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي في ذلك الوقت يضع اللبنات الأولى، الفكرية والتنظيمية لحركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني مع عدد من زملائه الأوائل، وكان الحوار لاينقطع بيننا حول الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية، وكنا نتوصل شيئاً فشيئاً إلي إدراك مجموعة من الحقائق والنتائج.

كنا قد أدركنا في ذلك الوقت أن حركة الإخوان المسلمين لا تملك أطروحة فكرية قابلة للتطور،وأن هناك عيوبا فكرية وحركية ستوصل الإخوان المسلمين وربما تجر معها الحركة الإسلامية كلها إلى طريق مسدود، كنا نرى أن الإخوان المسلمين يتصرفون بمنطق القبيلة وأنهم يتصورون أنفسهم « شعب الله المختار » داخل الحركة الإسلامية وأنهم يهتمون ببناء التنظيم على حساب الموقف والفكرة، بمعنى أن المحافظة على التنظيم لديهم أهم من اتخاذ الموقف الصحيح، وكان معنى هذا عزلتهم عن الجماهير، وتوصلنا إلى أنه من المفروض أن تكون الحركة، أي حركة إسلامية مجرد خميرة للنهضة حيث إن الأمة بكاملها هي المسئولة عن هذا التغيير،وأن الحركة الإسلامية مجرد قاطرة لهذا التغيير، أو خميرة لتحريك جسد الأمة بكامله وأن التنظيم مهما كانت قوته وعبقرية بنائه لن يكون قادرا على إحداث التغيير المنشود بمعزل عن الأمة.

وكنا نرى أن التنظيم مجرد أداة ووسيلة وليس غاية في حد ذاته، وأنه يجب على كل حركة أن يكون جذرها الشعبي والجماهيري هو عنصر قوتها الأساسي وليس تنظيمها وكوادره، وكنا أيضاً نأخذ على الإخوان المسلمين عدم إدراك الأهمية الخاصة والمتميزة للقضية الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية للحركة الإسلامية، وكنا ندخل في اشتباكات فكرية حادة مع عناصر الإخوان بسبب اهتمامهم المبالغ فيه بالقضية الأفغانية على حساب القضية الفلسطينية ، وكنا نرى أن معنى هذا أن هناك خللاً واضحا في البنيان الفكري للإخوان المسلمين وليس مجرد خطأ تكتيكي فقط.

وكنا نرى أن حركة – أي حركة – ينبغي أن تكون مجرد حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي تمتد بصلة وثيقة إلى ما قبلها، وتتطور في اتجاه ما بعدها، أما اعتبار الإخوان المسلمين أنفسهم الحركة الأم هو نوع من إفقاد الحركة لنفسها

وللحركة الإسلامية بالكامل أصالتها، بل ويثير حولها سؤال عن شرعية نشأتها، فهل سقطت من كوكب آخر فجأة وبلا مقدمات، والصحيح أن الحركة الإسلامية هي امتداد لمجمل النضال الوطني، الذي هو بالضرورة إسلاميا، بمعنى أنها امتداد للنضال المعاصر ضد الاستعمار، امتداد لعبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار والأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعزالدين القسام وغيرهم من زعماء الجهاد والكفاح الإسلامي المعاصر، وبدأنا بالطبع نهتم بدراسة هؤلاء ، وبدراسة وتتبع يوميات ومراحل هذا الكفاح الشعبي الذي لم ينقطع من أجل النهضة ومواجهة التحديات، واهتم الشهيد فتحي الشقاقي بصورة خاصة بعز الدين القسام على أساس أنه من أكبر حلقات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الصهيوني والأب الروحي لكل حركة تريد أن تفعل نفس الشيء.

وكان هناك أيضا مد متصاعد لما يسمى الآن حركة (الجهاد الإسلامي في مصر) وكذلك (الجماعة الإسلامية)، وبرغم كل الرجولة والصلابة والراديكالية التي تميز بها هؤلاء، إلا أن عيبا منهجياً خطيراً كان من سماتهم الرئيسية ألا وهو التعامل مع النصوص بشكل مجرد ومنعزل عن بعضه بعضا، وليس بحسبانها منهجا متكاملا يقدم رؤية، وكذا تحملها بقدر هائل من السلفية يحول دون إدراكها للواقع المتغير فضلاً عن ضعف الوعي السياسي لدى كوادرها.

كان الدكتور فتحي الشقاقي يحلم بحركة إسلامية معاصرة، تتجاوز فكريا وحركيا كل هذه الأخطاء، حركة ترى نفسها مجرد حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي سبقتها حلقات وتتبعها حلقات، حلقة تكون طليعة للأمة وخميرة للنهضة وليست بديلا عن الأمة، حركة تجعل التنظيم أداة وليس غاية، حركة تنطلق من اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، حركة تنفتح على الجميع انطلاقا من ثوابتها فلا تعزل نفسها ولا تنفصم عن جذورها الفكرية والعقائدية في نفس الوقت.

وعلى الجانب الآخر، وانطلاقا من أن القضية الفلسطينية قضية مركزية

للأمة الإسلامية كان لابد من دراسة هذه القضية بكل أبعادها التاريخية والعقائدية وتشابكاتها المحلية والدولية. وأدركنا بالدراسة والمثابرة والمناقشة:

- إن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربية[1]، وأنها آخر مراحل الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ذلك الصراع الذي يمتد في الزمان والمكان أفقيا ورأسيا، أي أن الصراع صراع حضاري، وأنه على أرض فلسطين يتحدد مصير أمتنا وحضارتنا فإما أن ننتصر وإما أن يتحقق الهدف الغربي والإسرائيلي في القضاء على الحضارة الإسلامية.

- إنه ليس فقط يتحدد مصير حضارتنا على أرض فلسطين، بل مصير العالم بأسره، وذلك أن مشروع الهيمنة الغربي على العالم يتسبب بالطبع في شقاء معظم سكان العالم وتحويلهم إلى خدم في خلفية بيت السيد الغربي، وبالتالي

(١) لا شك أن الفكرة الصهيونية فكرة استعمارية أصلاً قبل أن تكون فكرة يهودية، وهي فكرة تقوم على استخدام اليهود كمرتزقة وجماعة عسكرية لتحقيق المصالح الاستعمارية في المنطقة في إطار الصراع الغربي الإسلامي، بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والفكرة قديمة في الفكر الاستعماري قبل أن يفكر فيها تيودور هرتزل، فهناك على سبيل المثال لا الحصر نداء نابليون بونابرت إلى يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة سنة ١٧٩٩ م وهناك دعوة الرئيس الأمريكي جون آدامز، إلى استعدة اليهود فلسطين عام ١٨١٨ م وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية بالمرستون التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلى فلسطين عام١٨٣٩ م وهناك برنامج اللورد سافنسبري إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين سنة ١٨٤٠ م وهناك مشروع إدوارد متورد لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها سنة ١٨٤٥ م، وهناك كتاب أرنست لاهان المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية:إعادة بناء الأمة اليهودية ١٨٦٠، وصدور كتاب « أرض جلفاد» للورنس أوليفنت عضو البرلمان الانجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح إقامة مستوطنة يهودية على مساحة مليون ونصف المليون فدان في الأردن وفلسطين عام١٨٨٠ م، وتأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة بعثة لعبرية نيابة عن إسرائيل،من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين عام ١٨٨٧، ومذكرة بلاكستون إلى الرئيس الأمريكي بيامين هاريسون ووزير خارجيته جيمس لين للعمل علي تخفيف معاناة الشعب اليهودي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين سنة ١٨٩١، وصدر كتب الدبلوماسي الإنجليزي وليمر هشلر في « إعادة اليهود إلى فلسطين » سنة ١٨٩٤ ، كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل « الدولة اليهودية» الذي صدر عام ١٨٩٦.

فإن على الحركة الإسلامية أن تعتبر نفسها طليعة لكل المستضعفين في العالم وقيادتهم في معركة صد آلة النهب والقهر الغربي، وأن الإسلام ينبغي أن يكون بالإضافة إلى أنه دين جزء هام من العالم، فهو أيديولوجية[1] كل الفقراء والمستضعفين من مختلف الأجناس والحضارات.

- إنه مادام الصراع صراعا حضاريا، أي صراع وجود وليس حدود فإن المفاوضات[2] والحلول الوسط وما يسمى بالسلام هي مجرد أوهام وفخ لاستدراج القوى المناضلة إلى مستنقع الخيانة، وأن إسرائيل بكاملها كيان غير شرعي وأنه لا حل هناك سوى الأيديولوجية الإسلامية وحرب التحرير الشعبية لتحرير كامل التراب الفلسطيني، وأنه ينبغي أن يشارك في ذلك

---

(١) وفي هذا الصدد أيضاً يقول جمال حمدان في كتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير) صـ١٦٨«التقت الإمريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانة لبقائه ». ويقول أيضا في نفس الكتاب صـ١٧٦ « الاستعمار هو الذي خلق إسرائيل بالسياسية والحرب وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال وهو الذي يضمن بقاءها ويحميها علنا ».

(٢) ويؤكد روجيه جارودي على هذه الحقيقة أيضا قائلا « إن الأب الروحي للصهيونية تيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق إسرائيل وقدم لها مبررات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية، فستتمتع بميزة على جميع خصومها لأن هذه الدولة ستعتبر راس حربة مغروسة في المنطقة من أجل تغلغل استعماري»، وكتب هرتزل في عام ١٨٩٥ في كتابه«الدولة اليهودية» قائلا « ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراسا ضد آسيا وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية» وفي محاضرة روجيه جارودي في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٦ فندق الماريوت - القاهرة قال: إن إسرائيل ستلعب دوراً هاما في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والإسلامي نظرا لموقعها الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي.

راجع في هذا الصدد. د.محمد مورو « الإسلام أيديولوجية الفقراء: مقدمة في لاهوت التحرير الإسلامي » مجلة المختار الإسلامي العد ١٤٢، جمادى الآخرة ١٤١٥ ـ نوفمبر ١٩٩٤.

راجع في هذا الصدد. د. محمد مورو ـ كتاب «التحدي الاستعماري الصهيوني ـ وجهة نظر إسلامية» باب « نهج المفاوضات ـ نهج خيانة نهج تردد » دار الفتي المسلم القاهرة ١٩٨٤.

الصراع كل فلسطيني وكل عربي وكل مسلم وكل مستضعف.

- إن طبيعة الصراع، وطبيعة تركيب المجتمع الإسرائيلي، وطبيعة المواجهة مع الغرب تستدعي إسلامية[(١)] الصراع بالضرورة، ويستدعي تلك الإسلامية أيضا أن جماهير أمتنا لا تتحرك الآن خلال وجدانها الديني.

- إنه كان من الطبيعي أن تتساقط القوى المختلفة في مستنقع التفاوض وأنه لا يعصم من هذا المستنقع إلا ثلاثة شروط هي « الإسلامية والجماهيرية والكفاح المسلح» وأن افتقاد أي من هذه الشروط الثلاثة يؤدي إلى عدم القدرة على الاستمرار في المواجهة والسقوط بالتالي عند المنحنيات الصعبة في مراحل الصراع[(٢)].

- إن الكيان الصهيوني مجرد وكيل دولي للاستعمار، وأن الحديث عن الوعد الإلهي لبني إسرائيل حديث مغلوط، لأن يهود إسرائيل أولا ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية[(٣)]، وحتى لو فرض أنهم أبناؤهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم وأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية ونحن أولى من اليهود بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسي ويوشع وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، وأن هؤلاء قد بايعوا الرسول أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمهم عليه السلام في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج[(٤)]. وأن الموقف الديني الصحيح هو تنحي اليهود عن يهوديتهم ودخولهم في الإسلام، وأن موسى ويوشع وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام، باعتباره هو الدين الحنيف الذي جاء إبراهيم به أصلا من عند الله والذي كان عليه إسحاق ويعقوب ويوسف والذي جاء محمد ليكون خاتم الأنبياء وجاء المسلمون ليكونوا ورثة كل وعد إلهي.

---

(١) راجع نفس المرجع السابق باب " منهج لفهم الصراع".

(٢) نفس المرجع السابق - باب نهج خيانة ، نهج تردد.

(٣) راجع جمال حمدان - كتاب «اليهود» كتاب الهلال - فبراير ١٩٩٦ ـ القاهرة.

(٤) راجع كتب السيرة في هذا الصدد.

وأنه من منطلقات دينية فإننا ننحاز نفسيا وتاريخياً إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع بن نون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ضد المشركين في ذلك الوقت، ولكننا نعتبر أنفسنا – وليس الصهاينة – ورثة هؤلاء الأنبياء.

– إنه ينبغي لكي نحقق مشروعنا في تحرير فلسطين، بل وتحرير كل مستضعفي العالم أن نفرق بين الإسلام الرسالي وبين الإسلام القبلي أو العشائري أو غير الرسالي عموماً، فالإسلام الرسالي يهتم بالعقيدة والفقه ويهتم أيضاً بنفس القدر بالتطور التاريخي للصراع الإسلامي مع القوى الاستكبارية، ويدرك دوره كطليعة مؤمنة في تلك اللحظة من عمر الأمة ويدرك مهمات الأمة ورسالتها تجاه العالم بأسره في أي لحظة من لحظات التاريخ، وأن الإسلام الرسالي لا يتصرف كبديل عن الأمة ولكن كطليعة لها، وأنه يمتلك منهجاً يتعامل به مع القرآن والسنة والواقع، ولا يتعامل معها كمجموعة النصوص المفرقة والمنعزلة عن الواقع وأن الإسلام الرسالي يعرف ويدرك أن الصراع في تلك المرحلة ليس إلا حلقة من سلسلة الصراع الطويل بين القوى الإسلامية الربانية والقوى الاستكبارية، غير مقطوعة الصلة بما قبلها ولا ما بعدها وبالتالي فهو يمتلك تفاؤل التاريخ وحيوية المستقبل، وأن الإسلام الرسالي ذو توجه جماهيري ورسالة نحو المستضعفين وبالتالي يعرف أن حليفه الطبيعي هو الجماهير المطحونة والكادحة، وأن واجبه تجاه الله تعالى يقتضي الوقوف بجزم ضد كل أشكال الاستبداد السياسي والظلم الطبقي، ويقف مع حق الجماهير في الحرية والعدالة والحياة الكريمة، ويقف مع كل المستضعفين في الأرض، وأن الإسلام الرسالي يدرك أن سلاحه الوحيد ـ حاليا ـ هو الجماهير الواعية ولذلك فهو يثق فيها ثقة مطلقة ولا يتآمر عليها أو يخون قضاياها الحياتية والحضارية والقيمية وأنه يتحرك بنفسية المنتصر حتى في أحلك الظروف، الإسلام الرسالي هو التقوى والعقيدة الصحيحة وهو التصدي للاستعمار والصهيونية والاستغلال والنهب والاستبداد،الإسلام الرسالي هو عز الدين القسام وفتحي الشقاقي، الإسلام الرسالي وفق المنظور السابق

طويل النفس بلا حدود لأن عمقه الجماهير وليس التنظيم، ولا يسقط قط في المساومة والحلول الوسط، وهو شاهد على الأمة وعلى العالم ويمتلك حيوية مذهلة.

- كان فتحي الشقاقي يعمل لإنجار هذا المشروع الفكري والحركي، كان يقضي ليله ونهاره في العبادة والنضال السياسي، أو الدراسة أو الكتابة. وشاء الله أن يقيض له في ذلك الوقت(مجلة المختار الإسلامي) التي ظهرت في تلك الآونة. وعلى مدى٢٧ شهراً أي سبعة وعشرين عدداً من تلك المجلة نجح فتحي الشقاقي وعدد من زملائه في إثراء تجربته الفكرية والتبشير بمفاهيمه المنهجية من خلال تلك المجلة،وكان ينشر بها أبحاثه ودراساته تحت اسم عزالدين الفارس، وكانت تلك الأبحاث والدراسات تقوم على منهج متماسك وعلى لغة مميزة، هي قطعة من أروع أنواع الأدب الجميل، ودون أن تفقد مضمونها الفكري ولعل هذه كانت إحدى مميزات فتحي الشقاقي الذي كان يكتب لغة شعرية و أطروحة فكرية في نفس الوقت، وتلك إحدى ملامح عبقريته التي ساهمت في نجاح تجربته ومشروعه الفكري والحركي.

***

وأذكر الآن أن هذا المعسكر كان بمثابة المؤتمر التأسيسي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قد تم من خلال معسكر فكري ودراسي وتثقيفي تم على أرض الزقازيق الطاهرة، في عدد من مساكن الطلاب الفلسطينيين بجامعة الزقازيق، وقد حضره الرعيل الأول من الفلسطينيين الذين كانوا عماد هذه الحركة وكان في مقدمتهم د. رمضان عبد الله الأمين العام الحالي لحركة الجهاد وكان مسئولا عن هذا المعسكر... وكان هناك عدد من المصريين أيضا، وكنت أنا أحدهم بالطبع وكان هذا تقريباً في نهايةعام١٩٨٠، ويعد هذا المعسكر هو الباكورة الأولى لحركة الجهاد الفلسطيني.

***

تسارعت الأحداث فيما بعد، وحدثت اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١، ولأن الهم الإسلامي واحد، فقد فكرنا مع فتحي الشقاقي في عمل نوع من النضال

السياسي المدني ضد تلك الإجراءات، واقترح البعض المشاركة في اعتصام داخل الجامع الأزهر بالتنسيق مع مختلف القوي الإسلامية، وتم الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين فرفضت كعادتها وقالت إنها سوف تتصرف بمفردها وفقا لأولوياتها ولم تفعل شيئا بالطبع وكذلك تم الاتصال بعدد من الجماعات الإسلامية وحركة الجهاد الإسلامي المصري، وكان أسامة حميد هو حلقة الاتصال، فأخبروه أنهم يفكرون في عمل أكبر من هذا بكثير، ولم نكن ندري ماذا يقصدون بذلك إلى أن حدثت عملية اغتيال السادات وأحداث أسيوط في أكتوبر عام ١٩٨١ [١]، وعلى أثرها تم القبض على عدد كبير من العناصر الإسلامية وكان منها أسامة حميد الذي تم توجيه الاتهام له ضمن قرار اتهام قيادات جماعة الجهاد التي ضمت أكثر من ٣٠٠ متهم كان ترتيب أسامة بينهم ٢٧٣، وكذلك تم اعتقال علي مجاهد، وأيمن عبد الستار وتم فيما بعد اعتقال عدد من الفلسطينيين، كما تم مداهمة بيوت كل من خالد عبد العظيم وأسامة الشافعي إلا أنهما نجحا في الهرب، وقد نجح أيضا الدكتور فتحي الشقاقي في الخروج من مصر في آخر أكتوبر عام ١٩٨١ قبل قليل من إصدار قرار باعتقاله وعدد آخر من الفلسطينيين فيما عرف وقتها بقضية (الطلائع الأولي)،وأذكر أنني كنت آخر المصريين الذين رأوا فتحي الشقاقي قبيل رحيله من مصر في ذلك الوقت وكنت قد كونت رأيا في ذلك الوقت لم يوافقني بالكامل عليه، وهو أنه مع كل التقدير لما قام به هؤلاء الذين اغتالوا السادات، فإن مصر لا ينفع فيها العنف، بل النضال السياسي باعتبار النضال السياسي حلقة وسط بين العنف وبين منهج التربية الإخواني المعروف، وأن من الحساب السياسي الاستراتيجي ألا تتورط حركة الجهاد الفلسطيني - بعد اليوم - في علاقات مع الحركة الإسلامية في مصر مادامت دخلت في صدام عنيف ودموي مع النظام، لأن من المفروض أصلا أن نوجه بنادقنا إلى عدو واحد فقط هو إسرائيل، أو حتى ضد المصالح الأمريكية، وأنه مادامت الحركة الإسلامية في

(١) راجع د. محمد مورو ـ تنظيم الجهاد - الأيديولوجية والجذور - العربية الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٩٠.

مصر لم تعرف أولوياتها، وأنه كان عليها أن توجه عملها العسكري ضد إسرائيل أو حتى أمريكا، وبصرف النظر عن مشروعية الصراع مع الحكومة والشرطة المصرية، فإنه في كل الأحوال فإن على حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني أن تؤكد على ضرورة التوجه ضد إسرائيل دون التورط في صدامات مع الأنظمة العربية على قدر الإمكان تحقيقاً لروحها ومنهجها أولاً، وتفادياً لثمن باهظ يمكن أن تدفعه بلا ضرورة ثانياً.

***

وبالطبع في الفترة من ١٩٨١ ـ حتى عام ١٩٨٣ كانت كلها مطاردات أمنية لي ولغيري وكنت في تلك الفترة قد أنجزت بعض الدراسات حول القضية الفلسطينية نشرت بعضها في مجلة (الطليعة الإسلامية) التي كانت تصدر في لندن، وهي دراسات مثل:"قراءة في حرب صيف ١٩٨٢ "، على حلقتين في أعداد يونيه ويوليو سنة ١٩٨٣،ثم دراسة حول (تاريخ فلسطين الحديث) في عدد لاحق في نفس المجلة[1]" الطليعة الإسلامية " .

وكنت قد اعتقلت في ذلك الوقت مع عدد من المصريين والفلسطينيين بتهمة مناهضة إسرائيل ودعم حركة الجهاد الفلسطيني وتشكيل تنظيم يستهدف القضاء على إسرائيل والسعي لتنفيذ عمليات ضد الكيان الصهيوني انطلاقا من الحدود المصرية... وكان من المعتقلين معي في هذه القضية خالد عبد العظيم، ومحمود يوسف سليمان فضلاً عن آخرين كانوا لا يزالون في السجون وتم التحقيق معهم في نفس القضية مثل أسامة حميد وعلي مجاهد، وكان معنا عدد من الأخوة الفلسطينيين أيضاً منهم الدكتور جميل يوسف عليان مثلاً، كما تم التحقيق مع الأستاذة صافيناز كاظم بنفس التهم إلا أن حجمها الثقافي أدى إلى الإفراج عنها فور التحقيق، والحقيقة أن التهم كان فيها مبالغة كبيرة، فإن العمل الوطني الوحيد الذي قمت به هو تهريب مكتبة الدكتور فتحي الشقاقي الذي كان تركها بشقته بالزقازيق وقد قمت شخصياً بقيادة سيارة

(١) نقل لي البعض أن الدكتور فتحي الشقاقي قال معلقا على هذه الدراسات إنها تقدم منهجا فذا في فهم الصراع.

نصف نقل تم استئجارها لهذا الغرض وحملنا فيها أمهات الكتب التي كانت في مكتبة الدكتور فتحي الشقاقي وسرت بها وكان معي زميلين فلسطينيين أحدهما اسمه نوفل والآخر لم أعد أذكر اسمه الآن، وقطعنا سيناء بالكامل حتى رفح المصرية، وتم إنزال الكتب لدي بعض الأسر الفلسطينية هناك والذين كانوا يستعدون لدخول رفح الفلسطينية في إطار لم شمل الأسر الفلسطينية وفقاً لاتفاقية كامب ديفيد، وتم حمل الكتب معهم فيما بعد عندما تم رحيلهم إلى رفح الفلسطينية وبذلك وصلت كتب الدكتور فتحي الدراسية والفكرية إلى الأرض المحتلة.

وبعد أن تم الإفراج عنا في أوائل عام ١٩٨٤ كررت التأكيد على موقفي بخطأ وجود اتصال بين حركة الجهاد الفلسطيني والحركة الإسلامية في مصر على خلفية أن الصدام الذي تقوم به الحركة في مصر وكذا العنف الذي تتجه إليه سيجر حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين إلى معارك لا طائل من ورائها، ويضر باستراتيجيتها ومواقفها الفكرية و الحركية،وظل هذا موقفي دائما على عكس بعض الأخوة المصريين والفلسطينيين الذين صمموا على السعي في نفس الطريق الوعرة والمكشوفة طبعا بعد أن عرفت أجهزة الأمن كل شيء عن هذه الاتصالات من خلال تحقيقات١٩٨١ و ١٩٨٣، وتم اعتقال عدد كبير آخر في عام ١٩٨٧ بنفس التهم ولنفس السبب، وكنت أيضا من ضمنهم رغم موقفي السابق، وكانت هناك أشياء لا أدري عنها شيئاً، وكان التعذيب هذه المرة بشعاً، وانتهت التجربة بعد أن قرر الدكتور خالد عبد العظيم وآخرين اعتزال العمل السياسي برمته بعد أن تعرضوا لتعذيب أقل ما يقال فيه إنه كان« تعذيباً وحشياً ».

ومن الجدير بالذكر أن نسجل هنا أنه في قضية الطلائع عام ١٩٨٧، تكررت نفس التهم وهي مناهضة دول صديقة« إسرائيل » ودعم حركة الجهاد الإسلامي، والتخطيط لعمليات عسكرية ضد إسرائيل انطلاقا من الحدود المصرية، وأنه تم التحقيق في هذه القضية أيضاً مع كل من الحاج حسين عاشور صاحب مجلة (المختار الإسلامي) والدكتور محمد يحيي أحد أهم كتاب المجلة

نفسها، وكذلك مع الأستاذة صافيناز كاظم الكاتبة الإسلامية المعروفة والدكتور إبراهيم الدسوقي شتا أستاذ اللغات الشرقية بجامعة القاهرة.

***

وبنهاية رحلة الاعتقال عام ١٩٨٧ وبعد الإفراج عني في عام ١٩٨٨ انقطعت تقريباً كل صلة مع الدكتور فتحي الشقاقي، اللهم إلا متابعة أعماله الفكرية في المجلات والصحف ومتابعة أخبار حركته المباركة بالطريقة نفسها، وإن كنت قد ظللت مرابطا على ثغر الفكر والصحافة[1] دفاعاً عن القضية الفلسطينية وإثراء للفكر نفسه والمشروع نفسه الذي يقدمه فتحي الشقاقي وإخوانه إلى أن دهمتنا أخبار اغتياله على يد الموساد في مالطا في ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥.

---

(١) قدمت في تلك الفترة مئات المقالات الصحفية والدراسات في المختار الإسلامي، العالم اللندنية، العرب اللندنية، اليومية، الشعب المصرية وغيرها دفاع عن القضية الفلسطينية وإثراء لمشروع الدكتور فتحي الفكري وكذلك عدد من الكتب مثل « سليمان خاطر »، « إعدام كاهن » « أيمن حسن » « حماس والجهاد » (الجهاد في سبيل الله: حزب الله نموذجا) فضلا عن كتابي التحدي الاستعماري الصهيوني وجهة نظر إسلامية ــ ١٩٨٤، « والقضية الفلسطينية من عبد الناصر إلى السادات» ١٩٨٥.

محطات في حياة الشهيد فتحي الشقاقي

- فتحي إبراهيم عبد العزيز الشقاقي
- ترجع أصولة العائلية إلى قرية زرنوقة القريبة من يافا بفلسطين المحتلة، والتي هاجرت منها أسرته إلى مدينة رفح بعد احتلال الجزء الأول من فلسطين عام ١٩٤٨.
- ولد الشهيد في مدينة رفح بقطاع غزة عام ١٩٥١.
- درس العلوم الرياضيات في جامعة بيرزيت وعمل مدرسا في القدس، ثم درس الطب في مصر بكلية الطب جامعة الزقازيق وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة عامة ١٩٨١ وعمل طبيبا في القدس أيضا.
- انخرط في العمل السياسي والنضال منذ وقت مبكر وشارك في نشاطات تنظيمية منذ منصف الستينات.
- التحق عام ١٩٦٨ بالحركة الإسلامية في فلسطين.
- أسس مع عدد من إخوانه حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين في نهاية السبعينات.

- اعتقل عدة مرات منها في مصر عام١٩٧٩ بسبب تأليفه كتبا عن الثورة الإسلامية في إيران، ثم في فلسطين المحتلة عام ١٩٨٣، ثم عام ١٩٨٦ ثم أبعد عن فلسطين المحتلة عام ١٩٨٨ إلى لبنان بعد اندلاع الانتفاضة المباركة في فلسطين عام ١٩٨٧.
- تنقل بعد ذلك الوقت في بعض العواصم العربية والإسلامية لمواصلة طريق الجهاد ضد العدو الصهيوني.
- متزوج وله ثلاثة أطفال هم إبراهيم وخولة وأسامة.
- اغتالته أجهزة الموساد الصهيونية في مالطا يوم الخميس ٢٦/١٠/١٩٩٥ وهو في طريق عودته من ليبيا، بعد جهود قام بها لدى القيادة الليبية بخصوص الأوضاع المأساوية للشعب الفلسطيني.

القضية الفلسطينية قضية مركزية
الشقاقي يعدل الهرم المقلوب

تحتل القضية الفلسطينية مساحة هامة في المشروع الحضاري الإسلامي، ويمكننا أن نقول : إن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية أمر يدخل في صميم المشروع الإسلامي.

وهذا الأمر يرجع بالطبع إلى أسباب تاريخية ومستقبلية في نفس الوقت، فمسيرة الإسلام الحضارية دخلت في الكثير من التحديات والصراعات ونجحت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين في حسم الصراع لصالحها ضد الكثير من القوى الاستكبارية، ولم يصمد أمام الزحف الإسلامي إلا الحضارة الغربية، ودخل الإسلام مع تلك الحضارة الغربية صراعاً مريراً بدءا من عهد الرسول وحتى اليوم، واستطاعت أمة الإسلام أن تحقق النصر في الكثير من المواقع والغزوات على الحضارة الغربية، ولم تكن الحروب الصليبية في الشرق العربي إلا إحدى المحطات في هذا الصراع الذي استمر في الزمان والمكان وبمساحة واسعة في شمال أفريقيا والمغرب العربي وفي الشام وأوروبا ذاتها أيام مجد الخلافة العثمانية وفي البحر المتوسط كرا وفرا، ونحن الآن ومنذ قرنين من الزمان تقريبا نتعرض لضغط وهزيمة أمام الحضارة الغربية، والتي استخدمت في نهاية المطاف اليهود كأداة لتحقيق الحلم الأوروبي بالقضاء على الحضارة الإسلامية.

وهكذا فإن إسرائيل تمثل رأس الرمح الغربي ضدنا ويشكل التحدي اليهودي الغربي أحد اهم معطيات التاريخ المعاصر، فالعرب استخدم اليهود عندنا للتخلص منهم من ناحية، وللكيد لنا من ناحية أخرى واليهود استغلوا الوجدان الغربي الصليبي والمخططات الغربية المتآمرة ضدنا لتحقيق هدفهم في احتلال فلسطين وإقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات فيما بعد.

ومن ناحية أخرى فإن فلسطين أرض مباركة، وفيها المسجد الأقصى أولى

القبلتين وثالث الحرمين، وهي في القلب من العالم الإسلامي، والضربة التي تكون في القلب تمس الكيان كله.

لهذه الأسباب فإن الصراع على أرض فلسطين يمثل المسألة الأهم في مستقبل الحضارة الإسلامية، فعلى أرض فلسطين يتحدد مصير الأمة الإسلامية فإما النصر وبداية الصعود الإسلامي الثاني وإما الإبادة والنهاية لحضارتنا لا قدر الله.

وهكذا فإن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية يشكل رقما هاما في المشروع الحضاري الإسلامي.

***

والقضية الفلسطينية بالنسبة للشقاقي هي القلب والعقل معا، فكرا وحركة وجهادا وتنظيما، والقضية الفلسطينية بالنسبة لتيار الشقاقي قضية مركزية للحركة الإسلامية وللأمة الإسلامية، وقد قدم الشقاقي إسهاما فكرياً نظريا رائعا لتأصيل هذه المعركة ووضعها على محك التطبيق العملي والشعار السياسي وبناء التحالفات التكتيكية والاستراتيجية بل وكذا موقفه النقدي من الحركات الإسلامية ومن الإسلاميين عموماً ومن كل القوى والدول والحركات.

يرصد الشقاقي مواقف الإسلاميين حول القضية الفلسطينية في ملف له بعنوان القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة في العدد١٣من مجلة المختار الإسلامي،يوليو ١٩٨٠ قائلا : « تفاوتت مواقف الإسلاميين من القضية الفلسطينية إلى درجة تثير الدهشة، فمنهم من يتجاهلها وكأنها قضية سياسية ـ لا تتجاوز قضية الخلاف بين عمان ورأس الخيمة- ويتصورون ـ وكطريقتهم المعتادة في التصور ـ أن قيام دولة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماما وسيحسم الصراع الطويل ويعيد فلسطين إلى أهلها خلال ساعات ولو سئل هؤلاء عن الدولة الإسلامية التي يريدونها لا تسمع منهم إلا قولاً واحدا : إن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه والتخطيط له،علينا نحن العمل

والعمل فقط.وهؤلاء للأسف يجهلون مرحلتهم ويجهلون أدواتهم، ذلك لأنهم يجهلون جوهر الصراع الدائر على أرض الوطن الإسلامي الآن، قبل جهلهم بالقضية الفلسطينية وموقعها من المرحلة ومن دائرة الصراع، ومن الإسلاميين من يتصدى للقضية الفلسطينية ويقترب منها ومن دوامة الصراع السياسي حولها مقدما موقفه كتعبير عن الموقف الإسلامي ـ كما يظن ـ ومراوحا في ذلك بين التنازل السياسي في التحليل والرؤية إلى جزيئات استطاعت الدول الكبرى أن تقدمها لنا وكأنها هي كليات القضية، وبين الموقف اللاتحليلي والعاطفي الذي يرى أن فلسطين هي أرض المقدسات الإسلامية وأن الأيدي الإسلامية المتوضئة هي التي ستحررها وكفى الله المؤمنين شر الدراسة والوعي والتحليل.

والحقيقة أن تلك المواقف جميعها التي بنيت على فهم سطحي أو على عدم فهم أصلا لمهام الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية هي مواقف غير أصلية في تراث الحركة الإسلامية فعندما تقدم حسن البنا رحمه الله إلى فلسطين ليضع على أرضها قواعد إخوانية جديدة – وعندما قدم الإسلاميون خيرة شبابهم شهداء على أرض فلسطين بين ٤٧-١٩٤٨ كانوا في الحقيقة يكرسون الشعلة التي تقدم الشيخ المجاهد عز الدين القسام في منتصف الثلاثينات في أول محاولة لإضاءتها ».

وبتحليل مضمون ذلك التحليل النقدي للدكتور الشقاقي نجده يقدم أولاً رؤية نقدية لمواقف الحركة الإسلامية من القضية الفلسطينية فهي مواقف لا تلبي طبيعة التحدي ولا تستجيب لخطورة القضية ومركزيتها وهو هنا لا ينقد فقط مواقف الإسلاميين تجاه القضية الفلسطينية ولكن أيضا يضرب بفأس نقدي نوراني في أمراض وعيوب الحركة الإسلامية المعاصرة فهناك غياب للدراسة والوعي والتحليل، واكتفاء بمفاهيم عمومية ومواقف لا تدخل في صميم المشكلة بحثا ودراسة وجهادا، وهناك فهم سطحي أو عدم فهم أصلا ويرجع الدكتور فتحي عدم الفهم هذا أو الفهم السطحي، إلى عدم فهم الإسلاميين اصلا لمهام الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية .

و نحن بدورنا نؤكد على ما قاله الدكتور فتحي الشقاقي فأين الوعي والتحليل والدراسة التي قدمها الإسلاميون خارج تيار الشقاقي الفكري والحركي، لطبيعة الصراع، وطبيعة تركيب العدو الصهيوني، ودراسة إسرائيل كجزء من مشروع الهيمنة الغربية أو وضع المشكلة في سياقها التاريخي والحضاري باعتبارها جزءا من الصراع الطويل الممتد في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية التي تمثل الحق والعدل والحرية والحضارة الغربية التي تمثل القهر والوثنية والنهب والعنصرية... بل أين هي الدراسات والتحليلات التي تحل إشكاليات الواقع المعاصر؟، بل أين هي الدراسات والتحليلات التي تعرف الحركة الإسلامية باعتبارها حركة تحرر وطني تستند إلى الأصول الإسلامية، وليست مجرد فرقة دينية أو سياسية قديمة أو حديثة؟، إن الحركة الإسلامية المعاصرة لم تجب على سؤال: من نحن؟ وماذا نريد؟ فهل كان من الممكن أن تجيب على أسئلة وإشكاليات صراع معقد ومتشابك مثل الصراع مع الكيان الصهيوني ومشروع الهيمنة الغربي برمته.

ويسخر الدكتور فتحي الشقاقي من نمط التفكير السائد لدي الإسلاميين محددا أحد أسباب عدم انتصار هذا التيار حتى الآن رغم كل الظروف الموضوعية التي تعمل لصالحه. فهم يتصورون كطريقتهم المعتادة في التصور، المصابة بالتعالي وسوء الفهم وأحيانا الجهل، أن قيام دولة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماماً وسيحسم الصراع الطويل ويعيد فلسطين لأهلها خلال ساعات وهم هنا أولا لا يقدمون حتى تصوراتهم عن تلك الدولة الإسلامية المنشودة، ما شكلها؟ ما طبيعتها؟، ما أولوياتها؟، ما برامجها؟، ومواقفها وتحدياتها؟، وكأننا نعيش في كوكب آخر منعزلين عن الصراعات العالمية ومنبتّي الصلة مع التاريخ والجغرافيا، ويهربون من الإجابة بقولهم: إن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه أو التخطيط له علينا العمل والعمل فقط، وهل يمكن العمل بدون خطة استراتيجية وتكتيكية؟ وهل نحن نعمل في فراغ مثلا؟ وحتى إذا صح هذا بالنسبة للحركة الإسلامية في بنجلاديش ـ وهو لا يصح أيضاـ فإن من غير المعقول أن يصح هذا في وسط معمعة هذا الصراع الصهيوني على

أرض فلسطين وفي المنطقة المحيطة به.

إلا أنه من المفيد هنا ـ أن ننقد الدكتور فتحي الشقاقي أيضا لأنه بعد أن ضرب فأسه النقدي النوراني في جوهر المشكلة وأسباب المرض عاد ليعطي نوعا من الاعتذار في محاولة مفهومة لعدم استثارة قوة سياسية بعينها ـ الإخوان المسلمون وللفت نظرها أن مؤسسيها التفتوا إلى طبيعة المعركة، فلماذا هم يتراجعون ويكونون أقل وعيا وفهما وحركة من جيل المؤسسين، ورغم أن هذا صحيح جزئياً إلا أن النقد الموضوعي الشامل لا يتفق مع الدكتور الشقاقي في تلك النقطة، إنه يلفت نظر جيل الإخوان المسلمين الحالي إلى ممارسة الإمام الشهيد حسن البنا في هذا الصدد الذي أدرك قواعد الصراع واستجاب للتحدي، ولذلك الجيل الإخواني في عام ١٩٤٧-١٩٤٨ الذي قدم خيرة شبابه شهداء على أرض فلسطين، والذين كرسوا شعلة الوعي المضيئة للقضية الفلسطينية كقضية مركزية للحركة الإسلامية، ومع كل التقدير والاحترام لجهود البنا التاريخية في تلك الفترة، ولإسهامات ذلك الجيل الإخواني الذي قدم خيرة شبابه شهداء على أرض فلسطين نسأل سؤالاً مهما لماذا لم تستمر تلك المسيرة الجهادية؟ لماذا تراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية لدى هؤلاء؟، لماذا لم تقم حركة الاخوان المسلمين في فلسطين باستمرار الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني منذ ١٩٤٨ وحتى فترة طويلة؟ أو لماذا تركت القضية إلى القوى العلمانية أو الوطنية على اختلاف مشاربها واتجاهاتها تعيش بها وعليها وتصل بها في النهاية إلى المأزق المعروف نقول « لو » أن الإخوان المسلمين في فلسطين استكملوا ما بدأه البنا، وساروا في طريق الكفاح المسلح، لتغير وجه المنطقة ولما كان المسار الفلسطيني قد وصل إلى هذا المأزق، ولما كان المسار العربي برمته قد وصل إلى هذه الأوضاع المأساوية، ولكان من المستحيل عمليا وصول الأنظمة الاستبدادية إلى الحكم في الوطن العربي والتي استخدمت شعارات الصراع مع إسرائيل بعد أن سقط الشعار من القوى الإسلامية، بل ما كانت القوى الإسلامية قد تعرضت لهذا الليل الطويل من الاضطهاد والتعذيب والسجن وأعواد المشانق، وهذا بالطبع رد على هؤلاء الذين

سيبررون تراجع النضال الإسلامي ضد التيار الصهيوني بعملية الحصار والاضطهاد التي تعرضت لها الحركة الإسلامية في بلدان الوطن العربي المتاخمة لفلسطين، وهي بالطبع حجة البليد ووضع للهرم على رأسه بدلا من قاعدته، فلو كانت الحركة الإسلامية وخاصة في فلسطين - قد سارت في طريق الكفاح لكانت الشعوب وقفت وراءها هي وليس وراء قوى العسكر أو العلمانيين ولكان هؤلاء لم يجدوا شيئاً ليركبوه للوصول إلى السلطة وممارسة أعمالهم الخبيثة.

والحقيقة العارية - بلا معاملات السياسة والظروف - أنه لو كان البنا قد وضع القضية الفلسطينية كقضية مركزية في صلب منهجه ومشروعه السياسي والحضاري لما أمكن التراجع بهذا الحجم لدى الأجيال التي تلته عن هذا الشعار والنضال والجهاد ومن أجله..

ونضيف هنا أسئلة وأحداث لا سبيل لنكرانها والشك فيها فما الذي يجعل رجلا مثل الشيخ حافظ سلامة هو الذي يقود جهاد شعب السويس في مقاومته ضد الجيش الإسرائيلي عندما حاول هذا الجيش احتلال مدينة السويس عام ١٩٧٣ وأين كان الإخوان المسلمون... وما الذي يجعل رجلا مثل الشيخ أحمد المحلاوي هو الذي يقود المعارضة السياسية لكامب ديفيد ومشروع السادات التصالحي مع إسرائيل في نهاية السبعينيات، وما الذي يجعل الدكتور الشقاقي نفسه وحزب الله في لبنان هما اللذان يعيدان الوجه الإسلامي للمقاومة المسلحة ضد الكيان الصهيوني ثم تأتي حماس معهم وكرد فعل لهما، ولماذا لا تتفجر الانتفاضة إلا بعد نضال سياسي لتيار الدكتور الشقاقي في الأرض المحتلة، ما الذي يجعل كل هذا يحدث لو لم يكن هناك خلل في المنهج الإخواني - ليس تكتيكيا بل استراتيجياً.

نعود إلى الدكتور فتحي الشقاقي حيث يحلل لنا طبيعة الصراع ويعطيه أبعاده التاريخية والحضارية وهي محاولة رائدة له بالطبع، استحق بها أن يكون رمزاً للمرحلة بل رمزا لحركة الإسلام في القرن العشرين في مواجهة مشروع

الهيمنة الغربي.

يقول الدكتور الشقاقي:« علينا أن نلجأ وبدقة إلى حركة التاريخ فوق أرض الوطن الإسلامي كأداة تملكها وتسيرها سنة الله المؤثرة في هذا الكون، لنحاول استيعاب جذور القضية الفلسطينية وعلاقتها بأزمة الوطن الإسلامي ككل، ذلك إن أردنا أن نعي مرحلتنا وأن نعي أهدافنا وأدواتنا وإن أردنا أيضاً أن نقترب مرة أخرى من شعلة الوعي والثورة » والشقاقي هنا يلفت النظر إلى أن القضية الفلسطينية ـ هي جزء من قضية الوطن وبالطبع فإنها في القلب من هذا الوطن كقضية وكجغرافيا وتاريخ وكرمز ديني.

ويستكمل الدكتور الشقاقي: « لقد حكمت الدولة العثمانية فلسطين كجزء مهم من الأرض الإسلامية وعندما بدأت التوجهات اليهودية الصهيونية إلى فلسطين في نهاية القرن الماضي أعيد التشكيل الإداري في المنطقة لتصبح فلسطين وحدة إدارية تابعة مباشرة للصدر الأعظم في اسطنبول،هكذا كان المنظور الإسلامي يتعامل مع الأرض الإسلامية ولم يكن قد برز بعد مفهوم الحدود التاريخية للوطن الذي سيشكل فيما بعد أسس الاتجاهات الوطنية في المنطقة العربية كما أنه سيشكل أسس الفكر التوسعي الصهيوني، ولكن الصراع الحاد المتواصل بين الإسلام كمجتمع ونظام بين الإسلام كتيارات فكرية واجتماعية الذي استمر طوال القرن التاسع عشر على أرض الوطن الإسلامي كان قد استطاع في مشارف القرن العشرين أن يقدم نتائجاً في غاية الخطورة فمنذ الحملة الفرنسية وحتى الحرب العالمية الأولى والغرب يحاول بكل الوسائل تدمير الحائط الإسلامي الصلب الذي يمنع سيطرته على ... الثورة في العالم ويشكل تهديدا أصيلاً لقيمه وبنيان نظامه وهكذا فقد استخدم الغرب حرابه العسكرية وبعثاته التبشيرية ومدارسه العلمانية ضمن ... عريضة ومتواصلة كان أخطر أدواتها تلك النماذج من أبناء المجتمع الإسلامي التي هزمت روحيا وفكريا وعملت كأدوات لعلماني الغرب ولأطروحاته السياسية القومية وبالذات ضد وطنهم، وهكذا ومع بداية القرن العشرين كان حزب الاتحاد والترقي يدعو إلى قومية طورانية في تركيا وكانت الأحزاب

والجمعيات العربية مثل « العربية الفتاة، وجمعية العهد وجمعية بيروت الإصلاحية وحزب اللامركزية» وأخرى كثيرة تدعو إلى قومية عربية ودولة عربية مستقلة عن دولة الخلافة.

وعلى الجانب الآخر كانت الحركة الصهيونية كتعبير عن الفكر اليهودي التاريخي تحدد ملامحها السياسية في أوروبا كحليف أصيل سياسيا وفكريا للاستعمار الإمبريالي ضد ثروات الشعوب وللهجمة الغربية ضد الإسلام ووطنه، وهكذا ولدت الحركة القومية العربية ابنا شرعياً للهجمة الغربية ضد الوطن الإسلامي وبدت الحركة الصهيونية جزءاً أصيلاً من تلك الهجمة بكل ملامحها ».

وهكذا فإن الشقاقي يصل إلى الكثير من الحقائق التاريخية التي لابد منها لفهم طبيعة الصراع ولتحديد التحديات ووسائل الاستجابة الصحيحة والمكافئة لها.

ففي إطار الصراع التاريخي بين الإسلام والغرب، كان الغرب منذ الحملة الفرنسية يحاول بكل الوسائل تدمير الحائط الإسلامي وذلك بسبب الصراع التقليدي الذي يجعل من الحضارة الإسلامية تهديدا مستمرا و أصيلا للغرب وقيمه وبنيان نظامه، وبسبب رغبة الغرب أيضا في الوصول إلى مكامن الثروة في العالم التي كان الحائط الإسلامي يمنعه عنها.

إن الغرب استخدم في ذلك الصراع الكثير من الأدوات بدءا من الجيوش العسكرية وبعثات التبشير وانتهاء باستخدام طابور خامس من داخل الوطن الإسلامي من هؤلاء المغتربين المهزومين روحيا أمام الغرب والذين عملوا، كأدوات لعلمانية الغرب ولأطروحاته السياسية والقومية بالذات ضد وطنهم.

إن الغرب استخدم الحركة الصهيونية كجزء من أدوات تحقيق هذا المخطط بل وأخطر هذه الأدوات جميعاً، ويرى الشقاقي أن الحركة الصهيونية جزء أصيل من الهجمة الغربية بكل ملامحها، وأن الصهيونية بدورها رأت نفسها كحليف أصيل سياسياً وفكرياً للاستعمار الإمبريالي ضد ثروات الشعوب

وللهجمة الغربية ضد الإسلام ووطنه.

***

ويرصد الدكتور الشقاقي في وعي هذ العلاقة الجوهرية بين الاستعمار وبين حركة القومية العربية والتي أدت ممارساتها وخياناتها إلى نجاح الغرب في زرع الكيان الصهيوني في فلسطين.

يقول الشقاقي: « في ظل تلك المرحلة بدأت الاتصالات بين الشريف حسين ممثل الحركة القومية العربية والسير مكماهون ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا، قدم الشريف حسين رؤيته للمستقبل ضمن تكوّن مملكة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية تضم المنطقة العربية شرق السويس والجزيرة العربية إلا أن مكماهون منعه الدخول في تفاصيل الحدود، وبعد إلحاح وافق على ذلك مستثنياً فلسطين وبعض أجزاء بلاد الشام الأخرى من الدولة المطلوبة ولم يقدم البريطانيون أية ضمانات حقيقية للأحلام القومية العربية ورغم ذلك دخل القوميون العرب الحرب إلى جانب بريطانيا وضد الدولة العثمانية، لقد كانت المملكة العربية التي أرادها الجيل الأول من القوميين العرب نكوصاً للوراء عن الدولة الإسلامية الكبيرة والشاملة لعدة قوميات وفي ظل الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا فلسطين وأعلن وعد بلفور او عرفه العرب ونصب المؤتمر السوري الذي ضم ممثلين عن سوريا الكبرى محاولين بذلك سبق الأحداث، وعندما هزمت حكومة فيصل أمام القوات الفرنسية تم قبوله وعائلته للتسوية البريطانية بإعلانه ملكاً على العراق، نسي ذلك الجيل من القوميين العرب الذي كانوا في أغلبهم ينتمون إلى طبقة كبار الملاك، نسوا إلى حد ما تلك الفكرة القديمة لتأسيس دولة عربية كبرى وتوزعت اهتماماتهم بين دولة سورية وبين أوطان صغيرة مستقلة، لقد وقف القوميون وكبار الملاك، في شرق المنطقة العربية من الوطن الإسلامي مع فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية كتعبير عن هزيمتهم الفكرية والروحية والنفسية أمام فكر الغرب القومي العلماني،وكتعبير أيضاً عن طموحاتهم باستقلال اقتصادي عن الحكومة المركزية في اسطنبول، إذ لا خوف من المستقبل مادامول هم الذين سيحكمون

دولة المستقبل تلك.هذا هو الإطار العام الذي حكم الصراع في المنطقة ككل بين الحربين العالميتين أو بين وعد بلفور والهجمة الأولى عام ٤٨ ».

وهكذا ضاعت فلسطين... أو قل بدأ ضياعها ثم استكمل جيل العلمانيين والتغريبيين الذين حكموا المنطقة تضييعها... وهنا يرصد الشقاقي تراجع فكرة الوحدة الإسلامية والوطن الإسلامي، وبروز فكرة القومية العربية ويرى أنه بين هذا التراجع وذاك الصعود كان ضياع فلسطين.

***

ويستكمل الشقاقي دراسة الظروف والأوضاع التي أدت إلى ضياع فلسطين فيقول: صاحب نهاية الحرب الأولى ازدياد الهجرة الدولية إلى فلسطين بعد الاحتلال البريطاني وإعلان وعد بلفور مباشرة وقد تحركت الجماهير الفلسطينية بحسها التاريخي ضد الهجمة ولكن الوجهاء والملاك الذين قادوا الانفصال عن الدولة العثمانية متحالفين مع بريطانيا عادوا مرة أخرى وضمن ظروف تدهور سياسي وحضاري شامل ليقودوا الجماهير وحركتها فأنشئت الجمعيات في المدن الفلسطينية وقادها الوجهاء والتجار وقد عقد ممثلو تلك الجمعيات المؤتمر الفلسطيني الأول في يناير ١٩١٩ وكان عدد المؤتمرين ٢٧ منهم ١١ أصدقاء لبريطانيا و٢ أصدقاء لفرنسا من المستقلين و١٢ من أنصار الوحدة القومية العربية، وكان واضحا أن المؤتمر ورئيسه « موسى كاظم الحسيني » سيقفون موقف المهادنة من بريطانيا وأن اتجاه المؤتمر العام سيفهم الصراع على أنه صراع مع الصهاينة فقط وعندما أعلنت بريطانيا الانتداب على فلسطين وعينت الصهيوني هربرت صموئيل مندوباً سامياً لها في القدس ليسرع في تنفيذ وعد بلفور لقيام وطن قومي لليهود قام صموئيل بتشكيل مجلس استشاري له من اليهود والمسلمين والمسيحيين وكان من أبرز أعضاء المجلس من العرب إسماعيل الحسيني وفريح أبو مدين وسليمان ناصيف وعبد الرزاق طوقان وهم جميعاً ينتمون إلى فئة الوجهاء والملاك أصدقاء بريطانيا،نفس هذه الفئة ستشكل الحزب الوطني بقيادة عارف الدجاني وراغب التشاشيبي

وسليمان الفاروقي ليكون أداة ضد الوطن ومع بريطانيا، ولقد قام الفلسطينيون بثلاث انتفاضات دموية قبل مطلع الثلاثينات، كانت الأولى سنة ١٩٢٠ والثانية سنة ١٩٢٣،وكانت في ظل أطروحات نفس الزعماء ضد التواجد الصهيوني فقط، ولكن في عام ١٩٢٩.

وعندما حاول اليهود الاقتراب من المقدسات الإسلامية في القدس ثارت الجماهير متجاوزة قياداتها ضد اليهود وضد بريطانيا ومؤسساتها الحكومية،لقد أصبح واضحا رغم تضليل الزعماء من الملاك والوجهاء أن الصراع ضد الهجمة بطرفيها بريطانيا والحركة الصهيونية معا وعلى رأس التنظيمات الداعية إلى مهاجمة بريطانيا كانت جمعية الشباب المسلم في حيفا ذات الصلة الوثيقة بالشيخ القسام، وفي مطلع العام الحادي والثلاثين عقد في القدس ما سمي بالمؤتمر الإسلامي الذي سيطرت عليه نفس العناصر القيادية المرتبطة ببريطانيا، وبالتالي فإن المؤتمر رغم شمولية تمثيله للمسلمين في العالم من سنة وشيعة في المنطقة العربية والهند وإيران إلا أنه لم يستطع التقدم إلى الأمام، وعقب المؤتمر مباشرة أصبحت التيارات السياسية في الساحة الفلسطينية واضحة ومميزة، فقد حافظت العناصر القومية التقليدية على أفكارها ومنهجها في العمل ضمن حزب الاستقلال، عجاج نويهض وأسعد داغر وعزة دروزة وصبحي الخضرا وشكل الوجهاء أصدقاء بريطانيا حزب الدفاع الوطني « راغب النشاشيبي» وقدمت عائلة الحسيني رؤيتها الوسطية الوطنية ضمن الحزب الوطني الفلسطيني « جمال الحسيني » ومباركة المفتي « الحاج أمين الحسيني » .

وكان الحزب مزيجا من الأحلام القومية وآمال الاستقلال الوطني وشيئاً من الحس الإسلامي،ولكن تلك الاتجاهات لم تكن قادرة ـ نظراً إلى المواقع الفكرية اللاإسلامية- على تحديد جوهر الصراع والتقدم نحو حسمه وكان لابد للجماهير بوعيها الإسلامي وبحسها التاريخي أن تقدم رؤيتها ومنهجها فكانت حركة عز الدين القسام، ويستمر الصراع في تصاعده بين الجماهير من جهة وبريطانيا والحركة الصهيونية من جهة أخرى بينما قيادات الوجهاء مازالت تتسلق أكتاف حركة الجماهير كزعامة رسمية، وعندما تفجر الصراع بشكل

شامل وعنيف سنة ١٩٣٦ تشكلت قيادة الثورة من عوني عبد الهادي، وأحمد حلمي باشا، وراغب النشاشيبي وجمال الحسيني وعبد اللطيف صلاح وحسين الخالدي ، نفس الوجوه ونفس الممارسة فقد كانوا ممثلين لمرحلة بأكملها فعندما كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد كانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة، وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر والدم جاءوا هم وحلفاؤهم من الزعماء العرب في الممالك العربية « مصر والأردن والسعودية، والعراق» ليأمروا الجماهير بوقف المعركة لأن الصديقة بريطانيا ستتفهم مطالبنا.

والشقاقي هنا يضع ملامح المنهج الصحيح للمواجهة، هو يعري ويكشف مناهج أخرى تشكلت وما كان لها إلا أن تفشل في تلك المواجهة منهج الزعماء الوجهاء والعلمانيين وأصدقاء بريطانيا الذين يعزلون الهجمة الصهيونية عن منهجها الأصيل وهو مشروع الهيمنة الغربي فيهاجمون الصهاينة ويتركون بريطانيا،أو حتى يثقون في وعود الصديقة بريطانيا التي هي ممثلة مشروع الهيمنة الغربي في ذلك الوقت فكيف نحل مشكلاتنا وننتزع حقوقنا بالثقة في عدونا الذي اعتدى على تلك الحقوق وسلبها وانتهكها، وهكذا كان هذا المنهج الفاشل والذي كان يتسلق على أكتاف الجماهير هو سبب تكريس ضياع فلسطين والاستمرار في منطق اللامعقول وفي المقابل كانت الجماهير تدفع الدم بالحس الإسلامي والوعي التاريخي، وتعرف شيئا فشيئاً طبيعة المعركة وكونها معركة ضد الهيمنة الغربية ورأسها الصهيوني.

وبدءا من عام ١٩٢٩ بدأت الجماهير تهاجم إنجلترا والصهاينة على حد سواء، ويرجع ذلك إلى طليعة مجاهدة اكتشفت طبيعة الصراع في ذلك الوقت وهي جمعية الشباب المسلم ذات الصلة بالقائد التاريخي الفذ عز الدين القسام... وتعتبر هذه الطليعة المؤمنة المجاهدة الواعية بجوهر الصراع ويعتبر رمزها التاريخي الشهيد المجاهد عز الدين القسام بمثابة العمق التاريخي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ورمزها التاريخي أيضا الدكتور فتحي الشقاقي وهذه وتلك أدركت أن المواجهة شاملة مع مشروع الهيمنة الغربية برمته ومع

رأس الحربة في ذلك المشروع « الصهاينة » وبأن الكفاح الجماهيري المسلح والواسع والنضال السياسي ضد الغرب كفكر وثقافة وقيم ووجود عسكري وسياسي هو فريضة شرعية وضرورة استراتيجية وشرط أساسي لصحة طريق المواجهة لاستعادة الحقوق وحسم الصراع الحضاري، طال الزمن أم قصر.

***

ويستمر الدكتور فتحي الشقاقي في تحليله الفذ قائلاً : وقد شهدت الأربعينيات الذروة الأولى للصراع على فلسطين وبحلول عام ١٩٤٧ كان الاستعمار الغربي بكل قواه ضمن لحظة حاسمة من الهجمة على الوطن الإسلامي يقف وراء الحركة الصهيونية ومعها من أجل قيام إسرائيل، وعلى الجانب الآخر كانت الزعامات الملكية العربية ووجهاء وملاك فلسطين قد نشأوا في أحضان الهجمة الغربية.وقادوا قبل خمسين عاما عملية تحطيم الدولة الإسلامية ويريدون اليوم مواجهة الحركة الصهيونية وهو أمر يثير الدهشة و[illegible] يومها أيضا بإمكان الجماهير الإسلامية أن تقدم لأمتها وجها حقيقيا و[illegible]ميلا ولذا فقد دخلت الفصائل الإسلامية الإخوانية من مصر والأردن وسوريا إلى ساحة الصراع وحين كان الجميع يهزمون ويتراجعون كان الإسلاميون يثبتون ويستشهدون ولكن المرحلة كانت أكبر من طاقتهم.

واستطاع التحالف الصهيوني الغربي في النهاية إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد مجتمعي وحي ومستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي، وسقطت كل الرؤى القديمة لمستقبل المنطقة بعد هزيمة الدولة الإسلامية. سقطت لأن قياداتها لم تخض في الحقيقة معركة ضد الغزو، فقد كانت في جانبه بقصد أو بدون قصد وكانت تتزعم معركة زائفة لصراع لم تع جوهره فحتى سنة ١٩٢٩ كانت تلك القيادات تصور اليهود فقط كطرف للصراع بينما الجماهير بحسها الإسلامي تشعر أن بريطانيا هي الطرف الآخر وحين دعا أئمة المساجد الجماهير إلى عدم دفع الضرائب لحكومة بريطانيا الكافرة كتصعيد للصراع وقفت القيادات من الملاك والوجهاء ضد الدعوة خوفا على أملاكهم من رد الفعل البريطاني وحين تقدمت الحركة الإسلامية

الثورية بقيادة الشيخ عز الدين القسام رافعة السلاح في وجه بريطانيا لم تتكلف تلك القيادات المزعومة مجرد السير في جنازة الشهداء، وفي حمى معارك النكبة الأولى كانت الجماهير تستشهد وهم يتفاوضون وكانت بإسلامها مصممة على مواصلة الصراع وهم يوقعون اتفاقات الهدنة وكان لابد أن تسقط أنظمتهم الواحد تلو الآخر وأن تسقط أطروحاتهم ومناهجهم فقد قادوا المرحلة من بداية القرن إلى النكبة الأولى فلم يعطوا الأمة إلا الجوع والتضييع وفقدان الذات وتكريس قواعد الهجمة الغربية الاستعمارية على أرض فلسطين على طول الوطن الإسلامي وعرضه بأحزابهم وأفكارهم وقيمهم وهزيمتهم، كانوا جزءاً من الهجمة لا يتجزأ.

وفي الحقيقة فإن الإنسان أمام هذا الوعي الفذ والتحليل الدقيق لا يستغرب أن يكون من اكتشف هذه الحقائق... هو ذاته من يحولها إلى حركة جهاد تحمل السمات والملامح الصحيحة للمواجهة، بل وأنه يستشهد دفاعاً عنها، ومن يستحق الشهادة أكثر من الشقاقي.

اكتشف الشقاقي هنا، أو قل أكد اكتشافاته السابقة وأضاف إليها اكتشاف وأكد أن التحالف الغربي هو الذي أقام دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد حي ومجتمعي ومستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي...وكان من الطبيعي والحال هذه ، أن تكون المواجهة ضد مشروع الهيمنة الغربي برمته وضد التجسيد الحي والمجتمعي والمستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي « إسرائيل » ولكن هل كان يمكن للقوى والرموز والزعامات التي تربت ونشأت في أحضان الغرب وتحمل نفس قيمه إن لم تكن خائنة أصلا أن تواجه مشروعا هي ذاتها جزء لا يتجزأ منه..

وهل كان هناك نتيجة أخرى يمكن أن يوصلنا إليها هؤلاء الذين تربوا في الغرب سوى قيام إسرائيل في ١٩٤٨.

وهل هناك من يواجه إلا الجماهير بحسها الإسلامي وبوعيها التاريخي..ولكن أين الطليعة القادرة على شد الجماهير وتعبئتها؟ وبعد القسام أين كان الإخوان

مثلا؟!. ولماذا توقف العمل الصحيح وفقا للرؤية الصحيحة؟ اللهم إلا في بعض حالات لا يمكن أن تشكل ظاهرة، ولماذا تركت الجماهير تحت رحمة قوي هي جزء من الهجمة ذاتها تتسلق على أكتافها وتتاجر بدمها وتتفاوض على مصالحها وتصل إلى حلول وسط تحقق لها مصالحها الطبقية وتحصن ممتلكاتها الاقتصادية خوفا من بريطانيا وغيرها، أو حتى تقتسم فئات النهب مع مشروع الهيمنة الغربي ثم تدعي الثورية.

وفي الحقيقة فإن كل الحقائق التي رصدها الشقاقي هنا، كانت ولا تزال منهاجا مفسراً لكل الأحداث والقوى والمعادلات حتى يومنا هذا.

***

ويستطرد الشقاقي قائلاً: كان من الطبيعي أن تتصدى الحركة الإسلامية لقيادة المرحلة التالية إلا أن ظروف نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعنف التدخل الغربي في الوطن الإسلامي لم تسمح لها بذلك، وقد انتهت النكبة الأولى بتوجيه ضربات قوية إلى آمال الجماهير وإلى إسلامها وإلى أرضها وتقدمت إلى السلطة العناصر العسكرية في انقلابات متواصلة تقدم أطروحاتها القومية الجديدة وتوثق علاقتها بالغرب سواء الرأسمالي أو الشيوعي، وتدعي أنها جاءت لتعيد إلى الأمة وحدتها ولتبني مستقبلها ولتحقق لها العدل الاجتماعي والرفاهية والتقدم ولكن انتماءها القومي العلماني في الخمسينيات وانتماءها الاشتراكي العلماني في الستينيات كانا يحددان موقعها تماما من قضية الصراع على أرض الوطن الإسلامي، لقد كانوا أطروحة جديدة فقط للهجمة الغربية ضد الإسلام ومع الغرب دائما سواء الشيوعي أو الرأسمالي ضد استقلال أمنهم وكانوا مع القهر والاعتقال والاغتيال ضد سلام الأمة وحرية مفكريها ورجالها، وكانوا مع رفاهيتهم وأرصدتهم ضد طموحات الأمة في النمو والتقدم والرفاهية، كان هذا هو إطار المرحلة التالية من النكبة الأولى في ١٩٤٨ إلى النكبة الثانية في عام ١٩٦٧ وحتى على النطاق الفلسطيني البحت فقد نمت نفس الاتجاهات المثلة للأنظمة العسكرية العربية وفي حمى الغياب القاتل للوعي في تلك

المرحلة غاب مرة أخرى الوعي الجوهري والتاريخي الصحيح للقضية الفلسطينية بل إن مختلف الاتجاهات الموجودة الآن على الساحة الفلسطينية ضمن إطار منظمات المقاومة تعود بأصولها إلى تلك المرحلة وربما قبلها بقليل، وكانت النكبة الثانية في صيف عام ١٩٦٧ انهيارا شاملا للثوريين الاشتراكيين من العسكر ولأنظمتهم ولمناهجهم، لقد سقطوا أولاً حين ضاعت وعودهم في ظل ممارستهم وسقطوا ثانيا حين قدموا بقية الأرض والتاريخ فداء لوجودهم وبقاء تسلطهم على روح أمتنا، وكان لابد عقب النكبة الثانية أن تعود الأمة إلى أصالتها وإلى حسها الإسلامي ووعيها التاريخي وتتلمس به طريقها بعد سنوات التضييع والسقوط، كان لابد أن تدرك أي منحدر خطر قد وصلت إليه بعد أن ضيعوا هويتها الإسلامية وبعد أن أسلمت قيادها إلى أعدائها وتلاميذهم الشرعيين، ومع مطلع السبعينيات كان المد الإسلامي الشامل في الوطن الإسلامي هو الرد الطبيعي والعلمي علي المراحل السابقة التي أدت بأمتنا إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاماً، وتكشفت مساحة الصراع عن تيار إسلامي متصاعد يتقدم لحسم هذا الصراع لصالح أصالة الأمة واستقلالها وتقدمها الحقيقي وعلى الجانب الآخر كانت تقف قوى الغرب الاستعمارية وامتدادها من أنظمة وأحزاب قومية واشتراكية ووطنية بجانب إسرائيل كتجسيد للهجمة ضد الإسلام.

وبالطبع فإن الدكتور الشقاقي قد أصاب كبد الحقيقة حينما رصد التيارات الحاكمة في الوطن الإسلامي، والتي هي امتداد لنفس التيار الذي نشأ في أحضان الغرب وهو جزء لا يتجزأ من الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي، وبالتالي فهو غير قادر على المواجهة وكان الطبيعي أن يقودنا هؤلاء إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاما..

وبديهي أن الشجرة العلمانية التغريبية الخبيثة « القومية الإقطاعية » ما كان لها إلا أن تنتج أجيالاً أخرى من نفس الشجرة القومية العسكرية ثم القومية الاشتراكية وذلك لتجديد شبابها والاستمرار في سياسة الخداع وامتطاء رقبة

وأكتاف الجماهير، بل إن التطور الذي حدث في القومية الإقطاعية تجاه القومية الاشتراكية كان جزءا من الخداع وإلهاء الجماهير بقضايا أخرى غير قضية صراع الوجود والاستمرار في تنفيذ المخطط الغربي وكان هذا التطور باتجاه الاشتراكية القومية بتشجيع من الغرب وإسرائيل بالطبع.

ولكن لنا بعض الملاحظات على رؤية الدكتور الشقاقي بخصوص الحركة الإسلامية... فنحن لا نرى معه أن ظروف نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينات لم تسمح للحركة الإسلامية بالتصدي لقيادة المرحلة كما كان متوقعا بعد النكبة الأولى، لأنه أولا ليس هناك ظرفا يمنع حركة من التصدي لتحدياتها مهما كان كبيرا، ولكن هذا الظرف يحقق نتيجة عندما تكون البنية الداخلية للحركة قابلة لهذا..وعلى طريقة مالك بن بي في مفهوم القابلية للاستعمار تقول إنه كان هناك داخل بنيان الحركة الإسلامية قابلية للاستبعاد، أو التخلي عن دورها، بل إن ما حدث لها بعد ذلك لم يكن إلا نتيجة هذه القابلية...وإذا تخلت حركة عن دورها الرئيسي وتحدياتها الجوهرية فإنها تنجذب تلقائيا إلى التطرف والتكفير وغيرها من الأمراض التي أصابت الحركة الإسلامية فيما بعد، وفي رأيي أن هناك خللا داخليا أدى إلى هذا الأمر وهو أن الحركة وخاصة الإخوان المسلمين اعتبروا التنظيم أهم من الموقف والجماهير، واعتمدوا على الصف والكادر ولم يعتمدوا على الجماهير واستبدلوا قوة الموقف ومبدأيته بقوة التنظيم والمحافظة عليه مهما كان الثمن غاليا على مستوى الموقف والمبدأ والشهادة على المرحلة.

وكذلك فإن هذا العيب الداخلي أيا كان وذلك التخلي أو القابلية للاستبعاد هما اللذان أديا إلى ترك الأمة تقع في براثن العسكر وأبناء المدرسة الاستعمارية من حكومات وأحزاب وقوى ومؤسسات بل وأنه تتعلق هذه الرموز في غياب القيادة الطبيعية للأمة، وإذا تركنا الشعلة تسقط فمن الطبيعي أن يلتقطها المزيفون ويمارسون بها كل الجرائم ويجرون الأمة إلى نكبات مروعة.وهكذا فإن صعود العسكر والقمع الذي طال الإسلاميين والأمة عسرما على أيديهم لم يكن هو السبب في استبعاد الإسلاميين عن قيادة الجماهير نحو تحدياتها الصحيحة، بل العكس صحيح تماما، فإن تخلي

الإسلاميين وخاصة الإخوان عن روح المبادرة والتركيز على القضية الأم والسير في متاهات قوة التنظيم وغيرها هو الذي قاد إلى حكم العسكر وأدى إلى القمع والنكبات وهكذا فالإسلاميون مسئولون أمام الله ثم أمام الأمة عما حدث... وعموما فهناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي انهم أصلا لم يجربوا ذلك بعد ١٩٤٨، ولو جربوا وفشلوا لكان لهم العذر وحتى الدكتور الشقاقي يعرف وكان يثق في الجماهير، فالعيب لم يكن في الجماهير بل في غياب الطليعة، وتجربة الدكتور الشقاقي أيضا تؤكد ذلك، فالظروف الموضوعية التي نشأ فيها تنظيم الجهاد الفلسطيني أصعب كثيرا من الظروف الموضوعية في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات،فلماذا نجحت تجربته؟، لأنه حاول بصدق وإخلاص،فقط لا غير ولو كانت الحركة الإسلامية في نهاية الأربعينيات قد انحازت إلى جماهير الأمة وفقرائها و كادحيها وأصحاب المصلحة الحقيقية في النضال ووقفت موقفا ثوريا ضد الوجهاء والإقطاعيين وأصحاب المصالح المتحالفون مع الاستعمار بدلا من محاولة استدراجهم إلى صفها ـ وهيهات ـ لو كانت الحركة الإسلامية بعد ١٩٤٨ قد نفذت عمليات جهادية وفدائية واستشهادية ضد الكيان الصهيوني لما حدث أصلا ما حدث في طول المنطقة وعرضها، والصحيح والموضوعي أنه منذ ١٩٤٨ ـ وحتى ١٩٥٤ أو على الأقل حتى عام ١٩٥٢ أي أربع سنوات كاملة، كانت الظروف المحلية والدولية شديدة السهولة فالحكومات العربية كانت ضعيفة للغاية ولا تقدر ولا تجرؤ على منع العمل الفدائي الإسلامي ضد الكيان الصهيوني، ولا كانت إسرائيل قد حققت قوتها، ولا كان الغرب بحكم حالة الانهيار والتداعي التي أصابت قوي الاستعمار القديم «إنجلترا وفرنسا» وصعود الاستعمار الجديد أمريكا والاتحاد السوفيتي قدرا على منعها لأنه كان في أضعف حالاته أما وقد أضعنا الفرصة فلنعترف بالمسئولية عن هذا الضياع أولا حتى لا تكرس الأسباب التي أدت إلى هذا الضياع، ثانيا ومن المؤسف أنه بعد ١٩٦٧ ومع إفلاس الأنظمة التغريبية تماماً وصعود الحس الإسلامي الجماهيري بطريقة مذهلة تؤكد حيوية الأمة، راحت الحركة الإسلامية طول السبعينيات تهتم بالشكل على حساب الجوهر،

وأصيبت بعدوى الوهابية والسلفية ولم تقدم ما يكافئ دورها الطليعي ولا مسؤوليتها أمام الله في القضية المركزية وجوهر الصراع...إلى أن قيض الله للأمة فتحي الشقاقي ليعيد للحركة رسم خريطة وسلم الأولويات الذي كان مقلوباً.

***

يصل الشقاقي إلى بلورة رؤيته للقضية الفلسطينية قائلاً:« إن القضية الفلسطينية بما وصلت إليه جزء من ملامح التيارات اللاإسلامية التي تعاقبت على التصدي الانتهازي لقيادة حركة الجماهير أو التي تسلمت السلطة طوال الفترة التالية لهزيمة الدولة الإسلامية في مطلع هذا القرن، تلك القيادات التي تمثل التراجع المستمر أمام التحدي الصهيوني الغربي، الذي جاء ليلغي التاريخ ويسقط وعي الأمة ويهدم الحائط الإسلامي الصلب ويستولي على الأرض والثورة والمستقبل، كما أن فشل تلك القيادات في سنة ١٩٤٨ ثم في سنة ١٩٦٧ ثم عجزها عن مواصلة الصراع كنتيجة لعجزها عن فهمه قد أدى بها كما نرى الآن إلى قبول أي شيء كحل للقضية ويدل على ذلك ما نراه من ممارسة الجميع وإعلانهم عن مشاريعهم لحل القضية ابتداء من الأنظمة العربية بكل أصنافها إلى من يدعون قيادة الفلسطينيين بكل انتمائهم ويبدو الإسلام وحده كدين، والإسلام وحده كتاريخ وحضارة ونظام وممارسة، القادر على مواجهة الأزمة وفهمها وقيادة حركة الصراع وحسم ذلك أنه هو الطرف الحقيقي والمستهدف وهو وعي الأمة وحسها ».

ويضيف الشقاقي:« إن الهجمة اللا إسلامية وطرفها الأساسي وهو الغرب لم يستطع أن يقيم إسرائيل ككيان كامل فكرا ونظاما، وحضارة وهدفا، إلا عندما استطاع أن يثبت مؤسساته وأجهزته وتياراته في منطقة الوطن الإسلامي وحولها وكانت إسرائيل بالتالي جزءا مهما ومركزياً من هجمته على الوطن الإسلامي. وأمام الحركة الإسلامية اليوم إما الوعي للهجمة والتصدي لها بجميع جوانبها وإمكانياتها وأدواتها أو أن تبقى في مكانها تراوح بين التقدم مرة والتراجع مرات،إما أن تعي جوهر الصراع تماما ودور القضية الفلسطينية فيه أو أن تتعرض لأسوأ الحقب على أرض الوطن الإسلامي تلك التي تلوح في الأفق، الحقبة الإسرائيلية ».

المواجهة الحضارية الشاملة في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي

الإسلام شكل لهذه الأمة حضارة متميزة، ومنظومة ثقافية محددة وشخصية حضارية محددة الملامح، وهي حضارة تقوم على التوحيد والعدل والحرية، وحضارتنا تدعو إلى التعاون والاستفادة من تجارب الآخرين،ولكنها بالطبع ترفض الذوبان والخضوع للمنظومات الحضارية الأخرى،والأمر أشبه بشجرة إذا قطعتها مثلا بدعوى تثبيت شجرة أخرى فهذا ليس تعاونا وكذلك إذا طعمتها كما هو معروف في علم النبات،بشجرة أخرى ليست من عائلتها فإنها لا تستجيب ويصبح الأمر كله هراء وليس إلا من قبيل القضاء على شجرتنا الحضارية والصحيح أن نستفيد بتجارب الآخرين في طرق تنمية هذه الشجرة وتغذيتها والحصول على أحسن الثمار عن طريق تحويل هذه التجارب والأسمدة والمخصبات في داخل أنسجة شجرتنا إلى شيء جديد مرتبط بطبيعة وشخصية هذه الشجرة، أي هضمه وتحويله داخل النسيج الحي لشجرتنا الحضارية إلى جزء لا يتجزأ من شجرتنا الحضارية وليس تشويهها خارجيا لها أو محاولة للصق قيم حضارية خارجية عنها ستلفظها بالطبع أو تسبب لها مشاكل تضعفها أو تؤدي حتى إلى موتها،إذن فنحن دعاة تعاون حضاري بهذا المفهوم أما المفاهيم الأخرى فهي محاولة لخداعنا وإخضاعنا تحت ستار التعاون الحضاري.

ونحن الآن أمام حضارة غربية لها القوة والسيادة على العالم ولها منجزاتها العلمية والتقنية ونحن لا نرفض بالطبع أن نستفيد من عزمها ومنجزاتها التقنية بشرط أن يدخل ذلك في نسيجنا الحضاري ويتم هضمه وتحويله وفقا لعملية داخلية بحتة.

ولكن هل تقبل الحضارة الغربية بهذا النمط من التعاون،إنها تقوم على القهر والنهب والعنف والعنصرية وحضارتنا تقوم على التوحيد والحرية والعدل

واللاعنصرية،ولا يمكن بداهة أن يحدث تلقيح بين شجرتين حضاريتين مختلفتين إلى هذه الدرجة، والحضارة الغربية تريد الهيمنة والقضاء على الحضارة الإسلامية لأسباب كثيرة،فهل نقبل الخضوع لها والاندماج فيها؟!. والحضارة الغربية ترفض حتى إعطاء الآخرين وخاصة المسلمين علومها التجريبية ووسائلها التقنية ـ برغم أن العلم تراث إنساني،والحضارة الغربية نفسها استفادت من علوم وتقنية الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها،ولعل محاكمة المهندس المصري عبد القادر حلمي في أمريكا بتهمة سرقة التكنولوجيا الأمريكية خير دليل على ذلك.

إذن ليس هناك من سبيل أمامنا سوى انتزاع العلم انتزاعا، ليس هناك سبيل للتعاون، بل للمواجهة ـ ليس رفضا من ناحيتنا للتعاون ـ بل لأن الحضارة الغربية لا تقبل بالتعاون الحر، بل تريد الهيمنة علينا وإخضاعنا بل و إبادتنا حضاريا وبشريا، الموقف الصحيح هو المواجهة، والمواجهة تكون برفض الاندماج في حضارة الغرب، والتأكيد على الذات والهوية الحضارية لأمتنا وحشد الأمة كل الأمة لمناهضة الاستعمار والصهيونية وتحقيق النهضة، وانتزاعه انتزاعاً.

والله تعالى قد رسم لنا هذا الطريق في القرآن الكريم، يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ هذه الآيات الكريمة تصف أحوالنا مع الغرب واليهود الآن، فالتحالف بين اليهود والنصارى لم يحدث إلا في السنوات الأخيرة، وكان العداء بينهما أمر ثابت بل وتعرض اليهود للاضطهاد دائما على يد الغرب وآخرها أفران هتلر، إذن فالآية تصف الأحوال المعاصرة وترسم الطريق الملائم لهذه الأحوال، وهو رفض الاندماج في حضارتهم وعدم موالاتهم، والآيات تتحدث أيضا عن هؤلاء الذين ينتشرون بيننا الآن ويقولون لنا أنه لا يمكن مواجهة الغرب وإسرائيل لأن هناك عدم تكافؤ كبير جدا في القوة بيننا وبينهم وبالتالي علينا أن نخضع ونندمج في الحضارة الغربية، ولكن الله تعالى يطمننا أن الصبر والصمود والمواجهة هو الطريق

الصحيح لأن الله تعالى سوف يأتي بالفتح أو بأمر من عنده.

وفي كل الأحوال فإن الخضوع والاندماج يعني بالنسبة لنا الموت الحضاري، والمواجهة قد تعني الموت وقد تعني الكثير من الخسائر، وقد تعني النصر أيضاً في النهاية، ولكن الخضوع يعني القضاء على البذور الكامنة بالإضافة إلى الساق والفروع، أما الصبر والمواجهة فقد يعني دمار الفروع والسيقان، ولكن تظل البذور كامنة تحت التربة فتعطي مرة أخرى في ظروف أفضل ساق جديدة وفروع جديدة، وتنمو الشجرة من جديد.

وهكذا فإن المواجهة الحضارية الشاملة هي إحدى سمات المشروع الحضاري الإسلامي، والمواجهة الحضارية الشاملة هي الطريق الوحيد للانعتاق نحن وغيرنا من المستضعفين في العالم من مشروع الهيمنة الغربي..

***

كان الدكتور فتحي الشقاقي من أشد المهتمين ببناء رؤية ونظرية للمواجهة ضد مشروع الهيمنة الغربي، وليس لتحرير فلسطين فقط، بل لتحرير العالم العربي والإسلامي كله، بل أيضا لتحرير كل ضحايا الحضارة الغربية وهكذا، كانت نظرية الدكتور فتحي الشقاقي بمثابة لاهوت تحرير إسلامي لكل المستضعفين في العالم من الهيمنة والنهب والقهر الغربي، ورؤية الشقاقي لمسألة الهيمنة الغربية وقضية الاستقلال والتبعية رؤية ثرية تضم ما هو تاريخي وما هو سياسي وما هو استراتيجي بل ووضع التصورات لوسائل وآليات المواجهة.

فمن الناحية التاريخية يقول الشقاقي « استؤنف الرد الأوروبي العسكري على العالم الإسلامي منذ القرن السادس عشر من قبل أسبانيا والبرتغال ثم عادت الكرة في القرن التالي على جبهة المواجهة مع روسيا القيصرية التي توسعت في القرم ثم عادت في القرن الثامن عشر لتستولي على معظم القرم وعلى رومانيا وشواطئ البحر الأسود ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت خسائر المسلمين الواحدة بعد الأخرى فقد انسحب العثمانيون من اليونان وخسروا معظم المغرب العربي ومصر والسودان وسواحل البحر الأحمر

وقبرص لصالح بريطانيا وفرنسا، في حين استولت الأولى على الهند وساحل الخليج وبحر العرب وعدن، وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كان العالم الإسلامي كله محتلاً عدا السعودية وتركيا الحديثة وإيران - منبر الشرق العدد ٨ يوليو ١٩٩٣ ».

وبعد أن يستعرض الدكتور الشقاقي المراحل التاريخية للهيمنة الاستعمارية على بلادنا يصل إلى المرحلة الحديثة ويحددها بأن الاستعمار استهدف تجزئة العالم الإسلامي وخاصة قلبه العربي إلى وحدات متصارعة مقطوعة عن بعضها البعض يشعر كل منها بالحاجة إلى الأجنبي، وتسليمه مقاليد دول الاستقلال إلى نخبة متغربة، أو صديقة أو عملية للعواصم الغربية الاستعمارية وإحاطة هذه النخبة بقطاع واسع من الكتاب والصحفيين والتجار ورجال الفكر والتعليم والإدارة الذين لا يعرفون مرجعية لهم سوى المرجعية الحضارية الغربية، سواء كان ذلك بحسن نية أو سوئها، ومنع المنطقة وخاصة لكياناتها الكبرى سلماً أو حربا من أهداف النهوض المدني وتحقيق المنعة العسكرية واستغلال الثروات لصالح الشعوب ومستقبلها، بل قامت الدول الاستعمارية وما زالت بامتصاص خيراتنا، كما استخدمت القوى الغربية ثقلها الصناعي وسيطرتها على المنظومات النقدية الاقتصادية العالمية لإحكام ارتباط اقتصاد بلادنا بعجلة الاقتصاد والنقد الغربي، ثم إنشاء دولة إسرائيل كضمان للممرات الاقتصادية في المنطقة ثم حارس لنظام التجزئة وأداة قمع في يد السيطرة الغربية ويراد لها في المرحلة القادمة من خلال مشروع السلام والتطبيع الشامل معها أن تدعم النخب المغتربة وقيمها وأخلاقها في بلادنا وأن تساهم في السيطرة على أسواق المنطقة وثرواتها.

وهكذا يحدد الشقاقي آليات مشروع الهيمنة الغربية وأدواتها من التجزئة إلى منع نهضة المنطقة سلماً أو حرباً، إلى امتصاص الثروات بأكثر من طريقة ووسيلة، إلى إقامة دولة إسرائيل، ليس هذا فحسب بل إن الشقاقي يعود فيكشف آليات أخرى لهيمنة أكثر تعقيدا من خلال ضرب نظامنا الاجتماعي الذي حرس بلادنا لمدة طويلة متمثلا في العلماء ونظام الحرف والأوقاف إلى

إقامة أنظمة اجتماعية تابعة تحت شعار التحديث، ويرصد الشقاقي أيضا فشل المشروع النخبوي لأنه اعتمد على توفيق وتركيب مستحيلين بين موروثنا الفكري وقيم أوروبا الجديدة وأنه غاب عن هؤلاء أن نهوض الأمم لابد أن يقوم على قيم أساسية أصيلة وأن أوروبا الجديدة كانت تحمل مشروعا للاستعمار والهيمنة والسيطرة وأنها لن تسمح لعالم الإسلام أن ينهض من خلال الاستعانة بها صناعيا وإداريا وعسكريا ثم يرصد الشقاقي مشروعا آخراً فاشلا وهو مشروع ينادي بالتخلي عن كل موروث والخضوع الكامل لقيم الغرب ومنظومته، ويرى الشقاقي أن هذا الخيار يؤدي إلى انتهاء الأمة بأكملها وانقراضها حضاريا أو ثقافياً وربما بشرياً.

ويهتم الشقاقي بإبراز كون إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي فيرصد إدراك صناع القرار الأوروبيون في لندن وباريس وفيينا وبطرس بورج الأهمية الجيوبولتيكية لقوى المتوسط الجنوبي الشرقي أي مصر وفلسطين وأن تأمين المشروع الاستعماري يستدعي تأمين المفصل المصري الفلسطيني ومن هنا بدأت الدعوى لإقامة كيان قومي لليهود في فلسطين على يد رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون، وذلك قبل نصف قرن من تأسيس الحركة الصهيونية.

وفكر في ذلك نابليون من قبل في نهاية القرن الثامن عشر في إطار مشروعه الاستعماري.

ويرى الشقاقي أن التبعية نظام متماسك، وأن من الضروري أن نعي أنه لا يمكن تشبيه نظام التبعية بالحبال التي تربط بلادنا بالخارج، بل الأصح أن تشبه بشبكات متداخلة، والأكثر صحة أن نراها كشبكة من الأوعية الدموية تمتد في كل أجزاء حياتنا وبلادنا وتتغذي من مائنا وهوائنا وتعيش لصالح الغير، ولأنها شبكات متسعة متشعبة عميقة الجذور فلا يمكن التخلص منها دفعة واحدة أو في عقد واحد أو اثنين، وباعتبارها متصلة بالنظام العالمي كله، عالم سيطرة الغرب الأطلسي على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية وعلى ما يسمى بالمؤسسات الدولية فإن إنجاز مشروع تقويضها لابد وأن يعتبر

مشروعا عالمياً.

وهكذا يصل الشقاقي إلى أن مشروع الهيمنة الغربي عالمي، ومواجهته ينبغي أن تكون عالمية،وهي دعوى إلى إقامة تحالف شعبي واسع وجماهيري يضم العرب المسلمين وكل المستضعفين في العالم ، وهكذا فإن الشقاقي هنا هو صوت المستضعفين في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي وهو داعية إلى ما يمكن أن نطلق عليه لاهوت تحرير إسلامي مقدم لكل العالم للنهوض والتحرر من الغرب لأن ثورة الانعتاق العالمي من الغرب لابد لها من جذر ثقافي لا يكون من داخل المنظومة الحضارية الغربية وإلا كان تكريسا للتبعية وإجهاضاً لحلم الثورة على الهيمنة الغربية، إذن فلا بد أن يكون هذا الجذر هو الإسلام. الذي هو عملي بقيمه وصالح نظرياً بأيديولوجيته أن يكون جذرا ثقافياً للثورة العالمية التي تضم كل مستضعفي العالم.

ويؤكد الشقاقي على عدد من الحقائق الهامة في هذا الصدد فيقول : إن تماسك نظام التبعية يستدعي الوعي بأن عملية الاستقلال لابد أن تواجه دوائر التبعية جميعا، كلا على حدة ومعاً في الآن نفسه ـ وأن استقلالا سياسيا بدون التخلص من التبعية الثقافية وبدون نمط مستقل للتنمية سرعان ما سينهار تحت وطأة الضغوط وأن أي محاولة للاستقلال الاقتصادي ولامتلاك ناصية القرار السياسي في ظل دولة التجزئة سيكون ضربا من المناورة مع التاريخ كما أن محاولة إيهام الذات بأن الكيان الصهيوني محدود الخطر بمنطقة جغرافية وعلى شعب معين هو انحراف في رؤية التاريخ والواقع على السواء إذ أن استمرار بقاء هذا الكيان خطر على الناس وعلى ثقافتهم وعلى خياراتهم في التنمية والنهضة وأن مشروع الاستقلال في النهاية هو مشروع تغيير ميزان القوى العالمي أي هزيمة نظام الهيمنة وإعادة دول المنظومة الغربية إلى حجمها الحقيقي ومساعدة شعوبها ـ سلما أو حرباً ـ على التخلص من رؤيتها المشوهة لنفسها وللعالم، الرؤية القائمة على مركزية الغرب وعلى الثقافة العنصرية وعلى مفاهيم سيادة الرجل الأبيض، وهو يستدعي تحالفا عالميا بين المظلومين، وأن يكون مشروع استقلالنا ذا ارتباط عميق باستقلال الشعوب الأخرى

ويرى الشقاقي « أن المسألة الأساسية التي يجب على قادة الأمة وعلمائها وزعمائها أن يروها هي أن النهضة والاستقلال لا يمكن أن يتحققا بمجرد نشر وعي وثقافة الاستقلال، وأن النهضة هي متغير على أرض الواقع وفي داخله ولابد أن تقترب الأمة وقادتها وزعماؤها من ملامح هذا الواقع بمثابرة واستعداد عميق لتضحية وإيمان أوسع بأن ظهرها على الجدار، وكما ضرب النحات في الصخر فإن كل متغير مهما صغر في الواقع بأخذنا قدما إلى مرحلة التشكيل المبدع في صورته الأخيرة ولكن وفي مراحل عديدة سيكون دمنا هو البديل عن عرق النحات ».

ويهتم الشقاقي اهتماما خاصا بالنظام العالمي للمبادلات الاقتصادية الذي يحقق أكبر قدر ممكن من النهب لصالح الغرب على حساب شعوب أمم وقارات ودول بأكملها. ويرى الشقاقي أن الغرب نهب العالم بانتظام منذ الحروب الصليبية وحتى الآن حيث نجح الغرب في استنزاف ثروات قارات ثلاث هي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بما في ذلك الثروات المادية والإمكانات البشرية والثقافية، وتكديس هذه الثروات في الدول الصناعية الغربية، وأن النظام العالمي الجديد وبعد حرب الخليج بالذات ـ يستهدف مزيدا من النهب للدول الفقيرة عن طريق مجموعة من الآليات الاقتصادية مثل زيادة مديونية الدول الفقيرة، مزيد من الاستنزاف للثروات الطبيعية وتدمير البيئة، مزيد من الاحتضار للزراعة،وبالتالي المزيد من النزف السكاني للريف وما يتبعه من اكتظاظ مديني هائل في محيط بيئوي لا يحتمل، مزيد من البطالة وتفشي الطفيلية، مزيد من الارتفاع في معدلات التضخم، ومزيد من الاستقطاب الاجتماعي بين أقلية من السكان تستأثر بمعظم الدخل القومي مقابل أكثرية متسعة تعيش تحت خط الفقر والجوع، مزيد من اضطرابات اجتماعية لا تنتهي حيث ستجد الأنظمة نفسها في مواجهة مع الشعب وبالتالي تكون أكثر حاجة إلى الاعتماد على الغرب في تأمين النظام واللجوء إلى مزيد من القمع والتبعية...

عز الدين القسام وعز الدين الفارسي

يحلو لبعض الحركات أن تزعم أنها الحركة الأم، وأنها بالتالي هي التي بدات مسيرة الحركة الإسلامية المعاصرة، وهذا بالطبع يوقع تلك الحركات ويوقع معها الأمة في إشكاليات لا حصر لها بل وأحيانا تهما بلا مبرر.

فإذا كانت تلك الحركات تزعم أنها حركة أم، فماذا كان قبلها، هل كانت أمة الإسلام جثة بلا حراك، لا حركة ولا طليعة مؤمنة ولا قيادة، وهل كل جهاد الأمة المعاصر ضد الاستعمار والاستبداد قبل تلك الحركات كان لا إسلاميا... إن معنى هذا أن الحركات والقوى والتيارات اللاإسلامية أصيلة في واقعنا، وأن الحركة الإسلامية الجديدة في هذا الواقع، وبالتالي من حق الناس أن تتساءل لماذا جاءت وكيف وأين ومن وراءها.. إلخ.

والصحيح أن الحركة الإسلامية المعاصرة ما هي إلا حلقة في سلسلة الكفاح الوطني الإسلامي ضد الاستعمار والاستبداد والتخلف والتبعية، وهي إذن الامتداد الطبيعي لجهاد وجهود عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي والثعالبي وعمر المختار وعمر مكرم والأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام... وغيرهم من رواد حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار.

وهكذا فإن الصحيح أن الحركة الإسلامية حركة تحرر وطني وليست بما جديدا أو فرقة دينية جديدة، وكفاحها الوطني استنادا إلى الإسلام أمر سيس جديدا فكل الحركات والقوى التي ناهضت الاستعمار في بلادنا والتي تصدت للغزوة الاستعمارية المعاصرة استندت إلى الدين وكانت إسلامية حتى النخاع، وكل من يطالع ويدرس حركات عبد القادر الجزائري والخطابي والثعالبي وعمر المختار وعمر مكر والأفغاني والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعز

الـذين القسـام وغيرهـم يـدرك علـى الفـور أنهـا إسـلامية حتـى النخـاع وأن إسـلاميتها كانـت مـن البداهـة و طبيعـة الأشـياء لدرجـة لا تسـتدعي هـؤلاء للتحدث عنها باعتبارها شيئا مميزا.

وهكذا فالحركة الإسلامية حركة أصيلة في الواقع المعاصر وتمتد بجذورها إلى حركة الكفاح الإسلامي المعاصـر ضـد الاسـتعمار وهـي حلقـة مـن حلقـات الكفاح تتبعها حلقات وهذا بالطبع يحقق لها الأصـالة والتجديـد معـاً، ويجعلـها نموا طبيعياً في جسد الأمة وليس زائدة دودية عليها مهمـا كـبرت ويؤكـد علـى ضرورة أن تتصرف هذه الحركة بمنطلـق الطليعـة وأن تتصـدى لقيـادة الأمـة في كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية وأن تعتبر نفسها مجرد خميرة للنهضة، والأمة هي المجال الحيوي لعمل الخميرة مثل اللبن والخميرة، اللبن هو الـذي يتحـول إلى زبادي، وهكذا فالأمة مثل اللبن والحركة مثل الخميرة.

ولقد وعى الشقاقي أنـه وحركتـه وتيـاره مجـرد حلقـة مـن حلقـات الكفـاح الوطني، وأنه لا يمثل رؤية دينية جديدة ولا فرقة دينية جديدة ولا قديمة، ولـيس متميزا عقيدة و انتماء بـل هـو طليعـة لهـا و خمـيرة لنهضـتها وحركتهـا وهكـذا استطاع أن يحقق أقصى و أوسع انفتاح على الجماهير ولم يكن التنظيم بالنسبة له بديلا عن الجماهير،بل أداة وطليعة لتثوير الجماهير وقيادتها وحشـدها وتعبئتهـا ولذلك كان من الصعب والمستحيل اجتثاث هذه الحركة، إلا باجتثاث الجمـاهير وهيهات.

كان لابد أن ترتبط هذه الحلقة بسلسة من الكفاح الإسـلامي المعاصـر ضـد مشروع الهيمنة الغربي، وضد الكيان الصهيوني بالذات وعلى اعتبار أن الحركة فلسطينية، وقضيتها المركزية هي القضية الفلسطينية، كان من الطبيعـي البحـث في التاريخ المعاصر عن هؤلاء الذين فهموا القضية بصورة صـحيحة، فهموهـا على أن إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي وأن المواجهة مع الغـرب كـل الغرب وليسـت إسـرائيل وحـدها، وأن الطريـق إلى ذلـك لا يكـون إلا بتعبئـة وحشد الجماهير الكادحة الفقيرة التي ليسـت لهـا مصـالح مـع الاسـتعمار ولا

تخاف منه على مكاسبها وأموالها وتجارتها وأرضها ولا أوضاعها الطبقية، وأن الطريق للمواجهة ليس إلا عبر الكفاح المسلح، ولم يكن هذا منطبقا على أي من الحركات القائمة على الساحة في ذلك الوقت، كانت هذه الرؤية بالتحديد هي رؤية حركة بدأت في فلسطين ومارست نضالها منذ نهاية العشرينيات وحتى نهاية الثلاثينيات بوعي مبكر وإدراك فذ لطبيعة المعركة، كانت تلك هي حركة الشيخ المجاهد عز الدين القسام، ذلك الشيخ السوري الذي جاء إلى فلسطين ومارس فيها الكفاح المسلح ضد اليهود وإنجلترا على حد سواء فأحدث بذلك نقلة نوعية في الوعي والحركة الجماهيرية الإسلامية المعاصرة.

كان الشقاقي قساميا حتى النخاع، ولكنه أضاف وأبدع ولم يقف عند لحظة تاريخية بعينها، بل تقدم إلى الأمام رابط حركته بجذرها الصحيح، ومتجاوزا بها الآفاق ولعلنا الآن ندرك لماذا اختار فتحي الشقاقي اسما حركيا ليوقع به على أعماله الفكرية في بداية حركته وهو اسم عز الدين الفارس، إنه أخذ هنا اسم عز الدين من عز الدين القسام وأضاف إليه الفارس الذي يقود الفرس ليؤكد على طبيعة الجهاد والقتال والفروسية.

وعز الدين القسام عند الشقاقي هو الواجب المقدس في صراع الواجب والإمكان، هو روح داعية مسئولة في وسط بحر من اللامبالاة والتقاعس، وهو رمز للإيمان والوعي والثورة والإصرار على عدم المساومة » المختار الإسلامي العدد ١٣ يوليو١٩٨٠.

يقول الشقاقي « كان القسام عالما مؤمنا مسلما لا يفتر عن ترديد آيات الجهاد والآيات التي تدعو إلى النضال والتضحية وكذلك كان الشقاقي.

ويقول الشقاقي أيضا كان القساميون يلجأون في النهار إلى الكهوف ويصلون ويقرأون القرآن، وفي الليل يخرجون إلى القتال، وأن القسام كان يدعو إلى الجهاد على أساس ديني وكان له شعار واحد تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة « نصر أو استشهاد »، وكان يرفع كتاب الله في يد والبندقية في اليد الأخري، وأن إيمان القسام قد وصل إلى الذروة في تلك اللحظة التراجيدية الخالدة، التي واجه فيها قوة من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ رجل بريطاني هو وعشرة من

إخوته كانت المعركة قد بدأت في الصباح واستمرت حتى الظهر وأثناء احتدامها حاول الغزاة إغراءه بالمال والوظائف حتى أنهم عرضوا عليه منصب نائب المفتي ولكن البطل المسلم أجابهم « لن نستسلم إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن » ثم التفت إلى رفاقه قائلا «موتوا شهداء».

ولعل تحليل الشقاقي لحركة عز الدين القسام ودراستها بهذه الطريقة الدقيقة تؤكد على وعي الشقاقي من ناحية، وإضافته الثورية إلى التراث الثوري العالمي من ناحية أخرى، وتحدد ملامح وطبيعة حركته التي أنشأها مع رفاقه فيما بعد «حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين».

يقول الشقاقي : لم يكن القسام طوال مراحل نضاله مجرد مقاتل صلب وعنيد فحسب بل كان أيضا مفكرا داعيا يتمتع برؤية ناضجة وواضحة على المستوى الاجتماعي والمستوى السياسي حيث خاض نضالا مستمرا قبل أن يخرج للقتال، أدرك القسام أن الأمة الجاهلة لن تستطيع أن تقاوم أخطبوطا يسخر العلم لخدمة كل أغراضه. فكان القسام رجلا عالما تولى التدريس في المدرسة الإسلامية بحيفا وفي المساجد خاصة مسجد الاستقلال وكان ينشر أفكاره بين العمال والفلاحين والباعة الجائلين وكانت تجربته بتأسيس مدرسة ليلية لتعليم الأميين من الشعب تجربة رائدة على المستوى الاجتماعي، وأن القسام اهتم بالمرأة وحاول تطوير وعي النساء اللاتي كن على علاقة قوية بالتنظيم السياسي من أجل أن يصبحن عضوات عاملات ومنذ أن استقر القسام في حيفا دخل معترك النشاط الاجتماعي فانتسب إلى جمعية الشبان المسلمين ثم انتخب رئيسا لها بعد ذلك، كما استغل فرصة عمله كمأذون شرعي فكان يحضر الأفراح للتعرف على الجماهير وفهم نفسياتهم مما سهل عليه الاتصال بسائر الطبقات.

وهكذا فإن الشقاقي يكتشف من خلال حركة القسام تلك العلاقة الجدلية بين العمل السياسي والعمل الاجتماعي، وكذا يكشف إلى من يتوجه بخطابه الجهادي، إلى العمال والفلاحين والباعة الجائلين، وإلى أن من الضروري فهم

نفسية الناس من خلال الاحتكاك بهم وفهم الخطاب المناسب لهم.

ويؤكد فتحي الشقاقي دائما على حقيقة بديهية ـ وهي أن القسام أدرك أن هذه الأمة التي حاول أعداؤها عزلها عن الإسلام لن تكون مستعدة للجهاد بدون إعداد خاص وأن هذه المهمة لن تتصدى لها إلا طليعة ثورية مسلمة وأن تنظيما صلبا وفعالا ضمن نظرية ثورية واضحة المعالم من أهم عوامل الانتصار على عدو متقدم كماً وكيفاً!.

ويطرح الشقاقي الكثير من رؤيته من خلال فهمه لآليات عمل القسام، أو قل يعطي تلك الآليات إطارها النظري والعرفي ويصيغ منها نظرية ثورية تصلح لكل حركة ثورية من قبل ومن بعد، فيري الشقاقي أن من الصعب طرح مفهوم الثورة والوعي إلا من خلال علاقة جدلية بين الاثنين، وأن من الصعب دراسة الوعي والثورة منفصلين.

والحقيقة أن الوعي والثورة هما عمل واحد، فالثورة تؤدي إلى الوعي والوعي يؤدي إلى الثورة. ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ويرصد الشقاقي الكثير من الخبرات الثورية والحركية من خلال دراسة تجربة القسام فيقول : استطاع القسام فهم وتحليل المجتمع والظروف السياسية بشكل متقدم واستخدام هذا التحليل في اختيار لحظة التفجير المناسبة فلم يكن متعجلا حين عرض عليه بعض إخوانه إعلان الثورة بعد انتفاضة حائط البراق لعدم كفاءة التنظيم وعدم نضج الظروف كما أنه رفض رغبة بعضهم في جلب المال بالعنف مؤمنا ومعلنا أن الجماهير ستنحاز للثورة فور قيامها.

والشقاقي هنا يضع أيدينا على الكثير من الحقائق الثورية، أولها ضرورة حساب اللحظة المناسبة للتفجير الثوري ذاتيا وموضوعيا، فالاستعجال بها هو بمثابة إجهاض لجنين الثورة، والتأخير فيها بمثابة ترك الثمار تفسد على الشجرة فلا يصبح لها قيمة بعد ذلك، وثانيها ضرورة التمسك بالأخلاق الثورية ورفض تبرير الوسائل اللاأخلاقية بدعوى الحاجات الثورية مثلا، وثالثها ثقة الثائر المطلقة في جماهير أمته.

ويضيف الشقاقي مكتشفا ومؤكدا للعديد من الحقائق الثورية والسياسية والحضارية من خلال القسام « رأي القسام أن بريطانيا هي العدو الرئيسي وأن الصهيونية تابعة لها، وأن النضال السياسي السلبي لم يعد يجدي نفعا ولابد من اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا للنضال».

والشقاقي هنا يؤكد حقيقة كون الصراع مع الغرب كل الغرب وليس إسرائيل وحدها، وأن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي، وأن بريطانيا ممثلة مشروع الهيمنة الغربي في هذا الزمان والمكان هي العدو الرئيسي، وأنه بسبب طبيعة الصراع، الذي هو صراع حضاري، وصراع وجود وصراع يستهدف قلب الأمة الإسلامية بل ورأسها، فإنه لا بديل عن الكفاح المسلح، أسلوبا للنضال.

يضيف الشقاقي : كما كان القسام واضحا وصائبا في تحديد العدو فقد كان عليه أن يحدد الحليف الحقيقي، ورغم إيمانه أن العرب والمسلمين في الأقطار المجاورة هم بعد استراتيجي للشعب الفلسطيني إلا أن على الشعب الفلسطيني أن يعتمد على نفسه أولا، رأى القسام أن العمال والفلاحين هم أصدق حليف للثورة وللاستمرار بها، ولهذا كانت القيادة العليا لتنظيم القسام تتكون من عمال وفلاحين علماء وبائعي جاز متجولين أمثال «العبد قاسم، ومحمود عرورة » وأن القسام كرائد طليعي ثوري مسلم أدرك أنه في مرحلة كهذه، مرحلة البحث عن الاستقلال والحرية فلابد من الدم والثورة التي لن يقدمها إلا الكادحين في حين رفعت البورجوازية شعار الحكمة والتعقل.

وهكذا يكتشف الشقاقي أهم الدروس الثورية التي بسبب غيابها وقفت الكثير من الحركات الإسلامية في طريق مسدود ومأزق استراتيجي، ألا وهو عدم المراهنة على البورجوازية والوجهاء، لأنهم أولا أصحاب مصالح ويقتسمون شيئا من الفتات مع مشروع النهب الاستعماري، ومهما كانت درجة إخلاصهم فإنهم في النهاية سيخافون بشكل أو بآخر على مصالحهم العائلية أو الاقتصادية، وأنهم حتى ولو ارتفعوا فوق تلك المصالح فإن نفسهم الثوري

قصير وقدرتهم على الاستمرار محدودة، وأنهم دائما يهربون من المواجهة الثورية بدعوى الحكمة والتعقل، وأنه بالتالي فلا حليف للثورة، ولا قادر على الاستمرار بها بنفس طويل لا ينفد إلا الجماهير الكادحة من العمال والفلاحين والعلماء والباعة المتجولين. الذين هم يعكسون وجدانا إسلاميا عميقا أولا، ثم ليست لهم مصالح تتقاطع أو تتعارض أو تتفق مع المشروع الغربي، لأنهم بالتحديد أول ضحاياه، وهكذا فإن هناك شروطا محددة لأي عملية ثورية هي فهم طبيعة الصراع... وهي أن إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي وبالتالي فالمواجهة شاملة لكل المشروع وقواه من استعمار وصهيونية وعلمانية.

وإدراك أن صراعا كهذا لا يحل عبر المفاوضات ولا الحلول الوسط ولا دعوى التعقل والحكمة، لأنه ليست هناك مساحة من الاتفاق والاختلاف تتسع وتضيق يمكن التفاوض حولها، بل يحل بالكفاح المسلح، وأن جنود الثورة وحلفاءها ليسوا البورجوازية والوجهاء بل الكادحين والفقراء.

ولعل هذه الشروط تفسر لماذا أسقطت كل القوى اللاإسلامية أو اللاجماهيرية في مستنقع التفاوض والحلول الوسط واحدة بعد أخرى ويفسر التردد الموجود في حركة حماس بسبب مراهنتها على الوجهاء والبورجوازية أحيانا، ومراهنتها على التنظيم دائما، ويفسر لماذا ظلت حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني بيضاء الثوب من كل تردد وتراجع ومساومة.

وشروط الاستمرار وطول النفس ثلاثة هي الإسلامية، الكفاح المسلح، الجماهيرية.

حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين تجسيد للنظرية الثورية للشقاقي حركة الأيديولوجيا والإرادة والدم

انطلق الدكتور فتحي الشقاقي في تأسيسه مع رفاقه حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وكذا جهاده المستمر والدائب على هذه الساحة من مجموعة من الحقائق ومستقرئات العقيدة والتاريخ والاستراتيجية، فإسرائيل ليست إلا جزءا من مشروع الهيمنة الغربي على العالم عموما والعالم الإسلامي والعربي خصوصا، وأنه لم تكن مصادفة أن يقدم الغرب وعد بلفور في الوقت الذي كان فيه يدمر بنيان الدولة العثمانية ويجتاح المنطقة عسكرياً ويخضعها إلى شبكة علاقات قائمة على الارتهان والتبعية وأن الغرب قد عمد إلى شن حربه الشاملة ضد الوطن العربي والإسلامي وتكريس القابلية للاستعمار في نفوسنا وتدمير منابع القدرة الداخلية وذلك بتحطيم المكونات العقدية والفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي وتغيير أنماط المعيشة والإنتاج فيه بما يخدم مصالحه وتحقيق التبعية له، وعمد الغرب إلى خلق مؤسسات موازية ومعادية لنا يديرها تلامذة له مأخوذين بثقافته، ولم تكن سوى محاكاة مشوهة وناقصة لمؤسسات الغرب في سعي منه لتدمير العقل المسلم وحشوه بمفاهيم الغرب ليقطع كل طريق على عملية التفكير في إعادة بناء المجتمع الإسلامي المقاوم، فمجرد تدمير المؤسسات الإسلامية مع بقاء العقل الإسلامي في يقظة كفيل بمحاولة البدء من جديد وكفيل بنجاح المؤسسات الإسلامية من جديد وإعادة بنائها من جديد، وأن إسرائيل وجدت لتمارس وظيفة مستمرة دائبة هي ضرب النفسية المسلمة وتحويل ميدان الحركة الحقيقية إلى ميادين وهمية تستنفد الجهد والطاقة، وقيام دولة إسرائيل أهم وأعنف وأخطر أشكال الحرب الغربية الشاملة ضدنا، وبقيامها واستمرارها في القلب من الوطن الإسلامي تكون الهجمة الغربية قد نفذت أهم وأخطر مهماتها، فنحن هنا لا نواجه مجرد تحد عسكري أو مجرد تحد فكري وإنما

نواجه تجمعاً عدوانياً استيطانياً في مكان هام وحساس من الوطن الإسلامي يعطي للصراع كل أبعاده التاريخية والحضارية والعقائدية والفكرية إضافة إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية، ومع إسرائيل لم تعد ثقافة الأمة فقط هي المهددة بل وجودها برمته.

والدور الصهيوني في المنطقة ليس قاصرا على فلسطين أو حتى دول المواجهة فقط، بل إن إسرائيل تعتبر حدودها الأمنية تشمل باكستان وإيران حتى شمال أفريقيا ومن تركيا حتى جنوب السودان وتعتبر إسرائيل كل ما بين ذلك ـ على الأقل ـ قابلا للتدخل الصهيوني اقتصاديا وعسكريا وأمنيا.

وهكذا فالمعركة مع إسرائيل معركة الأمة كلها بطاقاتها وبفكرتها الشاملة عن نفسها وعن الآخر، إذ عندما تعتقد الأمة بقدراتها واستعدادها النفسيين على مواجهة الآخر والانفكاك من أسر تبعيته والارتهان له، تبدأ في تحقيق استقلالها السياسي وتنهض في الوقت نفسه لمعركة تحرير فلسطين،انطلاقا من أن فلسطين هي القضية المركزية للأمة الإسلامية حيث استطاع الاستعمار الغربي الحديث الذي أطلقته الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، استطاع بعد حوالي قرنين من الزمن أن ينشئ الكيان الصهيوني الذي أصبح مركز الهجمة الغربية ضد الوطن الإسلامي، ومركز المشروع الاستعماري، ومن هنا فإن فلسطين تأتي في قلب ومركز المشروع المضاد الإسلامي، فالمعركة ليست فقط بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني بل معركة كل الأمة ضد الغرب المستعمر الذي يمد الكيان الصهيوني بكل أسباب الحياة والرعاية والحماية، وبدون انتظام طاقة الأمة في طريق ونهج موحد فسيبقي الخلل في توازن القوي قائما ومستمراً لصالح العدو، ومن هنا تأتي أهمية استقلال القرار السياسي والقضاء على جذور ومنبع التبعية بكافة أشكالها، ونظم مفردات قوة الأمة التي تكمن في هذا العدد البشري المتعاظم وهذا الموضع الجغرافي المتميز والإمكانات المادية الهائلة، إضافة إلى التاريخ والموروث الحضاري الإسلامي المستند إلى أيديولوجية حية باعثة، قادرة على بعث الأمة وتفجير إمكانياتها ونظمها في كينونة فاعلة ومؤثرة.

وهكذا فإن مسألة تحرير فلسطين ـ عند الشقاقي ـ هي مسألة مشروع ينظم إمكانات الأمة ويرد على حرب الغرب الشاملة بحروب شاملة ثقافية وفكرية واقتصادية وأمنية وعسكرية، ويبقى دور المجاهدين في فلسطين وهو إحياء فريضة الجهاد ضد العدو ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع وتدمير ما يستطيعون من قدراته وإدامة الصراع حيا حتى وحدة الأمة وتحقيق النصر والتصدي لمؤامرات تصفية القضية التي يوجهها الغرب.

إذن فالمعركة حضارية وشاملة، وإسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي، والمعركة ضدها هي معركة كل الأمة، وليس تنظيما أو جماعة أو حكومة وبالتالي فإن هناك عدة شروط لاستمرار وديمومة ونجاح أي عمل جهادي، وهذه الشروط هي الإسلامية والكفاح المسلح والجماهيرية، ولا شك أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين امتلكت هذه الشروط وبقدر استمرار تمسكها بها بقدر استمرارها ونجاحها التكتيكي والاستراتيجي، وأهداف هذه الحركة كما حددها الشقاقي مرحليا واستراتيجيا، مرحليا هي إحياء فريضة الجهاد ضد العدو، ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع، وتدمير ما أمكن من قدراته، والتصدي لمؤامرة تصفية القضية بمشاريع التسوية التي يوجهها الغرب، واستراتيجيا تحرير فلسطين، كل فلسطين والانتصار على مشروع الهيمنة الغربي بكامله، وتحقيق الانعتاق لكل مستضعفي العالم من ذلك النهب والقهر والهيمنة الغربية.

ولكن لماذا حركة الجهاد الإسلامي، ألم تكن الأطر القائمة من أحزاب وجماعات وحركات إسلامية أو وطنية صالحة لتطويرها والعمل من خلالها، بالطبع لا، لأن تلك الأطر إما فقدت إسلاميتها، وإما مارست إسلاماً شكليا، أو لم تفهم طبيعة الصراع ولم تعط قضية فلسطين حقها وحجمها الصحيح، وإما كانت حركات لا تستند إلى الجماهيرية بقدر ما تستند إلى التنظيم، وقدرة التنظيم إلى نفاد، والمحافظة عليه تجعل قيادات تلك الحركة تمارس نوعا من الوسطية والمساومة أو السكوت، وفي قضية مركزية مثل قضية فلسطين لابد من المبدئية الكاملة ولو على حساب التنظيم ولابد من المواجهة المستمرة وبلا حدود لأن

الأمر يخص أمة وحضارة وتاريخ وجغرافيا ووجود.

وهكذا كان لابد للشقاقي ورفاقه ـ مع هذا الظرف ـ أن يضربوا بجذورهم نحو القسام وأن يقيموا كيانهم المتميز كشاهد على المرحلة وأن يتجاوزوا الأطر المنهارة والمتراجعة، وطنية أو إسلامية، وهكذا لم يكن هناك بديل من إنشاء حركة الجهاد الإسلامي.

ولنترك الدكتور الشقاقي بنفسه يجيب على عدد من الأسئلة حول الحركة، عن الإرهاصات والمخاض، التاريخ والأيديولوجيا، التيار والتنظيم، عن الحلم المشروع والمستقبل.

فالحركة ـ كما يقول الشقاقي : لم تخرج من فتح رغم أن بعض عناصرها عاشوا التجربة الوطنية، بكامل أبعادها، كما لم تخرج من تنظيم الإخوان المسلمين ـ رغم أن بعض كوادر الحركة عاش التجربة الإسلامية مع الإخوان ـ ويضيف الشقاقي ولكن التجربة الإسلامية المعاصرة والمناخ الديني كانت من أهم العوامل المؤثرة أو لنقل كانت بمثابة «المحضن» للحركة، وأنه رغم عمق التجربة الإسلامية وتأثيرها الهام، ومع إطلالتنا على التجربة الوطنية إلا أننا لم نكن امتداداً أو انشقاقا تنظيميا لأحد أو عن أحد ولم يجتمع عشرة أو عشرون من مثقفي الطبقة الوسطى ليشكلوا حزبا فوقيا، لم نكن جبهة شعبية تخرج من حركة القوميين العرب ولا فتح تخرج من رحم الإخوان المسلمين وبقايا الأحزاب الوطنية.

كان جيل البعث في الحركة الإسلامية المعاصرة الذي جاء دوره بعد غياب شمس الخلافة الإسلامية (١٩٢٤) وتبلور منذ عام ١٩٢٨ يؤدي رسالة تيار وتنظيم ولكنه بعد استشهاد البنا يتحول الى جيل المحنة وبعد نكبة صيف السابع والستين وسقوط بيت المقدس ذلك السقوط المدوي والزلزال في تاريخ الأمة وواقعها ووجدانها يتشكل شيئاً فشيئاً، الجيل الثالث جيل الوعي والثورة ليواجه التحدي بعد سقوط البدائل، من عذابات هذا الجيل جئنا، ومن بين أنقاض الزلزال، كانت ليالي الحلم القاسية كان السؤال الفلسطيني محور اللغز الذي كان علينا أن نفك طلاسمه بكينا وصرخنا.. تصدعت رؤوسنا.. كما نبني حرفا فوق الحرف حتى تكتمل النقطة لنبكي من جديد فرحا في لحظة الكشف

وتواصل والتقاء التاريخ بالمطلق فوق بيت المقدس، لم نأت من السياسة إلى الإسلام ولم نأت من فلسطين إلى القرآن، ولكن الذي حدث أننا وفي ذروة المعاناة وفي أشد الفكر والجهد والعذاب، في لحظات وجد ودعاء كنا فيها الأقرب إلى الله.. شاهدنا فلسطين، شاهدناها في قلب القرآن.. شاهدنا رحلة الإسراء ذات الساعات القليلة، صورة إلهية لتاريخنا الممتد ألف وأربعمائة عام من مكة والمدينة إلى بيت المقدس، من محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن قد اكتمل منهجا قويما وفاعلا، من بني قريظة إلى الليكود، من حراء إلى كامب ديفيد، من وعد الأولى إلى وعد الآخرة، من ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾[الإسراء:٥] إلى ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء:٧]، من القرآن إلى القرآن، تعانقنا، صرخنا من الفرح، بدا كل شيء بعد ذلك مجرد وقت، فقد اكتشفنا كلمة السر، لم نكن وسطا حسابيا بين الإسلام والوطنية لم نكن الوسط الحسابي ولكنه الجدل الممتد من المطلق إلى التاريخ من القرآن إلى فلسطين، الجدل الذي لايعرف فواصل العجزة، لم تكن الرحلة سهلة، الرحلة كانت مسكونة بالألغام وبالأشواك ولكن زادنا من الإيمان والثقة جعلنا دوما ضد اليأس﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وضد الخوف

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

وضد التراجع

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ويضيف الشقاقي «نحن حركة لا يمكن أن ترتهن لغير الله ولغير المشروع الإسلامي الواعد والمستقل عن كافة الأشكال الغامضة أو البنى المنهارة، ولأننا أدركنا بأن الأمر مجرد وقت وأننا نسابق الزمن فقد حفرنا الصخر بأظافرنا

وجوعنا وفقرنا، حتى إن كثيرين سيعجبون كيف تحول الحلم إلى واقع سياسي مؤثر يتنامى كل يوم في غياب الإمكان المادي، رغم الفتنة والإغراءات، ولكنها بركة الأيديولوجيا والإرادة والدم.

ويقدم الشقاقي المزيد من التحديد والضوء على حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قائلا « في زمن الغياب كنا نحلم بعودة الإسلام إلى دوره التاريخي فوق أقدس الساحات، في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس كان خيارنا أن نكون رأس حربة ضد المشروع الاستعماري الصليبي الصهيوني، وأن ننتشر فوق أرض الإسراء والمعراج كقدر إلهي يحمل منهجا واضحا محددا لفهم الإسلام والعالم والواقع وأن نعيد صياغة الأشياء ضمن نظرية ثورية واضحة المعالم».

ويؤكد الشقاقي على البعد الجماهيري في الحركة من خلال تجربتها في هذا الصدد ومدى ثقته في الجماهير قائلا «لقد استطاعت الحركة مبكرا أن تلتحم بالجماهير وأن تكتشف عظمة هذه الجماهير وبالمقابل كانت الجماهير تكتشف صدق الحركة ومصداقيتها واستعدادها للتفاني والتضحية، وقد تميزت تلك الفترة من عمر الحركة بالنشاط الجماهيري والقبول الإعلامي والسياسي المكثف ووصلت بذلك إلى المساجد والبيوت والشوارع والمدارس والمعاهد والجامعات والجمعيات والمؤسسات والنقابات واستطاعت تشكيل تيار إسلامي جماهيري جهادي، وهي تحاول رسم ملامح المرحلة القادمة والخروج من حالة الغياب الإسلامي المذهل على الساحة الفلسطينية عبر عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات إلى التماس في صراع مباشر مع الظاهرة الإسرائيلية عبر شعارها الاستراتيجي القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية المعاصرة ، هذا الشعار الذي بدا غريبا على أسماع البعض ولكنه تحول في شهور قليلة إلى تيار جهادي يتشكل في الشارع الفلسطيني المتعطش للإسلام المجاهد.

والشقاقي هنا يكشف بوعي عن عدد من الحقائق، وهي أن الغياب الإسلامي عن الساحة الفلسطينية طوال ثلاثة عقود هي الخمسينيات والستينيات والسبعينيات لم يكن بسبب رفض الجماهير لذلك بل إن الجماهير في الشارع الفلسطيني كانت متعطشة للإسلام المجاهد وهذا بديهي بالطبع، إذن كان العيب في

التيار الإسلامي بالطبع وعندما حمل هذا التيار الشعلة واستخدم شعارا صحيحا والتحم بالجماهير كانت النتيجة مذهلة، ومن الطبيعي أن تكون مذهلة فالجماهير بطبيعتها وجدانها إسلامي وحسها إسلامي ووعيها إسلامي حتى النخاع، وهي ما غابت ولا تخلفت لحظة عن حركة إسلامية صادقة ومجاهدة وتثق في الجماهير.

ويرصد الدكتور الشقاقي العديد من العمليات الجهادية والنضال السياسي اليومي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين طوال الثمانينيات وحتى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في ٦/ ١٢/ ١٩٨٧ وأن تلك الانتفاضة كانت تتويجا لجهود ونضالات طويلة.. وإن كان الدكتور الشقاقي ـ بسبب تواضعه وأدبه ـ لم يقل إن نضالات أبناء حركة الجهاد الإسلامي في طول الوطن المحتل وعرضه كانت السبب الحقيقي لاندلاع الانتفاضة أولا، ثم لاستمرارها ثانيا، لأن الحركة استطاعت أن تعطي مضموناً واعيا وجهاديا لحركة الشعب الفلسطيني، وأن الحركة كانت تمتلك الالتحام الجماهيري والأدوات السياسية القادرة على تفجير الانتفاضة وتصعيدها إلا أن الحقيقة أن الانتفاضة الفلسطينية في أكتوبر ١٩٨٧ كانت ابنة شرعية لنضال حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وأن الآخرين كل الآخرين قد لحقوا بمؤخرة القطار عندما أقلع بالفعل وهذا بالطبع يرجع إلى أن أي حركة أخرى ـ ليست جماهيرية بالضرورة ولا تستند إلى الجماهير بل إلى تنظيم مثلاً- يمكن أن تنظم مهرجانا حافلا ناجحا أو مظاهرة واحدة ،أو اثنتين، منظمة وبراقة ولامعة وكبيرة ولكنها لا تقدر على الانتفاض الشعبي المستمر، لأن هذا من شأن القوى التي تثق في الجماهير وتلتحم بها وتعتبرها مادتها الأساسية في الصراع، وهذا بالتحديد لا ينطبق إلا على حركة الجهاد الإسلامي وبديهي أن الانتفاضة ـ كما يقول الشقاقي « لم تكن إلا مرحلة في نضال طويل وشاق وشرس وأن الجهاد المسلح هو الطريق الأكيد لتفكيك هذا المشروع الصهيوني الاستعماري».

وفي الحقيقة فإن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين مارست قبل الانتفاضة وأثناء الانتفاضة وبعد الانتفاضة هذا الجهاد المسلح ونفذت كوادرها

عشرات العمليات الاستشهادية ضد العدو الصهيوني، واستطاعت أن تنزل به خسائر فادحة أفقدته صوابه.

والشقاقي وبسبب الوعي والإخلاص والتجرد، ورغم أنه مؤسس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين فإنه لا يجعل منها صنما يعبد من دون الله. ولا يجعلها حركة أم ، أو أولى أو أخيرة، بل حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي سبقتها حلقات، تتبعها حلقات، والاسم والإطار التنظيمي ليس بالطبع شيئا خالدا مقدسا، ولكن العقيدة والهدف هما الثابتان وغيرهما بالضرورة متغير... ويرى الشقاقي ان حركة الجهاد الإسلامي قد شرفها الله بأن جعلها نواة للعمل الإسلامي الجهادي في أرض الرباط، ولكن هذا الشرف العظيم الذي جاء في ظرفه التاريخ ومرحلته التاريخية لا يعني احتكار حركة الجهاد الإسلامي للجهاد في فلسطين ولا تفردها وحدها على هذا الطريق المقدس، فالحركة في نفس الوقت الذي شكلت فيه نواة للعمل الإسلامي الجهادي كانت امتدادا أو جزءا من حركة إسلامية أوسع وأكبر كان لها دورها الريادي في اخضرار الساحة الفلسطينية بالإسلام وهكذا فحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين لا تمثل كل الساحة الإسلامية وإن كانت رافدا منها وإليها، وكونها نواة تاريخية، في هذا الظرف والمرحلة التاريخية، للعمل الجهادي في فلسطين يجعلها في طليعة المجاهدين الذين يتكاثرون يوما بعد يوم، ولكنه لا يعطيها بالضرورة أي حق للتمايز، عن الآخرين فهي جزء منهم يتعاظم ويكبر بهم،و بقدر الإيمان والتقوى والالتزام والقدرة والأهلية والاستعداد والإرادة يأخذ كلٌ دور في ساحة الجهاد على أرض الرباط، وكونها نواة تاريخية مسألة تاريخ وظرف تاريخي لا أكثر، وهي مستعدة لأن تسلم قيادتها لكل مجاهد قادر ومخلص بدون تمايز الزمان والمكان أو الأسماء، تسعى لوحدة كل المجاهدين على درب تحرير فلسطين تحت راية الإسلام العظيم، ومسألة الوحدة بالنسبة لها ليست مسألة تحالفات صغيرة أمام ظرف كبير، إنما هو التزام شرعي، آثم من يتنازل عنه، وقضية استراتيجية جاهل من لا يستبعدها أو يستبعد أهميتها، وبقدر ما نقترب من الوحدة بقدر ما نقترب من الله و من الانتصار.

المرأة في المشروع الفكري والحركي لفتحي الشقاقي

استطاع الدكتور فتحي الشقاقي فكرا وممارسة أن يحل الإشكالية المعروفة لدى الحركة الإسلامية المعاصرة حول قضية المرأة من خلال طرح أصولي معاصر ومجاهد في نفس الوقت، فهو يرفض استلاب المرأة لقيم الغرب وثقافته ويرفض حبسها في قمقم التخلف في نفس الوقت، بل يدفعها إلى الأمام لتأخذ دورها كإنسانة مسلمة، وكمناضلة طليعية في الصف الإسلامي وكمسئولة عن حركة الإحياء الإسلامي والجهاد في سبيل الله من أجل قضايا الأمة وتحدياتها.

وفي هذا الإطار استطاع فتحي الشقاقي أن يدخل مفاهيم تجديدية وجهادية في أشد الموضوعات تقليدية تأكيدا للثوابت وانطلاقا للآفاق.

فالمرأة عند فتحي الشقاقي «تقف شاهدة على عصرها، في كل أزمان التحول العظيمة التي تحياها الأمم، وهي تراقب وتشارك وتسجل، وهي ترفع يدها في وجه الظلم والخوف والقهر، تنتمي إلى الحقيقة والأصالة والثورة في وقت واحد، طوبى لمن تأتي غدا بالحجاب ـ المختار الإسلامي ـ العدد الأول ـ ص٤٦ »وتراثنا المشتعل خصوبة وحياة لم يتوقف يوما عن صنع النماذج، رجلا تلو الآخر، وامرأة تلو الأخرى على خطى محمد ﷺ وتحت ظل راية القرآن، ورغم شراسة حملات الغزو الفكري التي يقودها الاستعمار خلف مكبرات الإذاعة وشاشات السينما والتلفزة، رغم كل هذا فإن جيلا يتكون الآن وتحت ظل التحديات القائمة أكثر صلابة ووعيا بحقائق الأمور، وما ظاهرة الحجاب الذي بدأ يكسو أرضنا الطيبة إلا رمز لهوية هذا الجيل الذي نفض عن نفسه غبار التفتت والانفصام والازدواجية، واختار العودة إلى الله، والحجاب ليس شكلا تعبديا فقط كما يتوهم البعض ولكنه مسألة هوية واكتشاف للذات بعد طول سقوط وضياع في مجاهل التغريب اللعين، ولقد

فرض علينا الاستعمار ملابسه وجاء لنا ببيوت أزيائه لكي تستبعد أشياؤه هذه نساءنا وفتياتنا، كي نلهو بعيدا عن قضايانا الحيوية ولهذا كان الحجاب ويجب أن يكون قضية وطنية في غاية الأهمية، إنه رفض لروح الاستعمار ومخططاته، إنه رمز لوعينا بطبيعة الصراع رمز لإصرارنا على مواجهة التحدي ورمز لرفضنا نهب ثروات بلادنا والعبث بمقدساتنا ـ نعم هكذا الحجاب ـ وهكذا يجب أن يكون انحيازا واع ومقدس إلى معسكر العدالة والحرية والعدل، انحيازا إلى معسكر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه الكرام ونبذ لمعسكر الطاغوت وأوليائه" طوبى لمن تأتي غدا بالحجاب ـ المختار الإسلامي ـ العدد (١) يوليو ١٩٧٩ ص٦٤».

وهكذا فالحجاب عودة إلى الله ثم إنه أيضا مسألة هوية واكتشاف للذات ورفض للتغريب ونضال ضد الاستعمار ورمز للوعي بطبيعة الصراع.

والمرأة شاهدة على العصر، تناضل وترفض الظلم والقهر والخوف وتنتمي إلى الأصالة والحقيقة والثورة.

ويرصد الدكتور فتحي الشقاقي النضال السياسي للمرأة المسلمة المعاصرة من خلال تجربتين هما ثورة ١٩١٩ في مصر والثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ قائلا «هكذا الحجاب ليس شكلاً نتعبده، ولكنه هوية وقضية ووظيفة فعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ نزلت السيدة المصرية إلى شوارع مصر متسربلة بالحجاب لباسا للعفة والثورة لتهتف للاستقلال وتبصق على وجه المحتل القبيح، وعندما اشتعلت ثورة الإسلام في إيران وقف العالم مشدوها وهو يرى السيدة الإيرانية تهبط من جبال قم وشيراز ومشهد وتبريز إلى شوارع طهران رافعة يدها في وجه العسكر والكلاب واحتكارات الدول الكبرى ووقف العالم مشدوها وهو يرقب النور يأتي من وجه السيدة الإيرانية المتسربلة بالحجاب ليمتد ويمتد ويبدد ظلم هذا الكون المملوء بالليل». نفس المقال السابق.

وفي أطروحة فكرية شديدة الأهمية تحت عنوان «المرأة المسلمة تيار جديد.. مهام جديدة» المختار الإسلامي، العدد (١٠) ١٤ أبريل ١٩٨٠ يحذر فتحي الشقاقي المرأة المسلمة من المؤامرة الاستعمارية عليها بهدف تبديد إسلامها

وإبعادها عن قيمها الأصيلة واستلابها لصالح منظومته الفكرية والحضارية. ويرى فتحي الشقاقي أن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لمستقبل الإسلام، ويرى فتحي الشقاقي أن قاسم أمين كان آخر درجة في سلم الانحدار في ذلك الوقت ذلك السلم الذي بدأه الطهطاوي منبهراً بالغرب وحضارته وتلاه محمد عبده متراجعا أمام ما سمي بالهجمة العلمية الغربية محاولاً التوفيق بين الإسلام وقيم الغرب الحديثة ثم تلاه جيل بأكمله من المهزومين أمام الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي ومن تلامذة التبشير والاستشراق ومن أبناء الأقليات غير الإسلامية، جيل عديد متعدد الأسماء طويل يمتد إلى عصرنا هذا وكان من أبرز رجاله لطفي السيد وطه حسين وشلبي شميل وفرح أنطون وبطرس البستاني وآخرون..

كان بروز قضية المرأة إذن أحد أهم دلالات سقوط النظام السياسي للإسلام بسقوط الخلافة الإسلامية، ثم ضغط الهجمة العلمانية الغربية ومؤسساتها في الوطن الإسلامي وتلامذتها الأوفياء.

ويؤكد الدكتور فتحي الشقاقي على أن الإسلام يهتم بتعليم المرأة، ومن يقول غير ذلك جاهل أو متآمر، وأن الهدف الغربي في قضية المرأة لم يكن تحريرها ولا تعليمها بل كان الهدف شيء آخر تماماً ولقد كان الهدف هو أن تفقد المرأة أنوثتها ثم إنسانيتها وكرامتها ودينها وينتهي الأمر بتدمير البيت المسلم والنشء المسلم والمجتمع الإسلامي بأكمله.

وإزاء ذلك كله كان لابد للمرأة المسلمة أن تقف وتواجه هذا الإرهاب الفكري وتلك الهجمة الاستعمارية العنيفة، أن تقف المرأة المسلمة كواقع حي واع في وجه الهجمة الغربية وظواهرها الاجتماعية، لا موقف المتراجع المهزوم المدافع وإنما موقف المستوعب للتاريخ، الواعي لقضية الإسلام المتقدم لإزاحة تلال الخراب، لقد انتهت تلك القضية الزائفة التي روجوا لها أكثر من نصف قرن، انتهى ما يسمى بقضية تحرير المرأة بالأسلوب التغريبي أو هي على وشك الانتهاء فالواقع الإسلامي سيفرض قيما جديدة وسائل جديدة وأهداف

جديدة.

والمرأة المسلمة عند الشقاقي هي امرأة منفصلة عن قيم الطبقة وعن أهداف الطبقة وعن سلوك الطبقة، فقيمها هي قيم الإسلام وأخلاقها هي أخلاق الإسلام وأهدافها هي أهداف الحركة الإسلامية، وأن الانتماء الحقيقي إلى الإسلام يبدأ أولا بالانفصال عن القيود التي تقام حولنا ضمن الطبقة التي ننتمي إليها.

والمرأة المسلمة عند الشقاقي هي التي تتحرر من قيم الجاهلية ومفاهيم الغرب والاقتراب أكثر من أهداف الحركة الإسلامية المعاصرة وممارساتها وهي أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة وعليها أهم مسئوليات تلك الحركة.

ويحدد الدكتور فتحي الشقاقي مهام المرأة المسلمة في ظل الحركة الإسلامية المعاصرة بأن على المرأة المسلمة ألا تبرر موقفها أو تحاول تخفيف وقع التزامها وإسلامها على الأخريات أو التنازل لهن، بل إن غير الإسلاميات هن المطالبات بتبرير موقفهن ومحاولة تغييره والانضمام إلى الحركة الإسلامية وقيمها وتصوراتها لا العكس.

وأن على المرأة المسلمة أن تعي قضية التحدي، وتاريخها، عليها أن تعي أن الغرب وقف أمامنا في وقت كنا فيه أكثر تخلفا على النطاق المدني منه، وفي وقت كنا فيه ابتعدنا إلى حد ما عن أصالة إسلامنا، وأمام انبهار بعضنا بتقدمه المدني استطاع أن يقدم لنا أخلاقه وسلوكه وقيمه وركز تركيزا شديدا على المرأة المسلمة لإدراكه بأن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لإسلام المستقبل، وأن فهم قضية التحدي هو أولى الخطوات لتجاوز الهجمة، وأن على المرأة المسلمة حيث تقف أن تكون ضد السياسات التربوية والتعليمية غير الإسلامية وأن تكشف زيف المناهج التربوية والتعليمية الغربية التي استقرت داخل مجتمعاتنا وهذا أهم مجالات التغيير، إن المرأة المسلمة كأم والمرأة المسلمة كمدرسة بالذات أمامها تحد كبير لرفع الإسلام في وجه العلمانية بكل اتجاهاتها القومية والوطنية والاشتراكية، لأن ذلك هو أهم الوسائل لبناء نشء إسلامي، والمرأة المسلمة عليها أن تقف مع الخيارات الإسلامية في مجال العمل فلا تختار إلا ما يقبله

الإسلام وما يجعلها بعيدة عن الشبهات فذلك هو الوسيلة أمامنا لهز المؤسسات غير الإسلامية القائمة وعليها في نفس الوقت ألا تهمل بيتها فهو مهمتها الأصلية نحو تغيير ملامح المجتمع فمن منزل إسلامي إلى منطقة إسلامية إلى مجتمع إسلامي، والمرأة المسلمة مطالبة بأن تتقدم بقوة إلى مجالات العمل الاجتماعي الإسلامي فحين تحاول التقدم لإزاحة الركام الطويل من القيم والمفاهيم والمؤسسات والاتجاهات غير الإسلامية علينا ألا نترك لهم مساحات العمل الاجتماعي فارغة، إن مجالات محو الأمية الكتابية والثقافية ومجالات القوافل الريفية ومجالات مكافحة الفقر في الأحياء والمدن والقرى كلها ضرورية لاقتراب المرأة المسلمة من الجماهير وآلامها تمهيدا لترشيدها ووضعها في الصف الإسلامي.

ويلخص الدكتور الشقاقي رؤيته لمهام المرأة المسلمة قائلاً «المرأة المسلمة هي أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة، ونحو مزيد من الوعي لمشكلاتها ودورها عليها أن تبقي في تفاعل مستمر مع إطارات الحركة الإسلامية المتقدمة إلى الأمام».

التجديد عند فتحي الشقاقي زهور جديدة على نفس الشجرة

التجديد سنة من سنن الله تعالى في الكون والحياة، وجسم الإنسان مثلا تتجدد خلاياه باستمرار، فتنشأ خلايا جديدة وتموت خلايا قديمة ـ اللهم إلا الخلايا العصبية ـ ولكن هذا التجديد يتم من خلال الكائن الحي نفسه ومن داخله ويظل هذا الكائن الحي هو ذاته وليس شيئا مغايرا ولا ممسوخا، أي أن الجسم الحي الكائن متكامل يستخدم عناصر الماء والغذاء وغيرها في عملية تجديد مستمر لخلاياه وأنسجته أي أن التجديد يأتي من خلال هضم العوامل الخارجية واستخدامها في عملية تجديد داخلي بحتة.

والتجديد شرط من شروط النهضة والإبداع الحضاري لكن استنادا إلى الثوابت وانطلاقا منها وفي إطارها.

والدكتور فتحي الشقاقي وعى هذه الجدلية ومارسها فكرا وحركة، فهو أصولي حتى النخاع وهو أيضا مجدد كبير، ولا تناقض في هذا بالطبع، فالتجديد الإسلامي يكون انطلاقا من الأصول الإسلامية الدينية والحضارية الثابتة وإلا كان تخريبا واغترابا وإذا اقتربنا من فلسفة الدكتور الشقاقي التجديدية نجده صاغ المسألة على نحو عبقري، ففي تقديمه لسلسة دراسات تحت عنوان « نحو طلائع إسلامية واعية » قال الدكتور الشقاقي « يجب أن نواجه قضايانا بالتزام لا ينفصم عن أصول هذا الدين وبروح تجديدية باسلة ومؤمنة في وقت واحد ». العدد (١) من سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية ـ إصدارات دار المختار الإسلامي ـ القاهرة.

وهكذا فالتجديد يجب أن يكون شجاعا وباسلا وأن يكون مؤمنا وأن يلتزم بأصول الدين ولا يخرج عنها.

ويقول الدكتور الشقاقي أيضا في نفس المرجع « إننا نعتقد أن إحدى

مشاكلنا الفكرية أن هناك عدم توازن في الرؤية والممارسة فالتركيز على التسامح يجعلنا نقبل الدنية في ديننا، بينما التركز على الرفض يجعلنا نتجاهل تجارب الآخرين وإمكانية الاستفادة منها، عدم التوازن في فهم دور الغيب وفاعليته في الكون والبشر يؤدي في النهاية إلى إغفال قوانين الله وسننه الفاعلة وإلى تأليه الإنسان وتخبطه، تضخيم الماضي لا يؤدي إلا إلى العجز عن التقدم نحو المستقبل، ونسيان تجارب الماضي وتحليله علمياً لا يضع إلا النماذج التائهة المشوهة، ومحصلة لكل ذلك يجد المسلمون أنفسهم قد فقدوا أداة الوعي الصحيح وضاعوا في ذواتهم بنرجسية يحسدون عليها وأبوا عن فهم حركة التاريخ التي تحكمها سنن الله الفاعلة».

ويقول « نحن ضد القوالب الجاهزة التي فعلها شخص ما على مقاييس شخص ما، ثم يفرضها على كل المسلمين، نحن مع أصول هذا الدين وقواعده ولكننا ضد تكوين الشخصية النمطية المتشابهة المكررة لأن هذه الشخصية ليست بالشخصية الإسلامية وليست بالشخصية المبدعة الطبيعية التي ستحمل راية هذا الدين إلى الأعلى وإلى الأمام، نحن ضد القوالب الجاهزة ومع أصالة هذا الإسلام العظيم، لأننا ننتمي إلى ذلك الجيل المتوهج المبدع من صحابة رسول الله ﷺ، ولأننا ننتمي إلى تلك الأجيال المتواصلة التي حملت رايات التجديد فتركت لنا هذا التراث العظيم، نحن مع جريان النهر وتقدمه لأننا مع منبعه وتفجره، نحن مع سقوط الأمطار ودوائر فعلها لأننا مع السحب السماوية الخيرة، ونحن مع تفتح زهور الشجر الدائم والمتواصل لأننا مع جذوره الممتدة والضاربة في عمق الخصب الإسلامي.

ويقول فتحي الشقاقي « المطلوب الآن امتداد رأسي للفكر الإسلامي المعاصر بجانب الامتداد الأفقي المطلوب، وهو تعميق الوعي المعاصر بالإسلام، المطلوب الآن مواجهة شاملة وعميقة لهذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها المسلمون في رحلتهم الشاقة والرائعة نحو الله العلي القدير.

وفي رؤية خلاقة ومبدعة وتجديدية يرصد الدكتور الشقاقي حال الإنتاج

الفكري الإسلامي المعاصر قائلا: « من الملاحظ أن معظم الإنتاج الفكري الإسلامي المعاصر لم يستطع حتى الآن أن ينفذ إلى أعماق مهماته أو أن يواكب هذا التصاعد في المد الإسلامي، إن كثيرا من الكتابات الإسلامية الآن لا تعدو أن تكون محاولات سهلة ومجانية لإعادة مقومات تدركها أمتنا إدراكا كاملا وسئمت غاية السأم من تكرارها وتردادها ونستطيع أن نقول إن الإنتاج الفكري الإسلامي الآن يكاد ينقسم إلى قسمين الأول هو الإنتاج الفكري الذي يلتزم بوعي أو بدون وعي بالفكرة القائلة إن كل ما أنزل الله عز وجل وحدده، رسوله العظيم قد تم فهمه واستيعابه من قبل علمائنا الأوائل وأن ما علينا الآن هو إعادة ترتيب ذلك الفهم وتقديمه للناس بشكل يسهل عليهم تمثله، وهؤلاء يقفون في وجه التقدم الإسلامي لأنهم لم يعوا طبيعة الإسلام، وإمكاناته المتجددة الشاملة والواعية في كل عصر، هؤلاء ينطلقون من الجمود عند حدود الماضي ويدعون تمثيل المستقبل، أما القسم الثاني فهو الإنتاج الفكري الذي يتزل بأنه «الفهم العصري للإسلام» وهو لا يعدو أن يكون محاولات تلفيقية بين جوهر هذا الدين الحق وبين المناهج الفكرية الغربية، وهؤلاء ينطلقون من واقع الآخرين وليس من واقعنا، من وعي الآخرين وليس من وعينا، وهم في غمرة استلابهم الروحي أمام الفكر الغربي يحاولون أن يمرروا على أمتنا هزيمتهم في ثوب تلفيقي يدعون إسلامه».

***

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي يرفض التراثية الواقفة والجامدة ويرفض أيضا الانطلاق من رؤية الآخرين لتلفيق نوع من الاتفاق الديني معها، وهو يرى أن الإشكالية تتحدد في كون الإنسان المسلم الطليعي المتقدم لصياغة العالم من جديد، عليه واجبات هائلة حتى يحقق شهادته الكاملة على عصره، فيحاول أن يقف مع جوهر الإسلام الحق في ضوء مكتسبات الإنسان المتواصلة في حياته الطويلة، وأن يقدم فهما حقيقا وجادا ومعاصرا لإسلامنا بعيدا عن جمود أدعياء التراثية وأدعياء العصرية وأن يكون واعيا تمام الوعي بأن هناك أصولا في هذا الدين، أنزلها الله العزيز الحكيم في محكم آياته المباركات وأقرها

رسوله العظيم وأجمع عليها صحابته وعلماء الأمة، هذه الأصول لا ينبغي الخروج عليها لأنها أمر الله عز وجل، وأنه لا يجوز أن تتحول المحكمات إلى متشابهات، ولا يجوز أيضا تحول المتشابهات إلى محكمات، لأن في ذلك حكرا على عقل الأمة وأجيالها وفي ذلك خلل في ثقة المسلم بإمكانات هذا الدين وتجددها عبر الزمان والمكان».

ويؤكد الدكتور فتحي الشقاقي هنا على ضرورة التزام المفكر المسلم بشرطين هما أن تتحقق في شخصيته العبودية الكاملة لله ثم الوعي الشامل والدقيق بمرحلته من أجل تقدم إسلامي حقيقي.

ويضع الدكتور الشقاقي يده على نقص كبير في ظاهرة الصحوة الإسلامية ألا وهي قضية الأدب والفن» فنحن نفتقد أدبا إسلاميا طليعيا حقيقيا، فإذا كانت الحركة الإسلامية تقود محاولة التغيير وإزاحة وجه القبح الذي يغطي العالم، فكيف لا يحملها ولا تحمل هي أدبا وفنا تغييرا جديدا، كيف نفتقد الرواية الحقيقية والقصيدة المتوهجة والسينما وغيرها التي تستمد عمق الشحنة الإسلامية المتفاعلة مع عمق الحركة الكونية، فتكون شعلة الكشف أمام أمتنا ومضاء السلاح في يدها، وكيف لم نكتشف حتى الآن وسائلنا الفنية المحددة بمنظورنا الإسلامي إن كنا فعلا نمثل تناسق هذا العالم وجوهره النقي وجماله».

الوحدة في المشروع الفكري والحركي لفتحي الشقاقي

يمكننا أن نرصد بسهولة ذلك التلازم الحيوي بين كل من الوحدة والجهاد وبين الصعود الحضاري للأمة الإسلامية، وبسقوط أو ضياع إحدى هاتين القيمتين يهبط المنحنى الحضاري للأمة الإسلامية وتتخلف على مستوى العمران والأخلاق وتتعرض للتحديات الخارجية والداخلية.

فالوحدة إذن عنصر أساسي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي وهي أولا فريضة شرعية وهي ثانيا ضرورة للصعود الحضاري الإسلامي ولحماية الأمة من أعدائها وضرورة أيضا لتحقيق أكبر قدر من المنجزات العمرانية، وضرورة أيضا لرقي الأخلاق والسلوك لدى أفراد هذه الأمة.

والأمة الإسلامية طالما كانت موحدة كانت قوية وقادرة على تحقيق رسالتها وقدرة على حماية نفسها من الأعداء وقادرة على تحقيق العمران وقادرة أيضا على الرقي الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، وطالما كانت مفككة كانت ضعيفة غير قادرة على أداء رسالتها غير قادرة على حماية نفسها من الأعداء وغير قادرة على تقديم إنجاز عمراني ذي شأن ومنحطة أخلاقيا وسلوكيا واجتماعياً.

والنصوص الشرعية التي تؤكد فرضية الوحدة كثيرة ومتنوعة.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون].

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران].

ونلاحظ في الآيتين الأولى والثانية أن هناك ارتباطا بين الوحدة والأمة الواحدة وبين عبادة الله في الأولى وتقواه في الثانية، وفي الآية الثالثة وضع الوحدة والاعتصام كمقابل للكفر، وجعل الوحدة والاعتصام هما الطريق إلى الصراط المستقيم وتستطيع أن تفسر الصراط المستقيم هنا بأنه طريق النجاة في الآخرة والعزة والسيادة الحضارية في الدنيا.

وفي الآية الرابعة نرى أن الله تعالى جعل الوحدة والاعتصام وعدم التفرق نوعا من النعمة وهي بلا شك نعمة عظيمة وجعلها أيضا طريقا لتجنب الهلاك في الدنيا والآخرة وهي معلم من معالم الهداية وهي إحدى آيات الله أي أن الوحدة آية من آيات الله تعالى وهي نعمة وهي طريق لتجنب البوار في الآخرة والدنيا على حد سواء.

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران].

أي أن الفرقة طريق إلى العذاب العظيم في الآخرة والانحطاط الحضاري في الدنيا والسقوط في الذلة والهوان.

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات].

أي أن الوحدة والأخوة هي إحدى علامات الرحمة لأنها تنجي في الآخرة وتصنع التقدم والعزة والسيادة في الدنيا.

ويقول الرسول ﷺ : «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» أخرجه أبو داود .

أي أن مجرد الزحزحة عن الوحدة ولو بشبر واحد خروج على ربقة الإسلام وخلع لهذه الربقة من العنق بما يعطي الانطباع بمدى أهمية وخطورة فريضة الوحدة ويقول ﷺ «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، ويقول ﷺ «**يد الله مع الجماعة**» أخرجه الترمذي.

ونلاحظ في هذا الحديث الموجز أن مدد الله يأتي مع الوحدة أو الوحدة شرط لنزول مدد الله تعالى ومدد الله تعالى هائل، وأمة تستند إلى مدد الله تعالى ـ وهو أقوى الأقوياء ـ قادرة على النصر والسيادة والإنجاز الحضاري بصورة ضخمة جدا تتناسب مع المدد الذي تنزل من الله العزيز القدير الحكيم العليم الذي يملك خزائن كل شيء.

أي أن الوحدة فريضة شرعية، وطريق إلى النجاة في الآخرة وطريق أيضا إلى العزة والسيادة والنصر وتحقيق أكبر المنجزات العمرانية في الدنيا.

***

الوحدة الإسلامية شرط لازم لمواجهة التحديات التي تعانيها أمتنا اليوم، وطريق أكيد إلى العزة ومواجهة الأعداء والنهضة في كل المجالات والأعداء يعرفون خطورة وأهمية هذه الوحدة ولذا فإن مؤامراتهم على الوحدة الإسلامية لا تنقطع، بل تكاد نجزم أن أي محاولة وحدوية على أساس إسلامي تجعل القوى الاستكبارية تتحرك لضربها سلما أو حربا، ومن الأشياء التي يحظرها علينا الأعداء محاولات التوحد بأي صورة من الصوره بين أبناء العالم الإسلامي ونحن ندعو إلى الوحدة، ندعو إلى قيام الخلافة الإسلامية باعتبارها فريضة غائبة ونسعى لتحقيق ذلك، وفي نفس الوقت ندعم ونرحب ونؤيد أي محاولات وحدوية بين هذا القطر أو ذاك، مصر والسودان مثلا، أو الوحدة العربية، أو تحقيق نوع من التنسيق في أي مجال من المجالات بين الدول الإسلامية، أو حتى بين الشعوب والمنظمات الشعبية الإسلامية «كاتحاد المنظمات الهندسية في العالم الإسلامي» أو أي شكل من الأشكال الوحدوية بشرط واحد، هو أن تكون طريقا إلى الوحدة الإسلامية وليس بديلا عنها أو

بالتعارض معها.

والأعداء سخروا أقلاما عربية وإسلامية للأسف، للشوشرة على فريضة الوحدة بعدما نجحوا في إسقاط الخلافة الإسلامية «كعلي عبد الرزاق مثلا» وعلينا في مواجهة ذلك أن نؤكد على فريضة الوحدة ونسعى لنشر الفكر الوحدوي والسلوك الوحدوي والممارسات الوحدوية وكشف صلة دعاة الإقليمية بالمشروع الاستعماري وأنهم مجرد أبواق له.

إنه برغم سقوط الخلافة الإسلامية، كأسمى تعبير عن الوحدة الإسلامية فإن المظاهر الوحدوية في وجدان الشعوب الإسلامية ما زالت والحمد لله قوية، فنحن جميعاً نؤمن بإله واحد وكتاب واحد ورسول واحد ونتجه جميعا إلى مكان واحد في الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة «وهو الكعبة»، ونحن جميعا نحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى ونحج جميعا في وقت واحد إلى مكان واحد كل عام مرة ونصوم معا رمضان من كل عام، والإحساس بمشاكل المسلمين والتعامل معهم موجود والحمد لله في كل مكان ، ولولا الشعور الوحدوي القوي لدى الجماهير، لما رأينا هذا التعاطف الشعبي الواسع مع القضية الفلسطينية في كل مكان من العالم الإسلامي من تركيا إلى جنوب أفريقيا ومن طنجة إلى جاكراتا، وكذلك ظهر هذا الأمر جليا في دعم الجهاد الأفغاني بالمال والسلاح، وكذلك التعاطف مع مسلمي البوسنة والهرسك وغيرها من المظاهر الوحدوية التي تعبر عن وجدان وحدودي قوي لدى الجماهير المسلمة.

وحتى المسلمون في الغربة في أمريكا واستراليا وأوروبا يتصرفون كجالية ذات سمات مشتركة نجدهم يتعاطفون مع قضايا العالم الإسلامي ويدافعون عنها ويمارسون شعائر الإسلام معا لا فرق بين التركي والمغربي والهندي.

وعلينا أن نعمق هذا الشعور الوحدوي بكل وسيلة ممكنة، علينا أن نسعى لتوحيد التقويم على الأساس الهجري مثلا في كل البلاد الإسلامية، وتوحيد بدء الصوم والأعياد في كل العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي أيضا، وعلينا الاهتمام بإنشاء مؤسسات إعلامية ذات طابع عالمي إسلامي،

ونشر تلك المواد الإعلامية التي تؤكد على قيمة الوحدة، وعلينا أن نحقق اتحادات للمنظمات المهنية في العالم الإسلامي وكذا اتحادات للهيئات الشعبية والنقابات وغيرها، وعلينا أن ندعم أي تنسيق وتعاون في أي مجال بين الشعوب الإسلامية، بل والحكومات الإسلامية إذا أمكن، ويمكن اتخاذ القضية الفلسطينية مثلا باعتبارها قضية مركزية للأمة الإسلامية كقاعدة للانطلاق الوحدوي من خلالها، والوسائل كثيرة والمهم النية والجدية في العمل.

قضية الوحدة الإسلامية لم تعد تحتمل التأجيل، لأننا بالفعل كأمة مهددون في وجودنا، وهناك مؤامرة دولية واسعة تستهدف إلغاء وجودنا من العالم أو على الأقل إلغاء وجودنا الحضاري والتحول إلى رقيق للقوى الاستكبارية، وهناك تطهير عرقي للمسلمين في البوسنة والهرسك والهند، وهناك اضطهادات وتوسع يتم على حساب المسلمين في أذربيجان وفلسطين وبورما......... والقائمة طويلة جدا، والعالم كله يتجه إلى الكيانات الكبيرة والوحدة الأوروبية والوحدة الأمريكية، ودول النمور الآسيوية..... إلخ، وفي عصر الكيانات الكبرى لا بديل أمام المسلمين عن الوحدة إن أرادوا الحياة والعالم الإسلامي يمتلك مقومات اقتصادية واستراتيجية هائلة وبشرية أيضا فهناك ١٤٠٠ مليون مسلم، وهناك رقعة جغرافية هائلة تقع في أهم مناطق العالم المتحكم في أخطر طرق المواصلات والشرايين الاقتصادية الحيوية، وهناك البترول والفوسفات واليورانيوم وغيرها من المعادن التي يكاد العالم الإسلامي يمتلك معظمها، وهناك الأقاليم المناخية المختلفة التي تحقق تنوعا هائلا في الإنتاج وهناك الأراضي الخصبة وموارد المياه والطاقة الهائلة، وهناك الإنسان المسلم الذي يستطيع بالإيمان أن يكون أفضل النوعيات البشرية على الإطلاق وبعد هذا فلا حجة لنا إن تقاعسنا عن إرادة الحياة، وإرادة الوحدة.

على خلاف كبير بين علماء الاجتماع في تحديد العناصر التي تشكل أمة من الأمم أو قومية من القوميات، فمنهم من يجعل تلك العناصر اللغة، الثقافة، التاريخ المشترك، التحديات المشتركة، الجغرافيا المشتركة، الجنس الواحد... إلخ، ومنهم من يرفض جعل هذه العوامل أو أحدها شرطا لازما لظهور الأمة بدليل

أن هناك دولا تتكلم الإنجليزية دون أن تشكل أمة واحدة والأمر نفسه بالنسبة للعناصر الأخرى.. وهكذا إلا أن هناك عددا من الملاحظات التي ينبغي أن نسجلها هنا أولها أن هناك خلطا بين مفهوم القومية بالمعنى الغربي وبين مفهوم الأمة، وجميع مدارس الفكر الاجتماعي تحدثت عن مفهوم القومية ولم تتحدث عن مفهوم الأمة، لسبب بسيط هو أن هذا الفكر نشأ نتيجة ظهور الدولة القومية في أوروبا، وأن هؤلاء المفكرين لم يعرفوا معنى الأمة بالمفهوم الحضاري الإسلامي.

وثانيها أن جميع العناصر التي اعتبرت أساسا في تشكيل قومية ما ليست سوى نتائج لتكوين هذه الدولة القومية أي أنها مجرد وصف للظاهرة وليست سببا لها، وهي نتيجة لظهور الدولة القومية وليست سببا لها، بمعنى أن اللغة مثلا والثقافة والتاريخ وغيرها نشأت بعد تكوين الأمة وكنتيجة لها وليس العكس.

وثالثها أننا أمة ذات ملامح خاصة جدا «ربانية» وبالتالي فلا يمكن إخضاعنا للمعايير الغربية لاختلاف السياق الحضاري.

وعلى أي حال فإن القرآن الكريم يحدد لنا العناصر الأساسية لأمتنا وأسباب ظهورها ونتائجها فيقول الله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ .

أي أن سبب نشأة الأمة وعناصر تكوين هذه الأمة، وهو الذي أعطاها المنظومة الثقافية الواحدة، ومن خلال مهمتها الموكولة إليها نشأ التاريخ المشترك والمصير المشترك... وغيرها من العوامل التي تنتج عادة عن تكوين الأمم.

الأمة الإسلامية نشأت من خلال مهمتها ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الاضطلاع بمسئولية القضاء على الظلم والفساد والطبقية والاستبداد والتعصب وغيرها من أنواع المنكر، وحماية الضعفاء والرحمة ودعوة الناس لكل خير ومعروف، أي الدعوة إلى المعروف ونشره ومنع المنكر والقضاء عليه سلما أو حربا، ومن خلال العمل لتحقيق ذلك نشأت الأمة الإسلامية،

وهي أمة منفتحة لا تقوم على جنس أو لون أو قرابة دم أو غيرها بل هي تفتح ذراعيها لكل من يريد الدخول فيها من كل لون وجنس وأرض، والانخراط بالتالي في مهمتها في إزالة المنكر عن الأرض ونشر المعروف في ربوع العالم.

وهكذا نجد أن الأمة الإسلامية ترفض مفهوم العرقية والتفرقة العنصرية على اساس اللون أو الجنس «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**"، " **ليس منا من دعا إلى عصبية ليس منا من قاتل على عصبية، ليس منا من مات على عصبية**».

ونجد أن الأسود والأبيض والأصفر والأحمر - الأوروبي والعربي والأفريقي والتركي والهندي والإيراني، من يتكلم العربية ومن يتكلم غير العربية - كلهم جميعا شاركوا في تشكيل هذه الأمة من خلال الاضطلاع بمهامها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وتمثل «الوحدة» محورا أساسيا في المشروع الفكري والثوري للدكتور فتحي الشقاقي ولا شك أنه كرس جزءا كبيرا من مشروعه الفكري وممارساته الحركية لتأكيد هذا المفهوم ودفعه إلى الأمام، ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن واقع التجزئة والإقليمية هي إحدى نتائج النفوذ والهيمنة الغربية، وأن الوحدة بالتالي شرط لمواجهة مشروع الهيمنة الغربي.

يقول الدكتور فتحي الشقاقي في كتابه «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» من منشورات المختار الإسلامي ص ١٥.

«منذ سقوط النظام السياسي المتمثل في دولة الخلافة آخر الدول الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٤، والوطن الإسلامي يمر بموجات متتالية من النكبات والكوارث، التي مكنت للنفوذ والهيمنة الغربية من الاستمرار والحضور العنيف، وربما كانت الدولة العلمانية اللقيطة التي أفرزها المشروع الاستعماري الحديث أحد أهم أدوات الغرب في هذا الحضور، فعن طريقها تم تكريس واقع التجزئة الإقليمية في مقابل الأمة الواحدة والوطن الواحد على مدى ثلاثة عشر قرنا، ثم تكريس مناهج التغريب وآثارها التدميرية

في مقابل التوحيد ومنهج الإسلام طريق الحق والسلام والكرامة، كما تم في ظل ذلك تنفيذ أهم أهداف الهجمات الغربية، وأكثرها خطورة حين تم إفراز الدولة العبرية في القلب من الوطن الإسلامي».

ولتحليل مضمون ما قاله الدكتور فتحي الشقاقي في هذا الصدد نجده قد ربط بين مشروع الهيمنة الغربي الاستعماري، وبين تكريس واقع التجزئة والإقليمية ثم إفراز دولة إسرائيل، وتكريس التغريب الفكري والثقافي، ولا شك أن هذه أمور مترابطة بل هي تمثل منظومة سياسية واحدة استخدمها الغرب، فالتجزئ والاستعمار والهيمنة الغربية والتغريب وإسرائيل، كلها حلقات في نفس السلسلة، وبالتالي لمواجهة هذا التحدي فإن هناك التوحيد ومنهج الإسلام ورفض الدولة العلمانية اللقيطة والجهاد لتحرير فلسطين والتصدي لحالة الاستلاب والتغريب التي يكرسها الغرب.

ويرصد الدكتور فتحي الشقاقي محاولات الغرب ومشروعه للهيمنة على العالم الإسلامي من خلال فكرة التجزئة والتفسيخ «فالغرب قد تحرك على عدة محاور لضرب الثورة الإسلامية في إيران بإثارة الأقليات القومية... ثم إثارة الفتنة بين السنة والشيعة» «الشيعة والسنة» نفس المرجع السابق ص ١٦.

ويضيف الدكتور فتحي الشقاقي «وإذا كانت كل المحاولات قد باءت بالفشل فإن المحاولة الأخيرة من إثارة الفتنة بين السنة والشيعة، قد حققت بعض النجاحات لأنها تتم خارج الأرض الإيرانية ويقودها طابور ضخم من وعاظ السلاطين الذين جندتهم الأنظمة الطاغوتية في هذه المؤامرة الصهيونية».

وهكذا يضع الدكتور فتحي الشقاقي يده على الجرح تماما ويحدد أن ضرب الوحدة الإسلامية من خلال الفتنة بين السنة والشيعة هدف ثابت لمشروع الهيمنة الغربي، بل وأيضا مؤامرة صهيونية تستهدف حماية إسرائيل وتكريس وجودها وتوسعها، لأن الوحدة طريق أكيد للقضاء على المشروع الإسرائيلي، وكذا مشروع الهيمنة الغربية. ولأن الدكتور فتحي الشقاقي يشفع القول بالعمل، فقد تصدى شخصيا، وكذا تياره الفكري والسياسي لهذه الفتنة، وكان

فكرا وممارسا نموذجا للدعوة إلى الوحدة وتحقيق شروطها، والدكتور فتحي الشقاقي السني حتى النخاع ـ تصدى بجرأة لتفنيد آراء وأفكار الغرب في الفتنة بين السنة والشيعة، واستطاع أن يرصد في كتابه الوحدوي الهام «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» عشرات الأدلة الشرعية التي تؤكد وحدة الأمة الإسلامية من شيعة وسنة، فالله واحد والرسول واحد والقرآن واحد، بل والوحدة بين الشيعة والسنة ضرورة للطرفين وليست فقط مسألة شرعية، فهي أيضا ضرورة استراتيجية لمواجهة مشروع الهيمنة الغربي الذي لا يفرق بين مسلم سني ومسلم شيعي، بل يريد ضرب الإسلام كدين وحضارة بكل تياراته الفكرية والسياسية لصالح مشروع التجزئة والدولة الإقليمية العلمانية التفسيخية.

ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن الفتنة والتفسيخ وإثارة النزاعات المذهبية يكون عادة مواكبا لفترات الانحطاط والهزيمة في تاريخنا، حيث سيادة التقليد والتعصب المقيت فتحولت المدارس الفكرية التي بناها الأئمة العظام إلى أحزاب يرهب كل منها الآخر، باستخدام سلاح التكفير حينا وإشعال نار الفتنة في البيوت حينا آخر «الشيعة والسنة» نفس المرجع السابق ص ١٨.

ويفند الدكتور فتحي الشقاقي حجج وترهات مدرسة الفتنة ورموزها ويعطي الدليل الشرعي والتاريخي على فساد هذه الحجج والآراء، ولا يقتصر الدكتور فتحي على ذلك بل يقدم عشرات الأدلة نقلا عن علماء الإسلام المحترمين ونقلا عن قيادات فكرية وحركية في جماعات الإسلام السياسي المعاصر والتي تؤكد كلها على وحدة الأمة، فهو ينقل ما يؤكد هذه الوحدة عن الحاجة زينب الغزالي والأستاذ عمر التلمساني، والأستاذ فتحي يكن، والأستاذ محمد علي الصفتاوي، وسالم البهنساوي، وعبد المتعال الجبري، والدكتور إسحق موسى الحسيني، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور صبحي الصالح، والدكتور عبد الكريم زيدان، والشيخ سعيد حوي والأستاذ أنور الجندي وغيرهم من القيادات الفكرية والسياسية للحركة الإسلامية المعاصرة.

كما اعتمد الدكتور فتحي الشقاقي لتأكيد الوحدة والقضاء على الفتنة على

دراسة تجربة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي شارك فيها شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمود شلتوت وغيرهم، وأن الإمام الشهيد حسن البنا قد شارك بنشاط في هذه التجربة لأنه كان يعمل جاهدا على التقريب بين المذاهب حتى لا يتخذ أعداء الإسلام الفرقة بين المذاهب منفذاً يعملون من خلاله على تمزيق الأمة.

وكذا يرصد الدكتور فتحي الشقاقي الآراء الهامة التي تؤكد على التوحيد في مواجهة التفسيخ التي قالها علماء كبار أمثال الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد الحميد سليم والشيخ محمد أبو زهرة والدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عبد الحليم محمود والأعظمي والمودودي، وكذا عدد من الكتاب والمفكرين الإسلاميين أمثال حسن أيوب وسميح عاطف الزين والدكتور عرفات عبدالحميد والدكتور علي سامي النشار، والدكتور محمد شريف والدكتور علي عبد الواحد وافي.

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي وبمجهود كبير استطاع أن يرصد آراء العلماء القدامى والعلماء والمفكرين وأساتذة الجامعة وقيادات الحركات الإسلامية المعاصرين للتأكيد على الوحدة.

ويعلق الدكتور فتحي الشقاقي على ذلك بقوله ص ٤١ «وبعد فهذا رأي البنا وشلتوت وأبو زهرة والغزالي والتلمساني وفتحي يكن وأنور الجندي وعبد الكريم زيدان والشكعة وخلاف والبهنساوي وسعيد حوي ووافي والأعظمي والمودودي وحسن أيوب ومشايخ الأزهر وغيرهم من أعلام المسلمين وقادتهم، فماذا تعني هذه الأصوات الغريبة التي نسمعها من وقت لآخر تدعو للتكفير وإشعال نار الفتنة وسكب المزيد من المرارة في الحلوق والمزيد من الحقد في الصدور، ماذا يريد رسل البغضاء والوقيعة من أوراقهم ومحاضراتهم غير أن يتسع الحريق، بينما سيف المستكبرين معلق فوق رقابنا، وفي وطن يحتله أربعة ملايين يهودي، ولا نجد فيه شيعيا واحدا ماذا يجدي جر المسلمين إلى هذا المسلسل الجهنمي إلا إلهاء الناس وجرهم بعيدا عن المشكلات

الحقيقية».

ولا شك أن ما قام به الدكتور فتحي الشقاقي من مجهود فكري وكذا مجهود حركي وسياسي في القضاء على فتنة التفريق بين المسلمين سنة وشيعة أمر من أهم الإنجازات الفكرية والسياسية والحركية للدكتور فتحي الشقاقي، وكان الدكتور فتحي الشقاقي بهذا الموقف نموذجا للمسلم المعاصر الذي يدرك تحديات اللحظة ويعطيها الإجابة الفكرية والسياسية الصحيحة استنادا إلى الأصول الإسلامية الثابتة.

وأذكر أنني شخصيا تناقشت مع الدكتور فتحي الشقاقي في مسألة السنة والشيعة، وقلت إن رأيي هو أن هناك بالفعل خلافات بين السنة والشيعة، وأن السني سيظل سنيا والشيعي سيظل شيعيا ولكن عوامل الوحدة ـ خاصة مع وجود التحديات- أكبر وينبغي الاعتراف بالخلاف والانطلاق إلى التعاون وهذا النمط من الوحدة واقعي وعملي ومفيد.

وإنني شخصيا أعترض على محاولات البعض تكفير الشيعة أو إخراجهم من زمرة المسلمين، فهذه محاولات أمريكية وإسرائيلية في ثياب وأقنعة مختلفة وبنفس القدر أرفض محاولات بعض القوى الشيعية للدعوى إلى التشيع بين صفوف السنة لأن هذا مدعاة للفتنة الكبير، وقد وافق الدكتور فتحي الشقاقي على ذلك تماما وقال لي إن الإمام الخوميني كان يستاء شخصيا كلما سمع عن محاولات البعض الدعوة إلى التشيع في صفوف السنة.

لم يقتصر الإسهام الفكري والحركي الوحدوي للدكتور فتحي الشقاقي على مسالة القضاء على الفتنة بين السنة والشيعة، بل تعداه إلى تقديم الإطار النظري الوحدوي الإسلامي، كما اهتم حركيا وسياسيا وفكريا بالحركات الإسلامية في العالم الإسلامي: في إيران والعراق وسوريا وفلسطين ومصر والأردن وتركيا والجزائر والسودان، كما أسهم في نشأة التجمعات الشعبية الإسلامية العالمية مثل المؤتمر الشعبي الإسلامي، والقيادة العالمية الإسلامية وحتى اللحظة الأخيرة من حياته كان يهتم بقضايا العالم الإسلامي في البوسنة والشيشان وأنجازيا وأذربيجان، كما اهتم بالأقليات الإسلامية في كل مكان في

العالم.

ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن إحدى مهمات دولة إسرائيل التي من أجلها دعمها الغرب « أنها حارس لنظام التجزئة » وهكذا يفهم الدكتور فتحي الشقاقي أن الوحدة مستهدفة من المشروع الغربي والإسرائيلي.

ويقول الدكتور فتحي الشقاقي « لابد من وضع مسألة الوحدة على ذروة جدول أولويات المفكرين والدعاة والعلماء والتنظيمات السياسية والدول ونقل ذلك إلى أرض الممارسة الفعلية ويستدعي هذا إعادة العمل بقاعدة الأمة التاريخية » تقديم الوحدة على العدل « إذ يجب أن نسير جميعا إلى خيار الوحدة مهما كان اعتقادنا بأن في ذلك الخيار بعض الهضم لحقنا فيما نراه ـ فكريا أو سياسيا أو ماديا ـ صوابا. ولا بد أن ينعكس هذا على إنهاء حالة الصراع والتدافع بين القوى والمنظمات وعلى تقليص حالة التشرذم السياسي، وقبل ذلك وبعده لابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية، إن هناك فروقا في هذه المرحلة في مستوى المعيشة بين بلد عربي أو إسلامي وبلد آخر، وكذلك في مستوى التعليم والخدمات، وإن هذا الأمر المؤقت والعابر في معظم الحالات لابد ألا يمنع حكومة ودولة وشعبا من اختيار الوحدة مع دولة وشعب آخر.

من ناحية أخرى لابد أن تلتزم قوى الأمة السياسية والشعبية بقاعدة أساسية، هي أنه في الوقت الذي لابد أن يكون فيه خيار الوحدة خيارا شعبيا، ألا يفرض بالقوة والعنف من القوي على الضعيف لما في ذلك من تقويض لقيم الوحدة ذاتها، وإلى جانب ذلك لابد من العمل ضد كل اتجاهات التجزئة، مهما كانت راية هذه الاتجاهات. وبشكل مماثل يجب العمل ضد إقامة أية كيانات جديدة منفصلة في المنطقة « الصحراء الغربية مثلا » مهما كان الموقف من القوى التي تدعو لذلك. إن الأطر الرسمية الحالية كالجامعة العربية ومؤسساتها والمؤتمر الإسلامي ومؤسساته، لابد أن ترى من زاوية إيجابية، وأن تستخدم لتقرير التضامن وإلزام دولها الأعضاء بميثاقها وقيمها، في الوقت نفسه الذي

يتم فيه تطويرها وإنجاز مشاريع وحدوية خارجها « فتحي الشقاقي - الاستقلال والتبعية في الحوض العربي الإسلامي مجلة منبر الشرق العدد ٨ - يوليو ١٩٩٣ » .

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي أولا يريد تثبيت حالة الواقع العربي والإسلامي وإيقاف التجزئة المستمرة ثم إعطاء الروح للبنى والمؤسسات ذات الطابع الوحدوي وتطويرها لتحقيق إنجاز أكبر ثم إنجاز مشاريع وحدوية خارج تلك البنى والمؤسسات.

وهذه بلا شك نظرة واقعية ومبدئية في نفس الوقت، ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى إدراك الدكتور فتحي الشقاقي أن الوحدة عمل جماهيري في المقام الأول فلابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية.

والوحدة عند فتحي الشقاقي ليست وحدة للأمة الإسلامية فقط، ولكنها أيضا دعوة للوحدة في كل عمل ومسار وحركة، فهو يؤمن بالوحدة حتى النخاع. ولأنه ابن بار من أبناء الحركة الإسلامية وأحد كبار مفكريها في القرن العشرين، فإن من الطبيعي أن يدعو فتحي الشقاقي إلى وحدة الحركة الإسلامية.

وفي هذا الصدد يقول فتحي الشقاقي في العدد ١٩من المختار الإسلامي يناير ١٩٨١ «إننا ندعو كل فصائل وقوى الحركة الإسلامية إلى الوحدة من خلال تصور واحد لا يتغير ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢] فلم تعد اللحظة التاريخية تحتمل هذا الانهيار وهذا التشرذم وهذا الغياب. لقد قضي محمد صلي الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاما حتى انتصر على قريش، فماذا أعددنا اليوم وأمامنا مليون قريش؟ إن وحدة الحركة الإسلامية مطلب في غاية الأهمية ليس كتكتيك مرحلي، بل كقضية استراتيجية، إذ لا جدوى من الحديث عن فعالية النشاط الإسلامي بدونها فهي تعني وحدة الإرادة الإسلامية ووحدة الوعي الإسلامي، ومن ثم وحدة الفعل والفعل الإيجابي على طريق الانتصار. وبها وحدها يصبح هذا الانهيار أحد صور التحول التريخي نحو ميلاد جديد ونحو أزمنة جديدة، ينحسر فيها الزبد

ويتنامى فيها المد الإسلامي الذي كان دوما ماكنا في الأرض.

ويضيف الشقاقي : ولكن الحديث عن الحركة سيبقى لغوا لا طائل تحته إن لم تستوعب جملة مفاهيم هامة منها:

ليس هناك معنى لحركة إسلامية لا يوجد فيها مكان للجهاد بمفهومه الشامل وبرنامج يحدد أولويات هذا الجهاد، بل ليس هناك معنى لحركة إسلامية لم تميز بعد أن حكومات الوطن الإسلامي هي نفسها تلك الوجوه القرشية القديمة، بل أشد سوءا فهي اختلفت ألوان أعلامها والنوتة الموسيقية لأناشيدها الوطنية.

يجب أن ترفض الحركة الإسلامية أي تحالفات تكتيكية أو غير مبدئية مع أي قوى سائدة وتقف مع الجماهير، القوى الحقيقية التي يجب تبني مطالبها وفضح أساليب خداعها والاعتراف بأن العزلة عنها لن تأتي إلا بمزيد من التخبط والإفلاس والانتحار السياسي.

يجب على الحركة الإسلامية أن تعي ما يحدث في الزمن الآتي من خلال رؤية تحليلية لمراكز القوة المؤثرة وأطراف الصراع، ثم تبحث عن كل هذا في التاريخ الذي ستبقي دراسته واستيعابه ملاذا آمنا لاستقرار المستقبل.

يجب أن تنظم هذه المفاهيم وغيرها من خلال برنامج متكامل للعمل يحمل رؤى واضحة الأبعاد والمعالم، ويحدد بصفة أساسية نقطة البدء والوسائل والأهداف وأولويات الجهاد، وبدون ذلك ستبقي ودوما كمن يحرث في البحر.

6

الباب السادس

زعماء الإصلاح الإسلامي



الإمام المجدد ابن تيمية

التجديد سنة من سنن الله تعالى، فخلايا الجسم الإنساني مثلا تتجدد باستمرار، ولولا هذا التجدد الخلوي لمات الإنسان ، وكل ما حول الإنسان يتجدد، ومن يرفض التجديد يرفض سنة الله تعالى في خلقه.

ولكن فرق كبير جدًا بين التجديد والتخريب، ذلك أن خلايا الإنسان الحية التي تتجدد باستمرار تتجدد من داخل الجسم نفسه، الإنسان يستخدم الطعام والشراب ويهضمه ويتمثله ويجدد به خلاياه، ويظل الإنسان هو الإنسان، ولكن إذا حدث وقطع إنسان جزء من جسمه ولصق بدلا منه جزءًا من الخارج فلربما مات الإنسان، ولم يكن هذا تجديدًا بل تخريبًا.

والتجديد الإسلامي مطلوب، ولكن من داخل الجسم الإسلامي واستنادا إلى أصوله الثابتة « الكتاب والسنة»، أما تنحية الكتاب والسنة جانبًا بدعوى التجديد، فهذا هو التخريب بعينه وهو يؤدي إلى ضياع الإسلام والمسلمين وليس تجديد حياتهم أو تحقيق نهضتهم.

وإذا كان في التجديد عن طريق إهدار الأصول الثابتة في ديننا هم دعاة تخريب في الحقيقة، فإن دعاة الجمود على اجتهاد معين أو موقف فكري معين هم في الحقيقة مغفلون لم يفهموا الإسلام ويسيئون إليه قطعًا، وإن كان لهم بعض الفائدة في مرحلة معينة إلا أن موقفهم في النهاية يعبر عن حالة لا تصلح للاستمرار، ومواجهة التحديات.

وفي أحوالنا المعاصرة فإن للجمود فائدته التي لا تنكر ذلك أننا في حالة هزيمة حضارية، وهناك تآمر غربي صليبي يهودي لطمس معالم هويتنا الحضارية وإخضاعنا للقيم الحضارية الغربية، ولا شك أن استمرارنا كأمة مرتبط برفض الخضوع والاندماج في الثقافة الغربية والتأكيد على هويتنا الحضارية والثقافية، وإذا كان الدين هو الحضارة، فإن التمسك بالدين هو الشرط الأول لاستمرارنا وعدم إبادتنا وضياعنا نحن الآن نواجه تحديا مزدوجًا، فنحن ولا شك في حالة هزيمة سياسية وعسكرية واقتصادية والمراد القضاء على عوامل الاستمرار فينا أي أن تتحول تلك الهزيمة إلى نهاية كاملة لنا، وفي هذا الصدد فإن عملاء الغرب والمروجون له عن جهل أو سوء نية أو عمالة يدعوننا إلى الدخول في قيم الحضارة الغربية بدعوى أن هناك ما يسمي بالثقافة العالمية والقيم الكوكبية « نسبة إلى كوكب الأرض » وأن العالم أصبح قرية إلكترونية صغيرة بحكم تقدم وسائل الاتصال، الذين يبشروننا بهذا -بالكوكبية والعالمية والقيم الحضارية الواحدة يكذبون علينا-، بل يريدون لنا ابتلاع وقبول الدخول في الدين والحضارة الغربية تحت غطاء الكوكبية ويتناسون أن تقدم وسائل الاتصال هي بذاتها تدعونا للتأكيد على خصوصيتنا الثقافية والحضارية، والغرب الذي حملهم مهمة التبشير يدرك هو أنهم كاذبون ويدرك أنه يدعوهم للكذب علينا، فمع كل ما يروجون له عن الكوكبية والعالمية والقيم الحضارية الواحدة فإن علماء الغرب يستفيدون ويدرسون ويعرفون أن لكل حضارة خصائصها وأن العالم عرف وسوف يعرف العديد من الحضارات وأن القرن القادم هو قرن الصراع الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية كما يقرر البروفيسور الأمريكي صمويل هيتنجتون أستاذ العلوم السياسية ومدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفارد، وقد نشر مقالا تحت عنوان « صدام الحضارات » خلص فيه إلى الصدام بين الحضارات، وأن أقواها والمرشحة للصمود أمام الحضارة الغربية هي الحضارة الإسلامية.

نحن إذًا أمام حالة من الغزو الثقافي والحضاري والقيمي وبما أن الدين هو الحضارة كما يقرر صمويل هينتجتون بنفسه، فإن الدين الإسلامي مستهدف،

وبالطبع نحن أمام عدد من ردود الفعل تجاه هذا الغزو الحضاري، فهناك من يستطيع أن يستجيب ويستوعب الحضارة الغربية ويخضع لها، ولا شك أن هذا موصوف بالمرونة والاستنارة لديهم. وبالطبع هذا يعمل ويدعم المشروع الغربي ، وهناك الجامدون الذين يرفضون كل جديد وبالتالي يرفضون القيم الغربية بالطبع ومتمسكون بصورة حرفية وجامدة بالتراث، ولا شك أن هؤلاء فائدتهم، فالجمود هنا أفضل من الاستجابة والخضوع، وربما كان أروع ما في الصخرة ثباتها، وهذا الجمود سيكون عائقا أمام المشروع الغربي، ومن الأفضل أن أكون مثل الصخرة الجامدة، من أن أكون مرنًا ومستجيبًا للخضوع والذوبان، ولكن علينا أن ندرك دائمًا أن هذا الجمود الذي يتصدى للخضوع للمشروع الغربي يصلح كحالة مؤقتة وإن استمراره من قبيل المستحيل، بل هو بالنظر إلى المستقبل يعبر عن حالة دنيا صورية ستنقرض حتمًا، أو يعبر عن صحوة الموت الحضاري.

أما الموقف الثالث فهو موقف التجديد، انطلاقا من داخل الجسم الثقافي والحضاري الإسلامي، أي التجديد والاجتهاد من خلال الثوابت وهي« الكتاب والسنة »، وهذا الجهد والجهاد يكون بمواجهة التحدي والإبداع والابتكار على قاعدة التمسك بالكتاب والسنة وعلى قاعدة الهوية الإسلامية، وهذا الطريق الثالث القادر وحده على الاستمرار في معركة الحياة المتجددة، وهو وحده القادر على مواجهة التحدي الثقافي الغربي ورفضه رفضا إيجابيا، ولكن ما شأن ابن تيمية بكل هذا، إن له شأن وأي شأن، فإن لابن تيمية أثر كبير في التجديد الإسلامي من خلال الثوابت في عصره، والبعض في عصرنا يتخذون منه إماما وهو مستحق ولكنهم أخطأوا فهمه.

وإذا كان فريق يتخذون من ابن تيمية إماما فإن ابن تيمية أيضًا له تأثير كبير على مجمل حركة الصحوة الإسلامية التي تقود حركة المواجهة ضد التحديات وهو يستحق أن يكون له هذا التأثير لأكثر من سبب، هو عالم مجاهد، وهو فقيه عظيم وباحث منقب، وهو صاحب عقل وجهد كبيرين في مجالات المعرفة

وحقول العلوم الإسلامية، وهو الذكي الألمعي والكاتب العبقري والخطيب المفوه، وهو العظيم في نفسه ومواقفه على حد سواء، وهو أكثر من هذا، واجه ظروفًا ومجتمعًا يحمل كثيرًا من أوجه التشابه مع ظروف عصرنا، وقد تصدي لهذه الظروف وقدم الاجتهادات المكافئة لها، فكان لهذه الاجتهادات والآراء والآثار العلمية أهميتها في ظروفنا المعاصرة بسبب أوجه التشابه بين ما واجهه ابن تيمية وما نواجهه الآن.

ولكن الفهم الصحيح لابن تيمية يقتضي فهم عوامل التشابه بين عصرنا وعصره، وكذا عوامل الاختلاف.

***

ظهر نجم ابن تيمية في الثلث الأخير من القرن السابع الهجري والثلث الأول من القرن الثامن الهجري، وفي هذا الوقت تعرض العالم الإسلامي للتحديات الخارجية الضخمة متمثلة في الهجوم الصليبي والغارة التتارية، وكانت دولة الإسلام قد انحلت إلى دويلات فناصبت بعضها بعضاً العداء وتعددت الأسر الحاكمة واضطربت الأمور وكثر التنازع والتنافس بين طلاب الملك.

ومن ناحية أخري نزعت الصوفية إلى الدعوة إلى ترك الأخذ بالأسباب والعزلة عن الدنيا، أي التخلي عن مواجهة التحدي، في حين نزعت عدد من الفرق الدينية وبعض الحكام إلى الاتصال بالأعداء وموالاتهم على حساب المسلمين.

وهذا كله وأكثر منه نعاني منه الآن، وهكذا فإن جهد وجهاد واجتهادات ابن تيمية تصلح لمواجهة حالتنا المعاصرة، بل تعتبر زادا هاما لكل من يريد الإصلاح الإسلامي حاليا، فما أحوجنا لعلماء مجاهدين يحملون السيف مثل ابن تيمية دفاعًا عن البلاد، وما أحوجنا لمن يحث الناس على الجهاد والقتال ويضغط على الحكام لمواجهة جيوش الغزاة، وما أحوجنا لمن يهاجم العزلة وترك الجهاد والانصراف عن التحدي مثلما فعل ابن تيمية في حملته على الصوفية، وما أحوجنا على من يدحض حجج النصارى « التبشير » مثلما فعل ابن تيمية في كتابه « القول الصحيح فيمن بدل دين المسيح »، وما أحوجنا إلى علماء يعرون مراقف الحكام والفرق التي تمالئ الأعداء « الغرب وإسرائيل ».

ولكن هناك أيضًا فروق نوعية وكمية بين عصر ابن تيمية وعصرنا، وإذا كان ابن تيمية قد قدم الجهد والجهاد والاجتهاد المكافئ لعصره، فإن التقليد الصحيح له يكون بتقديم الجهد والجهاد والاجتهاد المكافئ لهذا العصر.

كان عصر ابن تيمية عصر تميز بالانقسام في دول العالم الإسلامي، ولكن رغم هذه الانقسامات كانت الخلافة قائمة رغم تحولها إلى شيء شكلي، ولكن وجود الخلافة رمز وحدة المسلمين فارق نوعي كبير عن عصرنا الذي سقطت فيه الخلافة شكلا ومضمونًا، ويكفي أن نعرف أن أيا من حكام المسلمين في ذلك الوقت ما كان يجرؤ على الزعم بإنكار الخلافة، أو الدعوة إلى فكرة الوطن أو الدولة المستقلة على أساس جنسي أو عرقي أو جغرافي، بل كان كل يزعم أنه يعمل تحت راية الخلافة أو يعمل على استعادة مكانتها ولو كان كاذبًا والجميع يزعم الحرص على وحدة المسلمين، صحيح أنه كان مجرد زعم، ولكن فرق كبير بين سقوط الخلافة عمليا وبين سقوطها شكلا ومضمونًا، بل وعداء فكرتها ذاتها ومعاقبة من يجرؤ حتى على الدعوة إلى وحدة المسلمين.

كان في عصر ابن تيمية التحدي الصليبي والتتاري، ولكن هذا التحدي كان عسكريا فقط، لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا متفوقين علميًا وحضاريًا على الصليبيين والتتار، أي كانت لهم السيادة الحضارية والثقافية رغم وجود التحدي العسكري، ولم يكن الغرب الصليبي قد تفوق علينا علميًا كما هو الآن، أي أن التحدي لم يكن حضاريا شاملا كما هو حالنا الآن، لم يكن المسلمين قد وصلوا إلى حالة هزيمة حضارية وتخلف علمي كما هو حالنا الآن، ولا شك إن إدراك هذه المسألة يعني إدراك ضرورة تقديم اجتهاد ديني مكافئ لذلك الظرف ومستوعبًا له وآخذًا له في الاعتبار.

هاجم ابن تيمية فرق الشيعة التي مالأت الأعداء وتحالفت معهم، أي كان ابن تيمية مستجيبًا واعيًا لظروف عصره حين هاجم فرق الشيعة الموالية للأعداء، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد أبو زهرة في كتابه عن ابن تيمية صفحة ٩-: هاجم ابن تيمية الشيعة هجومًا عنيفًا بقلبه وقلمه ولسانه لأنه

حسبهم مالئوا خصوم الإسلام من الصليبيين على المسلمين وكشفوا عورات المؤمنين وحسبهم مالئوا التتار على السكان الآمنين .

سقطت إذن بعض فرق الشيعة في الخيانة في عصر ابن تيمية وبسبب خيانة هؤلاء تعرضوا لهجوم ابن تيمية واستحقوا هذا الهجوم، ونلاحظ في هذا الصدد أن ابن تيمية اهتم بالهجوم أساسا على فرق الشيعة " الباطنية والحاكمية والنصيرية ".

***

على أن أهم ملامح ابن تيمية الفكرية هي كونه مجددًا رافضًا للتقليد حتى أنه أفتي مخالفًا لكل الأئمة الكبار في بعض المسائل، بل ومخالفًا لشيخه وصاحب المذهب الذي ينتمي هو إليه " المذهب الحنبلي " في بعض المسائل، وخرج أيضا على العقائد الرسمية في بعض القضايا، ودخل السجن بسبب هذا وذاك.

ففي العقائد – مثلا، وكما يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن ابن تيمية ص٨ : تكلم ابن تيمية في مسائل من علم الكلام غير متقيد إلا بالكتاب والسنة ومناهج الصحابة وكبار التابعين وبحكم العقل المستقيم، فلم يتقيد برأي من جاء بعدهم أيا كانت مكانته العلمية ومنزلته التاريخية فخالف بذلك أبا الحسن الأشعري، ومكانته بين العلماء وأتباعه كثيرون، بل هم الجمهرة العظمى من العلماء في عصره، ورمي الأشاعرة والماتريدية بأنهم في مسائل الإرادة جهمية.

وفي الفقه، وكما يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن ابن تيمية ص ١٥- : إن له اختيارات في الفقه، وصل فيها إلى نتائج تخالف ما عليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة، بما فيهم أحمد بن حنبل الذي كان ابن تيمية على مذهبه، كفتواه في الحلف بالطلاق وعدم إيقاع الطلاق بها، وكفتواه بأن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث أو في مجلس واحد يقع طلقة واحدة، فإنه في هذه المسائل وأشياء معها اجتاز دائرة الاختيار من المذاهب الأربعة إلى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة غير ملتفت إلى ما وراء ذلك.

وإذا كان ابن تيمية قد اجتاز دائرة الاختيار من المذاهب الأربعة، فإن على أتباع ابن تيمية أن يجتازوا دائرة الاختيار من مذهب ابن تيمية، وأن يجددوا في

علومهم مثله باتجاه الكتاب والسنة.

كان اجتهاد ابن تيمية اجتهادا صحيحًا على أوضاع القرن السابع وعلى مقلدي ابن تيمية أن يقدموا اجتهادا على أوضاع القرن الخامس عشر وألا يقفوا عند ابن تيمية بشرط امتلاك التخصص الدقيق والعقل الكبير، لأن للاجتهاد والإفتاء شروط أولها التخصص، وليست لكل من هب ودب طبعًا.

نشأته وآثاره

هو أحمد تقي الدين أبو العباس ابن تيمية، ولد في عام ٦٦١هـ بمدينة حران حيث ظل بها سبع سنوات، ثم هاجر منها إلى دمشق مع أهله عندما هاجم التتار مدينة حران، كانت أسرته أسرة علم وفقه فكل من أبيه وجده من علماء الفقه الحنبلي.

حفظ ابن تيمية القرآن مبكرًا كما حفظ كتب الحديث حيث كان يتمتع بذاكرة قوية لفتت الانتباه، كما درس علوم الفقه والتفسير والحديث واللغة والكلام ودرس إلى جانب ذلك الفلسفة والرياضة، كما اطلع على كتب الصوفية والشيعة والنصارى وغيرها، بل يكاد يكون قد اطلع على أغلب علوم عصره.

تولي ابن تيمية التدريس في الجامع الكبير بدمشق خلفًا لوالده سنة ٦٨٢هـ ، شارك ابن تيمية في القتال دائمًا ضد التتار أو الموالين لأعداء البلاد ومثيري الفتن، وكان شجاعًا قويا، أي أنه جمع بين العلم والقتال بالسيف، ولم يحل الاهتمام بالعلوم دون مشاركته بنفسه في القتال، فكان رب السيف والقلم.

تنقل ابن تيمية بين مصر والشام حيث عاش في مصر عدة سنوات، كما دخل السجن عدة مرات في كل من مصر والشام، ومات ابن تيمية محبوسًا في الشام سنة ٧٢٨ هـ .

ترك ابن تيمية ثروة علمية كبيرة في عشرات المجلدات التي صنفها في الفقه والكلام والتفسير والأصول أو في مناظره النصارى والصوفية أو فرق الشيعة.

ويعد ابن القيم الجوزية من أهم تلاميذ ابن تيمية .

السيد عمر مكرم ومناهضة الاستعمار والاستبداد

نشأته وحياته

السيد عمر مكرم هو نقيب الأشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨، ولد بأسيوط بالوجه القبلي ونشأ بها وهو من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان السيد عمر مكرم شجاعًا مقدامًا، رفيع الكلمة واسع النفوذ يكره الظلم ويدافع عن حقوق الشعب، ويرفض الخضوع، عالى النفس كريمًا، ولذا اعتبره الشعب المصري في ذلك الوقت زعيمه الأول.

عندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر، قام السيد عمر مكرم بتنظيم المقاومة الشعبية وقاد المتطوعين للقتال ضد الفرنسيين في موقعة الأهرام عندما أراد الفرنسيون دخول القاهرة، فلما سقطت القاهرة في أيدي الفرنسيين فضل الرحيل إلى الشام على أن يبقى في مصر تحت سلطة الفرنسيين، رغم أن الفرنسيين عرضوا عليه عضوية الديوان فرفضها.

ثم عاد إلى القاهرة في عام ١٨٠٠مــ حيث شارك في ثورتها الثانية، ثم هرب إلى خارج مصر مرة أخرى بعد هزيمة ثورة القاهرة الثانية وقامت السلطات الفرنسية بمصادرة أملاكه جزاءً على مشاركته في الثورة.

وبعد رحيل الفرنسيين عاد مرة أخرى إلى مصر حيث نظم الثورة المصرية على الاستبداد ضد الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ م وفي عام ١٨٠٧، وعندما جاءت حملة

فريزر الإنجليزية إلى مصر قام السيد عمر مكرم بتنظيم المقاومة الشعبية ونجح في هزيمة الإنجليز في رشيد، وخروجهم من مصر رغم غياب والي مصر في ذلك الوقت محمد علي لانشغاله بمحاربة المماليك في الصعيد.

وعندما تمكن محمد علي من السيطرة على الحكم في مصر قام بالتخلص من زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم فحدد إقامته بمدينة دمياط سنة ١٨٠٩، ثم مدينة طنطا سنة ١٨٢٢ حيث توفي بها.

عمر مكرم مجاهداً

تميزت حياة السيد عمر مكرم بالجهاد المستمر ضد الاحتلال الأجنبي، والنضال الدؤوب ضد استبداد الولاة وظلمهم، وكان ينطلق في هذا وذاك من وعي إسلامي عميق وفذ وإيجابي.

ففي إطار الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي نجد أنه عندما اقترب الفرنسيون من القاهرة سنة ١٧٩٨ م قام السيد عمر مكرم بتعبئة الجماهير للمشاركة في القتال إلى جانب الجيش النظامي « جيش المماليك في ذلك الوقت، وفي هذا الصدد يقول الجبرتي « وصعد السيد عمر مكرم أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقًا كبيرًا أسمته العامة البيرق النبوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة » ويعلق الرافعي على ذلك بقوله:«وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام بعد هجمات الغازي المغير والسير في طليعة المتطوعين إلى القتال ».

وعندما سقطت القاهرة بأيدي الفرنسيين، عرض عليه الفرنسيون عضوية الديوان الأول إلا أنه رفض ذلك ، بل فضل الهروب من مصر كلها حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيس.

ثم عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة وتظاهر بالاعتزال في بيته ولكنه كان يعد العدة مع عدد من علماء الأزهر وزعماء الشعب لثورة كبري ضد الاحتلال الفرنسي تلك الثورة التي اندلعت في عام ١٨٠٠م.. فيما يعرف بثورة القاهرة الثانية، وكان السيد عمر مكرم من زعماء تلك الثورة، فلما خمدت الثورة اضطر

إلى الهروب مرة أخرى خارج مصر حتى لا يقع في قبضة الفرنسيين الذين عرفوا أنه أحد زعماء الثورة وقاموا بمصادرة أملاكه بعد أن أفلت هو من أيديهم، وظل السيد عمر مكرم خارج مصر حتى رحيل الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م.

وفي إطار جهاد السيد عمر مكرم ضد الاحتلال الأجنبي، نجد أن السيد عمر مكرم قاد المقاومة الشعبية ضد حملة فريزر الإنجليزية ١٨٠٧م، تلك المقاومة التي نجحت في هزيمة فريزر في الحماد ورشيد مما اضطر فريزر على الجلاء عن مصر، وفي هذا الصدد يقول الجبرتي :«نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الإنجليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس »، ويعلق الرافعي على ذلك بقوله :«فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب، فإنك لتري هذا الموقف مماثلا لموقفه عندما دعا الشعب على التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين الى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمان، فعلمهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من علمهم اليوم».

ولعل الرافعي قد وضع يده على النقطة الحرجة في مسألة الكفاح ضد الاستعمار والنجاح في هزيمته وحماية بلادنا منه، فإذا كان الشعب المصري قد نجح مرتين في اقل من عشر سنوات في هزيمة محتلين استعماريين هما الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م، والحملة الإنجليزية المعروفة بحملة فريزر ١٨٠٧ م فإن ذلك يرجع إلى قيام علماء الأزهر بواجبهم في قيادة الشعب للجهاد والقتال والدفاع عن الزمان، يرجع إلى وجود العلاقة الصحيحة بين الأمة، وقيام الأزهر بواجبه كقيادة طبيعية للأمة، ولكن عندما قام محمد علي ومن بعده بفصم هذه العلاقة والقضاء على دور العلماء وإحلال النخب المغتربة محل العلماء في قيادة الأمة سقطت مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م.

وفي إطار نضال السيد عمر مكرم ضد الاستبداد والمظالم، نجد أنه قاد النضال الشعبي ضد مظالم الأمراء المماليك عام ١٨٠٤م، وكذا ضد مظالم الوالي

خورشيد باشا سنة ١٨٠٥. ففي يوم ٢ مايو سنة ١٨٠٥ م بدأت تلك الثورة، حيث عمت الثورة أنحاء القاهرة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها. واحتشدت الجماهير في الشوارع والميادين يضجون ويصخبون. وبدأت المفاوضات مع الوالي للرجوع عن تصرفاته الظالمة فيما يخص الضرائب ومعاملة الأهالي، ولكن هذه المفاوضات فشلت. فطالبت الجماهير بخلع الوالي، وقام السيد عمر مكرم وعدد من زعماء الشعب برفع الأمر إلى المحكمة الكبرى وسلم الزعماء صورة من مظالمهم على المحكمة وهي ألا تفرض ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء والأعيان، وأن يجلو الجند عن القاهرة وألا يسمح بدخول أي جندي إلى المدينة حاملا سلاحه.

وفي يوم ١٣ مايو قرر الزعماء في دار الحكمة عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي بدلا منه بعد أن أخذوا عليه شرطًا : بأن يسير بالعدل ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم وإلا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء وأنه متي خالف الشروط عزلوه.

وفي يوم ١٦ مايو ١٨٠٥ صدرت فتاوى شرعية من المحكمة على صورة سؤال وجواب بشرعية عزل الوالي خورشيد باشا، وانتهى الأمر بعزل الوالي خورشيد باشا، ونجاح الثورة الشعبية.

وإذا تأملنا هذه الأحداث، نجد أن هذه ثورة شعبية ضد الاستبداد استندت إلى فتوى شرعية من المحكمة، وأنها قامت بتولية محمد علي حاكمًا على مصر من خلال معاهدة وشروط بين محمد علي « الوالي الجديد » وبين زعماء الشعب، وأقرت مبدأ الشورى، وعدم اتخاذ قرار بدون الرجوع لممثلي الشعب، وهم العلماء والأعيان، ولو سارت الأمور في مسارها الصحيح بعد ذلك لكان إيذانًا بروح من الحرية والشورى واحترام إرادة الشعب وخياراته يسود مصر، ولكن محمد علي التف على هذا الأمر وأفرغه من مضمونه فيما بعد.

وكان السيد عمر مكرم هو زعيم هذه الحركة الشعبية ومحركها، وفي ذلك يقول الرافعي :«كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكل منهم نصيبه ومنزلته، ولكن من الإنصاف أن يعرف

للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ».

وإذا كان السيد عمر مكرم مجاهدًا ضد الاستعمار، مناضلا ضد الاستبداد فإنه في نفس الوقت كان يملك وعيًا إسلاميًا فذًا ومتقدمًا، ويظهر ذلك من خلال حواره مع مستشار الوالي خورشيد باشا، ووفقًا لرواية الرافعي... فقد التقى السيد عمر مكرم يومًا بعمر بك مستشار خورشيد باشا فوقع بينهما جدال..

فكان مما قاله عمر بك: كيف تنزلون من ولاه السلطان عليكم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ !!

فأجابه السيد مكرم : أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم حتى السلطان والخليفة إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه.

فقال عمر بك: وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟

فقال السيد مكرم: قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة.

سليمان الحلبي
الأب الشرعى للحركة الطلابية

سليمان الحلبي هو شاب سوري ولد بمدينة حلب، وكان أبوه الحاج محمد أمين يعمل بالتجارة، التحق سليمان الحلبي بالأزهر ودرس به عدة سنوات ثم رحل عن القاهرة، ولما علم بقيام الفرنسيين بغزو مصر، وأن كليبر قد اقتحم الأزهر بالخيول وعبث بالكتب الدينية سارت في نفسه الغيرة الإسلامية وقرر اغتيال الجنرال كليبر الذي عمل قائدًا للحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون عن مصر إلى فرنسا.

أعد سليمان الحلبي عدته وسافر إلى القاهرة التي يعرف دروبها وشوارعها جيدًا من قبل، ونزل برواق الشوام في الأزهر وانتظم في سلك التعليم بالأزهر، ثم شكل خلية طلابية من أربعة من الطلبة هم محمد الغزي وأحمد الوالي وعبدالله الغزي وعبد القادر الغزي، ومن خلال هذه الخلية الطلابية قام سليمان الحلبي ورفاقه بمراقبة الجنرال كليبر جيدًا ومعرفة تحركاته ومواعيده، وتم إعداد الخطة لاغتيال كليبر.

وفي يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ قام سليمان الحلبي بالتنكر في زي متسول وطعن كليبر بخنجره عدة طعنات في حديقة دار القيادة العامة الفرنسية بالأزبكية مما أدى إلى مصرع كليبر.

وقد تمت محاكمة سليمان الحلبي ورفاقه الأربعة وصدرت الأحكام بإعدام سليمان الحلبي بطريقة بشعة « على الخازوق » بعد حرق يده، وترك جثته تأكلها الطير، وإعدام رفاقه الأربعة بقطع رؤوسهم وإحراق جثتهم بعد الإعدام، وقد تم تنفيذ الحكم في سليمان الحلبي وثلاثة من رفاقه، أما الرابع

كان قد هرب وهو عبد القادر الغزي.

وهكذا فنحن أمام خلية طلابية انضمت إلى الثورة، وخططت ونفذت عملية من أخطر عمليات المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وهذه الخلية الطلابية هي جزء من حركة طلابية أزهرية شاركت في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تطورت هذه الحركة الطلابية فيما بعد فأصبح هناك حركة طلابية مصرية في الأزهر وغيره من الجامعات والمدارس المصرية، ولكن يبقى أن سليمان الحلبي هو الأب الشرعي للحركة الطلابية المصرية، وهذه الخلية الأزهرية هي باكورة العمل الطلابي المصري عمومًا، ولعل الحركة الطلابية المصرية قد أخذت تقاليدها في الكفاح ضد الاستعمار من هذه الخلية الأزهرية التي نفذت اغتيال كليبر.

السيد أحمد المحروقي الرأسمالية الوطنية

إذا حاولنا أن نتتبع أحداث الصراع بيننا وبين الغرب وخاصة في المائتي سنة الأخيرة، نكتشف حقيقة مذهلة وهي أن الغرب لا يريد لنا النهضة،- أي نهضة -على أساس إسلامي أو حتى على أساس الثقافة والأيديولوجية الغربية ذاتها وبالأسلوب والنمط الحضاري الغربي ذاته.

وإذا كان مفهومًا أن الغرب لا يريد لنا نهضة على الأساس الإسلامي بسبب التعصب الصليبي، وبسبب الصراع التقليدي بين الحضارة الإسلامية التي تنحاز إلى الإنسان وترفع شأنه وتنحاز إلى الحق والعدل والحرية، وبين الحضارة الأوروبية التي قامت على القهر والعنف والنهب وتدمير القيم، وهي حضارة إغريقية وثنية ذات قشره مسيحية، فإن من العجيب أن الغرب لا يريد لنا حتى النهضة في إطار حضارته هو وثقافته هو أيضًا.

وإذا كان هناك نقطة مبدئية وهي عدم إمكان قيام نهضة في بلادنا على غير الأساس الإسلامي لأن الإسلام هو الأيديولوجية الوحيدة القادرة على تعبئة الجماهير من أجل النهضة، فإنه حتى وبصرف النظر عن هذا فإن الغرب لا يريد لنا أي نهضة على أي أساس كان.

عمل الغرب جاهدًا على ضرب الإسلام والعالم الإسلامي، وواجه العالم الإسلامي تحديات خطيرة في هذا الشأن لم تنقطع يومًا. فالحروب الصليبية التي بدأت في

المشرق الإسلامي سنة ١٠٩٨ م واستمرت قرنين كاملين وانتهت بهزيمة الصليبيين لم تنقطع في الحقيقة، بل استمرت ألف عام في بلاد المغرب العربي تونس والجزائر والمغرب، ولم تنقطع يومًا، ثم عادت من جديد مع الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨، ثم استمرت إلى يومنا هذا.

والغرب يخاف وحدة المسلمين، ولكن حتى في إطار التجزئة فإنه يكيد لبلاد الإسلام المجزأة والمفتتة، ويزيد من تفتيتها رغم أنها تقوم الآن على أساس الإقليمية وليس الإسلامية، انظر مثلا المؤامرات الاستعمارية في جنوب السودان لإضعاف السودان وخنق مصر في منابع النيل.

وإذا حاولنا أن تأخذ مصر كنموذج، فإننا نجد أن الاستعمار دائمًا كان يشجع الاستبداد ويحرض عليه، فإنجلترا وفرنسا مثلا تتقدمان بالمذكرات للخديوي توفيق بمصادرة الحريات والإمساك بكل السلطات في يده وتعده بالدعم الكامل في هذا الإطار في مذكرة مشتركة سنة ١٨٨١، ولما وجدت أن الثورة العرابية قاب قوسين أو أدنى من النصر، تلاشت التناقضات الثانوية بين فرنسا وإنجلترا وضحت فرنسا بمصالحها في مصر وتركت الكعكة كلها لإنجلترا في مقابل ذبح الثورة العرابية، وما أن تحتل إنجلترا القاهرة حتى تلغي مجلس النواب وتصادر الصحف وتمنع حرية القول والاجتماع، وأي شكل من أشكال الحرية

وعلى مستوى النهضة الصناعية، فإنه بعد نجاح حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الفرنسيين ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م، وضد الإنجليز ١٨٠٧م وضد الاستبداد ١٨٠٥ـ فإن من الطبيعي أن تكون هناك طاقة جبارة تتجه للتصنيع خاصة بعد صدمة الاحتكاك مع فرنسا، وكانت تلك النهضة تستند إلى أسس راسخة فالذين صنعوا المدافع والقذائف في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين سنة ١٨٠٠م، كانوا قادرين على خوض غمار التصنيع، وكانت هناك نهضة علمية في الأزهر نفسه تسمح بهذا، بل كان التلاميذ من أوروبا يأتون لتلقي علوم الرياضة والفلك والكيمياء على يد علماء الأزهر ويوميات الجبرتي مليئة بترجمات لعلماء كانوا يدرسون الهندسة والفلك والكيمياء للتلاميذ المسلمين أو الأوروبيين على حد سواء، بل وكان التمويل موجودًا إذ كان التمويل شرطًا أساسيًا للتصنيع، فمثلا السيد أحمد

المحروقي الذي كان واسع الثراء ووصلت تجارته إلى البلاد العربية والإسلامية والأوروبية كان رجلا وطنيًا وبرغم أنه كان كبير التجار « شاه بندر التجار » فإنه شارك في الكفاح الوطني ضد الفرنسيين، وأنفق أمواله على حركة المقاومة وتعرض لبطش الفرنسيين ومصادرة أمواله بسبب مشاركته ودعمه للمقاومة، أي أنه كان وطنيًا، ومن يشارك في الثورة بديهي أنه لن يبخل في تمويل النهضة الصناعية، بل وكان هناك العديد من الصناعات كالغزل والنسيج والنحاس والحدادة والصباغة، وكانت مصر مملوءة بالحرفيين وكانت محصلة هذا كله مع حالة الشعب المعنوية المرتفعة، ومع الطاقة المتولدة عن نجاح الحركة الشعبية في هزيمة دولتين أوروبيتين في أقل من عشر سنوات ١٧٩٨ ـ ١٨٠٧ م أن تظهر نهضة صناعية، ولكن الغرب كان متربصًا، وكان لابد من وسيلة شيطانية لتبديد تلك الطاقة فجاء محمد علي واحتكر الصناعة والتجارة والزراعة ودمر الحرفيين والصناع ودمر كل مراكز الصناعة الشعبية في مقابل إقامة صناعة متقدمة ترتبط بالجيش وبه شخصيًا، وتركه الغرب يفعل ذلك بل ساعده على أساس أن ذلك كله مادام مرتبطًا بشخص ونظام فيمكن تدميره بسهوله مع تدمير الشخص والنظام، وقد كان فاستنفد محمد علي قوة مصر في الصدام مع الخلافة وبعد أداء المهمة تم ضربه واجتمعت أوروبا كلها لتحطيمه، وسقط محمد علي وسقطت معه كل الصناعات التي أنشأها والنتيجة أنه لا أبقي على الأوضاع الصناعية الشعبية والحرفية، بل دمرها ولا استطاع أن يحمي مشروعه الصناعي ذاته.

وعقب١٨٦٠م شهدت مصر سيلا هائلا من الهجرة الأوروبية، من كل حثالات أوروبا جاءوا لممارسة الربا والسلب والنهب، وأنشأوا البنوك وأغرقوا الخديوي في الديون، وشجعوا قيام مشروعات زراعية أو مشروعات طرق وسكك حديدية، وذلك بهدف أن تكون الزراعة مصدرًا للسلع التصديرية، وأن تكون الطرق والسكك الحديدية وقناة السويس وسائل مساعدة في عملية النهب، وسيطر الغرب تمامًا على كل تلك المشروعات، ولم يسمحوا بقيام صناعة من أي نوع أو شكل، بل استصدروا القرارات الخديوية بفرض الضرائب على الحرفيين والصناع، ولم يسمحوا إلا بنمط واحد من الاستثمار هو الاستثمار

الزراعي والعقاري، بل وهذا النمط استحوذوا على الكثير منه، وعندما قامت الثورة العرابية تحت تأثير أفكار السيد جمال الدين، انتبهت الثورة لهذا، وفكرت جديًا في تشجيع العلوم والفنون والصناعة، بل وفكرت في إنشاء بنك أهلي لتمويل الصناعة بعيدًا عن نفوذ البنوك الأوروبية، وأكثر من هذا استصدرت الثورة قرار بمنع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها على الفقراء، ومعنى هذا أن هناك تفكير في منع تصدير هذا أو استيراد ذاك من سلع من أجل مصالح الفقراء، وإذا كان منع تصدير الغلال سيخفض أسعارها، فإن زيادة الرقعة الزراعية المزروعة بالغلال تحقق نفس النتيجة، أي أن زراعة القطن ستتقلص وهكذا يمكن أن تقطع كل خيوط التبعية، ويمكن تحقيق استقلال السوق الوطني.

أكثر من هذا أن الثورة استطاعت أن تحشد كل فئات الشعب خلفها الفلاحين والمثقفين، الأزهر، الأعيان، رجال الدين، بل وبعض كبار الملاك مثل البارودي، والتجار أيضا مثل السيد حسن موسى العقاد الذي ورث ١٠٠ ألف جنيه عن والده موسى العقاد، عدا العقارات والأطيان وأنفقها كلها من أجل الثورة وتمت محاكمته بعد هزيمة الثورة ونفي نفيا مؤبدًا وهو نفس الحكم الذي صدر على عرابي، وهذا يعطينا فكرة عن مدى مساهمة هذا التاجر في الثورة، وكذلك التاجر أمين الشمسي كبير تجار الزقازيق الذي كان ينسق نشاط الثورة واتصالاتها بعرابي في محافظة الشرقية، وتمت أيضا محاكمته بعد هزيمة الثورة، وصدر حكم عليه بالإقامة الجبرية ٤ سنوات وغرامة قدرها ٥٠٠٠ جنية (خمسة آلاف جنيه).

إذن فقد كانت الثورة العرابية نذيرًا بنهضة صناعية، ولكن أوروبا تركت لإنجلترا مهمة ذبح الثورة والقضاء على تلك النهضة، فجاء كرومر إلى مصر ومنع جميع أنواع التعليم العلمي وضرب جميع الصناعات، بل وأصدر قرار بفرض ضريبة على الحرفيين أسماها :" البطنطا " وهي ضريبة باهظة أدت إلى وأد الحرف، وكرر كرومر ومن بعده نفس الشيء وهو عدم السماح إلا بالاستثمار الزراعي.

وبعد ثورة ١٩١٩ م فكر المصريون في إنشاء عدد من الصناعات عن طريق بنك مصر الذي أنشأه طلعت حرب، ولكن هذا البنك وهذا الرجل تعرض لجميع المضايقات من كل نوع وشكل، ووصلت إلى حد النيل من شرف وسمعة

طلعت حرب، ولكن البنك صمد والصناعات التي أنشأها استمرت، وجاءت الحرب العالمية الثانية وتسببت الأعمال الحربية في قطع طرق المواصلات البحرية بالذات، وكانت هذه فرصة للصناعات المصرية أن تنشط وتتسع ويقوى عودها بعيدًا عن منافسة الصناعات الاستعمارية، بل واضطر المستعمر إلى شراء المنتجات الصناعية المصرية لدعم مجهوده الحربي، وخرجت الصناعة المصرية بعد الحرب العالمية الثانية قوية متماسكة، ولكن من جديد تفكر أوروبا في ضرب تلك الصناعات، ولم يكن هذا سهلا، ولكن تجربة محمد علي تتكرر بكل أخطائها دون أن تحمل أيا من مزاياها، وجاء عبد الناصر وأمم وصادر كل الصناعات المصرية وأقام صناعات مرتبطة أيضًا بجهاز الدولة والجيش والحاكم، فلما سقط عبد الناصر بهزيمة ١٩٦٧ م سقطت معه صناعاته وتلاشت كأنها بالونة، وغرقت مصر من جديد بالبنوك الأجنبية والمرابيين وحثالات أوروبا وأمريكا وغرقت في شبكة معقدة من التبعية والنهب.

والمحصلة النهائية

أن الغرب لا يريد لنا نهضة لا على الأساس الإسلامي ولا على أساس النمط الحضاري الأوروبي، لا يريد لنا نهضة في إطار دولة الوحدة أو الخلافة الإسلامية أو حتى الوحدة العربية ولا في إطار إقليمي تجزيئي، ولا في أي إطار.

علماء مجاهدون

العلماء ورثة الأنبياء، وعلماء أمة الإسلام مثل أنبياء بني إسرائيل، وقد فرض الله تعالى على علماء الإسلام كثير من المهام والتكاليف سواء في حفظ الدين أو الدفاع عن الأمة أو نصرة المستضعفين، أو قيادة الأمة في الاتجاه الصحيح دفاعًا عن مصالحها وأهدافها.

والعلاقة بين العلماء والأمة تؤدي إلى تماسك تلك الأمة وقدرتها على المواجهة والصمود والنصر، وإذا انفصمت تلك العلاقة بسبب أو بآخر أو تقاعس العلماء عن أداء دورهم أو باعوا ضمائرهم للحكام فإن مصيرًا مظلمًا ينتظر هذه الأمة.

وعلى سبيل المثال فإنه عندما كان علماء الأزهر هم القيادة الشعبية الطبيعية للأمة، وعندما كان هؤلاء العلماء على مستوى الدور المنوط بهم نجحت مصر في صد غزوتين استعماريتين هما الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١، والحملة الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧م، بل ونجحت أيضًا في أحداث ثورة شعبية ضد الاستبداد سنة ١٨٠٥م، بل إننا نؤكد أنه لم يحدث شيء إيجابي في تاريخ هذه الأمة إلا عندما اضطلع علماء الأزهر بدورهم الطليعي والطبيعي، وعندما انفصمت هذه العلاقة تفكك التماسك الجماهيري ونجحت قوات الاستعمار في السيطرة على مصر والتنكيل بأهلها.

وقراءة يوميات المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية مثلا تقول أن الأزهر كان محورًا لحركة المقاومة، وكان علماء الأزهر وطلابه هم قيادات المقاومة.

ففي ثورة القاهرة الأولى، كان الأزهر وكان العلماء، وكان قائد الثورة الشيخ محمد السادات يقول، ريبو « كان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدير الثورة »[1].

ويقول نابليون في مذكراته « إن الشعب قد انتخب ديوان للثورة من علماء الأزهر، وأن الشيخ السادات انتخب رئيسًا لهذا الديوان »[2].

ويقول الرافعي :«فالأزهر إذن كان مركز الثورة »[3].

وإذا تتبعنا أسماء هؤلاء الذين تمت محاكمتهم بتهمة قيادة الثورة نجدهم جميعًا من علماء الأزهر يقول الرافعي :«أما الذين حوكموا رسميًا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ المصيلحي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي وكلهم من أواسط علماء الأزهر »[4].

ونظرًا لأن الأزهر كان قيادة للثورة فإن الجنود الفرنسيين قد اقتحموه وعاثوا

(١) ريبو، التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية في مصر، الجزء الرابع.
(٢) مذكرات نابليون.
(٣) الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الأول.
(٤) نفس المرجع السابق.

فيه فسادًا وذلك للقضاء على بؤرة الثورة وهو أمر يثبت بشاعة الفرنسيين ولكنه يسجل في نفس الوقت الدور المشرف للأزهر في تنظيم المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي وفي ثورة القاهرة الثانية، أو في المقاومة الشعبية في الوجهين القبلي والبحري، نجد أن علماء الأزهر كانوا دائمًا الوقود المحرك للمقاومة والقيادة الطبيعية لها، بل ونجد أن أحد طلاب الأزهر ينفذ عملية اغتيال للجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون وهو سليمان الحلبي.

وفي سنة ١٨٠٧ م عندما جاءت حملة فريزر الإنجليزية، وكان الوالي محمد علي مشغولا بمطاردة المماليك في الصعيد، قام علماء الأزهر بتعطيل الدروس والتطوع في المقاومة وحشد الأهالي بما أدى إلى هزيمة الإنجليز في موقعتي الحماد ورشيد ورحيلهم عن مصر.

وفي إطار النضال ضد الاستعمار أيضًا نجد أن عبد الله النديم قد شكل جيشًا من علماء الأزهر للتحريض والتطوع وجمع الأموال من أجل المجهود الحربي للجيش المصري ضد الإنجليز سنة ١٨٨٢ م، كما تكرر الأمر في ثورة ١٩١٩ م حيث كان الأزهر أحد أهم مراكز تلك الثورة.

وفي إطار النضال ضد الاستبداد نجد أن علماء الأزهر قد قادوا الشعب المصري للثورة ضد الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥م، بل وأفتي القاضي بجواز الخروج على الوالي الظالم وجواز قتاله ولو كان مسلمًا [١]، بل ونجد أن هؤلاء العلماء قد اشترطوا على محمد علي لتوليته واليا أن يرجع في كل أموره إليهم وألا يبرم رأيًا بدون مشورة العلماء والأعيان[٢].

ويذكر التاريخ بالفخر الشيخ حسن عليش الذي أفتي بكفر الخديوي توفيق لاستدعائه الأجانب الكفار، وقد انحاز الشيخ حسن عليش ومجموعة كبيرة من العلماء إلى عرابي ضد الخديوي توفيق سنة ١٨٨٢[٣].

(١) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية جـ ٢.
(٢) المرجع السابق .
(٣) الرافعي، الثورة العرابية.

ومن الأزهريين المجاهدين أيضًا الشيخ على الغاياتي الذي سخر قلمه للنضال ضد الإنجليز والخديوي. وكان يكتب القصائد الشعرية الملتهبة والتي تحض على مناهضة الاستعمار ورفض الاستبداد، بل ووصل الأمر إلى حد أنه عندما أصدر ديوانًا شعريًا قامت السلطات بمحاكمته مع كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش، وصدرت ضدهم الأحكام مما اضطر الشيخ على الغاياتي للهرب من مصر سنة ١٩١٠، حيث واصل نضاله في المنفى[١].

وفي نفس الفترة نجد العالم الأزهري الشيخ عبد العزيز جاويش يتبنى تحرير صحيفة الحزب الوطني والمجاهد الدائب ضد الاستعمار والاستبداد[٢].

ولعلنا لا ننسي أن نذكر أن علماء الدين من أمثال الشيخ عبد الحميد كشك الذي تصدي للاستبداد الناصري والساداتي، وكذا الشيخ أحمد المحلاوي الذي قاد المعارضة لاتفاقية كامب ديفيد التي وقعها السادات مع الكيان الصهيوني في عام ١٩٧٨ م.

وليس الأمر قاصرًا على الموقف من الاستعمار والاستبداد، بل إن هناك من علماء الإسلام من دافع عن الأقليات غير المسلمة، فالشيخ زنبيلي على أفندي شيخ الإسلام هو الذي وقف امام السلطان سليم الأول العثماني عندما أراد تهجير بعض النصارى،وقال له :«ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم »[٣].

والشيخ الباجوري شيخ الأزهر في أثناء حكم عباس الأول تصدي للخديوي عندما أراد أن يبعد النصارى المصريين إلى السودان وقال له :«الحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ، ولم يستول عليها خلل وهم في ذمته إلى اليوم الآخر»[٤].

---

(١) الرافعي ـ محمد فريد.

(٢) المرجع السابق.

(٣) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي.

(٤) طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية.

الأفغاني والمنهج الثورى

لم يكن السيد جمال الدين الأفغاني باعثًا لحركة الثورة الإسلامية والنهوض الإسلامي في مصر وحدها بل وفي معظم بلاد العالم الإسلامي، فحركة الأفغاني وجهاده اشتملت على أفغانستان وإيران ومصر وتركيا والهند، فحيثما حل الرجل كان ثورة، كما امتدت آثاره السياسية والفكرية إلى تونس والجزائر والمغرب والسودان والشام، يقول د. محمد محمد حسين في كتابه الإسلام والحضارة الغربية :« لم تقف جهود السيد جمال الدين الأفغاني في هذا المجال على مصر وحدها بل تعدتها إلى بلدان إسلامية أخرى كالجزائر ونونس والشام والسودان والهند، فقد أشرك زعماء الحركة الوطنية في هذه البلدان في جمعية العروة الوثقى وغيرها من الجمعيات »[1].

ولا شك أن آثار السيد جمال الدين الأفغاني امتدت بعد ذلك لتشمل كل حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار سواء كانت مسلحة أو سلمية في معظم أقطار العالم الإسلامي.

ولكن لماذا حقق السيد جمال الدين الأفغاني كل هذه الآثار وأحدث تلك الهزة العنيفة في الوجدان الإسلامي .

إن السيد جمال الدين الأفغاني لم يأت بشيء جديد، ولكنه استند إلى الوجدان الشعبي المشبع بالروح الإسلامية وراح ينفض عن كاهل الأمة غبار التخلف والجمود، وكان

(١)د. ضياء الدين الريس، الحزب الوطني والنضال السري، الهيئة المصرية للكتاب.

السيد جمال الدين الأفغاني يمتلك عقلاً جبارًا وذكاءً خارقًا وحماسًا متقدًا، وعاطفة مشبوبة، عزيز النفس مترفع عن المال والجاه إذا تحدث أثر في السامعين حتى أبكاهم، وإذا أنكب على تحصيل العلم التهمه التهامًا"[١].

استطاع السيد جمال الدين الأفغاني أن يحلل أوضاع المسلمين في تلك الفترة تحليلاً دقيقًا، وأن يلمس بيده أسباب التخلف وطرق الإقلاع من هذا التخلف، وتحقيق النهضة، وإذا حاولنا أن نرسم صورة لذلك التحليل الذي وضعه السيد جمال الدين الأفغاني عن طريق القراءة في العروة الوثقى أو غيرها مما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني أو من محاضراته أو دروسه لوجدنا أن السيد جمال الدين الأفغاني كان يرى[٢] :

أن الاستبداد وطغيان الحكام هما سبب تفرق كلمة المسلمين.

أن على المسلمين لكي ينهضوا أن يثوروا على الاستبداد ويقيموا الحكم الشورى العادل[٣].

أن أوروبا تتربص ببلاد الإسلام وأن على المسلمين مقاومة النفوذ الأجنبي.

أنه لا طريق إلى النهضة إلا عن طريق نشر العلوم الطبيعية والاجتهاد في تحصيلها والاهتمام بالصناعة .

أن وحدة المسلمين هي الطريق الحتمي أمامهم للوقوف أمام تحديات الغرب الصليبي .

***

كان السيد جمال الدين الأفغاني من كبار دعاة الجامعة الإسلامية، وكان يرى المحافظة على الخلافة العثمانية باعتبارها جامع يجمع المسلمين من التفرق والتشرذم، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينتقد السلطان بسبب الفساد أو الاستبداد،

---

(١)صدرت الأحكام بسبب هذا الديوان على كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلي الغاياتي، فصدر الحكم على محمد فريد بالحبس ستة أشهر مع النفاذ، وعلى عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر، وعلى الشيخ علي الغاياتي بالحبس سنة مع الشغل.

(٢)محمد طاهر الجبلاوي، خمسة من شعراء الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

(٣)عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، دار المعارف.

وكان السيد جمال الدين الأفغاني يرى أن توجيه النقد للسلطان والتصدي لأسباب الفساد والاستبداد داخل الخلافة لا يضعفها بل يقويها لأن الفساد والاستبداد هما اللذان سيدمرانها، وبالتالي فمن واجب المسلم التصدي لهذا الفساد والاستبداد لحماية الخلافة نفسها[(١)].

***

كان السيد جمال الدين الأفغاني إسلاميًا فهم الإسلام ولذلك لم يكن متعصبا، ولا طائفيًا، بل استطاع أن يحشد خلفه ليس المسلمين فقط، بل كذلك المسيحيين واليهود على قاعدة الانتماء لحضارة الإسلام، وكان يري أن الحرب مع أوروبا هي حرب صليبية أساسا، ولكن هذا شيء ومحاولة تجميع كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية في خندق واحد أمام الحضارة الأوروبية الغازية شيء آخر، كان غير المسلمين يساهمون في تأييد والتلمذة على يد السيد جمال الدين الأفغاني على قاعدة الانتماء للإسلام كضارة وكثقافة وكوطن، وهكذا وضع السيد جمال الدين الأفغاني الأساس الصحيح للعلاقة بين المسلمين وغيرهم في بلادنا، وهي العلاقة التي تقوم على ضرورة انتماء غير المسلم في هذه البلدان إلى الإسلام كثقافة وحضارة ووطن، ولم يكن عجيبًا أن إسلامية السيد جمال الدين الأفغاني كانت من النضج بحيث نجد مسيحيين كسليم نقاش وأديب إسحاق ويهود مثل يعقوب صنوع من أهم مناصري الأفغاني وتلاميذه ومؤيديه[(٢)].

***

ولأن الأفغاني كان إسلاميا، فقد كان منحازًا إلى الفقراء والمستضعفين، فهو يقول :« أيها الفلاح، يا من تشق الأرض بفأسك، لماذا لا تشق رأس ظالميك ».

ولأن الأفغاني كان إسلاميا فقد كان ثوريا لا يؤمن إلا بالثورة كوسيلة،

---

(١)د. إبراهيم عبد الله المسلمي، علي الغاياتي من وطنيتي على منبر الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ م.

(٢)فتحي رضوان ، عصر ورجال ، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٧م.

للتغيير، فالحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر، بل إن الأمم تحصل عليها بالقوة، أو بشق رأس الظالم كما كان يقول للفلاح وكان حربًا على الخرافة، فهو يرفض من يقول بالفناء في الله ولكن الفناء في رأيه يكون بالعمل على خدمة خلق الله ومساعدتهم والدفاع عنهم[1].

وهو دعوة إلى العلم والتعليم، فهو بنفسه يدرس لتلاميذه الرياضيات والفلك والكيمياء والطبيعة إلى جانب دروس التوحيد والفقه والأخلاق والفلسفة.

وهو المدافع عن الإسلام ضد الملحدين والماديين، بل ويحرر كتابًا في الرد على الدهريين يفحمهم فيه بالحجة والبيان .

إذن فالأفغاني هو باعث النهضة الإسلامية، وهو الأب الروحي للثورة العرابية، وله آثاره الممتدة شرقًا وغربًا على حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار، وهو المكافح ضد استبداد السلطان من داخل وفي إطار الدفاع عن الخلافة الإسلامية، هو الذي يدعو إلى مقاومة النفوذ الأجنبي والاستبداد، وهو المضطهد من نفي إلى نفي، وهو حرب على الجمود والخرافة، وهو يدعو إلى وحدة المسلمين، وإلى الجهاد وإلى الحرية وهو مع قضايا الإسلام على طوال الخط، ومع ذلك نجد البعض ينتقده لأنه انضم إلى المحافل الماسونية مع أن المسألة أبسط من ذلك بكثير، فلم تكن تلك المحافل قد انكشف أمرها، وحاول الأفغاني أن يستفيد بها فلما لم يستطع الاستفادة بها لفظها ولفظته وانتهى الأمر، وشأنه في ذلك شأن أي مناضل معاصر إذا ما حاول الاستفادة من جمعيات حقوق الإنسان أو أنشأ واحدة منها أو انضم إلى إحداها، ثم اكتشف بعد ذلك أن تلك الجمعيات العاملة في مجال حقوق الإنسان ليست بريئة الغرض فهل هذا يعيب هذا المناضل، إذا فمسألة المحافل الماسونية أيام جمال الدين لا تعدو أن تكون كالجمعيات الخاصة بحقوق الإنسان ، وإلى أن يتم اكتشاف حقيقة تلك الجمعيات فإنها تظل بريئة إلى أن يثبت العكس[2].

(١)نفس المرجع السابق.
(٢)نفس المرجع السابق.

محمد عبده والمنهج الإصلاحي

الفرق بين الأفغاني ومحمد عبده هو الفرق بين المنهج الثوري والمنهج الإصلاحي، وهو فرق كبير جدًا.

وصحيح أن الشيخ محمد عبده هو تلميذ الأفغاني، وصحيح أنه شارك معه في إصدار مجلة العروة الوثقى، ولكن هذا ليس كافيًا لأن الفرق بين الرجلين وبين الدراستين وبين المنهجين كبير جدًّا[1] .

ولد الشيخ محمد عبده في بلدة « محلة نصر » من محافظة البحيرة سنة ١٨٤٩ م وحفظ القرآن الكريم ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا حيث تلقى العلم لمدة ثلاث سنوات، ثم ذهب إلى الأزهر فقضى به عامين ثم تتلمذ على يد السيد جمال الدين الأفغاني وأخذ عنه الفلسفة والتصوف والأصول وعلوم الرياضة والأخلاق السياسة، وبدأت مواهبه تتفتح فألف الفصول الممتعة في المنطق والفلسفة والتربية والاجتماع والأدب ونشرها في الصحف السائرة في ذلك العصر مثل الأهرام، ومصر، والتجارة، ثم نال شهادة العالمية من الأزهر سنة ١٨٧٧م، وأخذ يلقي الدروس في الأزهر في التوحيد والمنطق والأخلاق بأسلوب جديد لفت إليه الأنظار وحبب الطلاب في تلك العلوم، ثم تعلم اللغة الفرنسية لكي تساعده على الاطلاع على علوم الغرب وآدابه، وعين سنة ١٨٧٨م

(١)د. محمد مورو – صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٩٥٢، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة ، ١٩٩٢.

مدرسًا للتاريخ بمدرسة دار العلوم، ومدرسًا للغة العربية في مدرسة الألسن مع الاستمرار في التدريس بالأزهر، ولما تولي رياض باشا رئاسة الوزارة في أوائل عهد الخديوي توفيق عينه محررًا بالوقائع المصرية، ثم رئيسًا لتحريرها، ويقول الرافعي :« إن محمد عبده لم يكن من أنصار الثورة العرابية حين شبوبها، بل مؤيدًا لرياض باشا، ولم يكن يشاطر العرابيين رأيهم في الحكم الدستوري، بل كان يجادلهم في ذلك ويميل إلى نظام الحكم الفردي المقرون بالإصلاح حتى يعم التعليم وتنضج الأمة للدستور »(الرافعي، الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي ص ٤٦٨)[١].

بل ويصل إلى حد إنشاء القصائد لتأييد رياض باشا ضد الثورة العرابية عقب حوادث ٩ سبتمبر ١٨٨١ م، حيث يقول في مطلع قصيدته : قامت عصابات جند في مدينتنا لعزل خير رئيس كنت راجيه ويقصد هنا بعصابات الجند « العرابيين »، وبخير رئيس « رياض باشا ».

بل لما وقع الخلاف بين العرابيين وشريف باشا في مسألة الميزانية انحاز إلى رأي شريف باشا، وكان العرابيون يرون أن مسألة الميزانية من صميم السيادة الوطنية ويجب رفض مطالب إنجلترا وفرنسا بمنع البرلمان من نظر الميزانية وكان شريف باشا يري الاستجابة لهذا المطلب الأوروبي[٢] .

ولكن حين انتصرت الثورة في تلك المعركة، وسيطرت الثورة على الوزارة، وتم تشكيلها من العرابيين برئاسة محمود سامي البارودي، انضم الشيخ محمد عبده إلى الثورة وأصبح من دعاتها، وبعد هزيمة الثورة تمت محاكمة الشيخ محمد عبده وصدر عليه حكم بالنفي من البلاد ثلاث سنوات فذهب إلي باريس والتحق بالأفغاني وأصدر العروة الوثقى التي ما لبثت أن توقفت[٣] .

وعاد الشيخ محمد عبده إلى مصر سنة ١٨٨٩ م، وأنقطع عن الكفاح

---

(١)د. عصام ضياء الدين، الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ ـ ١٩١٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ م.

(٢)د. عصام ضياء الدين نفس المرجع السابق.

(٣)محمود عاصم، المرافعات في أشهر القضايا، المجموعة الجنائية الأولي، القاهرة، ١٩٣٣ ص ٣٠.

السياسي، بل لعن السياسة والساسة وقال في كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ، بل ندم على مشاركته في الثورة العرابية، وتوقف تمامًا عن مراسلة الأفغاني، بل حتى عندما مات الأفغاني لم يكتب الشيخ محمد عبده فيه أو عنه كلمة رثاء واحدة .

وفي تلك الفترة ارتبط الشيخ محمد عبده باللورد كرومر على أساس أن يحصل على تأييده في برنامجه الإصلاحي لتحسين وإصلاح الأوقاف والتعليم في الأزهر، واستطاع الشيخ محمد عبده أن يصبح مفتيًا للديار المصرية سنة ١٨٩٩م وكذلك أصبح عضوًا في مجلس الأوقاف ومجلس شوري القوانين، وبذل جهودًا كبيرًة في تحسين أحوال التعليم الأزهري ونشر المؤلفات السلفية وإحياء العلوم العربية[١] .

ولعل أهم آثار الشيخ محمد عبده الفكرية « رسالة التوحيد » وكذلك رده على طعنات المستشرقين على الإسلام في حواره مع المستشرق هانونو، وكذلك كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» وكذلك تفسيره للقرآن الكريم.

وتوفي الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ م، ولم يترك أموالا لورثته.

***

من حق أي إنسان أن يقول أن الشيخ محمد عبده كان رجلاص نزيهًا وشريفًا، ولم يكن جامع ثروة ولا طالب سلطة، وأنه فعل مافعل من أجل إطلاق يده في الإصلاح، ومن حق أي إنسان أن يقول أن الشيخ محمد عبده قد خدم الإسلام والفكر الإسلامي من خلال مؤلفاته وردوده على المستشرقين ومن خلال عمله في الأزهر والتعليم، ومن حق أي إنسان أن يقول أنه كان طاقة عقلية جبارة حققت التجديد في الفكر الإسلامي، وأنه كان أديبًا كبيرًا ويتمتع بمواهب كثيرة، ومن حق أي إنسان أن يقول أكثر من هذا، ونحن أيضا نرى هذا وأكثر منه في الشيخ محمد

(١)تتقول أبيات إحدى هذه القصائد التي قيلت يوم إعدامه : قولوا لعين الشمس ماتحماشي أحسن غزال البر صابح ماشي.

عبده ولا نشك في إخلاصه ولكن ليس من حق احد أن يقول أن الشيخ محمد عبده كان امتدادا للأفغاني، وانه ينتمي إلى المنهج الثوري الإسلامي أو حتى لفكر الحركة الإسلامية، هذا شيء آخر تمامًا.

والمشكلة هنا أن بعض الدارسين وبعض الإسلاميين، بل وقطاعات كبيرة من الحركة الإسلامية تجعل الشيخ محمد عبده أحد روافد الفكر الثوري الإسلامي، وهنا مكمن الخطأ والخطر، فالشيخ محمد عبده لم يكن ثوريًا يومًا ما ولم يكن ينتمي إلى هذا المنهج أبدًا حتى ولو كان قد شارك في آخر مراحل الثورة العرابية، وحتى لو كان تلميذًا للأفغاني، وشارك معه في إصدار « العروة الوثقى » نعم لكل هذه الأمور أسبابها وظروفها التي لا تنفي ثورية الشيخ محمد عبده فحسب، بل تؤكد عدم إيمانه بهذا المنهج إطلاقا، نعم من حق أي إنسان أن يشيد بالشيخ محمد عبده وهو يستحق الإشادة، ومن حقه أن يعتبره مصلحًا وأن يقول أنه قدم خدمات للإسلام والفكر الإسلامي، ولكن هذا شيء والنهج الثوري شيء آخر تمامًا[1].

بل من حق أي إنسان أن يفضل المنهج الإصلاحي على المنهج الثوري ويفضل بالتالي محمد عبده على الأفغاني والنديم ومصطفى كامل وحسن البنا، ولكن ليس من حقه أن يخلط بين هذا المنهج وذاك وليس من حقه أن يجعل محمد عبده أحد رواد الفكر الثوري أو فكر الحركة الإسلامية .

أكثر من هذا من حق أي إنسان أن يقول: إن الطريق الصحيح للنهضة الإسلامية يكمن في المنهج الإصلاحي وفي سلوك محمد عبده وأنه يجب إصلاح التعليم والتربية أولا .

من حقه أن يدين أسلوب الثورة الإسلامي، ويقول أنه لن يؤدي إلى نتائج، بل حتى من حق أي إنسان أن يقول أنه لا أمل في إصلاح المسلمين لا بالثورة ولا بالإصلاح، ويجب بالتالي الاهتمام بدعوة أهل أوروبا أو أمريكا أو روسيا أو اليابان إلى الإسلام وبعد إسلام هؤلاء أو جزء منهم يمكنهم تحقيق النهضة

(١)د. محمود متولي، مصر وقضايا الاغتيالات السياسية، دار الحرية، القاهرة ١٩٨٥ م.

الإسلامية بما يمتلكونه من تقدم مادي، من حق أي إنسان أن يفكر ويختارالطريق الصحيح للنهوض الإسلامي، ولكن ليس من حق أحد أن يخلط الأوراق ويجعل الشيخ محمد عبده مفكرًا ثوريا أو أحد روافد الفكر الإسلامي[1].

ولكن من حقنا أن نتكلم عن المنهج الإصلاحي من خلال الشيخ محمد عبده، فالشيخ محمد عبده كان يريد البدء بإصلاح التعليم وترقية عقول الأمة حتى ولو من خلال السكوت على النفوذ الأجنبي أو تأييد المستبدين، فنجده يهاجم الثورة العرابية ويؤيد رياض باشا أكبر مستبد في عصره، بل ويؤيد أو يسكت عن النفوذ الأجنبي ويتحالف مع كرومر من أجل إطلاق يده في الإصلاح، وحتى في الفترة التي أيد فيها الثورة العرابية كان من منطلق أنها أصبحت القوة المسيطرة وبالتالي فلابد من التحالف معها لتحقيق الإصلاح، ولكن هل حقق الشيخ محمد عبده شيئًا؟

يقول زكريا سليمان بيومي في كتابه دراسة تاريخية في فكر الشيخ محمد عبده ص١١ :« كان تأييد كرومر له في خطواته الإصلاحية تأييدًا محدودًا، ومات الشيخ محمد عبده دون أن يحقق ما يصبو إليه » .

هذه مأساة الإصلاحيين، الذين يظنون أن بالإمكان الإصلاح في ظل الاحتلال الأجنبي أو الاستبداد، ويكتشفون في النهاية أنهم ماتوا ولم يصلحوا شيئًا، لأن الاحتلال والاستبداد ضد الإصلاح ويسمح بقدر منه في إطار الاستفادة من ذلك في ضرب الثورة لا أكثر ولا أقل.

وبديهي أن المنهج الثوري أكثر وعيًا وشمولية، لأنه يدرك منذ اللحظة الأولى أن النفوذ الأجنبي والاستبداد لن يسمحا بالإصلاح لأنه خطر عليهما، ولأن المنهج الثوري يعتقد أن القضاء على النفوذ الأجنبي والاستبداد مقدمان على كل شيء، بل النضال ضدهما هو الطريق الوحيد للإصلاح، والأمة تتعلم من خلال الثورة وتتطور أيضا من خلال النضال.

والمنهج الثوري أكثر شمولا، لأنه يأخذ في اعتباره الاستفادة من المصلحين

(١)طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق، القاهرة.

والإصلاحيين، ولكن دون أن يفرط في منهجه ولا في أهدافه ولا في وسائله، بل يستفيد من كل شيء ممكن مادام مشروعًا ومادام في صالح الثورة الإسلامية[1] .

المنهج الثوري منهج متسق مع نفسه، واضح المعالم، أما المنهج الإصلاحي فمنهج متردد، فترى أحد الإصلاحيين يؤيد الاستبداد ثم يلحق بالثورة ثم يعود فيندم على مشاركته في الثورة، بل ويلعن السياسة وكل مشتقاتها اللغويه.

المنهج الثوري يعرف أن الحليف الطبيعي والقادر على إنجاز النهضة هو الأمة ـ الشعب ـ الجماهير، أما المنهج الإصلاحي فيعمل من خلال النظام مهما كانت عيوبه، حتى ولو كان نظام احتلال أو خديوي مستبد، حتى ولو كان كرومر الذي جمد الاقتصاد المصري، وطارد الوطنيين، وألغي الحريات النيابية والصحافية، بل وحاول تدمير التعليم الوطني والقضاء على اللغة العربية، وهو الأمر الذي يهتم به المصلحون مثل الشيخ محمد عبده، ومع ذلك كان اللورد كرومر صديقا للشيخ محمد عبده .

المنهج الثوري هو الأفغاني والنديم ومصطفى كامل والمنهج الإصلاحي هو محمد عبده .

---

(١)د. محمود متولي، مرجع سابق.

عبد الله النديم

عاش فقيرًا ومات فقيرًا، وظل دائمًا ملتصقًا بالشعب محبًا له لا يطيق الابتعاد عنه، وبادله الشعب حبًا بحب فأعطاه ثقته وحمايته، وسمع له دائمًا واستجاب .

عبد الله النديم، رجل متعدد المواهب، فهو خطيب فذ، بل هو أعظم من عرفت مصر من الخطباء، وهو كاتب يقطر قلمه حماسًا أو سخرية، وصحفي لامع تنفذ صحفه فور صدورها ويتخاطفها الناس، وهو زعيم الثورة العرابية الحقيقي، وهو كاتب مسرحي كبير.

لم يستغل عبد الله مواهبه المتعددة ولا ذكائه المتقد في جمع المال أو البحث عن الوظائف، وقد كان هذا ممكنًا، بل وطريقًا اتخذه الآخرون، ولكن ربط ثقافته بالشعب وجعل ثقافته من الشعب وإلى الشعب، فمات معدمًا في حين مات الطهطاوي وهو أقل ذكاءً وموهبة من النديم، وقد ترك ٢٥.. فدانًا عدا النقود والعقارات . أما النديم فمات وترك ثروة من العمل الجماهيري والرصيد الثوري وتجارب العمل الإسلامي الناضج وترك مدرسة هي من أهم مدارس الفكر الثوري في التاريخ ألا وهي مدرسة الثورة الإسلامية.

كان النديم كأستاذه الأفغاني إسلاميًا حتى النخاع ـ ولذلك ثوريا وجماهيريا ونصيرًا للمستضعفين .

كان النديم شعلة من الحماس، فهو في اليوم الواحد يحرر المقالات ويلقي الخطب في المنتديات، ويذهب إلى الفلاحين في الحقول أو ينظم المظاهرات أو يحشد الجماهير خلف

الثورة، أو يلقي تعليماته على جهازه الإعلامي المتكون من الأزهريين الصغار والمتوسطين، كان دائم الحركة لا نكاد تراه يسكن .

كان النديم هو القائد الحقيقي والفعلي للثورة العرابية، فهو الذي نظم خلاياها السرية الأولى، وهو الذي ضم إلى هذه الخلايا زعماء الثورة أمثال عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي وغيرهم، وهو الذي لا يترك مواقع الثورة أينما تكون، فهو يجمع التوقيعات من أجل توكيل عرابي في الحديث باسم الأمة قبل ٩ سبتمبر ١٨٨١ م، وهو يحشد ويقود الجماهير لتقف مع الجيش في ميدان عابدين في٩ سبتمبر ١٨٨١ م، وهو يجعل الجيش والشعب في صعيد واحد من أجل الثورة، ويفسد المخططات الرامية لعزل الشعب عن الجيش في الثورة العرابية، فعندما يصدر القرار بإبعاد فرق الجيش الثورية عن القاهرة نجد النديم معها مسافرًا إلى دمياط أو الشرقية، وفي كل رحلة يحشد الجماهير لوداع الجنود ويخطب في الاثنين معًا لزيادة هذا التلاحم، وهو مع الجنود في القطارات المسافرة التي تقف في كل محطة تمر بها لتكون فرصة أخرى لزيادة التلاحم بين الشعب والجيش فنجد النديم قد أعد عدته ليقوم الأهالي في كل بلدة يمر بها القطار بعمل احتفال وتظاهر لإعلان التضامن، ونجد النديم كعهده دائمًا يخطب في هؤلاء ليزيد الوعي ويلقي على الثورة مزيدًا من الوقود لتأجيجها، وفي محطات الوصول يتكرر نفس الشيء بل يقوم بعمل علاقات تنظيمية في تلك البلاد التي استقرت بها فرق الجيش المنقولة بين خلايا الثورة في الشعب وفي الجيش - وكل هذا جعل الذين خططوا لإبعاد الجيش عن الشعب بنقل فرق الجيش الثائرة بعيدًا عن القاهرة يكتشفون أن كل ما قاموا به زاد من قوة الثورة وحقق لها الانتشار في الأقاليم وليس القاهرة وحدها . وذلك بفضل النديم - فيعيدون النظر في قرارهم ذلك ويقررون استعادة عرابي إلى القاهرة .

والنديم يذهب إلى الفلاحين في الحقول، ويذهب إلى الطلبة في معاهد العلم ليحشد ويحرض ويدعو إلى الثورة.

ويصدر النديم العديد من الصحف ويشارك في تحرير البعض الآخر من أجل تسليح الجماهير بالوعي والدعوة إلى الثورة – والدفاع عن المستضعفين ومهاجمة

أعداء الثورة ويركز على النفوذ الأجنبي والاستبداد الخديوي .

بل ويقوم بتأليف التمثيليات والمسرحيات لتكون أداة التغيير الثوري والدعاية الثورة مثل تمثيلية العرب وتمثيلية الوطن وطالع التوفيق، بل ويصبح الجهاز الإعلامي الثوري من أفضل ما عرفه تاريخ الثورات من إعلام بفضل النديم الذي يخطب ويدرب طلاب الأزهر أو المدارس أو خطباء المساجد على الخطابة الثورية، والذي يحرر الصحف ويدرب المحررين في الكثير من الصحف مثل التنكيت والتبكيت ـ مصر ـ التجارة، يرددها الناس في المظاهرات أو الحفلات على السواء.

وبعد أن تقرر إنجلترا ذبح الثورة بواسطة جيشها وأسطولها بعد أن استعصت تلك الثورة على التطويق والاحتواء، نجد النديم في كل موقع مع الجنود في القتال يخطب فيهم لرفع روحهم المعنوية، أو في القرية والمدينة يحرض الجماهير على التطوع أو التبرع بالمال والملابس والطعام فتستقبله الجماهير، فإذا بعشرات الألوف يتطوعون، وإذا بالتبرعات تنهال على خزائن الجيش حتى أنها تفيض عن الحاجة ويظل منها ما قيمته ٢ مليون جنيه بعد المعارك.

وبعد هزيمة الثورة ينجح النديم في الاختفاء ويجن جنون جنود الاحتلال وعسس الخديوي، فيقلبون الأرض بحثا عنه ويرصدون مكافأة ضخمة لمن يدل عليه (١٠٠٠ جنيه)، ولكن النديم كان مثقفا وثائرًا شعبيًا، فإن الشعب كان يحميه ويتعالى على المكافآت، ويقدم له الشعب المأوى والطعام والحماية لمدة تسع سنوات كاملة، وكان الجماهير تريد أن تقول له أن المثقف الذي يضع ثقافته في خدمة الشعب، فإن الشعب يفهم هذا، الجماهير التي ربما باتت بغير عشاء أو حتى لم تر الجنيه في حياتها ترفض إغراء الألف جنيه وتتعالى عليه، بل وتعرض نفسها للخطر من أجل حماية النديم، أليس مطلوبًا من جنود الاحتلال، ومن عسس الخديوي ؟.

أحب النديم الشعب فأحبه الشعب، وحماه بنور العين حتى أن الكثيرين التقوا بالنديم في تلك الفترة وعرفوه ترفعوا عن الصغائر، ولم يبلغوا عنه، بل ساعدوه على قدر الإمكان، بل أكثر من هذا كان بعض المسئولين في جهاز البوليس

يتسترون على النديم إيمانًا بالإسلام والثورة وحبًا في النديم كإنسان أيضا، فمأمور مركز السنطة يقابل النديم وجهًا لوجه ولا يقبض عليه مخاطرا بوظيفته كمأمور، بل ويمنحه مالا من جيبه ليساعده في هروبه، وكاتب مركز السنطة أيضًا،- وكان النديم مختفيًا في قرية الجميزة مركز السنطة- يعرف أين يوجد النديم فيكتب إليه أبياتاً من الشعر تقول :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالما   لأقبلن مواطن الأقـــــدام

ولأثنين على سجـاياك التي   حثت على التحرير والإقدام

وهذه الأبيات توضح إلى أي مدى كانت الجماهير تحب النديم، ولعل تجربة التسع سنوات التي نجح الشعب فيها في إخفاء النديم عن عيون السلطة الاستعمارية والخديوي توضح إلى أي مدى كم هي عظيمة إمكانيات هذا الشعب، وإلي أي مدى كان هذا الشعب مستعدًا لتقديم كل شيء من أجل ابنه الفذ عبد الله النديم.

وبعد التسع سنوات يظهر النديم ثانية، وتسقط عنه العقوبة بالتقادم فلم يقول كفاني تعبًا وتشريدًا وثورة، بل يستمر دون كلل ولا ملل، فيعود من جديد يعمل من أجل الثورة، ويصدر مجلة الأستاذ ليهاجم فيها الإنجليز والخديوي وتتلقفها الأيدي وتنفذ فور صدورها، وكلما زادت أعداد ما يطبع منها زاد إقبال الناس عليها، ليس هذا فحسب بل أن النديم يبدأ في بناء الخلايا الثورية ويجتمع سرًا مع الجيل الثاني ليسلم جذوة الثورة المشتعلة.

نعم يجتمع سرًا مع مصطفى كامل ومحمد فريد وينقل لهما خبراته الثورية ويعهد إليهما بمهمة استمرار الكفاح من أجل الاستقلال والحرية.

ومن الطبيعي أن تضيق به سلطات الاحتلال فتقوم بنفيه خارج مصر، فيذهب إلى حيث يلحق بأستاذه جمال الدين ليستمرا معًا في النضال إلى أن يموت النديم منفيًا في الآستانة .. كان النديم ثورة في كل يوم وكل ساعة وكل لحظة حتى الرمق الأخير.

النديم هو التجسيد الحقيقي للثورة الإسلامية، وهو الامتداد الطبيعي لمدرسة

الأفغاني ، كان النديم كأستاذه يؤمن بضرورة إيقاظ المسلمين من الجمود والتخلف، وضرورة حثهم على مقاومة النفوذ الأجنبي والاستبداد.

كان النديم يؤمن بالحرية حتى آخر مدي، فهو يرفض أن يكون البرلمان مجرد واجهة أو مجرد شيء مقصور على الأغنياء والوجهاء، بل يريده برلمانًا يضم كل فئات الشعب.

ولأن النديم كان إسلاميًا ثوريًا فإنه انحاز إلى الفقراء والمستعفين فدافع عن الفلاحين، وهاجم النفوذ الأجنبي والمرابين وكبار الملاك المستغلين للفلاح، بل وقدم رؤية قوية هامة في هذا الإطار ألا وهي أن ما يتمتع به الأغنياء هو من عرق الفلاحين وجهدهم، وفي الحقيقة فإنه هنا كان ينطلق من فهم إسلامي ناضج ويستند إلى التراث الإسلامي، أليس قول النديم هذا مستمد من قول الإمام على ﷺ : « ما متع غني إلا بما حرم منه فقيرًا » ولأن النديم كان يفهم الإسلام كما هو وليس على هواه أو هوى بعض المستفيدين أو الأغنياء، فإنه أدرك أن الفقراء هم الحليف الطبيعي للثورة الإسلامية، فقال سأكون عصبة من الفقراء عندما وجد تردد الوجهاء والأعيان، والنديم هنا يستند إلى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾، أليست تلك الآية الكريمة توضح أن الأراذل أو المستضعفين والفقراء هم جنود الرسل، وهم الحلفاء الطبيعيون لهم، لدرجة أن المعسكر المعادي للرسل ينعي عليهم عدم انضمام أحد إليهم إلا الأراذل؟ (الأراذل في مفهوم المستكبرين طبعًا) ولكنهم الأفاضل في مفهوم الإسلام .

كان النديم إسلاميًا وثوريًا وينطلق في انحيازه إلى الفقراء والمستضعفين إلى التراث الإسلامي والفهم الإسلامي، ولكن بعض الذين لا يريدون أن يفهموا الإسلام أو يفهموا النديم يريدون أن يخرجوا الرجل عن إطاره فيقولون أنه اشتراكي علمي – أو طوباوي – أو اشتراكي وغيرها من المصطلحات .

وبديهي أن الإسلام منحاز إلى المستضعفين، وإذا تشابه هذا مع أي من تلك المذاهب فهو مجرد تشابه في لون عيون شخصين لا يمتان لبعضهما بصلة،

فالإسلام كان متميزا ومستقلا وواضحًا وهو أسبق من كل تلك النظريات البشرية القاصرة .

كان النديم مثل الأفغاني، ومثل كل زعماء وجماهير الثورة العرابية يري أن القضاء على النفوذ الأجنبي هو اهم الأهداف إن لم يكن الهدف الوحيد، وكان النديم يفهم المسألة في إطارها الطبيعي.كان يدرك أن الصراع بين الحضارة العربية والصليبية الأوروبية صراع مستمر في الزمان والمكان، ولذلك نجد النديم يصف الغزو البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ م بأنه غزو صليبي وكان يحرض الجماهير من خلال هذا المنظور على مواجهة الغزو .

ليس هذا فحسب بل قبل الغزو البريطاني كان النديم ينبه الأذهان إلى المطامع الأوروبية المنطلقة من الحقد الصليبي، كان يهاجم النفوذ المالي الأوروبي عن طريق البنوك والربا والقروض، وكان يهاجم امتلاك الأجانب للمشروعات والوظائف، بل وكان يهاجم الاختراق الأخلاقي والثقافي الأجنبي لبلادنا، كان يهاجم القروض والإسراف والسفه والمرابين وبنوك المال الأوروبية، ويهاجم أيضا ما نشروه من خمارات ودعارات وقمار لأنه كان يفهم المسألة على أنها غزو حضاري سياسي واقتصادي وثقافي وأخلاقي .

وبسبب هذا اتهمه صابونجي وبلنت ورفعت السعيد بأنه مصاب بالتعصب الديني، وهذه تهمة لا تستند على حقيقة اللهم إلا أن الغرب ومدارسه الثقافية تري كل من يدافع عن بلاده ويكشف مطامع الغرب فيها بأنه مصاب بالتعصب الديني، كان النديم صادقًا مع نفسه فرأى الأشياء على طبيعتها رآها غزوًا صليبيا وصراعًا حضاريا فوصفها كما رآها، فوصفوه بالتعصب الديني وهو أبعد ما يكون عن التعصب لأن المسلم بحكم دينه وتراثه لم ولن يكون متعصبًا.

والنديم متهم عند صلاح عيسي بأنه نشر الهوس الديني لأنه كان يصف الأشياء كما رآها وكما هي حقيقتها، هل كان عليه أن يكذب ؟ حتى لا يصبح متعصبًا وغير ناشر للهوس الديني مثلا.

والنديم أيضا متهم عند صلاح عيسي بأنه أخطأ عندما استخدم الدعاية الدينية وحدها في تعبئة الجماهير، وهل كانت ومازلت الجماهير تفهم إلا هذه

اللغة ؟ وهل تتحرك الجماهير إلا من خلال الإسلام ؟، وهل يتكلم النديم بلغة لا يفهمها هو ولا تفهمها الجماهير أيضا ؟.

كان النديم جماهيريًا فكان إسلاميا، وكانت الجماهير ومازلت لا تتحرك إلا من خلال الأيديولوجية الإسلامية، وكان الصراع في جوهره صراعًا إسلاميًا صليبيًا، ولهذا كله استخدم النديم اللغة الوحيدة التي تعبر عن المسألة بصدق ولا تتجاهل الواقع ولا تتعالى على الجماهير.

رفاعة الطهطاوي مثقف السلطة

رفاعة الطهطاوي هو نموذج كامل للمثقف المرتبط بالسلطة، يخرج من عباءتها ويخوض معاركها ويبرر لها ويستفيد من علاقته بها وهو لا يرتبط بالجماهير ولا يعرف عنها شيئًا، والجماهير بدورها لا تعرف عنه شيئًا ولا تصل إليها ثماره الفكرية، ولا تقتنع بها ولا تتأثر بشيء منها، وتظل الثقافة السلطوية التي يمثلها رفاعة الطهطاوي حبيسة صالونات السلطة أو دواوينها.

ولد رفاعة الطهطاوي في محافظة جرجا بصعيد مصر سنة ١٨٠١ م من أسرة فقيرة، حفظ القرآن في الكتاب، ثم التحق بالأزهر وقضي به ثمان سنوات بين دارس ومدرس، ثم عين واعظًا وإمامًا في الجيش المصري النظامي الذي أسسه محمد علي، ولما جاء عهد البعثات العلمية التي أرسلها محمد على باشا على أوروبا تم اختيار رفاعة الطهطاوي إمامًا للبعثة الأولى، فهو لم يكن مرسلا إلا بصفته واعظًا وإمامًا للطلاب وفي أثناء تلك البعثة استطاع أن يطلع ويدرس عددًا كبيرًا من العلوم الفرنسية والآداب الأوروبية والمذاهب السياسية والاجتماعية التي كانت تعج بها باريس، وبعد ست سنوات كاملة في فرنسا عاد رفاعة الطهطاوي إلى مصر سنة ١٨٣١، حيث عمل في خدمة كل من محمد على وسعيد وإسماعيل إلى أن توفي سنة ١٨٧٣ .

ويعد كتاب (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) وكتاب (مناهج الألباب المصرية في مباهج الألباب العصرية) أهم أعماله وأثاره الفكرية، ويرى كثير من المثقفين المغتربين أن

رفاعة الطهطاوي هو رائد التنوير في الفكر المصري المعاصر، فالدكتور لويس عوض مثلا يفرد له فصلين في كتابه الفكر المصري الحديث تحت عنوان « رفاعة العظيم » والدكتور رفعت السعيد يفرد فصلين كاملين أيضا عن رفاعة الطهطاوي في كتابه تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر، الفصل الأول تحت عنوان الطهطاوي بستاني يغرس أزهارًا، والفصل الثاني تحت عنوان ولكن الأزهار لم تتفتح ولكنه لم يتساءل لماذا لم تتفتح تلك الأزهار.

وفي الحقيقة فإن هذه المسألة، أي عدم تفتح تلك الأزهار بفرض أنها كانت أزهارا هي جوهر الأزمة في رؤية المثقفين المغتربين للطهطاوي، وفي فكر وثقافة الطهطاوي نفسه .

لو فكر هؤلاء قليلا في المسألة لاكتشفوا الحقيقة الكاملة أنهم كانوا مخطئين حينما جعلوا الطهطاوي رائدًا للتنوير أو رائدًا للفكر الاشتراكي أو رائدًا لأي ثقافة على الإطلاق، إذ لو كان شيئًا من هذا لتفتحت الأزهار.

والحقيقة أن رفاعة الطهطاوي كان موظفًا يعمل في دائرة الثقافة أو التعليم التابعة لجهاز السلطة، ولم يخرج عن هذا الإطار أبدًا، كان هو كاتب السلطة ولسان السلطة يكتب من خلال كونه موظفًا لا أكثر ولا أقل، فإذا أرادت السلطة أن يروج الفكر الليبرالي تجده جاهزًا لهذا، وإذا أرادت أن يروج لفكر يعبر عن سيطرة الدولة على الإنتاج كما في عهد محمد على نجد الطهطاوي يفعل هذا، وإذا دخلت السلطة السياسية في مصر في معارك مع السلطان العثماني لانتزاع فرمان يزيد سلطتها في مصر تجد الطهطاوي يكتب عن أمجاد المصريين القدماء لتدعيم هذا المطلب تجاه الجماهير التي كانت متشربة بروح الخلافة الإسلامية حتى النخاع.

ولو نظرنا مثلا إلى الثورة العرابية باعتبارها تمثل أقصى حالات المد الجماهيري في ذلك الوقت، لوجدناها استمدت زادها الفكري والثقافي من الأفغاني والنديم، ولم نجد أي أثر لفكر الطهطاوي يظهر في الثورة أو من خلالها، وهذا أيضا دليل جديد على أن ثقافة الطهطاوي لم تخرج عن دائرة قصور

السلطة السياسية ولم تصل يومًا إلى الشعب بعكس الأفغاني والنديم، وهل يمكن اعتبار ثقافة لم يحس بها أحد في إطار ثورة كالثورة العرابية ؟ هل يمكن اعتبار هذه ثقافة تنوير؟.

ولكن لماذا هذا الإصرار من قبل المثقفين المغتربين على إبراز والاهتمام بالطهطاوي ؟ هل يرجع ذلك إلى أن ثقافة الاغتراب هي في حد ذاتها ثقافة سلطوية ومدفوعة الأجر تعمل لخدمة السلطة وبالتالي فهي تتجاهل الثقافة الشعبية أو تكيد لها وتحاول إبراز ثقافة مثل ثقافة الطهطاوي، أم أن ذلك يرجع إلى قصور في النظر أو عدم إلمامها بكل جوانب الموضوع وقطع الأشياء عن ظروفها الموضوعية أم خليط من كل هذا ؟.

على كل حال فمن المضحك مثلا أن يعتبر لويس عوض مثلا أن الطهطاوي كان رائد الفكر الليبرالي في حين يعتبره رفعت السعيد رائدًا للفكر الاشتراكي مع التناقض في المذهبين والفكرين، لو أمعن كليهما أو أحدهما النظر لعرف أن ما جاء من أفكار اشتراكية في كتابات الطهطاوي كانت مجرد تبرير ودعاية لنظام الاحتكار والسيطرة على كل أشكال ووسائل الإنتاج في عهد محمد علي، وأن ما جاء من أفكار ليبرالية في كتابات الطهطاوي كانت إما موجهة لانتقاد السلطان العثماني لخدمة محمد على أو إسماعيل أو موجهة لخدمة المشروع الذي يريد إسماعيل تنفيذه في مصر تقليدًا لأوروبا، وطبعًا بشروطه ولصالحه هو.

والأعجب من هذا أن البعض يدعي أن الطهطاوي كان رائدًا للقومية المصرية لأنه تحدث عن أمجاد الفراعنة وحضارة مصر القديمة، ويتناسى هذا البعض أن ذلك كان لحساب السلطة السياسية التي تريد الاستقلال بالسلطة في مصر عن الخلافة العثمانية بدعم كامل من الغرب وخاصة إنجلترا وفرنسا، ولو كان الطهطاوي رائدًا للقومية المصرية لكان من الصحيح أيضا أن القومية المصرية نشأت في أحضان السلطة وبتشجيع كامل من الغرب الاستعماري وخاصة فرنسا وإنجلترا.

وعلي أي حال فإن الطهطاوي مثلا تجاهل مسألة النفوذ الأجنبي في مصر ولم يشر إليه من قريب أو بعيد لأن السلطة السياسية التي يعمل لحسابها لم تكن تريد

ذلك اللهم إلا في إطار بعض التناقضات الثانوية، وهذا يوضح الفرق الكبير بين النديم كمثقف شعبي منحاز إلى قضايا الجماهير، وبالتالي كان التخلص من النفوذ الأجنبي على رأس اهتماماته لأنه كان على رأس اهتمامات الجماهير .

ولعل الأستاذ طارق البشري قد أصاب كبد الحقيقة عندما قال : وآية ذلك أن رفاعة في « تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لم يهتم كثيرًا بالنظام الاقتصادي في أوروبا لأن الليبرالية الاقتصادية الأوروبية كانت على طرف نقيض مع نظام محمد على الاقتصادي القائم على الاحتكار، فقصر جهده وقتها في الحديث عن الليبرالية السياسية التي تشكل في الأساس تحديًا للسلطان العثماني، وعلي عكس ذلك فعل الطهطاوي في ١٨٦٩ م في كتابه « مناهج الألباب » فركز اهتمامه في الاقتصاد ولم يهتم بالنظام السياسي إذ كان احتكار محمد على قد تفكك من نحو ثلاثين عامًا وكان النظام السياسي بمصر قد استقر في الأسرة الخديوية العلوية فتخلي رفاعة عن كثير من الليبرالية السياسية وأسقط عن رئيس الدولة مسئوليته الدستورية إلا أمام ضميره وربه والتاريخ، أما أمام الرأي العام فبالنصح فقط [١].

كان الطهطاوي موظفًا في جهاز السلطة التعليمي والثقافي، وقد خدم السلطة في هذا الإطار بحماس، وحصل على المقابل بسخاء، فعلى حين أنه بدأ حياته معدمًا فقيرًا لدرجة أن الرافعي في ترجمته له ص ٤٣. من كتاب عصر محمد على يقول عنه:« كان الطهطاوي إلى ذلك الحين فقيرًا رقيق الحال إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من الحلي والعقار، وكان يستعين على معاشه بإعطاء دروس لأنجال الوجهاء » نجد أنه مات وقد ترك لورثته ٢٥٠٠ فدان عدا المباني والعقارات (وفقًا لعلي مبارك في كتابه الخطط الجديدة).

إذًا فقد خدم الطهطاوي السلطة واستطاع أن يحصل في المقابل على إنعامات وهدايا ومرتبات تسمح له بتكوين ثروة من ٢٥٠٠ فدان، وقارن هذا بالنديم الذي مات منفيًا لا يملك ثمن كفنه.

(١) طارق البشري- المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق ص ٢٧٠.

وكل ما سبق لا يوحي بأن الطهطاوي كان رجلاً غير شريف أو مرتشي أو خالي من الكفاءات، ولكن المسألة أنه عمل كموظف وأخلص لوظيفته ولم يفهم الثقافة هنا كرسالة أو مهمة تنويرية أو غيرها، وإنما فهمها كوسيلة للترقي وزيادة الإنعامات والمرتبات وكان في ذلك نموذجًا لعدد كبير ممن دخلوا سلك الوظائف المدنية أو العسكرية من أجل تحسين أوضاعهم الاقتصادية، والطهطاوي كان من هؤلاء، وقد دخل في خدمة جهاز الدولة الثقافي ونبغ في هذا الإطار لا أكثر ولا أقل، بل هو أيضا لم يتخل عن ثقافته الإسلامية التي حصل عليها في الأزهر، بل وكان فقيهًا متميزًا وموسوعيًا إلا أنه أيضا استفاد بتلك الثقافة الأزهرية في الدعوة إلى سياسات النظام والسلطة ومحاولة جعلها تتفق مع التراث الإسلامي أو على الأقل لا تخرج عن إطار هذا التراث، بل لا مانع أيضا أن يحاول الطهطاوي خدمة قضايا التراث الإسلامي بما لا يضر السلطة ولا يتعارض معها.

هذا هو الإطار الحقيقي لفهم الطهطاوي، وأي خروج به عن إطار الموظف يوقع في مجموعة من الأخطاء المنهجية والثقافية والتاريخية ويجعل المسألة مجردة من الموضوعية، بل تصبح افتئاتا على الرجل وعلى الثقافة.

البارودي والأرستقراطية الثورية

يمثل محمود سامي البارودي نموذجا متميزًا لأكثر من سبب أولها أنه كان ينتمي إلى طبقة كبار ملاك الأراضي في العصر الذي كان يعيش فيه، وهو عصر الخديوي إسماعيل، وهو أيضا شركسي الأصل أي ينتمي إلى الأرستقراطية التي كانت تحكم مصر من خلال الأسرة الخديوية وتتمتع بجميع المزايا المترتبة على ذلك من وظائف ونفوذ وأموال، ومع كل هذا فإنه ضحي بمصالحه الشخصية والأسرية والطبقية والحسبية وانحاز إلى الثورة العرابية لأنه أدرك أن « الولاء للإسلام »، والثورة الإسلامية أهم من كل شيء من المال والوظائف والطبقة، ولأنه عرف أن الثورة على النفوذ الأجنبي والاستبداد الخديوي من أهم فرائض الإسلام فإنه كان من أكثر الثوريين ثورية في إطار الثورة العرابية، ومن أكثرهم تماسكًا وصمودًا بعد هزيمة الثورة وظل متمسكًا بمبادئ الثورة في السجن أو في المنفي رغم أن الكثيرين اعتراهم الضعف الإنساني الذي يصيب المناضلين في السجون أو المنافي وانقلبوا على مبادئ الثورة أو ندموا على مشاركتهم في الثورة .

ولد البارودي في مصر سنة ١٨٤٠ م وهو شركسي الأصل، وكان جده أحد الملتزمين الذين يتحكمون في عدد كبير من المساحات الزراعية، وكانت بلده إيتاي البارود هي إحدى مناطق التزام جده بل وسميت باسمه، دخل البارودي المدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٥٥م، ثم ذهب

إلى الأستانة وتعمق في دراسة اللغة الفارسية بالإضافة على التركية التي كان يجيدها مثل كل الأرستقراطية المصرية في ذلك الوقت، وعاد على مصر في أوائل عهد الخديوي إسماعيل وأخذ يرقى إلى أن أصبح برتبة لواء وشارك في العديد من المعارك مثل حروب كريت والحرب بين تركيا وروسيا، وأبلى في المعارك بلاء حسنًا، ثم عين بعد ذلك محافظًا لمحافظة الشرقية سنة ١٨٧٦ م، ثم مديرًا للعاصمة (القاهرة) ١٨٧٧م، ثم وزيرًا للمعارف والأوقاف في وزارة شريف باشا ١٨٧٩م، وبعد أن أصبحت الثورة العرابية في أوج انتصارها في أوائل سنة ١٨٨١ م أصبح وزيرًا للحربية، ثم رئيسًا للوزراء أوائل سنة ١٨٨٢ م، وبعد هزيمة الثورة ودخول الجيش الإنجليزي إلى القاهرة تمت محاكمته ضمن زعماء الثورة وصدر الحكم بالنفي المؤبد ضده وتمت مصادرة أملاكه وتجريده من رتبه ونياشينه وتوفي سنة ١٩٠٤م .

تأثر محمود سامي البارودي بأفكار الزعيم الإسلامي العظيم جمال الدين الأفغاني، وكان أحد تلاميذه المخلصين، كان يؤمن بضرورة إيقاظ المسلمين والقضاء على النفوذ الأجنبي، وعلى الاستبداد الخديوي وبناء قاعدة إسلامية في مصر على أساس العدل والحرية وإنصاف الفقراء ونصرة المستضعفين، وكان يعرف أن هذه نفسها هي مبادئ الثورة العرابية وأهدافها ومع ذلك انضم إلى الثورة منذ وقت مبكر وأصبح من كبار زعمائها على الرغم من أنه يعرف أن انتصار الثورة العرابية يعني ضياع نفوذه الطبقي والقضاء على الخديوي الشركسي مثله، وأن هزيمتها تعني محاكمته وضياع أمواله، بل ورقبته ذاتها أو حريته على الأقل، ومع كل هذا انحاز إلى الثورة مضحيًا بمصالحه الأسرية والطبقية، ومغامرًا أيضا بكل مستقبله العريض إذا فشلت الثورة.

لم يكن طالب سلطة، لأنه كان لواء وباشا وشركسي ومن نفس الطبقة التي تحكم مصر، بل هو بالتحديد من كبار الملاك ومن كبار الموظفين أيضا فقد عمل مديرًا للشرقية ثم مديرًا للعاصمة ثم وزيرًا للمعارف والأوقاف، وكل هذا في ظل حكومات ما قبل الثورة.

ولم يكن طالب جاه أو نفوذ بل مضحيًا بكل هذا من أجل مصلحة الأمة

الإسلامية، ومن أجل مبادئ الإسلام العظيمة التي درسها وآمن بها على يد الأفغاني.

بل أكثر من هذا أنه من كبار الثوريين المتشددين، فعندما تمت محاكمة الضباط الشراكسة المتآمرين على زعماء الثورة سنة ١٨٨٢ م والمعروفة باسم مؤامرة الضباط الشراكسة، كان البارودي من أشد المتحمسين لتنفيذ أقصي الأحكام عليهم رغم أنه مثلهم شركسي، بل ودخل مع الخديوي في معركة حول ضرورة عدم تخفيف الأحكام الصادرة ضدهم، أي أنه كان مواليًا للإسلام والثورة أكثر من ولائه لأي شخص آخر.

وبرغم نشأة البارودي المترفة والناعمة، كان من أكثر زعماء الثورة صمودًا في السجن أثناء المحاكمة، وفي المنفي بعد المحاكمة وظل يتمتع بروح معنوية عالية، وظل مخلصًا لمبادئ الثورة حتى النهاية رغم أن الكثيرين تخلوا عنها أو ندموا عليها تحت قسوة ظروف السجن والمنفي.

والبارودي ليس مجرد زعيم ثوري، بل أيضا على حد قول الرافعي :« إمام الشعر الحديث »، وأول من نهض به وجاري في نظمه فحول الشعراء المتقدمين فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود »

ليس هذا فحسب بل إن البارودي قد خاض معركة كبيرة للدفاع عن اللغة العربية الفصحى ضد الدعاوى الاستعمارية التي أرادت أن تروج للغة العامية حتى تقطع الأواصر بين العرب، وحتى تصبح لغة القرآن الكريم لغة غريبة علينا .

مصطفى كامل
(١٨٨٩ ١٩٠٧)
زعيم إسلامي شعبي

الحركة الإسلامية، حركة ممتدة في الزمان والمكان، ، وهي حركة أمة لإنقاذ العالم من القهر والظلم والاستبداد، ومع ظهور الاستعمار الأوروبي في المنطقة وسقوط الخلافة الإسلامية وتفكك عري بلاد المسلمين، تمثلت الحركة الإسلامية في حركات الكفاح الشعبي الثوري والجهادي ضد الاستعمار، ومصطفى كامل أحد حلقات هذا الكفاح الشعبي ضد الاستعمار الإنجليزي في مصر.

كانت حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الاستعمار الأوروبي قد بدأت من الأزهر ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م، وقاد عمر مكرم الشعب المجاهد ضد حملة فريزر ١٨٠٧، ثم جاءت الثورة الإسلامية العرابية لمواجهة النفوذ الأجنبي في مصر واستبداد الأسرة الخديوية.

ومع فشل الثورة العرابية، واحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢، حاولت سلطات الاحتلال الإنجليزي بالتعاون مع الخديوي والخونة اجتثاث جذور حركة الجهاد الشعبي في مصر والقضاء عليها، ونجحت تلك السلطات في القضاء على كثير من عناصر الثورة بالنفي أو السجن أو القتل، ولكن عبد الله النديم استطاع أن يختفي سبع سنوات كاملة ١٨٨٢ ـ ١٨٨٩، وأن يحافظ على شعلة الثورة متقدة إلى أن سلمها إلى مصطفى كامل سنة ١٨٨٩ م من خلال اللقاء به عن طريق لطيف سليم باشا أحد قيادات الثورة التي أفلتت من سلطات الاحتلال – وفي بيت سليم باشا نقل عبد الله

النديم دروس الثورة ومواعظها وخبراتها إلى مصطفى كامل، وعلى كل حال لم تلبث سلطات الاحتلال أن قامت بنفي عبد الله النديم إلى خارج مصر– ولكن جذوة الثورة ورايتها كانت قد انتقلت إلى يد مصطفى كامل.

كان مصطفى كامل يدرك أن الأجواء الشعبية الثورية في حالة جزر، وأن روح اليأس تسيطر على كثير من النفوس في أعقاب فشل الثورة العرابية، وهكذا وضع مصطفى كامل أمام عينيه محاولة بث روح الأمل والثورة في النفوس – وبدأ مصطفى كامل يجوب أنحاء مصر ليخطب في التجمعات الشعبية بأسلوبه المؤثر يبعث في النفوس الأمل ويحث الجماهير على الكفاح.

إسلامية مصطفى كامل

حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الاحتلال الأجنبي حركة إسلامية قلبًا وقالبًا، مصطفى كامل امتداد طبيعي لعمر مكرم – الأفغاني – النديم – والحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل هو حزب الجامعة الإسلامية.

يقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه :« المسألة الشرقية » الذي صدر سنة ١٨٩٨م :« إني أضرع إلى الله فاطر السماوات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي – ليعيش المسلمون والعثمانيون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللإسلام إمامه وناصره » ويضيف مصطفى كامل :« اتفق الكتاب والسياسيين على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية العثمانية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها ، وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا، وقال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام؛ أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية :(المسألة الشرقية ص٥) .

ويضيف مصطفى كامل :« إن العناصر التي أشعلت الفتن كالأرمن تستعملها بعض الدول كانجلترا فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية.

وقد ثبت ذلك جليا في المسألة الأرمينية وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية، فمسألة الدين في الدولة العلية العثمانية هي للآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات، وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة العثمانية إنما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم وإتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم، فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمينية إنما ماتوا فريسة للدسائس الإنجليزية، والذين ماتوا في كريت ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية؛ بل الذين ماتوا من اليونانيين ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية ذاتها – المسألة الشرقية ص٨، ٩ .

ويقول مصطفى كامل في ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية « ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلية ضروري للجنس البشري، وأن في بقاء سلطاتها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق، وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة و الإعلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وأن زوالها لا قدر الله مجلبة للأخطار ومشعلة لنار يمتد لهيبها بالأرض شرقًا وغربًا، وشمالا وجنوبًا، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية، وأن الذين يدعون لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عمومًا قبل مسلميه، فقد أجمع العقلاء البصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين تجري كالأنهار والبحار في كل واد (المسألة الشرقية ص ١٣، ١٤) .

ويقول في سعي إنجلترا لهدم الخلافة العثمانية وتعضيدهم لكل خارج عليها: « قد علمت إنجلترا أن احتلالها لمصر كان ولا يزال سببًا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقًا الاتفاق مع إنجلترا على بقائها في مصر، ولذلك رأت إنجلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء في

مصر وبقاء يدها على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية، ونقل الخلافة العثمانية إلى أيدي رجال يكونون تحت وصاية إنجلترا، ويكون آلة في أيديهم ولذلك أخرج الإنجليز مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية، ولذلك أيضا كنت ترى الإنجليز ينشرون في جرائدهم أيام الحوادث الأرمينية مشروع تقسيم الدولة العلية ـ حماها الله ـ جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب أي السلطة العامة على المسلمين (المسألة الشرقية ص ١٩٠).

ويقول أيضا:« إن الذي يبغضه الإنجليز في السلطان العثماني هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة العثمانية ، ولذلك اهتم الإنجليز بالأفراد القليلين الذين قاموا ضد الخلافة وقدموا لهم المساعدة، ومن هؤلاء الداعون إلى خلافة عربية حيث يريد الإنجليز إقامة خلافة عربية تحت وصايتهم، وفي ذلك كتب المستر بلنت أن مركز الخلافة يجب أن يكون عربيًا وأن الخليفة يجب أن يكون رئيسًا دينيًا فقط لا ملكًا دنيويًا، أي أن الأمور الدنيوية تترك للإنجليز لتقدير أمورها كيف تشاء »، (المسألة الشرقية ص ١٩٠).

ويختم مصطفى كامل الفصل الأول في كتابه (المسألة الشرقية) بالدعوة إلى الالتفاف حول راية الخلافة العثمانية قائلا :« واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنجلترا للدولة العلية أن يجتمعوا حول راية الخلافة وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفاني الكبير منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيدًا، وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدسة، وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وبقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية » المسألة الشرقية ص ٢٣.

ويلمح مصطفى كامل إلى التعصب الصليبي في سلوك مستر جلادستون في خطابه له بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ قائلا :« وإلا فهل مسلمو مصر أقل استحقاقا لرعايتك العالية من مسيحي الأرمن ؟ ».

وفي إطار دعوة مصطفى إلى نشر التعليم حرص على تأكيد الطابع الديني

للتعليم بالعلوم الإسلامية ومكارم الأخلاق في نفس الوقت مع الاهتمام بالعلوم العصرية والطبيعية، يقول مصطفى كامل :« يجب تأسيس المدارس في كل مكان على أساس من الدين القويم والتربية السليمة » (المؤيد عدد ٣١ يوليو سنة ١٨٩٥).

يقول الرافعي : « إن مصطفى كامل اتجه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية فأصدر صحيفة أسبوعية باسم العالم الإسلامي، كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء » (الرافعي ـ مصطفى كامل ص ٤٣١).

ويوحد مصطفى كامل الدين والوطنية في صعيد واحد قائلا :« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية وأن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء، ولكني أري أن الدين والوطنية توأمان متلازمان »، خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية في يونيو سنة ١٩٠٠ م.

ويصف مصطفى كامل الحضارة الأوروبية بأنها حضارة ظالمة قائلا :« من سوء حظ الجنس البشري أن المدنية الحاضرة أعلنت الرق في الشعوب وسمحت بمخالفة الذمة والشرف في المعاملات الدولية » خطبة مصطفى كامل في القاهرة في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ م .

ويلخص مصطفى كامل أحوال العالم الإسلامي في زمانه قائلا :« إن هناك أسبابا واحدة لتأخر المسلمين وأن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وأن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط، بل هو قانون اجتماعي أيضًا، وأن ميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي » من مقال مصطفى كامل في صحيفة الطان الفرنسية. عدد٨ ديسمبر سنة ١٩٠٦ . التناقضات الجوهرية والتناقضات الثانوية

لا شك أن قضية التناقضات الجوهرية والتناقضات الثانوية من القضايا الهامة التي مازالت تشغل جزء كبير من الاهتمام الإسلامي والثوري عمومًا، ولا شك أن الظروف الدولية التي ظهر في ظلها مصطفي كامل تمثل نموذجًا هامًا في هذا الإطار.

وبداية فإن مصطفي كامل - مثل غيره من الزعماء الإسلاميين- كان يدرك أن هناك تناقضًا جوهريًا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، وأن المعسكرين المتميزين هما معسكر الشعوب الإسلامية من ناحية ومعسكر الغرب

الاستعماري الصليبي وحلفاؤه من الحكومات العميلة من ناحية أخري، وأن التاريخ القديم والحديث يؤكد على حقيقة هذا التناقض الجوهري، ولكن هناك أيضًا تناقضات ثانوية بين قوى المعسكر الاستعماري ذاته وإنه لا مانع من الاستفادة بها بشرط أن نتأكد دائمًا إنها مجرد تناقضات ثانوية وأنه لن يحسم المعركة مع الاستعمار إلا كفاح الشعوب، كان هناك تناقضات ثانوية بين إنجلترا وفرنسا في إطار التسابق الاستعماري، ولكن هذا التناقض الثانوي ما لبث أن تلاشي عند ظهور الثورة الإسلامية العرابية، بل وقامت فرنسا بمساعدة إنجلترا على احتلال مصر مضحية بمصالحها في مصر لأن هذا أفضل من ظهور ثورة إسلامية قوية في مصر تكون خطرًا على المشروع الاستعماري بكامله، أو خطرًا على المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا، وقد عبر عن ذلك وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت في تهنئة للسفير الإنجليزي في باريس بمناسبة احتلال الإنجليز مصر ونجاحهم في القضاء على الثورة العرابية.

على أي حال حاول مصطفي كامل أن يستفيد من التناقض الثانوي بين إنجلترا وفرنسا في الدعوة للقضية الوطنية، ولكن مع تصاعد الحركة الوطنية في مصر وقوتها تلاشت تلك التناقضات الثانوية، ووقع الإنجليز والفرنسيين الاتفاق الودي سنة ١٨٠٤م الذي يقضي بإطلاق يد إنجلترا في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في الجزائر والمغرب، أي أن فرنسا شجعت الحركة الوطنية في مصر لتحسين ظروف التفاوض مع إنجلترا في إطار التسابق الاستعماري لا أكثر ولا أقل.

وفي نفس إطار التناقضات الثانوية، شجع الخديوي عباس حلمي الثاني الحركة الوطنية و مصطفي كامل. وحاول مصطفي كامل الاستفادة من الخديوي،ولكن مع تصاعد الحركة الوطنية في مصر، خاف الخديوي عباس حلمي الثاني من خطرها على عرشه فأدار لها ظهره وأظهر الود للإنجليز، أي أن الخديوي عباس حلمي الثاني أيضًا أراد من دعم الحركة مجرد تحسين أوضاعه أمام الإنجليز لا أكثر ولا أقل والمحافظة على أكبر قدر ممكن من السلطة في مصر

من السيطرة الإنجليزية.

وعلى أية حال فخبرة هذه التجربة تؤكد أنه لا فائدة كبيرة من الاعتماد على تلك التناقضات الثانوية، ولكنها أيضًا لا تمنع من الاستفادة بها بشرط إدراك أنها مجرد تناقضات ثانوية لا تلبث أن تزول مع تصاعد قوة الحركة الوطنية، وأن الطريق الوحيد لحسم المعارك الوطنية هو الاعتماد على سواعد الجماهير.

ولا شك أن مصطفي كامل كان يدرك ذلك كله ويعمل في إطاره، لأن الحركة الوطنية المصرية استمرت وتصاعدت بعد الاتفاق بين الإنجليز والفرنسيين، وبعد أن أدار الخديوي عباس حلمي الثاني ظهره لها، ولو كانت تعتمد على الفرنسيين أو الخديوي أساسًا لانهارت بمجرد تخلي هذه أو ذاك.

وقد عبر مصطفي كامل عن وعيه بهذه المسألة قائلاً : « إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار » (اللواء - عدد ٢٨ أغسطس - سنة ١٩٠٠) .



محمد فريد زعيم من طراز فريد

كان الزعيم محمد فريد متفردًا في كل مزاياه، فهو مسلم شديد التدين، وهو ثوري شديد الثورية، وهو متجرد ومخلص إلى أقصى درجة، وهو منحاز إلى الفقراء والمستضعفين برغم كونه من أسرة ثرية، ثم هو يعطي بلا حدود، فينفق معظم ثروته على العمل الوطني ويموت في المنفي فقيرًا مريضًا.

الجامعة الإسلامية:

محمد فريد هو خليفة مصطفي كامل على زعامة الحزب الوطني منذ ١٩٠٧ وقبل ذلك كان الرجل الثاني في الحزب وهو رفيق كفاح مصطفي كامل منذ البداية وبالتالي فإن مبادئ الحزب الوطني في حياة مصطفي كامل هي نفسها مبادئ محمد فريد لأنه شارك في صنعها وآمن بها منذ البداية، ثم استمر على نفس المبادئ في فترة زعامته للحزب الوطني منذ ١٩٠٧ وحتى وفاته سنة ١٩١٩، وكانت تلك المبادئ هي الجامعة الإسلامية ـ الجلاء ـ وحدة وادي النيل ـ الدستور.

وفي إطار الإيمان بوحدة المسلمين « الجامعة الإسلامية » انفرد محمد فريد بتأجج هذا الإيمان وقوته لدرجة أنه ألف كتبًا عن تاريخ الدولة العلية العثمانية طبع سنة ١٨٩٣ م ثم أعيد سنة ١٨٩٦ م ثم في سنة ١٩١٢ م مما يدل على ثبات موقف محمد فريد في هذا الصدد.

يقول محمد فريد في مقدمة هذا الكتاب :« إن الملك العثماني قد لم شعث الولايات الإسلامية، وإن التعصب الديني في الممالك الأوروبية قد قام لتفتيت هذه الوحدة، وإن الدولة العلية هي الحامية لبيضة الإسلام والمدافعة عن حرية شعوب الشرق والزائدة عن حياضه ».

ويقول الرافعي: « إن سياسة محمد فريد الإسلامية هي سياسة مصطفى كامل، فقد عمل على توثيق عرى التعاون والتضامن بين الأمم الإسلامية، وكان يدعو إلى هذه الغاية في مقالاته وخطبه وأحاديثه ». (الرافعي ـ محمد فريد، ص ٤٩٦).

وقد اهتم محمد فريد في منفاه في أوروبا بإنشاء جمعية ترقي الإسلام، كما أصدر مجلة بالفرنسية للتحدث باسم هذه الجمعية وتعمل على نشر المقالات الإسلامية والأخبار التي تهم العالم الإسلامي.

كما حرص محمد فريد - كما يقول الرافعي- على توثيق علاقة مصر بتركيا، لكي يحبط المساعي الإنجليزية التي كانت ترمي إلى حمل الحكومة التركية بمختلف الوسائل على الاعتراف بمركز الاحتلال البريطاني في مصر. (الرافعي ـ محمد فريد، ص ٤٩٦).

الانحياز إلى الفقراء والمستضعفين :

وانطلاقًا من فهم محمد فريد للإسلام وانطلاقًا من التزامه بمبادئ هذا الدين الحنيف فإن محمد فريد انحاز انحيازًا واضحًا إلى الفقراء والمستضعفين، كما اهتم بنشر التعليم، وتتجلي جهوده تلك في دراسته للميزانية في اجتماعات الحزب الوطني، ودعوته إلى تعديلها للإنفاق على إصلاح حالة الشعب والعناية بالصحة والأحياء الوطنية، ففي يوم ٧ يناير سنة ١٩١٠م يقول محمد فريد :« إن هناك إهمال واضح للأحياء الشعبية، وهناك عدم اعتناء بصحة الأهالي لدرجة مروعة إذ ثبت بالإحصاء أن متوسط الوفيات في السنة يتراوح بين (٨٠ –٦٠) في الألف مع أنها في مدن أوروبا عن ٢٥ في الألف مطلقًا وليس هذا لفقر الميزانية المصرية ولكن من إهمال مصلحة الصحة وصرفها المبالغ المخصصة لها في الأحياء التي يقطنها الإفرنج وإهمالها باقي الأحياء ».

وفي نفس الخطبة يقول محمد فريد :« إن المعاهدات التجارية التي تبرمها الحكومة مع الدول لا تراعي مصالح البلاد الاقتصادية، فيجب الاهتمام بالحاصلات الضرورية للفقراء وعدم فرض ضرائب عليها، بل يجب فرض الضرائب والجمارك على المنتجات الأجنبية وتشجيع الصناعة الوطنية، وليس من المعقول أن نفرض على الحنطة والدقيق نفس الضرائب التي تؤخذ على الخمور، بل ليس من المعقول أن تفرض الحكومة ضريبة ٨٠٪. على المغازل المصرية في حين تعفي صناعة الخمور منها ».

دعا محمد فريد إلى وضع تشريع للعمال يراعي مصالحهم ويرفع عنهم البؤس والجهل والإرهاق، كما اهتم بإنشاء نقابات للعمال والصناع لترقية أحوالهم والعناية بشؤونهم، وساهم بنفسه في تأسيس نقابة للصناع بالقاهرة وهي نقابة عمال الصنائع اليدوية وأنشأ لها ناد ببولاق، كما اهتم بدعم قيادات الحزب الوطني، وساهم في إنشاء العديد من الجمعيات التعاونية الزراعية والصناعية في القرى والمدن، وقد وجه محمد فريد تلاميذه إلى بذل جهودهم لدعم الحركة التعاونية والمشروعات الاقتصادية واعتبر هذا عملاً وطنيًا من الدرجة الأولي. (الرافعي ـ محمد فريد ص ٤٩٩).

كما وجه محمد فريد عنايته بالتعليم فسعى إلى تأسيس مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناع والعمال مجانًا، وأسس العديد من هذه المدارس في القاهرة والبنادر، وكان يدعو دائمًا إلى تعميم التعليم الابتدائي وجعله مجانيًا وإلزاميًا لكل مصري ومصرية، كما ساهم في إنشاء الجمعيات الخيرية بهدف تأسيس المدارس، وعمل على إنشاء مدرسة ثانوية في كل مدينة، وكان من أهم العناصر المؤسسة لمشروع الجامعة المصرية، واكتتب في مشروع الجامعة المصرية بمبلغ مائتي جنيه سنويا.

وقد وصل انحياز محمد فريد إلى الفقراء إلى درجة أن مدام رينيه سجلت بنفسها القول بأن أفكار محمد فريد تكاد تكون متقاربة مع أفكار لينين حول استغلال الرأسمالية لطبقات الشعب (المصور، ١٤ نوفمبر ١٩٦٩ حديث صحفي مع

صديقة محمد فريد الفرنسية مدام رينيه ص ٣٠، نقلاً عن د. عصام ضياء الدين، الحزب الوطني والكفاح السري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١١٥).

وفي الحقيقة فإن كراهية محمد فريد للرأسمالية وانحيازه للفقراء، كان نابعا من الإسلام، وأن اتفاقه في الأفكار مع لينين لا يرجع إلى إيمان محمد فريد بالماركسية أو الاشتراكية، بل يرجع إلى الفهم العميق للإسلام الذي كان يمثله محمد فريد وبديهي أن الإسلام ينحاز إلى الفقراء ويكره استغلال الشعوب. ويحارب الرأسمالية بطريقة أكثر جدوى وعملية من الماركسية والاشتراكية وغيرها من المبادئ والنظريات الوضيعة التي انهارت الآن بعد إفلاسها، ولو لجأت البشرية إلى الإسلام كحل لقضايا الظلم الاجتماعي لكان مصير البشرية الآن مختلفًا ولكان الفقراء والمستضعفين قد حصلوا على حقوقهم كاملة، ولكان عصر الرأسمالية البغيض قد انهار منذ فترة طويلة.

الإعداد للثورة

كان محمد فريد يؤمن بأن الأسلوب الوحيد لمقاومة الاحتلال هو الكفاح الشعبي السلمي والمسلح ـ العلني السري ـ وقد سجل الدكتور عصام ضياء الدين في كتابه الرائع «الحزب الوطني والكفاح السري ١٩٠٧ـ ١٩١٥م» الرأي بأن محمد فريد قد لعب دورا كبيرا بالاتفاق مع كل من عبد العزيز جاويش وإبراهيم الورداني في إنشاء وإدارة الكثير من المنظمات والجمعيات السرية بهدف تسليح الجماهير بالوعي والقوة والإعداد للثورة على الإنجليز والخديوي، وأن محمد فريد كان يستهدف إنشاء تنظيم سري وكبير في كل مكان استعداداً لتلك الثورة، وفي الحقيقة فإن سلطات الاحتلال قد أشارت إلى وجود ٨٥ منظمة سرية مسلحة تابعة للحزب الوطني سنة ١٩١٠، وهو رقم كبير جدًا يدل على مدى انتشار تلك الجمعيات السرية.

يقول د. عصام ضياء الدين في نفس المرجع السابق الإشارة إليه ص ٢٩٣ : وفي الحقيقة فإنه لولا تلك الجهود التي بذلها الحزب الوطني وقيادته الثورية لما نشبت ثورة ١٩١٩، فمما لا شك فيه أن الكوادر الثورية التي خلقها الحزب في مصر كان مقدرًا لها القيام بالثورة قبل هذا التاريخ بسنوات ولكنه نظرًا لظروف

الإرهاب والنفي والاضطهاد والتنكيل التي مارستها سلطات الاحتلال على الوطنيين أثر حادثة بطرس غالي وطيلة سنوات الحرب العالمية الأولي فإنه لم يكن هناك مناص من تأجيل الثورة، فالحزب الوطني حرك في المصريين مرة أخرى مشاعر الثورة بعد السكون الرهيب الذي أطبق على الحياة في مصر بعد انتكاسة ثورتها سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م، وكانت الفترة من ١٩٠٨ ـ ١٩١٢ م حين خرج محمد فريد من البلاد فترة نضوج ثوري بعد جهود الحزب المخلصة في تحرير الشعب وممارسة العنف الثوري الذي تجلى في الحوادث العديدة التي شهدتها مصر منذ ١٩١٠م إلى ١٩١٥م.



الشيخ عبد العزيز جاويش

هو من الشخصيات الهامة التي لعبت دورًا في الحياة الوطنية المصرية من خلال الحزب الوطني، بل يعد الرجل الثاني في الحزب بعد محمد فريد خاصة في الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٢م وهي الفترة التي تولي فيها الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير جريدة اللواء الناطقة بلسان الحزب الوطني، وهو منصب هام ولاشك ويعبر ثقة الحركة الوطنية في مصر في الشيخ عبد العزيز جاويش ويعبر أيضًا عن مدى وطنية وإخلاص الشيخ عبد العزيز جاويش للحركة الوطنية في مصر ومبادئها الراسخة كالجامعة الإسلامية والجلاء ووحدة وادي النيل، والدستور والدفاع عن المستضعفين.

ولاشك أن الجهد الكبير الذي بذله الشيخ عبد العزيز جاويش وما لاقاه من صعوبات، وما قدمه من تضحيات في سبيل الحركة الوطنية في مصر، وكذلك ثقة تلك الحركة وزعيمها محمد فريد في الشيخ عبد العزيز جاويش لدرجة إسناد منصب رئيس تحرير جريدة الحزب الرسمية إليه إنما يعبر عن روح الجامعة الإسلامية والعالمية الإسلامية أيما تعبير، حيث الشيخ عبد العزيز جاويش تونسي الأصل، ولكن الواجب الإسلامي الذي يرفض القوميات والحدود بين المسلمين هو الذي دفع الشيخ عبد العزيز جاويش إلى تلك الجهود والتضحيات، وهو أيضًا الذي جعل الحركة الوطنية في مصر بقيادة محمد فريد تقدم هذا الرجل التونسي ليكون معبرا عنه ورئيسًا لتحرير جريدتها الرسمية.

«وكان محمد فريد قد تعرف بالشيخ عبد العزيز جاويش في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وعرفه بمصطفي كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية والإسلامية ».

ومن سنة ١٩٠٥ انخرط الشيخ عبد العزيز جاويش في الحركة الوطنية في مصر برغم أنه تونسي الأصل لأن الدفاع عن قضايا المسلمين والإسلام أمر لا يتجزأ، وقد أسند إليه محمد فريد رئاسة تحرير جريدة اللواء سنة ١٩٠٨ واستمر يعطي في ذلك الموقع عطاءً وطنيًا متميزًا حتى سنة ١٩١٢، حيث تم نفيه إلى الأستانة.

وقد تمت محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش عدة مرات بسبب مواقفه الوطنية وحماسه الشديد للقضايا الوطنية في مصر والسودان، فقد حوكم في يوليه ـ أغسطس سنة ١٩٠٨ بتهمة إهانة وزارة الحربية لنشر قضية «الكاملين» التي دافع فيها الجاويش عن أهالي بلدة الكاملين بالسودان بقيادة الشيخ عبد القادر واتهم الحكومة بإحداث مذبحة مثل مذبحة دنشواي في بلدة الكاملين بالسودان وأنها أعدمت ٧٠ رجلا، وحكمت بالسجن المؤبد على ١٣ آخرين، وقد قضت المحكمة التي نظرت القضية ببراءة الشيخ عبد العزيز جاويش من التهم الموجهة إليه.

كما حوكم للمرة الثانية في يونيو ـ أغسطس ١٩٠٩، وذلك لنشر مقالة عن ذكرى حادثة دنشواي وقد قضت المحكمة بحبس الشيخ عبد العزيز جاويش ثلاثة اشهر قضاها الرجل صامدًا محتسبًا.

أما المرة الثالثة، فقد كانت سنة ١٩١١، وذلك بسبب كتابة مقدمة كتاب وطنيتي الذي ألفه الشيخ على الغاياتي، وهو أحد محرري جريدة اللواء وأحد مناضلي الحركة الوطنية في ذلك الوقت، وقد صدر الحكم على الشيخ عبدالعزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر أخرى قضاها الرجل أيضًا صابرًا محتسبًا، وقد صدر حكم بالحبس على محمد فريد ستة أشهر أيضًا في نفس القضية، قضاها محمد فريد بعد عودته من أوروبا.

كان الحزب الوطني في ذلك الوقت قد أنشأ عددا كبيرا من الجمعيات السرية لمقاومة الانجليز وللإعداد لتفجير الثورة الشاملة ، وقد لعب الشيخ جاويش دورا كبيرا مع كل من محمد فريد وإبراهيم الورداني في هذا الصدد ،وفي محاولة من الحزب الوطني للتغطية على الجمعيات السرية، قام الشيخ عبد العزيز جاويش بإنشاء عدد من الجمعيات العلنية، ليستقطب إليها اهتمام البوليس السياسي الذي تم إنشاؤه خصيصًا لمتابعة الجمعيات السرية، ولتكون غطاء للعمل السري في نفس الوقت، فأسس الشيخ عبد العزيز جاويش جمعية التشجيع على التعليم الحر ، وجمعية ، حصن اليتامى » وجمعية الإخلاص الوطنية »، كما قام الشيخ عبد العزيز جاويش أيضا بتأليف كتبًا عن النظام الإيطالي للفوضويين ونظامًا للشفرة للتراسل السري في سبتمبر ١٩١٠.

وكانت سلطات الاحتلال تعتبر الشيخ عبد العزيز جاويش « أكثر الجماعة خطرا وتعصبًا، ووصفته سلطات الاحتلال بانه داعية سيئ الشهرة، وأن حبسه من قبل لم يقلم أظافره، وأنه يشكل تهديدًا مستمرًا للنظام العام والأمن العام، وأنه يدبر المؤامرات لتحريض الطلبة والعمال والفلاحين، وأنه يتمتع بجملة من الميزات تجعل منه ثوريا خطيرا بسبب تعليمه وذكائه وموهبته ككاتب وكخطيب، وأنه ليس من الصعب على داهية مثله أن يقوم بأية أعمال ضارة، ويظل بمنأى عن طائلة القانون وفي الحقيقة فإن الشيخ عبد العزيز جاويش كان من أهم قيادات الحزب الوطني على المستوي السياسي، وكان يدير بكفاءة عددًا من المنظمات السرية، بل إن نشاطه أمتد في كل شيء، لدرجة أنه بالإضافة إلى نشاطه الوطني أسس مجلة « الهداية » للدفاع عن الدين الإسلامي في مواجهة بعثات التبشير، وقد شارك الورداني معه في إنشاء تلك المجلة وتحريرها ».

عمر بك لطفي

هو أحد أبناء الحزب الوطني ، ومن أهم الشخصيات في تاريخ مصر المعاصر، وهو رائد الحركة التعاونية المصرية، وقد ظهرت فكرة التعاون في مصر على يد هذا الرجل العظيم، وقد نادي بتلك الفكرة من خلال نادى المدارس العليا الذي كان رئيسًا له، فقد ألقى عمر بك لطفي أو محاضرة له عن التعاون يوم الأول من نوفمبر سنة ١٩٠٨ في نادي المدارس العليا شرح فيها مزايا التعاون وأهميته لمصر لأنه وحده الكفيل بالقضاء على آفة الربا الماحقة على حد قوله في تلك الخطبة.

وفي الحقيقة فإن قراءة الخطب والمحاضرات التي شرح فيها عمر بك لطفي فكرة التعاون وأهميتها نجد أنه تناول الأفكار الآتية: « أن التعاون هو الكفيل بإنقاذ البلاد من آفة الربا الماحقة » :« يعتقد بعض الناس أن تفريج الأزمة المالية لا يكون إلا بجلب رؤوس الأموال من البلاد الأجنبية، وهذا خطأ كبير »: « وعندي أن أساس الاستقلال والحرية في كل أمة هو الاستقلال الاقتصادي » : « علينا أن نوجه مجهوداتنا كافة لتقوية وتنمية مصادر الثروة المصرية الحقيقية ».

ولعل تلك المفاهيم والأقوال التي نادي بها عمر بك لطفي تعكس الاهتمام المبكر للحركة الوطنية المصرية لقضية الاستقلال الاقتصادي، وقضية بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ومستمد من الإسلام، فعمر بك لطفي يدعو

بالتحديد إلى رفض الديون الأجنبية، والاعتماد على الذات وتنمية ثرواتنا، ويدرك أن أساس الاستقلال هو الاستقلال الاقتصادي، ويدعو إلى التعاون للقضاء على آفة الربا، ولتحقيق النهضة الاقتصادية المستقلة، أي نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ومستمد من الإسلام.

وقد استمرت الحركة التعاونية بعد وفاة عمر بك لطفي على يد تلاميذه من أعضاء الحزب الوطني وفي مقدمتهم أحمد بك لطفي « شقيقه » فتأسست العديد من شركات التعاون والنقابات، وانتشرت أفكاره التعاونية، فقد تأسست النقابة العامة للتعاون المنزلي والزراعي سنة ١٩١٢، ثم توالى تأسيس النقابات العمالية والزراعية والتعاونية، وصدور التشريعات الحكومية بذلك تحت الضغط الشعبي، إلا أنها اشتملت على كثير من العيوب التي كبلتها بها الحكومة خوفًا من تصاعد المد الشعبي والوطني من خلال الحركة التعاونية والنقابية، وانتهى الأمر بصدور عددًا من القوانين التي جعلت التعاون حكوميًا بحتًا مما جعل الأمر أشبه بالجثة الميتة أو مجرد هيئة تتبع الحكومة، وتتحرك من خلال الأوامر الحكومية مما أفقدها مضمونها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، مثل قانون ١٩٢٣، وقانون ١٩٢٧، وقانون ١٩٥٤، وقانون ١٩٦١.

الأزهري الثائر الشيخ علي الغاياتي

الشيخ علي الغاياتي هو واحد من ذلك الجيل من المجاهدين الإسلاميين الذين تخرجوا من مدرسة الحزب الوطني أمثال مصطفي كامل، محمد فريد، عبدالعزيز جاويش، إبراهيم الورداني، وهو ذلك الجيل الذي حمل شعلة النضال الإسلامي الوطني في بداية هذا القرن، ويعتبر حلقة الوصل بين الأفغاني والنديم وبين حسن البنا، وهذا الجيل هو الذي أعد العدة للثورة التي اندلعت بعد ذلك سنة ١٩١٩ م .

الشيخ علي الغاياتي عالم دين مناضل، وهو نموذج للأزهري الثائر الذي يضطلع بدور رجل الدين الإسلامي الحقيقي في الكفاح ضد الاستعمار والاستبداد وتبني مطالب الأمة والدفاع عن قضاياها، وهو أيضًا الشاعر الملهم الذي يفيض قلمه رقة وعذوبة، وإلى جانب الرقة والعذوبة يتقد حماسًا ووطنية، وهو الصحفي القدير الذي يحرر المقالات ويصدر الصحف المتميزة والملتزمة بقضايا الشعب بكبرياء الإيمان والثورة ولا يمد يده إلى أحد أو يبيع قلمه إلى جهة رغم قسوة الظروف .

مولده وحياته :

ولد الشيخ علي الغاياتي في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ بمدينة دمياط، ودخل الكتاب مبكرًا فأتم حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره وينحدر نسبه إلى الرسول ﷺ.

التحق علي الغاياتي بالمعهد الديني بدمياط، ثم التحق بالأزهر الشريف وانخرط في القاهرة في الصحافة الوطنية التابعة للحزب الوطني وفي النضال الوطني عمومًا ضد الاحتلال الإنجليزي والاستبداد الخديوي، حيث تعرض للاضطهاد مرارًا، وعندما أصدر ديوانه الشعري الأول تحت عنوان « وطنيتي » والذي قدم له كل من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وهو ديوان يحمل قصائد شعرية تبث الروح الوطنية وتنعي على الاحتلال والخديوي، عندما أصدر هذا الديوان قامت الحكومة المصرية بمصادرته وتحويل الغاياتي ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش إلى المحاكمة ، فاضطر علي الغاياتي إلى الفرار إلى تركيا سنة ١٩١٠، ثم منها إلى جنيف حيث استقر هناك واستمر يواصل نضاله الوطني وأصدر صحيفة منبر الشرق التي اهتمت بشئون العالم الإسلامي ونضاله ضد الاستعمار.

وقد ظل الغاياتي يصدر هذه الصحيفة بانتظام رغم الظروف الصعبة من ٥ فبراير ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٧، حيث عاد إلى مصر ونقل جريدته معه، واستمر في إصدارها دفاعًا عن القضية الوطنية المصرية، وتوفي الرجل في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٥٦م.

نضاله الوطني

نشأ الغاياتي في ظروف تاريخية معقدة، حيث كانت مصر قد وقفت في قبضة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م، وكانت الحركة الوطنية المصرية متمثلة في الحزب الوطني تحاول بعث الروح الوطنية واستنهاض الشعب المصري ضد الاحتلال، وكان من الطبيعي أن يحدث صدام واضطهاد من سلطات الاحتلال الإنجليزي وسلطات الخديوي ضد عناصر الحركة الوطنية المصرية.

نشأ الغاياتي في هذه الظروف في مدينة دمياط، وكان طالبًا بالمعهد الديني بها اصطدم بإدارة المعهد حيث تم فصله بسبب نشاطه الوطني، فاضطر للعمل مدرس بالمدارس الابتدائية الخاصة .

وعندما انتقل إلى القاهرة شارك بحماس في العمل الوطني من خلال الحزب الوطني، الذي كان يعد في ذلك الوقت لإشعال الثورة ضد الاحتلال ، وأخذ

الغاياتي ينظم القصائد الشعرية الملتهبة التي تحض على الوطنية والجهاد ومناهضة الاستعمار وبث العزيمة والحماس في صفوف الجماهير، وقام بنشر هذه القصائد في صحف الحزب الوطني التي كانت تصدر في ذلك الوقت، كما قام بنشر العديد من المقالات في مختلف الصحف المصرية مثل جريدة الجوائب المصرية، اللواء وغيرهما ، مما أثار حفيظة السلطات الإنجليزية والخديوي عليه، فقامت السلطات بزجه في السجن بتهمة مخالفة قانون التجنيد « سجن القشلاق الأحمر »، ولكن هذا الأمر لم يغير من موقف وصلابة الرجل فاستمر على نفس الخط الوطني النضالي بل تصاعدت نبرته الوطنية والنضالية المناهضة للاحتلال فقام بجمع القصائد التي نشرها من قبل، وأصدرها في ديوان تحت عنوان « وطنيتي » سنة ١٩١٠م، وقام كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش بكتابة مقدمة لهذا الديوان، إلا أن السلطات رأت أن هذا الديوان ليس مجرد قصائد شعرية بل شواظ من نار وقذائف تتلظي وقذائف على رأس الاستعمار ، فقامت بتحويل كل من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعلي الغاياتي إلى المحاكمة وأحس الغاياتي أن السلطات تتربص به، وأنها لا محالة سوف تسجنه خاصة وأنها تسيطر على القضاء عن طريق القضاة الأجانب، فقام بالتنكر في زي أفندي وكان قبل ذلك يلبس الملابس الأزهرية دائما وسافر إلى تركيا.

وبعد سفره صدرت الحكم من المحكمة بحبسه عامًا مع الشغل، وكان الحكم غيابيًا بالطبع، كما صدرت الأحكام بحق كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش الأول الحبس ستة أشهر مع النفاذ والثاني الحبس ثلاثة أشهر، وقد نفذ محمد فريد الحكم كاملاً ولبس في السجن ستة شهور كاملة.

***

ما إن وصل علي الغاياتي إلى تركيا حتى واصل الاتصال بزملائه في الحركة الوطنية المصرية داخل وخارج مصر واستمر يكتب المقالات في الصحف التركية والأوروبية دفاعًا عن قضية بلاده، كما راسل العديد من الصحف المصرية، ثم انتقل إلى جنيف سنة ١٩١١م، حيث استقر هناك مواصلا نضاله في المنفي، وفي

أعقاب ثورة ١٩١٩م أصدر الشيخ علي الغاياتي سنة ١٩٢٢م صحيفة منبر الشرق، وهي من أهم الصحف التي صدرها الرجل حيث تواصلت بدون انقطاع في المنفي حتى عام ١٩٣٣ م، ثم عاد بها إلى مصر مع عودته سنة ١٩٣٧م، واستمر يصدرها إلى أن توفي عام ١٩٥٦م.

ولم تكن جريدة منبر الشرق في سنوات المنفي مجرد صحيفة تنشر أخبار الوطن المصري والعربي والإسلامي، وتدافع عن حقوق المصريين و العرب والمسلمين والشرقيين عمومًا، بل كانت منتدي لزعماء هذه الأمة كلها.

أما في مصر فقد استمرت جريدة منبر الشرق تناهض الاحتلال وتدعو إلى الحرية، واتخذت طريقًا مستقلاً فلم ترتبط بأحد الأحزاب المصرية في تلك الفترة، وخرجت صحيفة نظيفة نقية من كل خطأ وترتفع فوق كل شائبة وتدعو في أدب واتئاد إلى كل فضيلة.

إبراهيم الورداني

الحركة الوطنية ذات الطابع الإسلامي هي التي حملت على كاهلها دائمًا مهمة الكفاح ضد الاستعمار والاستبداد ومحاولة تحقيق النهضة، ومنذ الكفاح الإسلامي الذي قاده علماء الأزهر ضد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ثم حملة فريزر سنة ١٨٠٧ م فإن هذا الكفاح لم ينقطع وتمثل في حركة جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم والتي تمخضت عن اندلاع الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢)، وحتى بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر فإن راية الكفاح لم تسقط حيث سلمها عبد الله النديم إلى مصطفي كامل ثم محمد فريد .

وكان الحزب الوطني (مصطفي كامل، ومحمد فريد) قد أعد العدة لثورة كبرى ضد الإنجليز ونجح في إقامة خلايا سرية مسلحة في كل مكان في مصر، وكانت إحدى هذه الخلايا برئاسة الشاب الوطني إبراهيم الورداني.

يقول الدكتور عصام ضياء الدين في كتابه «الحزب الوطني والنضال السري» لم تنشب ثورة ١٩١٩ من فراغ، بل كان محمد فريد يعد لهذه الثورة العدة منذ عام ١٩٠٩، وكان مقدرًا لها القيام في عام ١٩١٤، ولكن حال دون قيامها اندلاع الحرب الكبرى الأولى ونفي الزعامات الوطنية وزج العديد من الوطنيين في السجون .

خرج إبراهيم الورداني إذًا من إحدى الخلايا السرية التي كان محمد فريد قد أعدها لتفجير ثورة شاملة ضد الاحتلال

الإنجليزي، وقام باغتيال بطرس باشا غالي رئيس الوزراء المصري يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ م وذلك لمنعه من تنفيذ مخطط مد امتياز قناة السويس.

التعريف به

هو إبراهيم محمد ناصف الورداني، ولد سنة ١٨٨٦، وكان والده محمد أفندي ناصف الورداني يعمل مأمورًا في بعض مراكز القطر المصري، دخل إبراهيم الورداني عددا من المدارس المصرية حتى نال البكالوريا سنة ١٩٠٦، ثم سافر إلى سويسرا ليدرس الصيدلة في جامعة لوزان حتى عام ١٩٠٨، ثم سافر إلى إنجلترا حيث نال منها شهادة في الكيمياء والتاريخ الطبيعي، وعاد إلى مصر سنة ١٩٠٩ حيث عمل صيدليا وافتتح له صيدلية بالقاهرة بشارع عابدين، كما ترأس نقابة الصنائع اليدوية ببولاق وهي إحدى النقابات المهنية والعمالية التي أنشأها الحزب الوطني في مصر.

كان إبراهيم الورداني أحد عناصر الحزب الوطني وقد ألف عدد من الجمعيات الثورية لمناهضة الاحتلال والدعوة إلى الجلاء أثناء إقامته بأوروبا، وعندما عاد إلى مصر شارك مع محمد فريد في إنشاء الخلايا السرية اللازمة لتفجير الثورة ضد الإنجليز.

عرف عن إبراهيم الورداني أنه شاب حميد الأخلاق أبي النفس، محبوب من جميع زملائه، وكان نحيف الجسم أسود البشرة، أجعد الشعر متوسط القامة.

كانت الخلية التي يرأسها الورداني، وهي إحدى خلايا الحزب الوطني المنتشرة في ذلك الوقت تسمى جمعية التضامن الأخوي، والتي تشترط كل من يريد أن يصبح عضوا فيها أن يكتب وصيته .

وقد توفي إبراهيم الورداني في ٢٨ يونيو ١٩١٠، وذلك بعد تنفيذ حكم الإعدام شنقا عليه، وهو الحكم الذي صدر ضده بعض القبض عليه عقب اغتياله بطرس غالي.

أسباب اغتيال بطرس غالي

تعمد إبراهيم الورداني الإدلاء باعترافات تفصيلية عن أسباب قيامه بعملية

الاغتيال وذلك لتحقيق أكبر أثر سياسي ممكن من وراء العملية، وفي الحقيقة فإن الجرائم التي ارتكبها بطرس غالي في حق مصر كانت كفيلة بحدوث أكبر تعاطف مصري ممكن مع إبراهيم الورداني، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن مصر كلها تعاطفت مع إبراهيم الورداني وحزنت حزنًا عميقًا عند تنفيذ حكم الإعدام فيه، ونظم الشعراء القصائد في الإشادة بإبراهيم الورداني .

كانت الدوافع السياسية شديدة الوضوح في أسباب اغتيال بطرس غالي، فهو الذي أطلق يد الإنجليز في السودان بتوقيعه اتفاقية ١٨٩٩ م المجحفة بحقوق مصر والسودان، وهو الذي ترأس المحكمة المخصوصة في حادث دنشواي والتي نكلت بالأهالي في تلك القرية ظلمًا لحساب الإنجليز، وهو الذي أعاد قانون المطبوعات للتضييق على الحركة الوطنية والصحافة الحرة وهو أخيرًا الذي كان يريد تجديد امتياز قناة السويس و لعل هذا السبب كان الدافع المباشر لتنفيذ عملية الاغتيال .

محاولة استثمار القضية طائفيا

حاولت السلطة الإنجليزية والمرتبطين بها من المصريين اتهام إبراهيم الورداني بالتعصب الديني واستغلال مسألة كون المقتول مسيحيًا قبطيًا، إلا أن التاريخ الوطني لإبراهيم الورداني حال دون استمرار هذا المخطط الطائفي، وكذلك إدلاء إبراهيم الورداني باعترافات كاملة حول دوافعه لعملية الاغتيال، وكذا قيام بعض الأقباط الشرفاء بنفي تهمة التعصب عن إبراهيم الورداني مثل نصيف جندي المنقباوي الذي أدلى بتصريح للصحافة الأجنبية قائلاً (إني أعرف إبراهيم الورداني شخصيًا، وهو فتي شديد الذكاء كثير المعارف تملأ صدره الوطنية وليس رجلاً متعصبًا وأن تهمة التعصب الإسلامي ضد الأقباط ما هي إلا من إشاعات الإنجليز).

وإذا كان إبراهيم الورداني المسلم قد قتل بطرس غالي المسيحي القبطي فلأن الأخير خان الوطن ولو استثناه من العقاب لمجرد أنه مسيحي لكان هذا سلوكًا طائفيًا ولعل ما يؤكد ذلك أن مسيحي هو عريان نصيف حاول فيما بعد اغتيال يوسف وهبة رئيس الوزراء المصري وهو مسيحي أيضًا لنفس الأسباب الوطنية سنة ١٩٢٠ م.

الشيخ محمود خطاب السبكي

مؤسس الجمعية الشرعية
فكره وممارساته السياسية

حياته

ولد الشيخ محمود خطاب السبكي في أول يوليو ١٨٥٨ م وقد توفي في ٧ يوليو ١٩٣٣ عن عمر يناهز ٧٥ عامًا.

ولد الشيخ الأمام في قرية سبك الأحد محافظة المنوفية، وحفظ القرآن في كتاب القرية، وعمل في كثير من أعمال والده في البداية مثل رعي الغنم وسياسة الخيل ونبغ في صيد الأسماك والطيور، كما اهتم بتعلم الفروسية وتدرب على السلاح مثل الرمي بالبندقية، وظلت الرماية من أحب الهوايات إليه حتى آخر حياته ، وظل يمارس الزراعة والرعي فترة من حياته حتى حدث التحول الكبير الذي أدى به إلى طلب العلم في الأزهر في سنة ١٢٩٧ هـ أي بعد أن وصل إلى سن كبيرة نسبيًا حوالي« ٢٣ عاما »، وظل يحصل العلوم الشرعية على مذهب الإمام مالك، وحصل على العالمية سنة ١٨٩٦ م ـ ١٣١٣ هـ وأخذ يلقي الدروس بالأزهر الشريف في علوم الفقه والتفسير والحديث، ومن أهم مؤلفات الشيخ كتاب الدين الخالص، وكتاب شرح سنن أبي داود.

وتعد أهم أعمال الشيخ هو تأسيس الجمعية الشرعية في سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٢ م، وقد ترأس الشيخ هذه الجمعية حتى وفاته .

نضاله ضد الاستعمار الإنجليزي

عاش الشيخ فترة الشباب و الرجولة والكهولة تحت حكم

الاستعمار الإنجليزي لمصر، وكان من الطبيعي أن يصطدم الشيخ بسلطات الاحتلال الإنجليزي نظرًا لأن النشاط الديني للشيخ كان يحمل في طياته نشاطًا سياسيًا ظاهرًا أو باطنًا، فإنشاء الشيخ لجمعية إسلامية تنظم شئون الأعضاء وترعاهم وتحقق نوع من التكافل بينهم هو في ذاته تقوية للتماسك الاجتماعي المصري ضد الاحتلال، وكذلك دعوة الشيخ إلى التميز في السلوك والزي والأخلاق والتمسك في ذلك كله بشرائع الإسلام الحنيف يحمل في طياته دعوة لمقاطعة ورفض القيم والسلوك الغربي عمومًا والإنجليزي خصوصًا، ولا شك أن التميز في السلوك والزي والأخلاق وغيرها إحدى وسائل الصمود أمام الاستعمار الذي يستهدف دائمًا تدمير السلوك والزي والأخلاق الوطنية باعتبارها أحد وسائل رفض الاستعمار، وإحدى وسائل منع الاستعمار من تحقيق أهدافه وتسريب قيمه وجعله مقبولاً من الشعب وتقليل هامش الرفض الشعبي له، وعلى كل حال فلم تقتصر المسألة على هذا الجانب غير المباشر من النضال بل تعداه إلى الجانب المباشر، فالشيخ محمود خطاب السبكي دعا إلى مقاطعة المنسوجات والبضائع الإنجليزية، بل قام بإنشاء بعض معامل النسيج لكي يعطي البديل المتاح وهو المنسوجات المصرية، والشيخ هنا يمارس سلاح المقاطعة الاقتصادية، ولا شك أن ذلك السلاح من أهم أسلحة الشعوب في مواجهة الاستعمار الذي يحرص على جعل المستعمرات سوقًا لمنتجاته .

ووفقًا لسجل محاضر جلسات مجلس إدارة الجمعية ، فإن شهرة المنسوجات التي أنتجتها المعامل التابعة للجمعية أدت إلـي أن اقترحت مصلحة الصناعة والتجارة أن توافي المصانع والمعارض التابعة للجمعية القناصل المصرية في الخارج بعينات من مصنوعاتها المختلفة مع بيان مقاساتها وأثمانها وعناوين تلك المؤسسات القائمة بهذا النوع من النشاط الصناعي، وبالفعل أرسلت المؤسسات التابعة للجمعية العينات المطلوبة.

وهكذا قام الرجل بعمليتين في وقت واحد، فهو استخدم سلاح المقاطعة، وقام ببناء صناعة وطنية في نفس الوقت، والعجيب أنه استهدف التصدير أي

ليس فقط محاربة الإنجليز اقتصاديا في مصر، بل وخارجها أيضـًا.

وفي هذا الإطار أيضا كـان الشـيخ ينشـر الآراء والأفكـار والمحاضـرات الـتي تحض على محاربة الإنجليز. ففي كتاب الدين الخالص « إن المسـلمين الآن تحـت سيطرة الاستعمار لأنهم لم يقيموا الدين كما أمروا فلم يتخلو عن النـواهي، ولم يتحلوا بالأوامر، بل أفرطوا في تقليد الأجـنبي في الضـار دون النـافع. قلـدوه في أكل الربا وشرب الخمر وإباحة الزنا والتبرج وخـروج النسـاء واسـتحمامهن في البحار، قلدوهم في الحكم بالقانون الوضعي ونبذ القـانون السـماوي ولم يرتـدعوا بقوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وتركوا ما أمـرهم مولاهم بـه بقولـه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فخذلهم الله وسـلط علـيهم مـن لا يـرحمهم لأنهـم تركـوا الدين وراء الظهر فتركوا في الذل والهوان، وذلك لأن الانتصـار علـى الأجـنبي خاص بمن نصر دين الله وتمسك به وسلك طريـق الـنبي ﷺ ، قـال الله تعـالى : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ فنصر الدين مـن الإيمـان ومـن نصـره نصـره في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره فقد باء بالخزي والذل والهوان في الدارين».

والشيخ السبكي في هـذا الكـلام يحـدد أسـباب القابلية للاستعمار داخلنـا وعناصرها ويدعو إلى الإقلاع عنها ثم هو يحدد طريق مقاومة الاستعمار بإعـداد القوة اللازمة والممكنة وبالتمسك بالإيمان.

وعلى الجانب الآخر فإن الإنجليز أحسوا بخطورة الشيخ ففرضـت سـلطات الاحتلال الإنجليزي رقابة على دروس الشيخ وعلى ما يصله من رسائل، ويبدو أنهم اكتشفوا أن هناك حركـة لاشـتعال الثـورة يشـارك فيهـا الشـيخ بالاتصـال بالعثمانيين، لذلك بـادرت سـلطات الاحـتلال إلى اعتقـال الشـيخ الإمـام سـنة ١٩١٤، وتم تفتيش منزله ومنزل أسرته، وقد تم إيداع الشيخ بسجن باب الخلـق لمدة ثلاثة أشهر مارس خلالها الشيخ أسـلوب الإضـراب عـن الطعـام للضـغط على الإنجليز والسلطات للسماح له بزيارات الأهل، ثم أفرج عنه إلا أنـه حـرم

من مزاولة النشاط طوال فترة الحرب العالمية أي من ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وفي محاضر الجلسات الخاصة بالجمعية توقفت تلك المحاضر بين سنتي ١٢٣٢ هـ ـ ١٢٣٦ هـ، ولم يسمح ببيان أسباب هذا التوقف .

ومن الآثار الهامة للجمعية الشرعية، أن الكثيرين من مناضلي ثورة ١٩١٩، ومن أعضاء المنظمات السرية المسلحة في ذلك الوقت كانوا أصلاً أعضاء في الجمعية الشرعية، مما يدل على مدى التأثير النضالي للتربية من خلال الجمعية، أو يدل على أن الجمعية أصلاً كانت خالصة في تلك العمليات من خلال خلايا تابعة لها، يقول الأستاذ أحمد حسين مؤسس مصر الفتاه « أن زعماء في ورش وعنابر السكة الحديد سنة ١٩١٩ كانوا أعضاء في الجمعية الشرعية، وكذلك كان عدد من المتهمين في حادث مقتل السير لي ستاك وعشرات الإنجليز من قبله كانوا أيضًا أعضاء في الجمعية الشرعية، وعلى رأس هؤلاء الشيخ أحمد جاد وهو زعيم عمالي وشخصية هامة من الشخصيات التي اتخذت طريق الكفاح المسلح، وقد صدر حكم الإعدام على الشيخ أحمد جاد الله مع زعماء الثورة » .

تفكير نقابي مبكر

يقول د. عبد العظيم حامد خطاب « نشأ التفكير في إنشاء جمعية تضم العاملين بالسنة ليتكاتفوا ويتضامنوا لتأمين حياتهم ضد البطالة والعوز والحاجة، فكان أن وجدت الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية في وقت لم تكن قوانين العمل تعطي العامل أي حق، ولم تكن نقابات أو هيئات تحفظ على العامل حقه أو تنصفه إذا ما التجاء إليها » .

أليس هذا تفكيرًا مبكرًا في العمل النقابي، والنواة الأولي للنقابات العمالية والمهنية.

المؤسسات البديلة

وعى الشيخ السبكي إلى ضرورة إقامة مؤسسات بديلة وموازية للمؤسسات الحكومية التابعة لسلطات الاحتلال، وخاصة في مجالي الاقتصاد والقانون باعتبارهم أهم مجالين من مجالات الممارسات التابعة للاحتلال والمحققة لأهداف

هذا الاحتلال، وفي إطار المؤسسات الاقتصادية قام الشيخ بعمل صندوق خاص يحفظ موارد الجمعية واشتراكات الأعضاء واستثمار ذلك في مشروعات الجمعية، ونبه الشيخ الجماهير على ضرورة مقاطعة البنوك الربوية.

وفي إطار الاهتمام بالقضية الفلسطينية برغم أن الهجمة الاستعمارية الصهيونية على فلسطين كانت في بداياتها الأولى ولم يظهر خطرها الكامل بعد في ذلك الوقت، إلا أن الشيخ السبكي وبوعي متقدم تنبه إلى المخاطر الحقيقية لتلك الهجمة الصهيونية، وانطلاقاً من واجبه أدرك ضرورة مساعدة الشعب الفلسطيني فقامت الجمعية الشرعية بإرسال كمية من المنسوجات إلى بيت المقدس لتوزيعها على منكوبي فلسطين، وتلقي مجلس إدارة الجمعية رسالة محررة في ١٧ رجب ١٣٤٩ هـ الموافق ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٠ م موقعًا عليها من رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بفلسطين وهو الشيخ محمد أمين الحسيني يشكر الجمعية على تبرعها وتضامنها مع الشعب الفلسطيني . وفي الأربعينات فتحت الجمعية الشرعية مجال التبرع لمساعدة الشعب الفلسطيني، وكان أعضاء الجمعية يحملون الدفاتر في الأماكن العامة، وشاركت الجمعية في المظاهرات الصاخبة التي شهدتها القاهرة عقب الإعلان عن قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ م مع غيرها من الجمعيات الإسلامية.. المؤسسات القانونية دعا الشيخ إلى مقاطعة المحاكم الحكومية التي لا تطبق الشريعة الإسلامية وأنشأ من جانبه عددًا من المحاكم الأهلية، وقد نص قانون الجمعية الأول على أن يعاون مجلس الإدارة لجنتان إحداهما لجنة المحكمين وتقوم هذه اللجنة بالتحكيم في المنازعات التي تنشأ بين الأعضاء أو الراغبين من الأهالي حتى لا يلجأ المسلمون على تحكيم القانون الوضعي في المحاكم وحتى تبقي الألفة بين المسلمين.

أحمد حسين
مؤسس حركة مصر الفتاه

دخلت حركة مصر الفتاة التاريخ المعاصر، كأحد روافد الحركة الإسلامية المعاصرة، باعتبار أن الحركة الإسلامية حركة تحرر وطني، وباعتبار أن حركة التحرر الوطني المصري والعربي هي إسلامية بالضرورة، لأن الإسلام كان جذرًا ثقافيًا لها، ولأن الإسلام هو وجدان الجماهير، والجماهير هي وحدها السلاح في مواجهة التحديات المعاصرة من استعمار وصهيونية وتبعية، ولأن هذه التحديات ذاتها هي جزء من الصراع الطويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

دخل أحمد حسين تاريخ الكفاح المصري المعاصر، بل والعربي والإسلامي المعاصر كحلقة من حلقات سلسلة طويلة من الكفاح الوطني الإسلامي المعاصر في مواجهة الاستعمار والاستبداد بدءًا من محمد كريم وعمر مكرم ومرورًا بالأفغاني ثم مصطفي كامل ومحمد فريد ثم حسن البنا وأحمد حسين، ولعل أحمد حسين كان يشبه بشكل شديد سواء في إمكانياته الفردية الفذة، وقدراته العجيبة على الخطابة والكتابة والتحريض السياسي والإعلامي أو في سلوكه الشخصي عبد الله النديم، ذلك الزعيم الوطني الفذ الذي فجر الثورة العرابية، وكان قائدها السياسي وجهازها الإعلامي، وقد وهب أحمد حسين نفسه لمصر وللعرب والمسلمين، فلم يكترث رغم إمكانياته الفردية الجبارة بجمع الأموال مثلما فعل عبد الله النديم تمامًا، فمات كل منهما فقيرًا معدما.

مولده وحياته :

ولد أحمد حسين سنة ١٩١٠ م في أسرة ميسورة، وشهد في بداية حياته ثورة ١٩١٩، ثم أعقبها انكسار بسبب المؤامرات الإنجليزية وانحراف حزب الوفد عن المبادئ الإسلامية التي أرساها مصطفي كامل ومحمد فريد، ودخل أحمد حسين كلية الحقوق، وبدأ نشاطه السياسي وهو طالب عن طريق الكتابة والصحافة والخطابة. ثم دعا مع مجموعة من الشباب إلى مشروع وطني يستهدف تجميع المدخرات الوطنية لإقامة صناعة وطنية مصرية (هو مشروع القرش) سنة ١٩٣١، وقد نجح هذا المشروع نجاحًا عظيمًا، وبعد تخرجه من كلية الحقوق أنشأ أحمد حسين مع مجموعة من الشباب حديثي التخرج حركة مصر الفتاة سنة ١٩٣٣ م مسترشدين بمقولة الزعيم الإسلامي الوطني مصطفي كامل :« أريد أن أرى في عصر الهرمة، مصر الفتاة »، وقد دعا هذا الحزب إلى وحدة مصر والسودان وإلى الوحدة العربية والإسلامية، وإلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، تقييد الشركات الأجنبية، وأن تكون اللغة العربية هي اللغة المستخدمة في الحياة الرسمية وغير الرسمية، واعتبار يوم الجمعة يوم عطلة رسمية، إصلاح أحوال الفلاح المصري، بناء قاعدة صناعية وطنية، فرض حماية جمركية على الصناعة الوطنية، التعليم المجاني، العلاج المجاني، ثم أنشأ أحمد حسين الحزب الوطني الإسلامي عام ١٩٤٠، وطرح فكرة توحيد القوة الإسلامية في مصر والعالم العربي، ثم الحزب الاشتراكي سنة ١٩٤٩، الذي اعتمد على مبادئ العدالة الاجتماعية في الإسلام، وقد اهتمت برامج هذه الأحزاب السياسية التي أنشأها وترأسها أحمد حسين بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية وإلغاء كل ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وإنصاف الفلاحين والعمال والفقراء، وحق العمل والإضراب والتأمين الاجتماعي، وتشكيل النقابات والاتحادات للفلاحين والعمال، وحق التعليم والعلاج المجاني.

كما دعا أحمد حسين إلى إنشاء مصانع للحديد والصلب وإنشاء هيئة للطاقة الذرية وتأميم قناة السويس.

وقد لعب أحمد حسين دورا كبيرا في التحريض على الثورات الفلاحية ضد

الإقطاع في الريف المصري مثل انتفاضات الفلاحين في قرى كفور نجم وبهوت وميت فضالة.

وقد كان لأحمد حسين أكبر الأثر في هدم النظام الملكي في مصر، فقد ظل طوال حياته يهاجم الملك والحاشية والفساد بلا هوادة، كما نظم أحمد حسين كتائب التحرير للتدريب على السلاح وإعداد المجاهدين للقتال ضد الإنجليز في القناة، أو ضد الغزوة الصهيونية في معارك عام ١٩٤٨ م.

وقد دخل أحمد حسين السجن عدة مرات، وعاش فترات طويلة مطاردًا هاربًا بسبب ذلك النشاط، وقد اتهم عدة مرات بالعيب في الذات الملكية، وفي عام ١٩٥٢ دبر الإنجليز والملك حريقًا كبيرًا في القاهرة وتم اتهام أحمد حسين بتدبيره، واعتقل على ذمة التحقيق في هذه القضية تمهيدا لصدور الحكم بإعدامه، إلا أن انقلاب الجيش في يوليو ١٩٥٢ م أفسد تلك المحاولة، وقد أعتزل أحمد حسين العمل السياسي بعد ثورة ١٩٥٢، لأن رجال ثورة يوليو رفضوا أن يسمحوا له بالعمل السياسي أو الوطني، كما تم اعتقاله وإهانته أيضًا في عام ١٩٥٣ م، ومنذ عام ١٩٥٣ وحتى وفاته عام ١٩٨٢ م تفرغ أحمد حسين للكتابة والبحث، فأصدر العديد من الكتب والأبحاث والمقالات التاريخية والدينية، وبدأ مشروعًا لتفسير القرآن الكريم إلا أنه لم يتمه بعد أن أنجر منه جزءًا كبيرًا.

العدالة الاجتماعية من منظور إسلامي

استطاع أحمد حسين أن يقدم نموذجًا فذًا لبرنامج اجتماعي منحاز إلى الفقراء، استنادًا إلى الشريعة الإسلامية والمنهج الإسلامي، كما جمع بشكل فذ بين الوطنية والإسلامية في نسيج متسق منسجم، وفي الحقيقة فإن الإسلامية تتود بالضرورة إلى الوطنية لأننا نعمل في أمة إسلامية وشعوب إسلامية تعاني من غزو حضاري غربي يريد اجتثاث الإسلام والحضارة الإسلامية، وكذا فإن الوطنية تعود بالضرورة إلى الإسلامية، لأن طبيعة الصراع تحتم ذلك، وكذا طبيعة الأعداء والحلفاء، ولا شك أنه لا تناقض في منطقتنا العربية بين الوطنية

والاسلامية ، بل الإسلام والجذر الثقافي الإسلامي شرط ضروري لنجاح أي حركة تحرر وطني، لأنه لا يمكن مواجهة التحدي الاستعماري الصهيوني بأدوات ومناهج مستوردة منه، ونابعة من نفس أرضيته الحضارية، بل لابد أن تكون مستمدة من أرضية حضارية مغايرة، ولابد أكثر أن تكون نابعة من نفس تربيتنا ومن جذورنا الثقافية والحضارية حتى تكون قادرة على المواجهة والصمود وتحريك الجماهير.

ولعل احمد حسين كان دقيقًا مع نفسه، واتسم بالمراجعة المستمرة لها ليؤكد على هذه النقطة، ومنعًا للالتباس فإنه أكد دائمًا أن خير ما انتهى إليه التطبيق الاشتراكي من توفير ضمانات اجتماعية وهو أول تعاليم الإسلام وجوهرها وروحها، وأنه حين دعا إلى الاشتراكية كان حريصًا على أن يحدد اشتراكيته بأنها بعيدة كل البعد عن اشتراكية ماركس وغيره من الفلاسفة والسياسيين الغربيين، بل هي ضدها على خط مستقيم، وأن مضمون هذه الاشتراكية لم يكن إلا تعاليم الإسلام ولا زيادة، وأنه أعلنها مدوية إسلام وعدالة اجتماعية وليس اشتراكية منعًا للبس وللتدقيق في وصف القصد.

الإمام الشهيد حسن البنا رجل على موعد

لم يأت الإمام الشهيد حسن البنا من فراغ، ولم يكن شخصًا ظهر فجأة، بل هو الامتداد الصحيح لما قبله، والرد الموضوعي على ظروف وأوضاع العالم الإسلامي عامة، ومصر خاصة في ذلك الوقت من النصف الأول من القرن العشرين.

وأول خطأ في فهم الإمام الشهيد هو عدم ربطه بما قبله، وعدم الإضافة والاجتهاد بعده، والذين يقدمون الإمام الشهيد بمعزل عما قبله من حلقات الكفاح الإسلامي التي جاهدت ضد الاستعمار والتخلف والاستبداد قبل ظهور الإمام الشهيد، والذين يقدمون الإمام الشهيد كنموذج يجب أن يحتذى بصورة هندسية بصرف النظر عما أستجد من أحداث ومتغيرات حدثت بعده يظلمون الإمام الشهيد أيضًا ويظلمون الحركة الإسلامية من بعده، ويريدونها جامدة ويظلمون أنفسهم بهذا الجمود مهما كان القالب الذين يريدون الوقوف عنده عظيمًا ورائعًا.

الإمام الشهيد حسن البنا لم يأت من فراغ، بل جاء ليكمل حلقات الكفاح الإسلامي، جاء ليكمل كفاح الأفغاني والنديم وعرابي ومصطفي كامل ومحمد فريد، وإذا أغفلنا هذه النقطة فكأننا نعطي لأعداء الحركة بهذا الجمود مهما كان القالب الذين يريدون الوقوف عنده عظيمًا ورائعًا.

الإمام الشهيد حسن البنا لم يأت من فراغ، بل جاء ليكمل حلقات الكفاح الإسلامي، جاء ليكمل كفاح الأفغاني والنديم وعرابي ومصطفي كامل ومحمد فريد، وإذا أغفلنا هذه النقطة فكأننا نعطي لأعداء الحركة الإسلامية السلاح الذي يهاجموننا به فيدعون أن الحركة الإسلامية ما هي إلا رد فعل على التغريب أو الانحلال الأخلاقي أو غيرها، والحقيقة أن الحركة الإسلامية أصيلة وراسخة رسوخ هذه الأرض وتمتد في التاريخ والجغرافيا، والحركة الإسلامية المعاصرة هي أساسا حركة كفاح ضد الاستعمار والتخلف والاستبداد وحركة نهضة ذات مشروع حضاري متميز.

وفي مصر بالتحديد هي تلك الحركة التي فجرت المقاومة والثورة ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م، وهي الحركة التي رفضت الاستبداد ١٨٠٥ بقيادة عمر مكرم، وهي الحركة التي قاومت الغزو الإنجليزي لمصر ١٨٠٧، وهي حركة مناهضة النفوذ الأجنبي التي قادها جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم في السبعينات من القرن التاسع عشر، وهي حركة مقاومة الاستعمار بقيادة عرابي ثم مصطفي كامل ومحمد فريد[1].

حسن البنا كان حلقة من هذه الحلقات ولكنه حلقة استوعبت المتغيرات،ولم يكن حسن البنا مجرد امتداد حسابي هؤلاء، بل أضاف على ما تركوه وأدرك طبيعة الظرف الذي يعيشه، لأن كل هذه الحركات السابقة عليه ظهرت وناضلت في ظل وجود خلافة إسلامية، فلما جاء حسن البنا كانت الخلافة قد سقطت، بل وأصبح وجود العالم الإسلامي ككيان في خطر شديد، وكان منحني السقوط الإسلامي قد نزل بشدة فكان المطلوب بالتالي حركة تمثل الصمود وتمثل إعادة الثقة بالنفس، وتربية شخصيات تكون أقوى من السقوط والانحدار وتستطيع مواجهة ذلك كله. وعندما وضع حسن البنا هذه القواعد لم يقف عندها، بل طور حركته باتجاه الهجوم بعد بناء خطوط الدفاع القوية وكان بحق رجلا على موعد.

---

(1) د. محمد مورو، صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر ١٧٩٨ ـ ١٩٠٢، أربعة أجزاء، القاهرة.

وقد أدركت القوى المعادية للإسلام أن حسن البنا يطور أساليبه في كل يوم ويقدم الرد الصحيح والمكافئ على الأحداث والمستجدات، ولذا قررت التخلص منه، فتآمرت تلك القوى بليل واغتالت الرجل .

الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأساس هذه الصلاحية الممتدة في التاريخ والجغرافيا والمستقبل يقف الاجتهاد الإسلامي ليقدم الحل للمتغيرات التي لا تنقطع وحسن البنا كان ردًا صحيحًا واجتهادًا فذا على الظروف التي واجهها، أما اليوم فإن الفهم الصحيح لحسن البنا يحتم علينا أن ندرك أن مواجهة الاستعمار الأمريكي لابد أن تختلف عن مواجهة الاستعمار الإنجليزي، ومواجهة الحكم العسكري تختلف عن مواجهة الحكم الملكي الليبرالي، ومواجهة إسرائيل بعد امتلاك الذرة تختلف عن مواجهة إسرائيل يوم كانت دولة ناشئة، مواجهة عالم قبل انهيار الشيوعية تختلف عن مواجهة عالم ما بعد انهيار الشيوعية. وعلينا أن ندرك تمامًا أن حسن البنا، هذا الرجل الفذ يبقى في النهاية مجتهدًا يصيب ويخطئ، وان العصمة لرسول الله ﷺ.

مولده وحياته

ولد حسن البنا في أكتوبر سنة ١٩٠٦ في قرية المحمودية بمحافظة البحيرة، وكان والده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا أحد علماء الأزهر [(١)].

حفظ حسن البنا القرآن الكريم في كتاب القرية، ثم دخل إلى المدرسة النظامية سنة ١٩١٨، وشارك في الجهاد في ثورة ١٩١٩ من خلال طلبة المدرسة، ثم التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٢٣م، وتخرج منها سنة ١٩٢٧وعين مدرسًا بمدينة الإسماعيلية، وأسس جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨، وأصبحت الجماعة من خلال جهاده ضد الاستعمار والتخلف والاستبداد أهم الحركات الإسلامية في القرن العشرين، واغتيل الأمام الشهيد حسن البنا بعد إطلاق الرصاص عليه أمام جمعية الشباب المسلمين بشارع رمسيس بالقاهرة في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩م [(٢)].

---

(١)صلاح شادي، الشهيدان، مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٨٨ م.

(٢)محمد الصايم، شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٢.

جهاده ونضاله

أدرك حسن البنا أن أوضاع العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤ قد أصبحت شديدة الخطورة وأن التآمر الاستعماري الصليبي على العالم الإسلامي يستهدف القضاء النهائي على الإسلام كدين وحضارة، وكان الإمام الشهيد يدرك أبعاد التخلف والجهل والفقر التي كان يعانيها العالم الإسلامي عمومًا ومصر خصوصًا بسبب جمود الفكر الإسلامي من ناحية وتآمر أعداء الإسلام من ناحية ولذا عمل حسن البنا على بناء قاعدة من الرجال القادرين على مواجهة هذا كله وتجاوزه باتجاه النهضة والإقلاع [1]، فاهتم بالتربية باعتبارها القاعدة والأساس للبناء فوقها، ونجح في بناء جيل من الرجال الأقوياء الذين خاض معارك الجهاد والنضال معهم، جهاد ضد الاستعمار الأجنبي وضد الاستبداد وضد الجهل والأمية والفقر، كشف حسن البنا أمام الشعب أساليب الاستعمار وخطورة السكوت عليه، ودعا إلى مناهضة الاستعمار بكل وسيلة، وألف الرسائل وألقي الخطب ونشر المقالات في الصحف التي أنشأها لهذا الغرض، وفي مرحلة تالية قامت مجموعات من شباب الأحزاب بتنظيم عمليات اغتيال واسعة لعناصر الجيش الإنجليزي في القاهرة ومعظم مدن مصر، وقد توج الإخوان المسلمون هذا العمل بتنظيم أروع عملية مقاومة للإنجليز في مدن القناة سنة ١٩٥٠، ١٩٥١، ١٩٥٢ [2].

وكان الإمام الشهيد يؤمن بالعدل الاجتماعي، وأن الإسلام يحض على نصرة المستضعفين، فكشف ملامح الخلل في التركيبة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر التي تجعل الثروة والسلطة بين أقلية ضئيلة، فنشر الرسائل والمقالات وألقي الخطب هجومًا على الإقطاع والاستغلال الرأسمالي وتأكيد على انحياز الإسلام للفقراء والمستضعفين، وكان من نتيجة هذا النشاط العديد من الانتفاضات العمالية في المصانع والعديد من الانتفاضات الفلاحية ضد الإقطاع في قرى الريف المصري وخاصة في بهوت وكفور نجم وميت فضالة

(١) محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ، دار النشر والتوزيع الإسلامية.
(٢) حسن دوح، صفحات من جهاد الشباب الجامعي على ضفاف القناة، دار القلم، الكويت.

وغيرها [1].

كان الإمام الشهيد يؤمن بأهمية العلم فكان حربًا على الجهل فنظم الإخوان المسلمون عمليات محو الأمية وافتتاح المدارس لتعليم البنين والبنات على حد سواء، كما دعا إلى التصنيع، بل قام بإنشاء العديد من الشركات الصناعية والتجارية لهذا الغرض.

موقفه من القضية الفلسطينية

كانت أعظم مواقف الإمام الشهيد، ومواقف الإخوان المسلمين هو موقفهم من القضية الفلسطينية على اعتبار أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، أو هي قضية العرب والمسلمين الأولي، وتكاد تكون القضية الفلسطينية هي الشغل الشاغل للإمام الشهيد وللإخوان منذ وقت مبكر جدًا قبل قيام إسرائيل بأكثر من عشر سنوات فإلى جانب الاهتمام بكشف أبعاد الخطر الصهيوني مبكرًا وتقديم الدعم للشعب الفلسطيني من خلال الصحافة الإخوانية ومن خلال المؤتمرات والندوات وجمع التبرعات وإلقاء الخطب في المساجد، والتنسيق المباشر مع قيادات الشعب الفلسطيني مثل الحاج أمين الحسيني، فإن جماعة الإخوان بقياد الإمام الشهيد كانت أول من نظم عمليات التطوع في حرب ١٩٤٨ [2].

وتدفقت كتائب الإخوان إلى فلسطين، وقامت بالعديد من العمليات العسكرية المتميزة والبطولات الفذة التي أشاد بها القادة العسكريون العرب بل والإسرائيليين أيضًا، ولعل هذا الموقف البطولي والمتميز هو الذي حدا بالحكومة المصرية تحت ضغوط أوروبية وإسرائيلية علنية ومستترة إلى إصدار قرار بحل جماعة الإخوان سنة ١٩٤٨ واستقبال العائدين من الحرب من الإخوان ليس كأبطال بل كمجرمين يتم القبض عليهم !! [3].

(١)د. محمد مورو - دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠م.

(٢)كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، دار الوفاء، القاهرة.

(٣)محمود عبد الحليم، مرجع سابق.

البنا والسلوك الحضاري لا الطائفي

انطلق حسن البنا من فهم دقيق للإسلام، وكان هذا سببًا في تقديم سلوكًا وفكرًا لا طائفيًا على مستواه الشخصي وعلى مستوي حركة وفكر الإخوان المسلمين عمومًا. يقول الإمام الشهيد في صحيفة الإخوان المسلمين في ٨ ديسمبر ١٩٣٦ :« شعب وادي النيل كله في شماله وجنوبه يدين بهذا الدين الحنيف، والأقلية غير المسلمة من أبناء هذا الوطن تعلم تمام العلم كيف تجد الطمأنينة والأمن والعدل والمساواة التامة في كل تعاليمه وأحكامه، بل ويعتبرون الإسلام معني من معاني قوميتهم »[١].

في رسالة الإمام الشهيد إلى الشباب يقول : « يخطئ من يظن أن الإخوان المسلمين دعاة تفريق بين طبقات الأمة، فنحن نعلم أن الإسلام يعني أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين بني الإنسان، كما أنه جاء لخير الناس جميعًا ورحمة من الله للعالمين، ودين هذه مهمته أبعد الأديان عن تفريق القلوب وإيغار الصدور وقد حرم الإسلام الاعتداء حتى في حالات الغضب والخصومة وأوصي بالبر والإحسان بين الموطنين وإن اختلفت أديانهم، وإنصاف الذميين وحسن معاملتهم فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، نعلم كل هذا فلا ندعو على تفرقة عنصرية ولا إلى عصبة طائفية »[٢].

وفي رسالة دعوتنا يقول الإمام الشهيد :« إن الإسلام لا يمزق الوحدة الوطنية، بل يؤكدها، لأنه أكسب هذه الوحدة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدني فقط »[٣].

ويقول الدكتور زكريا سليمان بيومي[٤] « إن موقف الإخوان من الأقباط اتسم بالاعتدال، وأن البنا كان يرى أن الفتنة الطائفية تفيد المحتل، وأن البنا حرص

(١) صحيفة الإخوان المسلمين ٨ ديسمبر ١٩٣٦ م.
(٢) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رسالة إلى الشباب.
(٣) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رسالة دعوتنا.
(٤) زكريا سليمان بيومي، الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية، ١٩٢٨، ١٩٤٨، مكتبة وهبة، القاهرة.

على نفي تهمتي التعصب الديني وإشاعة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ».

وكان الأقباط من جهتهم يشجعون حركة الإخوان المسلمين ويدافعون عنها على أساس كفاحها ضد الاستعمار، وفي سبيل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية والوطن الإسلامي وهي الحضارة والثقافة والوطن الذي ينتمي إليه الأقباط [1].

أما بعض الأقباط الذين كانوا يقفون ضد الحركة الإسلامية عمومًا والإخوان خصوصًا فهؤلاء ينطلقون في ذلك ليس من انتمائهم القبطي المسيحي المصري بل من ارتباطهم – كبعض المسلمين أيضًا – بالمشروع الاستعماري، ويقول حسن البنا في هذا الصدد :« إن تطرف بعض الأقباط في مهاجمة الفكر الإسلامي لا يعبر عن رأي مجموع الأقباط في مصر » [2].

ويحكي الأمام الشهيد حسن البنا :« إن أحد المسيحيين قدم عريضة ضده ويتهمه فيها بالتعصب، إلا أن وفدًا مسيحيًا برئاسة راعي الكنيسة الأرثوذكسية بالإسماعيلية قد رد عنه هذه التهمة وأعلن استنكاره لما حدث »[3] .

---

(١)د. محمد مورو، المسلمون والأقباط، الانتقاء على أرضية الانتماء للحضارة الإسلامية، دار البشير القاهرة، ١٩٩٠م.

(٢)حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية.

(٣)حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية.

الإمام حسن الهضيبي

الجياد تموت واقفة

في نهاية الأربعينات من القرن العشرين كانت مصر حبلى بالثورة، كان النظام الحاكم بما فيه من ملك وأحزاب قد وصل إلى حافة الانهيار، كانت هناك أزمة سياسية حادة، وأزمة اجتماعية واقتصادية متفاقمة، وكان الملك والأحزاب أقلية وأغلبية قد وصلت إلى الإفلاس الكامل؛ حتى حزب الوفد كان قد فقد قدرته التقليدية على العمل كمقاول للجماهير يستوعب مدها العالي ويضيعه في مسارات جانبية .

كان هناك في المقابل وعيًا شعبيًا سياسيًا واجتماعيًا لم يعد أحد بقادر على لجمه أو وقف تصاعده، كانت المقاومة الشعبية المسلحة والسلمية تنزل ضرباتها بالإنجليز في كل مكان من أرض مصر، وكانت التظاهرات.. المطالب الاجتماعية والسياسة أمرًا يكاد يكون يوميًا وكانت الإضرابات العمالية قد أصبحت ظاهرة عامة طالت كل التجمعات الصناعية[1] .

وكانت الانتفاضات الفلاحية قد وصلت إلى مستوى أصبح يشكل خطرًا على التركيبة الاجتماعية برمتها وكان ظهور المقاومة السياسية في الريف يعني أن مصر كلها حبلى بجنين الثورة[2] .

(١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢، دار الشروق، القاهرة.
(٢) د. محمد مورو، دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨١.

وكان الإخوان المسلمين قد شاركوا في حرب ١٩٤٨، فاكتسبوا خبرة قتالية وسمعة عالية جعلتهم المؤهلين لقيادة الثورة المرتقبة، وكان لهم نفوذًا قويًا داخل الحركة الطلابية والعمالية والفلاحية، وأصبحت شعب الإخوان تنتشر في كل مدن مصر وقراها [١].

وتحركت القوى الاستعمارية بليل وقررت إجهاض جنين الثورة قبل أن يكتمل واستبداله بجنين مشوه، وكان من ضمن هذه الخطة الشيطانية التخلص من زعيم قائد يجمع القلوب حوله وهو الشهيد حسن البنا لتحرم الجماهير من قائد موهوب من ناحية ولتكون فرصة لإحداث بلبلة وانشقاقات في صفوف الحركة تمهد لتصفيتها أو لدفعها إلى مسار جانبي أو إسقاط مصداقيتها وتحويلها عن أهدافها النبيلة، وهكذا تم اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا في فبراير ١٩٤٩م، ولولا ظهور حسن الهضيبي بشخصيته المثالية وتمسكه اللانهائي بمبادئه ونقائه الثوري ورفضه المساومات لتحقق للقوى الشيطانية ما أرادت من دفع الحركة إلى المساومات التي تفقدها هويتها شيئا فشيئا وصحيح أن القوى الاستعمارية نجحت في عمل ثورة مزيفة هي ثورة ١٩٥٢ م؛ لتكون بديلا عن الثورة الحقيقية ولتجهض المد الشعبي العارم بها، إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها بالنسبة لحركة الإخوان المسلمين فظلت الحركة بفضل مثالية وصمود حسن الهضيبي في مسارها الصحيح رغم أنها دفعت ثمنًا باهظًا لهذا الطريق، ونستطيع أن نقول إن حسن الهضيبي جاء في وقت عصيب جدًا، واستطاع أن يحافظ وسط جو قاس جدًّا على الراية مرفوعة يسلمها إلى من بعده .

كان الهضيبي - رحمه الله – هو رجل المرحلة بكل ما للكلمة من معنى، وأكاد أقرر أنه رجل لا تطاوله قامة الرجال جميعا داخل الحركة وخارجها، فقد فعل الرجل شيئين على جانب كبير من الخطورة، أولهما أنه حافظ على الحركة رغم الفتن الداخلية وظلت الحركة بفضله تمثل الجسم الرئيسي على المسار الصحيح رغم الانشقاقات والابتلاءات التي جاءته من بعض إخوانه، ولولا

(١)محمود عبد الحليم الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ، دار النشر والتوزيع الإسلامية، القاهرة .

صلابة الرجل ومثاليته لتحول جسم الحركة الرئيسي إلى المسارات الجانبية، ولكانت تلك الانشقاقات قد نجحت في جعل الحركة مجموعة من الفرق المتناحرة بدون هيكل رئيسي واسع أو بوجود هيكل رئيسي ضعيف أو جانبي.

والشيء الثاني أن الرجل رفض المساومات مع السلطة المستبدة متمسكًا بمبادئ الحركة محافظًا على طهارتها، وصحيح أن الثمن كان غاليًا جدًا بالنسبة للحركة وله هو شخصيًا من سجن وتعذيب ومطاردة بلا حدود، ولكن لو ساوم الرجل أو تنازل لانتهت الحركة إلى مسخ شائه لا يلبي تطلعات الأمة أو ربما لأصبحت الحركة مجرد حركة تعمل لمصلحتها الشخصية على حساب مصالح الجماهير وعلى حساب المبادئ، لقد ظل الرجل دائما يرفض المهادنة أو المساومة أو التخلي عن مبادئ الحركة الثابتة رغم صنوف التعذيب والاضطهاد الذي لاقاه الرجال من حوله .

يقول الزعيم الوطني أحمد حسين عن الهضيبي في رثائه له:« سوف يسجل التاريخ لحسن الهضيبي أنه كان كابن حنبل رفض أن يساوم أو يتزحزح عما يتصوره حقا »[1].

ويقول عنه مصطفى أمين : انهالت على رأسه الضربات فلم يرتع، حاصرته المصائب فلم ييأس، تلقي الطعنات من الخلف والأمام فلم يسقط على الأرض، رأيته في محنته أكبر منه في مجده، أسقط من المقعد واقفًا وغيره يجلس فوق المقعد راكعًا»[2].

وتقول عنه الحاجة زينب الغزالي« أذكر أنه قال لمن أراد أن يستفتيه في الترخص لتأييد عبد الناصر ، الدعوات لا تقوم على الرخص، وعلى أصحاب الدعوات أن يأخذوا بالعزائم، والرخص يأخذ بها صغار الرجال »[3].

ولم تكن عظمة الرجل تقف عند ما سبق، بل أنه أضاف إلى عظمته إضافة هامة وبارزة وهي تصديه لهؤلاء الذين انحرفوا عن الطريق تشددًا وغلوا، كانت أجواء التعذيب والقتل والاضطهاد قد أفقدت البعض – معذورا- صوابه فكان

(١)أحمد حسين في رثائه لحسن الهضيبي.
(٢)مصطفى أمين، أخبار اليوم، فكرة، ١٩٧٣ .
(٣)زينب الغزالي، نقلاً عن - . رزق، حسن هضيبي الإمام الممتحن، دار اللواء، القاهرة، ١٩٩١.

رد الفعل على ذلك الذي يحدث للمجاهدين الصابرين خلف الأسوار، أن قال البعض بتكفير هذا أو ذاك من الناس وتطورت المسألة فأصبحت قضية التكفير والحكم على الناس فلسفة متكاملة لدى قطاع من الحركة الإسلامية، ولو نجحت في استقطاب مجموع الإخوان لتحولت الحركة إلى مجرد فرقة دينية جديدة، بدلاً من أن تكون كعهدها، طليعة الأمة ورائدة للنهضة، والصحيح أن الحركة الإسلامية حركة طليعية تقود إلى النهضة وتواجه تحدياتها وليست فرقة دينية جديدة تتميز وتختلف عن الآخرين في عقائدها وسلوكياتها، إننا لا نرفض الأبحاث العقائدية والفقهية ولكن هذا مكانه الجامعات ودور البحث العلمي وبين العلماء، وليس هذا بحال من الأحوال شأن حركة سياسية وليس هذا دور من يضطلع بمهمة اليقظة والنهضة، وليست هذه القضايا وأمثالها مما يناقش بين الدعاة وفي إطار حركة مجاهدة تقاوم الاستعمار والاستبداد وتدعو إلى النهضة والإقلاع، تصدى الإمام حسن الهضيبي لذلك الأمر، وأعلن بوضوح وحسم أننا (دعاة لا قضاة)، وأصدر كتابًا عبارة عن مجموعة أبحاث تتصدي لتلك الظاهرة وتكشف خطورتها على الحركة الإسلامية، ونجح الرجل في تقليص الظاهرة والمحافظة على جسم الحركة الرئيسي بعيدًا عن هذا الغلو والشطط، وبذلك سلم راية الحركة كما استلمها راية للنهضة ومواجهة تحديات الأمة، وليست مجرد فرق دينية جديدة متميزة عن الأمة ومختلفة عنها في الفكر والسلوك.

حياته وجهاده

ولد الشيخ الإمام حسن الهضيبي في ديسمبر ١٨٩١ م في قرية عرب الصوالحة بمحافظة القليوبية لأسرة ذات أصول عربية عريقة، حفظ القرآن مبكرًا في كتاب القرية، ثم التحق بالأزهر فدرس به عامًا واحدًا ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية فأتم بها دراسته الابتدائية ثم التحق بمدرسة الخديوية الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية، وحصل منها على ليسانس الحقوق سنة ١٩١٥ .

وكان قد انضم إلى جمعية سرية كان قد كونها الزعيم محمد فريد، وكان يرأسها

إبراهيم الورداني[1]، وكانت تستهدف اغتيال عملاء الإنجليز وجنود الاحتلال.

وأثناء دراسة الهضيبي بمدرسة الحقوق شارك في الاحتجاج على تدخل الإنجليز في شئون العرش المصري وتعيينهم السلطان حسين كامل بدلاً من الخديوي عباس حلمي الثاني وقد فصل الهضيبي لمدة عام من مدرسة الحقوق بسبب رفضه وزملائه استقبال السلطان حسين كامل في زيارته لمدرسة الحقوق .

عمل الأستاذ حسن الهضيبي محاميا عدة سنوات في مدينة شبين القناطر ثم سوهاج، ثم دخل سلك القضاة في سنة ١٩٢٤، وتدرج في سلك القضاة حتى أصبح مستشارًا بمحكمة النقض.

التحق حسن الهضيبي بالإخوان المسلمين مبكرًا، ولكن ظلت علاقته بها في طي الكتمان مدة طويلة وذلك بناء على رأي الإمام الشهيد حسن البنا، ويروي الكثيرين من المقربين إلى الرجلين أنهما كانا يلتقيان في أكثر مكان وخاصة في قرية حسن الهضيبي (عرب الصوالحة) لمناقشة القضايا المستجدة على الساحة، وفي الأيام العصيبة أثناء حكومة عبد الهادي وقبيل اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، كان الشهيد حسن البنا دائم الاتصال بالإمام حسن الهضيبي وجعله مستشارًا له وأفضى له بأنه يحس أنهم سوف يقتلونه ويروي حسن العشماوي أن الإمام الشهيد حسن البنا قال له: « إن اجتمعتم في غيابي إلى رأي فالتمسوه عند حسن الهضيبي المستشار بمحكمة النقض، فإني أحسبه صادقًا صائب الرأي ».

وعند استشهاد الإمام الشهيد حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ م، وبعد سلسلة من الأحداث اتفق الرأي على اختيار المستشار حسن الهضيبي مرشدًا عامًا للإخوان المسلمين، وتمت البيعة له على ذلك، وقد واجه الرجل سلسلة من المشاكل مع عدد من أعضاء الحركة، ثم سلسلة من الاضطهادات والصدام مع عبد الناصر، ودخل السجن عدة مرات بدءاً من عام ١٩٥٤ وحتى عام ١٩٧١، إلا أنه رفض دائمًا تأييد الحكومة أو المساومة على مبادئ الحركة، وتوفي الرجل عام ١٩٧٣ .

---

(١) إبراهيم الورداني هو الذي اغتال بطرس غالي رئيس الوزراء المصري سنة ١٩١٠، عندما حاول مد امتياز قناة السويس.

الشهيد
سيد قطب

الشهيد سيد قطب

الأطروحة السياسية والحركية والظرف الموضوعي

لايختلف اثنان على فضل الشهيد سيد قطب ولا على بلائه وابتلائه في سبيل الله ونحسبه إن شاء الله شهيدًا ولا نزكي على الله أحدًا، ولا يختلف اثنان على أهمية ما كتبه الشهيد سيد قطب وخاصة تفسيره المعروف :« في ظلال القرآن » .

ولكن من واجب الشهيد سيد قطب علينا، ألا نستخرج من أحكامه أكثر مما تحتمل، وألا نحمل فكر الرجل غلونًا أو تشددنا أو قصر نظرنا، يجب علينا أن نفرق بين ما قدمه الشهيد سيد قطب في إطار التفسير أو الفقه أو التاريخ وبين أطروحته السياسية والحركية ورؤيته حول قضايا العمل الإسلامي المعاصر .

فالقضايا الأولى تؤخذ في إطار العلوم الإسلامية باعتباره مفكرًا إسلاميًا مجتهدًا، أما أطروحته السياسية والحركية فيجب ألا نفصلها عن ظرفها الموضوعي، ذلك أن الشهيد سيد قطب قد وضع تلك الرؤية في فترة عصيبة من فترات القهر والقمع التي تعرضت لها الحركة الإسلامية المعاصرة في الخمسينات والستينات من القرن العشرين في مصر، كانت فترة حالكة السواد، فالتعذيب والقتل والسجن لعناصر الحركة الإسلامية، والهجوم على الإسلام في وسائل الإعلام على قدم وساق .

كان الإسلام مطاردًا في كل جزيئاته، والسخرية من العقائد والعبادات الإسلامية إلى درجة أن الإنسان المتمسك بدينه صار

يخفي حتى عباداته ليس خوفًا من بطش السلطة فحسب، بل حتى لا يتهم بالرجعية والجمود والتخلف وعدم مجاراة العصر !! .

وفي مثل هذا الإطار، إطار المد العالي للفكر العلماني عمومًا واليساري خصوصًا، في إطار الهجوم على ما يمت للإسلام بصلة، في إطار القتل والتعذيب والتشريد والسجن للإسلاميين، كان المطلوب حماية المسلم من الاندماج في هذا الجو ، وتحقيق أكبر قدر من الاستعلاء على هذا الواقع الفاسد، في هذا الإطار جاءت الأطروحة الحركية للشهيد سيد قطب.

ولكن الأمر الآن مختلف تماما، فهناك صحوة إسلامية، وهناك تراجع كبير في الفكر العلماني عمومًا واليساري خصوصًا، وهناك جماهير تحترم الإسلام وعقائده وشرائعه رغم التحريض العلماني المستمر، وحتى رغم القمع البوليسي. وكل هذا يجعل الأطروحة الحركية الصحيحة والملائمة هي أطروحة التفاعل والتأثير والهجوم، وليست أطروحة العزلة والاستعلاء التي قال بها الشهيد سيد قطب، وكانت ملائمة للستينات أي مرتبطة بظرف محدد.

وخلاصة القول أن الأطروحة الحركية للشهيد سيد قطب جاءت في ظرف معين واستوعبت هذا الظرف وكانت ملائمة له ومكافئة له. ولكن الظروف تغير مما يوجب تطوير الأطروحة الحركية للحركة الإسلامية بما يلائم هذا الواقع المختلف كما ونوعا عن الواقع الذي جاءت فيه أطروحة سيد قطب، وهذا هو الفهم العلمي للشهيد سيد قطب ولتراثه الفكري والحركي الفذ[1].

مولده وحياته

ولد الشهيد سيد قطب في عام ١٩٠٦ في قرية موشا بمحافظة أسيوط بصعيد مصر، حفظ القرآن الكريم مبكرًا، وبعد إتمام دراسته الأولية التحق بكلية دار العلوم، حيث تخرج منها سنة ١٩٣٣ [2].

كان الشهيد سيد قطب يشارك في سنوات شبابه الأولى من خلال المدرسة [3] أو

(١) محمد مورو، عاجل إلى الحركة الإسلامية، دار المروة للإعلام، ١٩٩٠ م، القاهرة.

(٢) صلاح شدي، الشهيدان، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٨.

(٣) محمد الصايم، شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين، دار الفضيلة، القاهرة ١٩٩٢ .

الجامعة في النضال الوطني ضد الاستعمار، وكان أبوه عضوًا في الحزب الوطني الذي أسسه مصطفي كامل، وكان أعضاء الحزب الوطني هم مفجرو ثورة ١٩١٩ [١].

ونبغ الشهيد سيد قطب في الأدب حيث ألف القصص وقرض الشعر وكتب المقالات في النقد الأدبي بصورة لفتت إليه الأنظار، واقتنع الشهيد سيد قطب بفكر حركة الإخوان المسلمين في أواخر الأربعينات، وأصبح أحد الكتاب الرئيسيين في صحف الإخوان ، ثم انتخب عضوًا في مكتب الإرشاد للجماعة سنة ١٩٥٢ وعين رئيسًا لقسم نشر الدعوة في المركز العام للإخوان المسلمين، وفي سنة ١٩٥٤ أصبح رئيسًا لتحرير جريدة الإخوان المسلمين، ولكنها تعطلت عن الصدور بعد ذلك بشهر واحد، ثم دخل سيد قطب السجن في نفس العام ١٩٥٤، ثم مرة ثانية في عام ١٩٥٥، واستمر في السجن حتى عام ١٩٦٤، ثم أعيد للسجن مرة أخرى في عام ١٩٦٥، حيث حكم عليه بالإعدام، حيث تم تنفيذ الحكم في عام ١٩٦٦، حيث لقى ربه صابرًا محتسبًا .

جهاده ونضاله

لعل مجرد الأطلال على الفترات التي قضاها الشهيد سيد قطب في السجن منذ انخراطه في حركة الإخوان المسلمين تعطينا الدلالة على مدى جهاد الرجل ونضاله، فمند التحق بحركة الإخوان المسلمين في نهاية الأربعينات وحتى ١٩٦٦ حيث تم إعدامه، قضي الرجل معظم سنواته تلك من سجن إلى سجن ومن تعذيب إلى تعذيب إلى أن تم صدور الحكم بالإعدام عليه وتنفيذه سنة ١٩٦٦، ولعل أهم خصائص الرجل هو رفضه للظلم والظالمين، فقد ظل طوال حياته يدافع عن الإسلام وعن الفقراء والمستضعفين وينعي على الظلم والظالمين، وكان عزيز النفس شامخًا، فرفض دائمًا أن يقدم الاعتذار أو التماس تخفيف الأحكام أو التماسات الإفراج للسلطات الحاكمة، ولو فعل الرجل لما تأخروا عن إغرائه، بل لقد حاولوا إغرائه مرارًا وتكرارًا بمناصب مختلفة منها منصب الوزارة إلا أنه رفض دائمًا أن يساوم على دينه ومبادئه ومواقفه مما جعل السلطة في النهاية تخشي من

(١)د. عصام ضياء الدين الريس، الحزب الوطني والنضال السري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة .

مصداقيته فنفذوا الحكم بإعدامه رغم أنه مفكر وصاحب رأي معروف في مصر والعالم العربي والإسلامي.

آثاره الفكرية ومؤلفاته

يتميز الإنتاج الفكري للشهيد سيد قطب بالغزارة والعمق، ويتميز أسلوبه اللغوي بالعاطفة والإيحاء والحيوية، ولعله من أبرع من امتلك ناصية البيان في اللغة العربية وتكاد نجد للشهيد سيد قطب إسهامًا في كل المجالات الفكرية والأدبية على اختلافها، فهو قاص بارع ومن مؤلفاته القصصية : طفل من القرية ، أشواك، المدينة المسحورة، قصص الأنبياء ، الأطياف الأربعة، وهو شاعر كبير أصدر العديد من دواوين الشعر مثل الشاطئ المجهول، حلم الفجر، قافلة الوثيق، وهو أيضًا ناقدًا أدبي متمكن وله كتاب في مجال النقد الأدبي يسمي « النقد الأدبي أصوله ومنهجه »، وهو كاتب وداعية ومفكر إسلامي فذ، وفي هذا الإطار فإن مؤلفاته من الكثرة والتنوع بمكان نذكر منها : معركة الإسلام مع الرأسمالية، السلام العالمي والإسلام، دراسات إسلامية، نحو مجتمع إسلامي، هذا الدين، المستقبل لهذا الدين، خصائص التصور الإسلامي ومقدماته، الإسلام ومشكلات الحضارة، معالم في الطريق.

ولعل أهم مؤلفاته على الإطلاق هو تفسيره للقرآن الكريم الذي يعد أهم التفسيرات المعاصرة للقرآن الكريم وأشهرها وهو تحت عنوان : «في ظلال القرآن» ويقع في عدة مجلدات[1] .

---

(١)صلاح شادي، الشهيدان، مرجع سابق .

الشيخ حافظ سلامة

قائد المقاومة الشعبية في مدينة السويس ١٩٧٣

دخل الشيخ حافظ سلامة التاريخ كبطل للمقاومة الشعبية في مدينة السويس إبان حرب ١٩٧٣، فقد كان هو قائد تلك المقاومة ومفجرها، وهو الذي رفض بإصرار تسليم المدينة للقوات الإسرائيلية، وهو الذي نظم عملية صمود المدينة مع عدد من أبناء السويس ورجالها الأبطال .... وكانت القوات الإسرائيلية قد استطاعت أن تتسلل إلى الضفة الغربية لقناة السويس بعد نجاح الجيش المصري في عبور القناة وتحطيم خط بارليف، وجاء هذا التسلل الإسرائيلي من منطقة الدفر سوار كمحاولة للقضاء على مكاسب الجيش المصري في تلك المعركة، واستطاعت تلك القوات الإسرائيلية أن تحقق بعض المكاسب على الأرض، ووصلت بالفعل إلى مشارف مدينة السويس بهدف احتلالها، ولو استطاعت القوات الإسرائيلية احتلال المدينة في ذلك الوقت لكان الموقف قد أصبح خطيرًا جدًّا، حيث إن احتلال المدينة يحقق للقوات الإسرائيلية استكمال حصار الجيش الثالث الميداني في سيناء، ويفتح أمامها الطريق على القاهرة عبر السويس، وعلى حد تعبير أحد المؤرخين العسكريين فإن احتلال السويس كان بمثابة حبل يلتف حول رقبة الجيش الثالث، ومدفع مصوب على القاهرة .

مولده وحياته

الشيخ حافظ على أحمد سلامة، ولد بالسويس في

٦ ديسمبر «كانون أول » ١٩٢٥ م، التحق بالأزهر، ودرس العديد من العلوم الدينية ثم عمل بالأزهر واعظًا، حتى أصبح مستشارًا لشيخ الأزهر لشئون المعاهد الأزهرية حتى عام ١٩٧٨، ثم أحيل إلى التقاعد .... وفي خلال تلك الرحلة من التعليم والعمل بالأزهر، كان للشيخ حافظ سلامة دورًا اجتماعيًا وسياسيًا ونضاليًا بارزًا، حيث التحق في شبابه بجماعة شباب محمد التي أنشأها الأستاذ حسين محمد يوسف عام ١٩٤٨، وشارك الشيخ حافظ سلامة من خلال تلك الجمعية في النضال الوطني الإسلامي في مصر ضد الاحتلال الإنجليزي، ثم اعتقل بعد ذلك في إطار الاعتقالات والتصفيات التي نفذها النظام الناصري ضد الإسلاميين، وظل الشيخ حافظ سلامة في السجن حتى نهاية ١٩٦٧، وكانت الحكومة المصرية قامت بحل جماعة شباب محمد في إطار حل الجمعيات الإسلامية في الستينات، إلا أن الشيخ حافظ سلامة أسس فيما بعد جمعية الهداية الإسلامية في مدينة السويس، وهي الجمعية التي اضطلعت بمهمة تنظيم الكفاح الشعبي المسلح ضد إسرائيل منذ عام ١٩٦٧، وحتى عام ١٩٧٣، وقد لعبت تلك الجمعية دورًا هامًا في بناء العديد من المساجد، وتنظيم حلقات الوعظ والتوجيه المعنوي لرجال القوات المسلحة عقب هزيمة ١٩٦٧ م، فقد كان الشيخ حافظ سلامة معتقلاً حتى عام ١٩٦٧، حيث حدثت هزيمة الجيوش العربية في حرب ٥ حزيران « يونيو » ١٩٦٧، وعندما حدثت معركة حزيران « يونيو » طلب الشيخ حافظ سلامة وزملائه من قائد معتقل أبي زعبل الرائد محمد عبد العال سلامة أن يسمح لهم بالخروج لأداء واجبهم الديني في الدفاع عن البلاد ضد اليهود وتعهدوا له بالعودة بعد انتهاء المعركة إلى السجن، إلا أن طلبهم قوبل بالرفض .

ثم أفرج عن الشيخ حافظ سلامة في ديسمبر عام ١٩٦٧ فاتجه إلى مسجد الشهداء بالسويس، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية ونجح في إقناع قيادة الجيش في تنظيم قوافل توعية دينية للضباط والجنود تركز على فضل الجهاد والاستشهاد وأهمية المعركة مع اليهود، وعلى جرائم اليهود بحق الأنبياء وغيرها من المعاني التي تساهم في رفع الروح المعنوية للقوات المسلحة المصرية، وقد شارك في تلك

القوافل علماء الأزهر، وأساتذة الجامعات مثل الدكتور عبد الحليم محمود، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ حسن مأمون، والدكتور محمد الفحام، والشيخ عبد الرحمن بيصار وغيرهم، وقد نجحت القوافل نجاحًا كبيرًا فصدر قرار بتعميمها على جميع وحدات الجيش المصري في طول البلاد وعرضها كنوع من الاستعداد للمعركة الفاصلة مع اليهود .

معركة السويس (٢٢ - ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣)

تعد قيادة الشيخ حافظ سلامة لعمليات المقاومة الشعبية في مدينة السويس بدءًا من يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ م هي المحطة الأهم في حياة الشيخ حافظ سلامة، كانت القوات الإسرائيلية قد نجحت في التسلل إلى غرب قناة السويس في منطقة الدفرسوار وسيطرت على مساحة كبيرة من الأرض باتجاه السويس واستعدت لاقتحام المدينة لتكمل الحصار على الجيش الثالث الميداني بالضفة الشرقية للقناة وتهدد القاهرة، وكانت أجهزة المدينة الرسمية قد قررت تسليم المدينة، حيث أن الأوضاع الدفاعية والتموينية للمدينة لم تكن تسمح بالصمود على حد تقدير تلك الأجهزة، ولكن الشيخ حافظ سلامة ومعه عدد من القيادات الشريفة المجاهدة، ومعه جميع أبناء المدينة قرروا رفض تسليم المدينة واستمرار المقاومة مهما كانت الظروف، وقد تعرضت المدينة لحصار شديد من القوات الإسرائيلية، وكذا لقصف مستمر من الطائرات .

***

دور اجتماعي ونضالي بارز

بعد حرب ١٩٧٣، لم يتوقف الشيخ حافظ سلامة عن العطاء الوطني والإسلامي، فقد استطاع من خلال جمعية الهداية الإسلامية أن يؤسس عدد من المساجد والمراكز الإسلامية الكبيرة والمتميزة في عدد من مدن مصر، لعل أكبرها وأهمها مسجد الفتح الإسلامي بميدان رمسيس وهو صاحب أعلى مئذنة في مدينة القاهرة، وكذا مسجد النور بالعباسية بالقاهرة، كما قام الشيخ حافظ سلامة من خلال جمعية الهداية الإسلامية بإنشاء عدد كبير من المدارس والملاجئ

ومراكز رعاية المعوقين، ومراكز التأهل المهني وتعليم الحرف للأولاد والبنات، وساهم بذلك في خلق فرص عمل لهؤلاء .

وقد اعتقل الشيخ حافظ سلامة لفترات قصيرة أبان عامي ١٩٨١، ١٩٨٣ إلا أن تاريخه النضالي لم يكن يسمح باستمرار اعتقاله لفترات طويلة، كما قام الشيخ حافظ سلامة بالدعوة إلى مسيرة شعبية، تعد الأهم من نوعها وهي مسيرة الشريعة الإسلامية للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وقد استجاب لندائه عشرات الألوف تجمعوا في مسجد النور بالعباسية عام ١٩٨٤ م، وقام وفد منهم بتسليم طلب تطبيق الشريعة الإسلامية إلى رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت .

عثمان الفودي

(١٧٥٢-١٨١٧م)

مؤسس الدولة الصكتية في غرب أفريقيا

يخطئ من يتصور أن العطاء الحضاري والجهادي للإسلام والمسلمين قد انقطع يومًا ما ويخطئ من يتصور أيضًا أن الاستعمار الأوروبي لأفريقيا كان قدرًا لا فكاك منه، بل يرجع أساسًا إلى أخطاء تكتيكية واستراتيجية ارتكبها المسلمون .

ولعل في تجربة الشيخ عثمان بن فودي مؤسس الدولة الصكتية في غرب أفريقيا ما يؤكد هذين الأمرين .

يقول الأستاذ أحمد محمد قاني عن تلك التجربة في كتابه الهام «الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا» : مما لاشك فيه أن حركة الجهاد الصكتي تعتبر إحدى الثورات الإسلامية الفريدة في العالم الإسلامي التي ساهمت في خلق دولة إسلامية وفي بناء مجتمع إسلامي على أسس سلمية . لقد تركت هذه الحركة بصمتها الفكرية والسياسية على مجتمعات غرب أفريقيا، وما زالت آثار هذه البصمات باقية وعالقة حتى الآن، ولا تزال معالمها تقف شامخة وشاهدة على عظمة هذه الدولة التي استمرت مائة عام منذ عام ١٨٠٤م وحتى دخول الاستعمار الأوروبي الفرنسي والإنجليزي والألماني لتلك البلاد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ونتج عن ذلك تقسيم الخلافة الصكتية إلى مناطق نفوذ للدول الاستعمارية، وكانت الخلافة الصكتية في فترة قصيرة قد نجحت في السيطرة على مساحة جغرافية، كبيرة حوالي ١٥٠ألف ميل مربع، واستطاعت أن تقيم دولة كبيرة شاسعة الأطراف من تشاد إلى مالي شرقًا وغربًا وإلى ولاية أويو جنوبًا .

وهكذا فإننا أمام حركة جهادية ظهرت في القرن التاسع عشر أي في عصر الانحطاط الإسلامي، الأمر الذي يؤكد استمرار العطاء الحضاري والجهادي للإسلام في كل الظروف، واستطاعت تلك الحركة أن تقيم خلافة على مساحة كبيرة من الأرض من تشاد إلى مالي لمدة كبيرة من الزمن – حوالي ١٠٠ عام – وأن توحد تلك المناطق تحت نفوذها، ولولا الخلافات التي ظهرت فيما بعد لاستطاعت تلك الدولة الصمود في وجه الزحف الأوروبي، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك أنه لو كان محمد على الذي ظهر في مصر سنة ١٨٠٥ م واستطاع أن يقيم دولة قوية، لو كان محمد على قد اهتم بمشروعه الأفريقي وتحاشي الصدام مع الخلافة العثمانية، ووفر على مصر وأفريقيا والعرب والخلافة العثمانية هذا المجهود الكبير الذي تبدد في الصدام بين مصر ودولة الخلافة العثمانية، لاستطاع محمد على بجيش مصر ومواردها وعلمائها أن يقيم نهضة حضارية شاملة في أفريقيا حيث أن فتح السودان مثلاً كلف محمد على أقل من ١,٠ / ٠ من المجهود الذي بذله في مشروعاته ومغامراته الشمالية، ولكان قد استطاع أن يقيم نهضة صناعية وعسكرية في أفريقيا، ويوفر في الوقت نفسه المجهود الذي بلته الدولة العثمانية في الصدام معه ، وبالتالي كانت تستطيع أن تصمد في معاركها مع الدول الأوروبية داخل أوروبا ذاتها ..

وهذا معناه أولاً : شغل الدول الأوروبية عن مشروعاتها الاستعمارية في أفريقيا، وحرمان أوروبا بالتالي من كل الموارد التي قامت عليها نهضتها الصناعية. ثانيًا : ويمكن لنا أن نتصور تساند محمد على والدولة الصكتية في أفريقيا لإقامة نهضة إسلامية حضارية وعسكرية وصناعية بثروات أفريقيا وعلماء مصر ورجالها، خاصة أن التقدم العلمي في ذلك الوقت لم يكن يسمح لأوروبا أن تعرقل مشروع محمد على الأفريقي خاصة في مجال المواصلات، حيث تظل المسافات بين أوروبا وأفريقيا في هذه الحالة حائلاً بينها وبين عرقلة مشروع محمد على الأفريقي، كما أن ميزان القوى العلمي والعسكري لم يكن مختلاً جدًّا بين أوروبا ومصر في عهد محمد على لأن هذا الميزان أصلاً كان مستقطبًا نحو الصراع داخل أوروبا ذاتها ومع الدولة العثمانية من ناحية، ولأن

التقدم العلمي والعسكري والصناعي الأوروبي لم ينشأ بصورته الراهنة إلا بعد نهب ثروات أفريقيا .

أي أن الاستعمار الأوروبي لأفريقيا لم يكن قدرًا، بل جاء نتيجة اختلاف أبناء عثمان الفودي وأتباعه من الدولة الصكتية وكذلك جاء نتيجة الخطأ الاستراتيجي الفادح لمحمد على حين اتجه شمالاً فاصطدم بالخلافة بدلاً من أن يتجه إلى عمقه الاستراتيجي الطبيعي والحيوي في أفريقيا، ولو حدث ذلك لكان من الممكن الآن الحديث عن الإنسان الأفريقي صاحب المشروع الحضاري الصناعي والعسكري، والإنسان الأوروبي المتخلف، أي لكانت النهضة والثروة الصناعية قد حدثت في الجنوب، والعكس في الشمال على غير الحال التي وصلت إليه الآن.

حياته وجهاده :

هو الشيخ عثمان بن محمد بن محمد الملقب بالفودي « أي الفقيه بلغة القلانيين » ولد في ولاية سكتو في نيجريا الحالية في قرية مرت سنة ١١٦٨ هـ - ١٧٥٢ م، وقد نشأ الشيخ في بيئة علمية إسلامية، وبدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم على يد والده الشيخ محمد فودي ودرس علوم اللغة العربية والعلوم الدينية الإسلامية على يد الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، ثم أخذ ينتقل من مكان إلى مكان طالبًا للعلم كعادة الطلاب في ذلك الزمان .

وتنقسم حياة الشيخ عثمان الفودي إلى ثلاث مراحل، هي مرحلة الدعوة منذ عام ١٧٧٤ إلى عام ١٨٠٣، ثم مرحلة الجهاد وإنشاء الخلافة الصكتية من عام ١٨٠٤ إلى عام ١٨١٠ م، ومرحلة توطيد أركان تلك الدول الإسلامية الجديدة من عام ١٨١٠ وحتى عام ١٨١٧ م، حيث توفي الشيخ في هذه السنة نفسها أي عام ١٨١٧ م .

الخلافة الصكتية :

بعد مجهود كبير بذله الشيخ عثمان الفودي في الدعوة إلى الجهاد والوحدة وتحكيم شرع الله بدلاً من التنافر والفساد والتفكك و استطاع الرجل أن يجمع

حوله عددا كبيرا من الأنصار والأتباع، بدأ بهم مرحلة جهاد وقتال مرير وهجرة من مكان إلى مكان، واستطاع الشيخ أن يصنع النواة لدولته الجديدة القائمة على تحكيم شرع الله تعالى والدعوة إلى توحيد المسلمين في غرب أفريقيا، واتخذ من مدينة صوكتو عاصمة لدولته الجديدة ومن قتال على قتال ومن جهاد إلى جهاد وسع الشيخ أملاك خلافته حتى أصبحت تضم بعد وفاته حوالي ١٥٠ ألف ميل مربع في تشاد شرقًا ومالي غربًا والنيجر ونيجريا جنوبًا، وعاشت تلك الدولة حوالي مائة عام منذ عام ١٨٠٤ وحتى بداية القرن العشرين حيث كان الصدام والتفكك الذي حدث فيما بين خلفاء الشيخ عثمان الفودي سبباً في سقوط تلك البلاد في يد الاستعمار الأوروبي .

الآثار العلمية للشيخ عثمان الفودي :

وإلي جانب حياة الجهاد والقتال والإدارة التي عاشها الشيخ عثمان فإنه كان عالمًا فقيهًا وشاعرًا فحلاً، فقد كان يقرض الشعر ويجيد وزن الأبيات بلغة عربية فصحي ومازال الكثير من أشعاره محفوظًا حتى الآن كما كان ضليعًا في علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية الإسلامية وكان صاحب مدرسة جهادية وإصلاحية متميزة مازالت آثارها الفكرية والسياسية والدينية باقية في غرب أفريقيا حتى اليوم .

وقد تميز الشيخ عثمان بالدعوة إلى الاجتهاد ورفض الدعوة التي تقول بإغلاق باب الاجتهاد الشرعي، وكان يشجع تلاميذه على ذلك وفي هذا الصدد يقول الأستاذ أحمد محمد قاني في كتابه « الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا » كان الشيخ عثمان الفودي يرمي من وراء آرائه الاجتهادية إلى حل المشاكل التي تواجه الإدارة السياسية والنظام القضائي، وقد تبلورت آراء الشيخ عثمان الاجتهادية في كثير من المسائل السياسية والقضايا التي تولدت من المشاكل اليومية التي واجهتها الإدارة في تلك الأزمنة .

وكان من الطبيعي أن يلقب فقه الجهاد الصكتي بفقه الدعوة لأنه فقه عمل وليس نظريًا كما يتضح جليا في كتابات بعض الفقهاء، ولم يعتمد الشيخ عثمان بن فودي في طرحه للقضايا الفقهية والسياسية ومحاولته إيجاد الحلول لها على

آراء المتقدمين فحسب، بل حاول بنفسه استنباط الأحكام المناسبة، معتمدًا على اجتهاده الخاص على ضوء الكتاب والسنة، ليجريها على الواقع الاجتماعي والسياسي .

وقد ناهزت مؤلفات الشيخ عثمان الفودي مائة كتاب، كما شكل مدرسة فقهية استمر عطاؤها طويلاً في إخوانه وأبنائه وأتباعه وتلاميذه، ومن أهم مؤلفات الشيخ عثمان الفودي إرشاد الملة إلى تيسير الملة، الفرق بين ولاية أهل الإسلام وبين ولاية أهل الكفر، تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان، علم فروض الأعيان من دين الله تعالى الرحمن، سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان، مسائل مهمة يحتاج معرفتها أهل السودان وغيرها من المؤلفات التي جاءت في معظمها في باب الجهاد والدعوة وتحليل الواقع المعاش والاجتهاد في المسائل المطروحة عمليًا[1] .

---

(١) أحمد محمد قاني، الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، ورقة ثقافية رقم (٧)، القاهرة، ١٩٨٧ م .

إبراهيم صالح بن يونس، الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم، برونو، القاهرة، ١٩٧٦ م .

الأمير عبد الكريم الخطابي

نموذج ثوري فريد صفحة من كفاح شعب المغرب

بعد صدام طويل بين الإسلام والصليبية على أرض المغرب العربي، هذا الصدام الذي استمر ألف عام، قبل فتح الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد سقوط الحكم الإسلامي للأندلس، بعد هذا الصدام الطويل نجحت فرنسا : أحد أذرع الإخطبوط الصليبي الغربي في احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ثم تونس ١٨٨١ وكان من الطبيعي أن يمتد بصر فرنسا نحو مراكش ، والتي كانت تتعرض في ذلك الوقت لهجمات غربية صليبية متعددة « ألمانيا وأسبانيا وإنجلترا وفرنسا » .

وتم التفاهم بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ وهو الاتفاق الذي أطلق يد فرنسا في مراكش مقابل إطلاق يد إنجلترا في مصر، وفي عام ١٩٠٦ تم أيضًا الاتفاق بين فرنسا وألمانيا على إطلاق يد فرنسا في مراكش، وكانت أسبانيا قد اقتطفت لنفسها أجزاء من مراكش مثل الصحراء المغربية وسبتة ومليلة وغيرها .

ونجحت فرنسا في إعلان احتلال المغرب سنة ١٨١٢ وكان من الطبيعي أن يستمر شعب المغرب في المقاومة التي لم تتوقف قط، ويصف ضابط فرنسي يدعي جيوم المقاومة في مراكش قائلاً (لم تستسلم أي قبيلة دون مقاومة، ولم تلق أي قبيلة سلاحها إلا بعد استنفاذ كل وسائل المقاومة)، وقاد المقاومة في ذلك الوقت عدد من المجاهدين والزعماء مثل هبة الله بن ماء العيون الذي فجر الثورة في فاس واندلعت شرارتها

على جميع الأقاليم عام ١٩١٢، وكذلك السيد الحلالي في الجنوب الشرقي من مراكش، حيث استمرت تلك الثورة حتى عام ١٩٣١ .

ولم يقتصر الجهاد في ذلك الوقت على قتال الفرنسيين، بل شمل أيضًا القتال ضد الأسبان الذين كانوا يسيطرون على منطقتي الريف والجبالة، وحمل لواء الجهاد ضد الأسبان أحمد بن محمد الرسولي الذي صمد في القتال منذ عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٢١ .

ظهور الأمير عبد الكريم الخطابي

هو الأمير محمد عبد الكريم الخطابي، المشهور بزعيم ثورة الريف ومؤسس جمهورية الريف في المغرب والذي ظل يقاتل الأسبان والفرنسيين منذ عام ١٩٢١ م حتى عام ١٩٢٦م، وهو خريج جامعة القرويين الإسلامية في المغرب، وقد ابتكر الأمير عبد الكريم الخطابي العديد من التكتيكات الحربية التي استفاد منها كل من الجنرال جياب في حرب فيتنام ضد القوات الأمريكية وكذا الثائر اليساري جيفارا في أمريكا الجنوبية، وقد سقط الأمير في الأسر عام ١٩٢٦ م ونفي إلى خارج المغرب حيث استقر في القاهرة ليواصل نضاله فشكل بها لجنة المغرب العربي للمطالبة باستقلال بلاد المغرب العربي ومتابعة كفاحها .

جهاد الأمير:

ظهر الأمير محمد عبد الكريم الخطابي في عام ١٩٢١ م في منطقة الريف، واستطاع أن يفجر الثورة بمنطقة الريف على الأسبان وأن يحقق العديد من الانتصارات عليهم، وخاصة في موقعة الأنوال حيث أبادت قوات الأمير الحملة الأسبانية بأسرها بما فيها قائدها الأسباني سلفستر ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة الأمير وسلمت له قبائل الريف كلها بالزعامة وانخرطت معه في الجهاد ضد الأسبان وحاصرت جميع المراكز الأسبانية في المنطقة وفي مدي خمسة أيام « مايو ١٩٢١ » كانت بلاد الريف قد تحررت تقريبًا من النفوذ الأسباني ووصلت طلائع قوات الأمير إلى ضواحي مليلة ودفع عدد كبير من الأسبان في الأسر وأصبح وجود الأسبان قاصرًا على مدينة تطوان وبعض المواني والحصون في

الجبال وأسس الأمير إدارة منظمة للمناطق المحررة وحكمها حكمًا شبيهًا بالحكم الجمهوري الرئاسي وألف مجلسا لرؤساء القبائل وجعل الوزراء مسئولين أمام هذا المجلس. وأعلن الخطابي أن أهداف حكومته هي طرد الأسبان والفرنسيين من المغرب وتحرير باقي بلاد المغرب العربي.

ولم يقتصر جهاد الأمير على القتال ضد الأسبان، بل إنه استخدم جمهورية الريف التي شكلها في الضغط على القوات الفرنسية وتحريض القبائل على التمرد والعصيان في منطقة النفوذ الفرنسي وخاصة بدءاً من عام ١٩٢٥، وبدأت الصدمات المتوالية تقع بين الأمير والقوات الفرنسية وأوقع بالفرنسيين خسائر فادحة .

وكان من الطبيعي إزاء تلك القوة الصاعدة التي تمتلك قائدًا كفئًا ومقاتلين شجعان، أن تتجمع القوى الاستعمارية ضدها، فتم عقد مؤتمر بين أسبانيا وفرنسا في مدريد عام ١٩٢٥ م لتنسيق الأعمال الحربية بينهما ضد الأمير عبد الكريم الخطابي، وتدفقت القوات الفرنسية والأسبانية على المغرب، بل وأيضا تم استخدام بعض المرتزقة من الطيارين الأمريكيين في تلك المعركة، وحشدت فرنسا وأسبانيا قواتها البحرية والبرية والجوية كمحاولة القضاء على الأمير واستطاع الأمير عبد القادر أن يصمد من مايو ١٩٢٥ إلى مايو ١٩٢٦ م أي عامًا كاملاً أمام جحافل دولتين أوروبيتين هما فرنسا وأسبانيا، وأخيرًا تم القضاء على قوات الأمير وسقط الأمير في الأسر، ليرحل إلى القاهرة بعد ذلك ليواصل نضاله من أجل المغرب العربي .

وإذا حاولنا أن نحلل تجربة الأمير عبد الكريم سواء في تنظيمه لجمهورية الريف، أو في قتاله ضد الفرنسيين والأسبان نجد :

أن الأمير انطلق من دوافع جهادية إسلامية، فهو عالم دين إسلامي، خريج جامعة إسلامية (جامعة القرويين) .

كان الأمير يؤمن بأسلوب الكفاح المسلح وشاركته أوسع الجماهير في الثورة.

كان الأمير عبد الكريم الخطابي يؤمن بالشورى وأقام نظام جمهورية الريف على النظام الرئاسي الجمهوري وهو بهذا قدم اجتهادًا إسلاميًا متقدمًا في هذا

الصدد في ذلك الوقت .

أن صمود دولة الريف سنة كاملة (مايو ١٩٢٥ ـ مايو ١٩٢٦) أمام دولتين أوروبيتين يعتبر حالة متميزة في تاريخ الحروب مع الاستعمار ، ويكفي أن الأمير واجه ثلاثة من كبار الماريشالات هم ليوني، بنيان، بريمودي، وأربعين جنرالاً ومئات الألوف من القوات الأسبانية والفرنسية، بل ومرتزقة أمريكيين، وكذلك واجه القوات البحرية والبرية والطيران، أي أنها كانت حربًا شاملة بين جمهورية الريف وبين فرنسا وأسبانيا بكامل قواتهما، بل أن رئيسي هاتان الدولتان قدموا إلى مراكش للإشراف على القتال بأنفسهم .

أننا في مقارنة صمود جمهورية الريف وصمود أهل فيتنام مثلاً نجد أن القوات الفيتنامية قد تلقت معونة هائلة من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية بعكس جمهورية الريف التي لم تعتمد إلا على قواها الذاتية .

أن تجربة جمهورية الريف تكشف خصوبة الاجتهاد الإسلامي مبكرًا، فهو تجربة جمهورية قائمة على الشوري، وكذلك فإن صمود جمهورية الريف أمام جحافل جيشين استعماريين كبيرين تؤكد قدرة المسلمين على القتال والمواجهة إذا ما توفر لهم عنصر قيادي يمتلك الشجاعة والذكاء وسعة الأفق السياسي والعسكري .

أن الأمير عبد الكريم الخطابي لم يكن يهدف بحركته إلى تحرير مراكش وحدها أو حتى دول المغرب العربي كلها أو حتى شمال أفريقيا بأسره، بل كان يتطلع إلى حركة تحرر إسلامية شاملة في كل أنحاء العالم الإسلامي ضد السيطرة الأوروبية .

عبد القادر الجزائري

منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام الفرنسيين الجزائر عام ١٨٣٠ هب الجزائريون جميعًا للمقاومة، ولم تنقطع هذه المقاومة على الإطلاق منذ عام ١٨٣٠، وحتى استقلال الجزائر عام ١٩٦٢، وفي خلال هذه الرحلة الجهادية الكبرى لشعب الجزائر برز العديد من رموز الثورة والجهاد، ولعل الأمير عبدالقادر يأتي على رأس هذه الرموز .

مولده وحياته :

ولد الأمير عبد القادر في مايو سنة ١٨٠٧ في قرية «قيطنة» وهي قرية جزائرية تقع في منطقة « أغريس » إلى الجنوب الشرقي من وهران كان والده محيي الدين من المرابطين الذين ظهر أجدادهم المرابطون في المغرب وحملوا السلاح دفاعًا عن المغرب والأندلس، حتى إذا زالت دولة الأندلس استقروا في ربوع بلاد المغرب العربي يعملون على نشر علوم الدين، وكان ينحدر أساسًا من سلالة هاشمية زادته شرفًا على شرف.

حفظ الأمير عبد القادر القرآن الكريم مبكرًا ثم تلقي عددًا من العلوم الشرعية على يد عدد من العلماء منهم والده محيي الدين، كما درس عددًا من العلوم الحديثة مثل الفلك والحساب والجغرافيا حتى عام ١٨٢٢ م ثم رافق والده إلى الحج إلى مكة المكرمة عام ١٨٢٥، وعاد من رحلة الحج عام ١٨٢٨ م، وفي عام ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر، فانخرط

الشعب الجزائري وعلى رأسه المرابطون ومنهم والد عبد القادر « محيي الـدين » في الجهاد والقتال ، وطلب المرابطون أن يصبح محيي الدين قائدًا لهـم، فـرفض ذلـك، وانتهى الأمر بمبايعة شيوخ المرابطين للأمير عبد القادر على الإمـارة والجهـاد ضـد الفرنسيين عام ١٨٣٢ م، ومنذ ذلك الحين حمـل الأمـير عبـد القـادر لـواء الجهـاد والثورة على الفرنسيين، وأظهر شـجاعة وذكـاء في إدارة المعـارك علـى الفرنسـيين واستمر مقاتلاً مجاهدًا حتى عام ١٨٤٨، حيث هزم ونقل معتقلاً إلى سجون فرنسا ثم أطلق سراحه سنة ١٨٥٣، ونفي إلى بروسية ثم دمشق ١٨٥٦، حيـث ظـل بهـا أغلب سنواته الباقية ولم يكن يتركها إلا لزيارات إلى مصر أو فرنسا أو الـذهاب إلى الحج، وقضي الأمير عبد القادر تلك السنوات في العبادة والعلم إلى أن توفي في عام ١٨٨٣ م في دمشق .

جهاده ضد الفرنسيين :

منذ أن اجتمعت كلمة شيوخ المجاهدين على ضرورة توحيد رايـة الجهـاد تحـت قيادة رجل واحد، وتم اختيار الأمير عبد القادر لهذه المهمة الصعبة، بدأ الأمير عبـد القادر سنة ١٨٣٢ في توحيد المناطق التي لم يصـل إليهـا الاحـتلال الفرنسـي، كمـا انضم إليه عدد من زعماء الجهاد في مختلـف أرجـاء الجزائـر، وبـدأ في تنظـيم إدارة حكومية لتنظيم أمور الحياة في تلك المناطق وتعبئتها وحشد طاقاتهـا للجهـاد ضـد الاحتلال الفرنسي وأعتمد الأمير عبد القادر على الفقه المالكي لتنظـيم العلاقـات والقوانين وطرق الحكمة، كما أقام مجلسًا للشورى يضم مندوب عن كل منطقة من المناطق الإحدى عشر التابعة له، وكان لا يبرم أمرًا إلا بعد الرجوع إلى هذا المجلس، وبدأ الأمير ببث الدعاة في مختلف أنحـاء الجزائـر للـدعوة إلى الجهـاد في سـبيل الله، واستطاع أن يشكل جيشًا نظاميًا بلغ قوامه ١٦ ألـف جنـدي بالإضـافة إلى قـوات المتطوعين من القبائل الذين يبلغ عددهم ١٥٠ ألفًا، كمـا أقـام عـددا مـن مصـانع السلاح في المناطق التي يسيطر عليها، مثل مصنع صهر المعادن في تلسمان الذي كان ينتج يوميًا ثمانية عشر مدفعًا، ومصنع للبنادق في مدينة مليانة، آخر لإنتاج البارود، وعدد آخر من مصانع السـلاح والـذخيرة في تلمسـان والمعسـكر وميلانـة والمدية

وتاقداوت، كما نشطت صناعة التعدين وخاصة تعدين ملح البارود، الكبريت، الحديد، النحاس، ولعل هذا اثبت أن المسلمين كانوا يسيرون في اتجاه التصنيع الثقيل لولا الاستعمار، وأن هذا الاستعمار هو الذي قضي على الثورة الصناعية في بلاد المسلمين، ولم يكن هناك تأخر علمي او خلافه بل إن نجاح الأمير عبد القادر في إنشاء هذه الصناعات يثبت وجود الخبرات العلمية الأزمة لذلك في بلاد المسلمين ولولا الاستعمار لتطورت التكنولوجيا في بلادنا، والغريب أن البعض يزعم أن الاستعمار قد حمل إلينا العلوم ! ولولاه لكنا لا نزال غارقين في الجهل .

واهتم الأمير عبد القادر بتأسيس المدن الجديدة وتنظيم الإدارة الحكومية تنظيمًا دقيقًا وأن يرفع المظالم عن الأهالي ويرسي علاقات الثقة والود بين الشعب والحاكم، كما أنشأ المكتبات العامة واستجلب لها الكتب من مختلف بلاد العالم وفتح العديد من المدارس، واهتم بتعليم الأطفال وخصص لطلاب العلم مرتبات شهرية، ونظم القضاء اعتماداً على المذهب المالكي وهو مذهب أهل الجزائر والمغرب العربي عمومًا، وقد امتنعت أعمال السرقة والسطو تمامًا وامتنعت أيضًا تجارة المخدرات والخمور والدعارة والميسر، واعتمد الأمير عبد القادر في ذلك على القدوة فكان هو نفسه مثالا يحتذي من حيث أسلوب الحياة ونزاهة النفس .

بدأ الأمير عبد القادر ورجاله المجاهدون عملياتهم القتالية ضد الفرنسيين سنة ١٨٣٣م، وقاد الأمير عبد القادر رجاله في اتجاه وهران ، اصطدم مع القوات الفرنسية واستطاع ان يلحق بها خسائر ضخمة وأن يأسر عددًا كبيرًا من الفرنسيين ويبيد الكثير من كتائبهم واستمرت انتصارات الأمير عبد القادر في أرزيو ومستغانم والمبرة حتى عام ١٨٣٥ مما أدى إلى هياج في فرنسا وتم تغيير القائد الفرنسي وإرسال المزيد من القوات الفرنسية إلى الجزائر لإنقاذ الجيش الفرنسي المهزوم في الجزائر، وبرغم تغيير القائد الفرنسي وإرسال المزيد من القوات الفرنسية إلى الجزائر، استمرت نجاحات الأمير عبد القادر ورجاله ضد القوات الفرنسية وحقق الأمير عبد القادر أكبر انتصاراته على الجيش الفرنسي الذي اضطر إلى الانسحاب عن طريق البحر إلى وهران، واستمر الأمير يضغط على الفرنسيين في كل مكان

طوال عام ١٨٣٦ حتى اضطرت فرنسا إلى تغيير القائد الفرنسي في الجزائر مرة أخري، وتم تحرير وهران نفسها وكذلك دخل الأمير عبد القادر تلمسان، وأصبح الوجود الفرنسي في الجزائر كلها مهددًا تمامًا عام ١٨٣٧. وللأسف الشديد وقع الأمير هدنة مع الفرنسيين في ذلك الوقت، ولو ضرب ضربته الكبرى لأزاح الوجود الفرنسي من الجزائر كلها في ذلك الوقت .

تجددت الاشتباكات عام ١٨٤٠ بعد أن عززت فرنسا قواتها بالمزيد من الجنود والسلاح فوصلت إلى ٣٠ ألف جندي وعندما أحس الأمير عبد القادر عدم توازن القوى لجأ إلى أسلوب الإغارة والكمائن وقطع طرق الإمداد مما أرهق القوات الفرنسية فأرسلت فرنسا ٨٠ ألف جندي على الجزائر لإخضاع الأمير عبد القادر، الذي استمر في أسلوب حرب العصابات طوال أعوام ١٨٤١، ١٨٤٢، ١٨٤٣، وأوقع خسائر فادحة في القوات الفرنسية، ثم اضطر إلى اللجوء إلى الحدود المغربية ١٨٤٥ واتخذ منها قاعدة لغزواته، وعندئذ اندلعت ثورة أخرى في الجزائر في منطقة الظهرة وسهل الشلف بقيادة محمد بن عبد الله أبي معزة فاستغل الأمير عبد القادر الفرصة وقاد قواته إلى داخل الجزائر ودمر الحامية الفرنسية في سيدي مخلصة واستسلمت له كتيبة فرنسية كاملة قوامها ٦٠٠ جندي في « ثموشنت » وشعرت فرنسا بالخطر فأرسلت ١٢٠ ألف جندي أي ١٤ فرقة كاملة بقيادة الجنرال « بيجو» الذي اعتمد على أسلوب الإبادة وحرق المزارع والقرى وخاض الأمير عبد القادر صراعًا مريرًا ضد القوات الفرنسية أعوام ١٨٤٥، ١٨٤٦، إلى أن وقع في قبضة الفرنسيين سنة ١٨٤٧، وبذلك استراحت فرنسا وسحبت ١٠٠ ألف جندي من الجزائر ولكن إلى حين.

الحاج
أحمد باي
مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ اللحظة الأولى

منذ أن دخل أهل المغرب العربي في الإسلام في القرن الأول الهجري، فإنهم كانوا وما يزالون يحملون راية هذا الدين بأمانة وشرف سواء كان ذلك في حالة انتصاره أو صموده أو تراجعه، ولم تسقط راية هذا الدين من أيديهم قط رغم الأهوال والصعاب التي عانوها على يد حملات الحقد الصليبي المتأخر والمتقدم، وما زال الإسلام هو القوة الخالدة والباقية في نفوسهم كجذوة من نار لا تنطفئ .

دخل الإسلام بلاد المغرب منذ عام ٢٣ هـ عندما بدأت المحاولة الأولى للاتجاه غرب على يد عمرو بن العاص ﷺ بعد أن أتم الله فتح مصر، واستمرت تلك المحاولات على يد عبد الله بن أبي السرج (٢٧ هـ إلى ٣٥ هـ) ثم رافع بن خديج (٤٥ هـ) ثم عقبة بن نافع (٥٠ هـ إلى ٥٥ هـ) ثم أبو المهاجر بن دينار من (٥٥ هـ إلى ٦٢ هـ) الذي استطاع أن يضم إليه رجال القبائل من البربر وأن يستخدمهم في فتوحاته بعد ذلك، ثم مرة أخرى عقبة ابن نافع الذي وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي (٦٢ هـ ـ ٦٤ هـ) الذي قال قولته المشهورة : « اللهم أشهد أني بلغت المجهود ولولا هذا البحر ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد سواك » وبعده قام زهير بن قيس بتوطيد دعائم الحكم الإسلامي في بلاد المغرب، ثم حسان بن النعمان (٧٣ هـ إلى ٨٢ هـ) ومنذ ذلك اليوم أصبح أهل المغرب العربي هم رجال الإسلام الأشداء ومجاهدوه البواسل وطلائعه في الفتح والغزو

وتحصين ثغور الإسلام، ومواجهة التحدي الصليبي الغاشم .

وعقب ذلك جاء موسي بن نصير فأكمل الفتح وثبت دعائمه « ٨٦ هـ » وقام بالهجوم على الجزر المنتشرة في البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية وسردينيا ، كورسيكا ، جزر البليار، ثم أعد عدته وأرسل الجيش المسلم المكون من رجال القبائل « البربر » بقيادة المجاهد البربري طارق بن زياد والي طنجة فاجتاز المضيق «مضيق جبل طارق » ووصل إلى الأندلس فهزم ملك القوط وأسس الحكم الإسلامي في الأندلس الذي استمر ثمانية قرون (٧١١ م ـ ١٤٩٢ م)، واستمر التقدم الإسلامي في أوروبا على يد البربر الذين أصبحوا خير جند الإسلام وغزا طارق بن زياد جنوب فرنسا واستشهد سنة ١٠٢ هـ ثم تابع عقبة بن سنيح الكلبي حركة الفتح في أوروبا وبلغ نهر الرون ومدينة ليون الفرنسية ثم توغل حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي نهر الرون واستمر هذا المجهود على يد عبد الرحمن الغافقي الذي خرج بجيشه سنة ٧٣٢ هـ فاستولى على مدينة بوردو على مصب نهر الجارون إلى أن توقف عقب معركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها سنة ٧٣٢ م ولما توقف غزو المسلمين وهجومهم في أوروبا عقب معركة بلاط الشهداء كان من الطبيعي أن يحدث هجوم صليبي مضاد فهذه سنة الله في خلقه وسنة الصراع بين الحق والباطل، وكان من الطبيعي أيضًا أن يحدث النزاع والشقاق والانقسام بين المسلمين، ويرجع ذلك إلى سمة هامة من سمات المجتمع المسلم وهي أنه إما أن يقوم هذا المجتمع بأداء رسالته في الجهاد وتحرير الشعوب من الطواغيت والظالمين وإما أن يحدث شرخ في كيان ذلك المجتمع، فالمجتمع المسلم إما أن يجاهد أو يتمزق ويتفرق ويحدث البأس بين أهله بعضهم بعضًا.

استمرت بعد ذلك سيوف أهل المغرب هي الدرع الحامية للإسلام، فهاهم المرابطون ينطلقون على رأس جيوش المغرب ليعيدوا توحيد الأندلس وينزلوا الهزيمة بالأسبان في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م، وظل أهل المغرب العربي يحافظون على الحكم الإسلامي في الأندلس بسيوفهم طوال حكم المرابطين وجزء كبير من حكم الموحدين حتى سنة ٦١٢ هـ - ١٢١٤ م، ويعود حكم الطوائف بعد ذلك ليعطي

الفرصة للأسبان لإنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢م.

ومع سقوط الأندلس سنة ١٤١٢ م لم تتوقف المعركة، معركة الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية التي تعد المغرب العربي والجزائر خصوصًا من أهم مسارحها ذلك أن هذا الصراع في تلك البقعة لم يتوقف قط قبل فتح الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وحتى بعد سقوط الأندلس، ذلك أنه بعد سقوط الأندلس تعرضت بلاد المغرب العربي عمومًا والجزائر خصوصًا إلى حملات صليبية لم تنقطع أبدًا من برتغالية وأسبانية وقشتالية وفرنسية وغيرها، وكان لجهود البحرية الجزائرية دور كبير في صمود تلك البلاد فترة طويلة وكذلك ظهور قوة العثمانيين في آفق العالم الإسلامي، وشهدت تلك الفترة الكثير من الحملات الهجومية الإسلامية على أسبانيا والبرتغال وكذا الحملات الصليبية المعاكسة على بلاد المغرب خاصة الجزائر، واستمر الكر والفر على نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وفي ذلك الوقت تعرضت بلاد المغرب العربي إلى عشرات الحملات الصليبية من أسبانية وبرتغالية وفرنسية بل وإيطالية وأمريكية، فإيطاليا مثلاً أرسلت حملاتها في سنة ١٧٨٤ م وحاولت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك في حملة سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨١٥ .

على كل حال انتهى الأمر بسقوط بلاد المغرب العربي في قبضة الاحتلال الفرنسي « الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس سنة ١٨٨١ م، ومراكش ١٩١٢م» .

الجهاد الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

لم ينقطع الجهاد الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٣٠ وحتى الاستقلال ١٩٦٢، وظهرت العديد من حركات المقاومة « الداي حسين – عبد القادر الجزائري – المقراني والحداد – لالا فاطمة....إلخ ».

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر مجرد محطة في صراع طويل لم ينقطع بين الإسلام والغرب، وإذا كانت الحروب الصليبية على المشرق العربي (فلسطين والشام ومصر) قد بدأت سنة ١٠٩٥ م وانتهت ١٢٩٤ م أي استمرت قرنين من الزمان ثم سكتت خمسة قرون إلى أن استؤنفت من جديد ١٧٩٨ م « الحملة الفرنسية على

مصر » فإن الحروب الصليبية التي استهدفت المغرب العربي عمومًا والجزائر خصوصًا قد بدأت قبل الحملات الصليبية على المشرق العربي وأثناءها وبعدها بدون انقطاع إطلاقًا حتى أن المؤرخين الجزائريين يطلقون عليها حرب الألف عام .

وبمجرد سقوط الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠ اندلعت حركات المقاومة في كل مكان، صحيح أنها لم تنجح في القضاء على الاستعمار الفرنسي وقتها إلا أنها نجحت في منع فرنسة الجزائر واستمرار لهيب الثورة حتى نالت الجزائر استقلالها ١٩٦٢ ولولا تلك الحركات المجاهدة لتسارع مفعول المخطط الاستعماري وتم القضاء على الجزائر المسلمة إلى الأبد، أي أن تلك الثورات والانتفاضات وحركات المقاومة رغم فشلها اللحظي كانت بوادر انتصار في المستقبل وكانت حاضنة الحياة والاستمرار للجزائر المسلمة ولولاها لانطفأت شعلة المقاومة ولانتهت الجزائر المسلمة، أي أن الدور الخطير الذي لعبته تلك الحركات هي المحافظة على الجذوة مشتعلة ولو تحت الرماد.

وبمجرد دخول القوات الفرنسية اندلعت المقاومة، وقاومت الجزائر تحت قيادة «الداي حسين » وخاض الداي حسين أكثر من معركة مع قوات الاحتلال، انتهت بهزيمة الجيش الجزائري ودخول الفرنسيين الجزائر العاصمة في ٥ يوليو ١٨٣٠ م .

ولم يقف شعب الجزائر ساكنًا، فاندلعت عمليات المقاومة في سهل المتيجة وتحولت إلى ثورة شاملة ضمت كل أبناء القبائل في تلك المنطقة « اثنى عشرة قبيلة هم كل سكان سهل المتيجة »، وفي منطقة البليدة اندلعت الثورة بقيادة ابن زعنون، ونجحت تلك الثورة في استعادة مدينة البليدة من أيدي الفرنسيين وإنزال خسائر ضخمة بالقوات الفرنسية وتعززت تلك الثورة بانضمام الحاج سيدي السعدي إليها وانخراط عدد كبير من أهالي الجزائر تحت قيادة ابن زعنون، وتطورت تلك الثورة حتى باتت تهدد الفرنسيين في الجزائر العاصمة ذاتها، وفي سنة ١٨٣١ خاض المجاهدون معركة كبيرة ضد الفرنسيين في منطقة بوفريك، وفي نفس الوقت كان أحمد بوفران ينظم المقاومة في الجانب الأيسر لوادي الحراس، وبعد هزيمة قوات ابن زعنون حمل الحاج سيدي السعدي راية الجهاد واستمر يقاتل حتى ١٨٣٢، كما

انضم الحاج محيي الدين إلى الثورة وقاد تلك الثورة في وهران .

الحاج أحمد باي « قسنطينة »

يمثل الحاج أحمد بأي رمزًا هامًا من رموز المقاومة في بواكير الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل يمكن أن نقول أنه مع الأمير عبد القادر يمثلان أكبر رمزين للمقاومة سواء من حيث بلائهما ضد الاستعمار أو باستمرار مقاومتهما لمدة طويلة. فالحاج أحمد باي « قسنطينة » استمر يقاتل الفرنسيين حتى عام ١٨٤٨ ورفض دائمًا الدخول في أمانهم الذي عرضوه عليه مرارًا وتكرارًا وأنزل بهم العديد من الخسائر في عشرات المواقع التي خاضها ضدهم .

فعقب انهيار مقاومة الداي حسين ودخول القوات الفرنسية على الجزائر العاصمة في ٥ يوليو ١٨٣٠، حمل الحاج أحمد بأي لواء المقاومة فاستطاع أن يجمع فلول الجيش الجزائري وأن يدخل العديد من المعارك مع الفرنسيين مثل معركة «عقبة البشاري » سنة ١٨٣٦، بل وانتصر على الفرنسيين عندما حاولوا دخول قسنطينة سنة ١٨٣٦، واتصل الحاج أحمد باي بالخلافة العثمانية للحصول على دعم عسكري منها لمواجهة الفرنسيين إلا أن موقف باي تونس حال دون وصول ذلك الدعم، وبرغم ذلك فإن الحاج أحمد باي واصل مسيرة المقاومة واستطاع أن يحشد ٥ آلاف فارس وألفين من المشاة بالإضافة إلى الجيش النظامي، وانطلق من قسنطينة واشتبك مع الفرنسيين في موقعة « مجاز عمار » سنة ١٨٣٧، إلا أن التفوق العددي والتسليحي للفرنسيين أدى إلى هزيمة الحاج أحمد باي فرجع إلى قسنطينة وقاتل مع أهلها من بيت لبيت ومن شارع على شارع، وحتى بعد سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين، رفض الحاج أحمد باي عرض الأمان الفرنسي وانسحب إلى خارج المدينة وأخذ ينظم غارات متواصلة على خطوط المواصلات الفرنسية بين عنابة وقسنطينة، واستمر الحاج أحمد يجاهد متنقلاً من قرية إلى قرية ومن جبل إلى سهل حتى سقط بين القوات الفرنسية عام ١٨٤٨م، وقامت القوات الفرنسية بإيداعه السجن فمات بالسجن بعد عامين من اعتقاله أي عام ١٨٥٠م، رافضًا دائمًا قبول التصالح مع الفرنسيين أو خيانة قضية الجهاد والثورة .

محمد المقراني

ضرب شعب الجزائر المثل الحي على استمرار الثورة والمقاومة في كل الظروف، فبرغم هزيمة كل من الحاج أحمد باي قسنطنية والأمير عبد القادر الجزائري اللذين حملا لواء المقاومة من ١٨٣٠، وحتى عام ١٨٤٧، وبرغم عمليات الإبادة والتبشير والتجويع التي تعرض لها الشعب الجزائري على يد الاستعمار الفرنسي، فإن جذوة الثورة لم تخمد، وما كان لها أن تخمد.

ففي عام ١٨٥١، وفي منطقة سور الغزلان اندلعت المقاومة بقيادة محمد بن عبد المالك، وهو معلم قرآن، وانضم إليه الحاج عمر شيخ زاوية محمد بن عبد الرحمن التي امتدت حركته إلى معظم مناطق جبال جرجرة والبيان والبابور وحوض الصومام، وحدثت مجموعة من الصدامات بين تلك العناصر المقاومة وبين سلطات الاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٥١، وحتى عام ١٨٥٤، الذي انتهت فيه حركة محمد بن عبد المالك.

واستمرت المقاومة في « ذراع الميزان » بقيادة الحاج عمرو «الإخوان الرحمانيون » حتى عام ١٨٥٦، وفي عام ١٨٥٧ خاض المجاهدون عددًا من المعارك مع القوات الفرنسية مثل معركة «أبشر يضمن » التي وقعت في ٢٤ يونيو سنة ١٨٥٧، ولم تنته تلك الثورة إلا بعد القبض على الحاج عمر يوم ٧ يوليو سنة ١٨٥٧ م.

وفي جبل « أحمد خدون في الأوراس » اندلعت ثورة ١٨٤٩ ثم اشتعلت مرة أخرى في ١٨٥٨ ـ ١٨٥٩ م بقيادة

" سي الصادق بن الحاج » وفي منطقة الحضنة اندلعت المقاومة بقيادة محمد بوختناش سنة ١٨٦٠ وانضم إليه سي العربي وسي أحمد باي وامتدت تلك الحركة إلى المناطق الشمالية وإلى سطيف، وفى سنة ١٨٦٤ م اندلعت المقاومة في الجنوب الوهراني بقيادة أولاد سيدي الشيخ، ثم اندلعت مرة أخرى في ١٨٧٠ م.

وفي بلدة زمورة اندلعت الثورة سنة ١٨٥٩ بقيادة ابن خدومة، ثم أخذت تتصاعد أعمال المقاومة في تلك البلدة.

وفي منطقة المليلة وتبسة اندلعت ثورة عبدون ١٨٧١، وثورة أولاد خليفة في نفس الوقت.

وفي هذا العام ١٨٧١ وصلت الجزائر إلى محطة الثورة الشاملة التي قادها كل من المقراني والحداد والمعروفة بثورة ١٨٧١.

المقراني والحداد وبو مزراق:

محمد المقراني هو آخر زعماء عائلة المقرانى، التي يصل نسبها إلى الرسول ﷺ عن طريق فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وقد حملت الأسرة لواء الجهاد ضد الفرنسيين مع أحمد باي قسنطينة،وبعد ذلك وصلت زعامة الأسرة إلى محمد المقراني الذي تمرد على الفرنسيين بدءًا من عام ١٨٧٠م، ثم أصبح رمزًا لثورة ١٨٧١ ضد الفرنسيين، أما الشيخ الحداد الزعيم الثاني للثورة « ١٨٧١ » فهو الشيخ محمد أفربان بن على الحداد أحد زعماء الطريقة الرحمانية « الإخوان المسلمون الرحمانيون »، وقد كان للرحمانيين دور هام في ثورة الأمير عبد القادر وثورة الشريف بونبلة الذي قادها الحاج عمر مقدم الرحمانيين وزوج لالا فاطمة التي شاركت معه في قيادة الثورة إلى أن تم اعتقالها.

وبعد ذلك وصلت قيادة الرحمانيين إلى محمد أفربان الحداد الذي ولد سنة ١٧٩٣، وتلقي تعليمه في زاوية الشيخ ابن عراب في قرية « آيت ابراثن بجبال جرجرة »، وبعد أن أتم الحداد تعليمه عاد إلى منطقة « صدون » وقام بتعليم الدين والوعظ والإرشاد وتكاثر الطلاب حوله في الزاوية التي أنشأها، وكان أتباعه من الطبقة الشعبية الفقيرة، وعندما أشعل محمد المقراني ثورته في « مجانة » سنة ١٨٧١ تجاوب معه الحداد وأعلن الثورة في جبال البابور وحوض الصومام

وجبال جرجرة وحوض الحضنة.

أما بومزراق فهو ثالث رموز هذه الثورة، وهو شقيق محمد المقراني، وقد شارك في الثورة في منطقة سور الغزلان وعرنوعة، وعندما استشهد محمد المقراني استمر بومزراق في مقاومته للاحتلال الفرنسي إلى أن سقط أسيرًا في ٢٠ يناير سنة ١٨٧٢م.

أحداث ثورة (١٨٧١ م)

بدأت أحداث ثورة ١٨٧١ بتجمع قوات الحاج محمد المقراني في مجانة يوم ١٥ مارس سنة ١٨٧١، وجاء المجاهدون من كل صوب للمشاركة في تلك الثورة فبلغ عدد المقاتلين ٦ آلاف مجاهد يوم ١٦ مارس ١٨٧١ أي بعد يوم واحد من إعلان الثورة، وسار المقراني بقواته إلى البرج فانضم إليهم الجزائريون العاملون ضمن قوات الحرس الفرنسي.

وفرض المقراني الحصار على المدينة لمدة أربعة أيام ثم اتجه بقواته إلى جبال مرسبان شمال شرق « مجانة » وهناك انضم إليه الشيخ الحداد وأتباعه، وخاض المجاهدون، معركة كبيرة في « ساقية الرحي » مع القوات الفرنسية التي جاءت للقضاء على الثورة، وبعد تلك المعركة انضم عدد آخر من القبائل إلى الثورة فقام أولاد تبان والأربعاء وريفة بقيادة محمد بن عدة بالهجوم على المستوطنات الفرنسية في منطقة العلمة، وألحقت الهزيمة بمفرزة فرنسية في عين تاغروط، وفي ٢٠ أبريل ١٨٧١ اعترض الثوار سبيل القوات الفرنسية التي غادرت البرج متجهة إلى سطيف، ثم خاض الثوار عددًا من المعارك الناجحة ضد القوات الفرنسية في جبال طافات مثنية مقسم والعيون، ثم اصطدم المقراني بقواته مع الفرنسيين في منطقة وادي الرخام في ٥ مايو ١٨٧١ م واستشهد في تلك المعركة بعد ٥١ يومًا من القتال الضاري المتواصل.

واصل الإخوان الرحمانيون الثورة بقيادة الشيخ محمد الحداد، وكان الإخوان الرحمانيون قد شرعوا للإعداد للثورة قبل ذلك أي في بداية ١٨٧١، ففي يناير ١٨٧١ وجه الشيخ الحداد نداء إلى الشعب الجزائري يطالبه بالجهاد، وتلقى الإخوان الرحمانيون نداء شيخهم « محمد الحداد » وأسرعوا لحمل السلاح واندلع لهيب الثورة في كل مكان في الجزائر بفضل التنظيم الدقيق للإخوان الرحمانيين

واعتمادهم على الطبقات الشعبية وانتشار مراكزهم العلمية في كل مكان، فجر الإخوان الرحمانيون الثورة في منطقة القبائل الكبرى وحتى الحدود الشرقية للجزائر، وبلغ عدد الثائرين ٦٠٠ ألف مقاتل وأمكن ضم ٢٥٠ قبيلة مما أعطاها طابع الثورة الشاملة واستمرت تلك الثورة متأججة على موجات قتلية عاما كاملا، كانت المساجد والزاويا خلاله هي قلاع الثورة وقواعد الصمود، وقد خاض الرحمانيون خلال هذا العام عددًا من المعارك الهامة في وادي الصومام وتيرياهنت وبو شامة وتيزي وجبل طافات والبابور والعلمة والودية وعين عبيسة وثنية الماجن وعين الكحلة وعموشه ووادي البرد وثنية الغنم وقرية كاسة والحمام وغيرها من المعارك التي أبلي فيها الرحمانيون بلاء حسنا وسقط منهم الكثير من الشهداء، ويمكن أن ندرك مدى اتساع وقوة هذه الثورة إذا علمنا أن القوات البرية الفرنسية لم تكن قادرة على قمع الثورة، وأنها استعانت بنيران البحرية الفرنسية من البحر، وخاصة البوارج الحربية، وقد اعتقل الشيخ الحداد ثم حوكم وأعدم بعد ذلك.

وبعد استشهاد محمد المقراني واعتقال محمد الحداد واصل أحمد بومزراق شقيق المقراني ثورته التي كان قد بدأها في منطقة سور الغزلان ونوغة، ودخل في عدد كبير من المعارك مع القوات الفرنسية في برج الأصنام وجبل موقرنين وأولاد زيان، ولما علم باستشهاد أخيه قرر الاستمرار في الجهاد ونسق مع الشيخ الحداد في حصار بجاية ثم الهجوم عليها، ثم عاد إلى جبل البابور واشترك في المعارك الدائرة هناك ضد الفرنسيين، وبعد اعتقال الشيخ الحداد وانتكاس الثورة، استمر بومزراق يتابع جهاده واشتبك مع القوات الفرنسية في معركة «يوم تاخراط» في ٢٠ يوليو ١٨٧١، ثم في سهل مجانة يوم ٢٦ أغسطس ١٨٧١، ثم في عجيبة وقبوس يوم ٩ سبتمبر وأولاد إبراهيم يوم ٢٥ سبتمبر واستمر بومزراق في القتال إلى أن سقط أسيرًا في ٢٠ يناير ١٨٧٢.

وبالإضافة إلى المقراني والحداد وبومزراق هناك أيضًا السيد بن بودا ودو الذي قاد الثورة في جبل الخضنة وبو سعادة وسي عزيز نجلي الشيخ الحداد اللذين واصلا قيادة المجاهدين بعد اعتقال الشيخ، وكذلك بو شوشة الذي أعلن الثورة في الشمال.

لالا فاطمة نسومر

قائدة ثورة (١٨٥٧) ضد الاحتلال الفرنسي

لم تهدأ المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠ ـ ١٩٦٢) قط، وشارك الشعب الجزائري في المقاومة بكل طبقاته رجالاً ونساءً، رجال القبائل وسكان المدن على حد سواء، علماء الدين والفلاحين والمثقفين والعمال، ولعل أهم ما ميز المقاومة الجزائرية اندلاع ثورة كبري سنة ١٨٥٧ بقيادة امرأة جزائرية هي لالا فاطمة نسومر.

بل لعل من أهم دروس وعبر المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي مشاركة المرأة الجزائرية المسلمة في صنع المقاومة واستمرارها، والمرأة المسلمة كانت دائمًا في طليعة قوي الجهاد والتحرر، والمشاركة الإيجابية للمرأة الجزائرية أبلغ دليل على هذا والإسلام يحرض المرأة ويسمح لها بالمشاركة في القتال بنفسها، وخاصة إذا كانت بلاد المسلمين مهددة، وهي تخرج في حالة هجوم العدو على بلاد المسلمين بدون إذن زوجها، كما قرر ذلك علماء الإسلام، ولعل التحديات التي تواجهها الأمة الإسلامية الآن وصراعها مع الغرب وإسرائيل مع اختلال التوازن العسكري والعلمي لصالح الأعداء تؤكد على ضرورة اضطلاع المرأة المسلمة بمهام الجهاد والكفاح والمشاركة الكاملة في تحمل أعباء الصراع على صعيد المشاركة المباشرة وغير المباشرة على صعيد القتال بنفسها أو على صعيد شحذ همم الأزواج أو الأبناء على طريق الجهاد، وعلى كل امرأة أن تختار ما يلائمها وفقًا لظروفها من أساليب المشاركة، وما لم تشارك

المرأة المسلمة في معركة الإسلام المعاصرة ضد قوي الكفر والشرك والتبعية فإن خللاً كبيرًا يصيب الجهود الإسلامي في معركة البقاء.

لالا فاطمة نسومر

ظهر اسم المجاهدة الجزائرية « لالا فاطمة نسومر » كقائد لثورة ١٨٥٧ في الجزائر، ولالا فاطمة نسومر هي زوجة الحاج عمر مقدم « الإخوان الرحمانيون» وهم طريقة صوفية لعبت دورًا كبيرًا في المقاومة ضد الفرنسيين منذ عام ١٨٣٠، وقد أسس هذه الطريقة محمد عبد الرحمن سنة ١٧٩٤، وهو أمير علماء الإسلام تلقى علومه في الأزهر ثم عاد على الجزائر حيث أنشأ مدرسة دينية، وأصبح له تلاميذ كثيرون وأتباع في كل مكان، وقام هؤلاء التلاميذ بتأسيس العديد من المدارس والزوايا في معظم أرجاء الجزائر.

وعندما غزت فرنسا الجزائر قام الإخوان الرحمانيون بالانخراط في حركة المقاومة مع الأمير عبد القادر (١٨٣٢ ـ ١٨٤٧)، ثم مع الشريف بونبلة ١٨٥٦، ثم قاد الحاج عمر هذه الحركة ، وهو زوج لالا فاطمة نسومر، إلى أن سقط في يد الفرنسيين الذين نفوه إلى تونس، فتسلمت لالا فاطمة نسومر قيادة « الإخوان الرحمانيون » فقادت المجاهدين في ثورة عارمة ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٥٧ إلى أن تم اعتقالها ثم إعدامها على يد الفرنسيين، وواصل الإخوان الرحمانيون جهادهم بعد ذلك تحت قيادة محمد بن الحداد أحد أهم رموز ثورة ١٨٧١ في الجزائر.

لالا فاطمة نسومر هي إحدى بنات الشيخ ابن عيسي الخليفة الأول لمؤسس زاوية الرحمانيين وهي شيخة قبيلة أيسو مار.

المرأة الجزائرية في ثورة الجزائر (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢)

على درب لالا فاطمة – لمعت أسماء أخرى، شاركت بنفسها في القتال أو النضال السياسي في أقوي ثورة في الجزائر الكبرى (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) ولم تتورع السلطات الفرنسية عن إعدامهن نظرًا لدورهن الخطير.

فها هي المجاهدة « زاهية » التي سقطت شهيدة وسلاحها في يدها إلى جانب

زوجها الشهيد « رامل » عام ١٩٥٤، والشهيدة عقيلة تقاتل على جانب زوجها سي الأخضر وتستشهد معه .

والمجاهدة فضيلة سعدان منذ شبابها الغض في النضال السياسي ضد الإدارة الفرنسية، وتطالب مع زميلاتها الجزائريات في إحدى المدارس أن يكون الطعام المقدم لهن مطابقًا للشريعة الإسلامية ولا يحتوي على لحم الخنزير، وتقود زميلاتها إلى الإضراب والعصيان حتى تجاب مطالبهن، ثم تنخرط في تنظيم الثورة وتلعب دورًا هامًا في نجاح الإضراب الطلابي تأييدًا للثورة سنة ١٩٥٦، مما أدى إلى اعتقالها وسجنها في سجن الكدية وتموت بالسجن شهيدة تحت وطاه التعذيب.

وعلى نفس الدرب سارت شقيقتها إلى أن استشهدت وهاهي جميلة بو حيرد تنخرط في صفوف الثورة وتشارك بنفسها في إلقاء القنابل على الفرنسيين مما يؤدي إلى اعتقالها وتعذيبها بصورة وحشية، وقد هزت محاكمتها ضمير العالم .

وهكذا كانت كل امرأة في الجزائر تشارك في القتال بنفسها أو تقوم بأعمال الإمداد والتموين ونقل الرسائل أو تشارك في المظاهرات والاضرابات، أو تشارك في رفع الروح المعنوية للشعب المجاهد عن طريق مظاهرات الزغاريد «اليويو» التي اشتهرت بها المرأة الجزائرية والتي كانت تطلقها في كل مناسبة كنوع من الاحتجاج أو الاحتفال أو تحذير المناضلين، وقد دخلت الزغاريد « اليويو » التاريخ كأسلوب نضالي وطريقة من طرق المقاومة اشتهرت بها المرأة الجزائرية .

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

رائد حركة التحرير التونسي ضد فرنسا (١٨١٤-١٩٤٤)

هو مؤسس الحزب الوطني الإسلامي في تونس، وهو أحد هؤلاء المجاهدين الذين حملوا على أكتافهم مهمة الكفاح ضد الاستعمار مستمدًا مفهوم المقاومة والجهاد من الإسلام كدين وحضارة فواجه التحدي الاستعماري عسكريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا.

هو واحد من ذلك الرعيل من المجاهدين العرب والمسلمين الذين قاوموا الاستعمار أمثال عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي في المغرب وعبد الحميد بن باديس في الجزائر والثعالبي في تونس وعمر المختار في ليبيا ومصطفي كامل ومحمد فريد في مصر وعز الدين القسام في فلسطين وأحمد أغابيف من زعماء المسلمين في روسيا، وهذا الرعيل من المجاهدين كان الحلقة التالية التي أكملت حلقة الكفاح الأولي ضد الاستعمار والتي ضمت عبد القادر الجزائري وجمال الدين الأفغاني وغيرهم.

الشيخ عبد العزيز الثعالبي هو عالم من أعمق العلماء فهمًا للإسلام، وأديب له شعر وبيان، وخطيب مصقع يهز القلوب، ومجاهد ضد الاستعمار بلا ملل ولا كلل وصحفي لامع يكتب في العديد من الصحف ويصدر عددًا منها ومؤلف، له العديد من الكتب، ورحالة ذهب إلى أبعد أجزاء العالم الإسلامي ، ثم هو معلم وأستاذ في قاعات الجامعات كأحسن ما يكون المعلم علمًا وأدبًا، أما طبعه فتغلب عليه

الدماثة واللطف ورقة القلب.

مولده وحياته

ولد الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي في مدينة تونس الخضراء في يوم ١٤ شعبان ١٢٩٣ هـ، ١٨٧٤ م.

وهو ينحدر من أصل جزائري حيث كان جده عبد الرحمن الثعالبي قد فر من الجزائر بعد احتلالها من الفرنسيين سنة ١٨٣٠، حفظ الشيخ الثعالبي القرآن الكريم في الكتاب ثم درس النحو والعقائد والأدب ثم دخل مدرسة باب سويقة الابتدائية في مدينة تونس ثم التحق بجامع الزيتون فقضي فيه سبع سنوات حتى تخرج عام ١٨٩٦.

ثم أكمل دراساته العليا في المدرسة الحكدونية بتونس، ثم انخرط في الحركة الوطنية الإسلامية في تونس وناهض الاستعمار الفرنسي بها، واعتقل عدة مرات ثم نفي إلى خارج تونس، ومن وقت لآخر كان يعود إلى تونس لاستئناف الكفاح كلما سنحت الفرصة.

وزار الكثير من بلاد العالم الإسلامي مدافعًا عن القضية التونسية وقضايا العالم الإسلامي عمومًا.

وفي عام ١٩٣٧ عاد إلى تونس لآخر مرة حيث قضى بها سبع سنوات مستأنفًا نضاله الداخلي إلى أن توفي عام ١٩٤٤م.

جهاده ضد الفرنسيين

لا يمكن فصل قضية الاستعمار الفرنسي في تونس عن قضية الاستعمار الفرنسي في المغرب العربى، ولا عن قضية الاستعمار الأوروبي عمومًا في العالم الإسلامى، حيث الهدف واحد والأساليب متنوعة، دخل الاستعمار الفرنسي تونس عام ١٨٨١ وهب الشعب التونسي لمقاومة الاستعمار الفرنسي منذ اللحظة الأولى، رغم استسلام حاكم تونس في ذلك الوقت واتخذت حركة المقاومة من مدينة القيروان مركزًا لها وامتدت تلك الحركة إلى كل الساحل الجنوبي التونسي من صفاقس حتى حدود طرابلس، وكان يقود تلك الحركة

الشيخ « على بن خليفة » وصمدت تلك الحركة أمام القوات الفرنسية مدة لا بأس بها رغم التفوق التسليحي الهائل للقوات الفرنسية، وإذا كانت هذه الحلقة الأولي في الجهاد فإنه قد تبعتها الحلقة الثانية من الجهاد والتي فجرها وقادها كل من الشيخ يكن بن عزوز، وعبد العزيز الثعالبى، بشير صقر، على ياسين جمعة وغيرهم، وقد تشابهت هذه الحركة تشابها كبيرًا مع حركة مصطفي كامل ومحمد فريد في مصر لأن تأثير الأفغاني على الحركتين كان كبيرًا.

وجد الشيخ عبد العزيز الثعالبي نفسه في قلب هذه الحركة التي تتطلع إلى الاستقلال ودعم الترابط بين المسلمين والتعاطف مع الخلافة العثمانية وأخذ الثعالبي يناهض الاستعمار الفرنسي على محورين: المحور الأول هو النضال السياسي. والمحور الثاني هو التصدي لعملية التغريب والفرنسة واستعادة الروح والثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية في تونس حتى يكون ذلك طريقًا على استمرار احتلالها ومنع ظهور حركات مقاومة شعبية بها.

وكون الشيخ الثعالبي سنة ١٩٠٥ م مجموعة من الطلاب وخريج المعاهد الدينية مثل الشيخ على أبو شوشة، وبشير صقر، وعمر أبو حاجب وعلى الباقلاني ما يسمي بجماعة الحاضرة وبدأت هذه المجموعة في توجيه الانتقاد السياسي للاحتلال الفرنسي في تونس ثم أسس الشيخ الثعالبي سنة ١٩٠٨ حزب تونس الفتاة، وترأس الحزب الشيخ على ياسين جمعة، بينما عمل الشيخ الثعالبي رئيسًا لتحرير صحيفة الحزب، وكان حزبًا يسير على المبادئ الإسلامية مثل الحزب الوطني في مصر، وقد لعب هذا الحزب في مساعدة أهل ليبيا إبان الاحتلال الإيطإلى لليبيا سنة ١٩١١، فقام هذا الحزب بتسهيل الاتصال بين الدولة العثمانية والمقاومة في طرابلس، كما ساعد في تسلل الضباط والمتطوعين المسلمين إلى طرابلس، وفي تونس نجح هذا الحزب في إذكاء نار الكفاح في صفوف الشعب التونسى، فخرجت المظاهرات وحث الحزب العمال على الإضراب ومقاطعة المؤسسات التجارية الأوروبية، وعلى أثر ذلك قام الاحتلال الفرنسي بطرد زعماء الحزب من تونس، وخاصة على ياسين جمعة وعبد العزيز الثعالبي وعدد آخر من العلماء المجاهدين، واختار هؤلاء الآستانة مقرًا لهم حيث

استطاعوا الاستمرار في مكافحة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا عمومًا بمعونة الحكومة العثمانية، واتصل الشيخ عبدالعزيز الثعالبي والشيخ على ياسين جمعة بكثير من قادة الكفاح في العالم الإسلامي أمثال شكيب أرسلان ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش، وأحمد آغابيف من زعماء المسلمين في روسيا، وفي هذه الأثناء تكونت في الآستانة هيئة لغزو شمال أفريقيا وتحريرها من الاستعمار الأوروبي واستطاعت هذه الهيئة أن تقوم بدور فعال في طرابلس بصفة خاصة، كما تم تنظيم فرقة بقيادة على ياسين جمعة وكان مقرّرا لها أن تنزل من ساحل تونس لتحريرها من الاستعمار الفرنسى، ولكن لم يقدر لهذا العمل أن يكتمل.

وبعد الحرب العالمية الثانية، استطاع الشيخ عبد العزيز الثعالبي العودة إلى تونس واستأنف كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي وأصدر كتابًا بعنوان « تونس الشهيدة » دعا فيه إلى تحرير تونس من الاستعمار وأنها قادرة على حكم نفسها بنفسها وأرادت فرنسا أن تطوق حركة الشيخ الثعالبي فشجعت على قيام حركة تونسية عميلة لها تدعو إلى قيام ما يسمي بالإصلاح، مثل المطالبة بالاستقلال، كما تدعو إلى التعاون مع الفرنسيين، وسميت تلك الحركة « الحزب الدستوري » .

ثم اعتقلت الشيخ الثعالبي سنة ١٩٢٠ ليخلو الجو في تونس لدعاة التعاون مع الاحتلال الفرنسى، ولكن الشعب التونسي انتفض من أجل زعيمه الشيخ الثعالبي. فتم الإفراج عنه سنة ١٩٢١ فقام بتشكيل عدد من الخلايا الحزبية المناضلة في تونس ، وأراد أن يسيطر على الحزب الدستوري بنفسه وأبعد منه كل الخونة والعملاء ودعاة التعاون مع فرنسا، وأصبح الشيخ الثعالبي رئيسًا للحزب والأستاذ أحمد الصافي أمينًا عامًا له، إلا إن السلطات الفرنسية أبعدت الشيخ الثعالبي مرة أخري خارج البلاد، وقامت بانقلاب داخل الحزب الدستوري تولى بعده دعاة التعاون مع الاحتلال قيادة الحزب وبرز فيهم الحبيب بورقيبة، الذي أصبح رئيسًا للحزب الدستوري سنة ١٩٣٤.

ودعا صراحة إلى أن وضع تونس الجغرافي يحتم عليها التعاون مع فرنسا وقبول مبدأ السيادة المزدوجة ! ثم نجح الشيخ الثعالبي في العودة مرة أخرى إلى

تونس سنة ١٩٣٧ ونظم القوي الوطنية المناهضة للاحتلال ودعا إلى التظاهر والإضراب للمطالبة بالاستقلال إلى أن توفي عام ١٩٤٤م.

جهاد الثعالبي عربيًا واسلاميًا

عمل الشيخ الثعالبي في إطار ثلاث دوائر لا تناقض بينها، الدائرة التونسية والعربية والدائرة الإسلامية، وكلها متداخلة وذات صلة مباشرة فيما بينها لأن الجهاد من أجل تحرير تونس هو جهاد من أجل الإسلام والحضارة الإسلامية، خاصة الشيخ الثعالبي بني جهاده في تونس على أساس الإسلام والثقافة الإسلامية وكذلك جهاده من أجل القضية العربية يؤدي إلى نفس الهدف، وكذلك جهاده من أجل قضايا العالم الإسلامي عمومًا لأن التحدي واحد، وهو التحدي الاستعماري الأوروبي، وهو تحد يستهدف الإسلام والحضارة الإسلامية.

كان الشيخ الثعالبي يعمل ليلاً ونهارًا من أجل كشف زيف الحضارة الغربية ويري أنها نكبة على العالم عمومًا والمسلمين خصوصًا، وكان يرى أن الإسلام هو الحضارة الصحيحة التي ينبغي لها أن تسود العالم إذا كان هذا العالم يريد الحرية والعدل والمساواة، وكان يدعو الشعوب العربية الإسلامية إلى التأكيد على هويتها الوطنية والإسلامية والتمسك بقيم الإسلام الثابتة فهي الطريق الوحيد للنهضة، وكان يعمل على إصلاح أحوال التعليم باعتباره مدخلاً كبيرًا لتحقيق النهضة على أساس إسلامى، كما كان يدعو إلى وحدة العرب كطريق لوحدة المسلمين، وكان يدعو إلى الاهتمام بالمشروعات الاقتصادية في العالم العربي والإسلامي للأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة والعمل الاقتصادي المشترك بين المسلمين.

كان الشيخ الثعالبي كلما قامت السلطات الفرنسية بنفيه إلى خارج تونس يجوب أقطار العالم الإسلامي ويشارك أبناءها في الدفاع عن قضاياهم ومناقشة مشاكلهم، سافر الشيخ الثعالبي في رحلة ممتدة لأربعين عامًا إلى كثير من البلدان العربية والإسلامية مثل مصر والشام وفلسطين والعراق والهند والفلبين والصين والسودان وتركيا وغيرها وكان في كل مكان يذهب إليه يدافع عن قضية بلاده

تونس بصورة خاصة وينسق الجهاد مع زعماء العالم الإسلامي أمثال محمد فريد وعبد العزيز جاويش، والباروني وأحمد أغابيف من زعماء المسلمين في روسيا وكذلك مع السنوسيين في ليبيا وشكيب أرسلان والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان بصورة خاصة يسهم في النشاط العثماني من أجل تحرير شمال أفريقيا، ولكن هذا لم يحل بينه وبين النضال من أجل استقلال مصر والسودان والعراق وفلسطين والهند وغيرها، وكان يعمل من أجل قضايا العرب والمسلمين عن طريق النضال السياسي المباشر أو عن طريق دعم الثقافة العربية والإسلامية، وكان له موقف متميز في التنبه إلى أخطار الحركة الصهيونية في وقت مبكر وإلى التضامن مع الشعب الفلسطيني على أساس أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، وكان من أبرز الذين دعوا إلى تنظيم المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في القدس في ديسمبر ١٩٣١ م، رجب ١٣٥٠ هـ، وكان عضوًا مؤسسًا في هذا المؤتمر الذي انعقد من أجل التضامن مع الشعب الفلسطيني ومناهضة الصهيونية، وقد حضر هذا المؤتمر عدد كبير من أعلام المسلمين برئاسة الشيخ محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين، وشارك فيه شوكت على، ومحمد إقبال « عن الهند » ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، ومحمد بهجت الأثري « عن العراق » وإبراهيم أطفيش « عن الجزائر » والبشير السعداوي وكل من عبد الحميد سعيد، رشيد رمضان، عبد الرحمن عزام، التفتازانى، محمد على علوبة « عن مصر »، سعيد الجزائري « عن سوريا »، ومصطفي الغلاييني « عن ليبيا »، وعبد العزيز الثعالبي « عن تونس ».

وقد أظهر الشيخ الثعالبي حركة عظيمة أثناء هذا المؤتمر، كما عمل بهمة ونشاط على تنسيق مواقف المسلمين لمناهضة الصهيونية والتضامن مع الشعب الفلسطينى، وتذكير المسلمين بأن قضية فلسطين هي قضية كل عربي مسلم.

واستمرت علاقة واهتمام الثعالبي بقضية فلسطين قبل ذلك المؤتمر وأثناءه وبعده بدون انقطاع، كما اهتم الشيخ الثعالبي بشرح تاريخ اليهود ومؤامراتهم وعقائدهم الفاسدة وخطرهم على الإسلام والمسلمين من خلال محاضراته التي

كان يلقيها على طلبة المعهد الديني العالى ببغداد في الفترة التي عمل بها أستاذًا في هذا المعهد منذ عام ١٩٢٦ حتى ١٩٢٨ م .

آثاره العلمية

لم يقتصر حياة الشيخ الثعالبي على الجهاد السياسي من أجل تحرير تونس من الاستعمار الفرنسي أو الاهتمام بقضايا العالم الإسلامى، بل كان بالإضافة إلى ذلك أديبًا لامعًا وكاتبًا متميزًا ومفكرًا عميقًا وخاصة في القضايا الإسلامية، ويعد الشيخ الثعالبي من صفوة دعاة التجديد الإسلامي في ضوء القرآن والسنة.

ومن أهم مؤلفاته كتاب « روح القرآن الحرة » وكتاب « معجزة محمد رسول الله »، وفيهما يعرض للإسلام عرضًا علميًا رصينًا يرد به على شبهات المستشرقين والطاعنين في الإسلام عمومًا، وله أيضًا كتاب « تونس الشهيدة » الذي أظهر فيه جرائم الاستعمار الفرنسي في تونس.

كما أن له العديد من الدراسات والأبحاث الإسلامية وخاصة في العقائد والفقه والمعاملات والفلسفة الإسلامية وهي المحاضرات التي كان يلقيها على طلبة المعهد الديني بجامعة آل البيت في الفترة من ١٩٢٦ حتى عام ١٩٢٨، وقد نشرت هذه المحاضرات في مجلة الجامعة في تلك الفترة، بالإضافة إلى ذلك فإن مئات المقالات في الصحف والمجلات التي أصدرها بنفسه أو كتب فيها سواء في تونس أو خارج تونس والتي تعالج كلها قضايا النهضة الإسلامية والدعوة إلى مقاومة الاستعمار وفضح السلوك الاستعماري والدعوة إلى وحدة العرب والمسلمين.

عبد الحميد بن باديس

مولده وحياته

ولد عبد الحميد بن محمد المصطفي بن مكي بن باديس في مدينة القسنطينة الجزائرية في سنة ١٣٠٥ هـ « ١٨٨٩ م » والتحق بمدارسها، حيث درس العديد من العلوم الدينية والدنيوية، ثم سافر إلى تونس سنة ١٩٠٨ ليلتحق بجامعة الزيتونة، حيث ظل مكبًا على تحصيل العلم أربع سنوات، ثم توجه سنة ١٩١٢ على الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج وزار خلال رحلته بلاد مصر والشام، ثم عاد على بلدته قسنطينة، حيث أخذ يلقي دروس العلم في مسجد المدينة الشهير المسمي « بالجامع الأخضر » وقد اجتذبت دروسه عددًا كبيرًا من شباب مدينة القسنطينة والمدن المجاورة لها ومن جميع أنحاء الجزائر، نظرًا لما كانت تمثله تلك الدروس من روح الإيمان والجهاد اللذين كان يتعطش إليهما الجزائريون في ذلك الوقت، وفي سنة ١٩٢٤ أنشأ الشيخ عبدالحميد بن باديس مجلتي المنفذ والشهاب وبث فيهما أفكاره الجريئة عن التحرر والعروبة .

وتكللت جهود ابن باديس بإنشاء جمعية العلماء المسلمين في الجزائر سنة ١٩٣١، وضمت الجمعية ١٢٠ عالمًا من علماء الجزائر الذين اشتهروا باستقامتهم وإخلاصهم لعقيدتهم الإسلامية والجزائرية المسلمة في نفس الوقت، وقد اختارت الجمعية الشيخ ابن باديس رئيسًا لها، وكان شعار الجمعية «الإسلام ديننا والعروبة لغتنا، الجزائر وطننا » .

وخاض الشيخ ابن باديس معاركه الفكرية دفاعًا عن الإسلام، فدخل في حوار مع المستوطن الفرنسي « آشيل » الذي تهجم على الإسلام وعلى رسوله الكريم ﷺ ، واستطاع ابن باديس أن يفحم هذا الكافر، ولم يكن ذلك الحوار نوعًا من الترف الفكرى، بل كان من صميم معركة التحرير حيث إن الاستعمار كان يحاول دائما أن يبث أفكارا مغلوطة عن الإسلام بهدف تشكيك المسلمين في دينهم وصرفهم عنه؛ لأن الاستعمار كان يدرك أن الإسلام هو الطاقة الكبرى التي تؤجج الكفاح ضد الاستعمار.

وقد توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٤٠، ولكن تلاميذه وإخوانه أكملوا مسيرة الكفاح، ولم تسقط الراية من أيديهم، وذلك من خلال جمعية العلماء.

الظروف السياسية والاجتماعية في الجزائر

في بداية القرن العشرين نشأ عبد الحميد بن باديس في ظروف سياسية واجتماعية صعبة في الجزائر، ولعل معرفة طبيعة هذه الظروف تفيد إلى حد كبير في تقييم الدور العظيم الذي لعبه ابن باديس وجمعية العلماء في الجزائر.

في بداية القرن العشرين كانت الأوضاع في الجزائر قد وصلت إلى حالة يرثي لها، كان الاستعمار الفرنسي قد جثم على صدر الجزائر منذ ١٨٣٠، وكانت مخططاته الشيطانية تسير على قدم وساق، فالمذابح تتكرر، وعمليات الإبادة تشتد، وانتزاع الأراضي من الأهالي لصالح المستوطنين من أوروبا وفرنسا خاصة،الذين كانوا يتدفقون على الجزائر، والبعثات التبشيرية تعمل بهمة ونشاط وتستغل الأوضاع الاقتصادية السيئة التي آل إليها شعب الجزائر، والمجاعات تتكرر، والأوبئة تنتشر، وعدد السكان الجزائريين يتناقص باستمرار !!

والمخططات الاستعمارية تبذل جهودها في القضاء على الدين الإسلامي والمساجد والزوايا، وتمنع تعليم اللغة العربية، وتبذل كل ما في طاقتها لفصل العرب عن البربر، وتقوم بعملية تغريب حضاري وثقافي شامل عن طريق تعليم اللغة الفرنسية وتدمير كل المؤسسات الوطنية واستبدالها بمؤسسات استعمارية،

بل ونجحت تلك الإدارة في إفساد بعض الطرق الدينية التي كان لها نصيب كبير في عمليات الكفاح ضد الاستعمار، فحولتها إلى طرق صوفية تنشر الخرافة بدلاً من العلم الإسلامي الصحيح، وعلى سبيل المثال فإن الطريقة الرحمانية التي اضطلعت بأعباء الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي وخاصة في ثورة ١٨٧١ قد أصبحت طريقة خربة تنشر الخرافة والتواكل وذلك عن طريق إفسادها من الداخل ووضع بعض العملاء على رأسها، مثل الشيخ أحمد عليوة، وفي المقابل نجد أن شعب الجزائر في تلك الفترة قد انقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية، هي مجموعة العملاء والمتعاونين مع الاحتلال الفرنسي، وبعض هؤلاء العملاء قد تخلي عن دينه وتنصر وهذه المجموعة محدودة ولا قيمة لها وملفوظة من الشعب الجزائرى، بل ومحتقرة من سلطة الاحتلال ذاتها.

والمجموعة الثانية هي مجموعة النخبة الأرستقراطية وبعض المثقفين، وهؤلاء قد فقدوا الثقة في إمكانية تحرير الجزائر عن طريق الثورة وانغمسوا في اللعبة السياسية ، مثل لعبة الانتخابات أو المطالبة بتحسين أوضاع الجزائريين وتخفيض الضرائب والسماح للجزائريين بالحصول على الجنسية الفرنسية مع الاحتفاظ بدينهم وقوانين الأحوال الشخصية الخاصة بهم، أي أن تلك المجموعة كانت تعلن ولاءها لفرنسا وتدعو لدمج الجزائر بفرنسا واعتبارها مقاطعة فرنسية، بشرط حصول أهلها على حق التجنس والانتخابات والتمثيل في الجمعية الوطنية الفرنسية، دون اشتراط تخليهم عن دينهم أو عن قوانين الأحوال الشخصية الخاصة بهم، وعلى كل حال فإن تلك المجموعة كانت محدودة جداً حيث بلغ عددها في مدينة الجزائر العاصمة أقل من ٢٠٠٠، وفي كل الجزائر أقل من ٤٢ ألفاً وهم المسموح لهم بحق التصويت في الانتخابات.

والمجموعة الثالثة هي كل شعب الجزائر المسلم المجاهد الصامد، وهؤلاء كانوا يعبرون عن رفضهم للاندماج بأية شروط ويتمسكون بتحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي، ويتمسكون بدينهم وعقيدتهم، وكانوا يتواجدون في كل الجزائر .. في الجبال والسهول والصحراء وفي الأحياء الشعبية وفي المدن ...

كانو يحفظون القرآن الكريم على اعتبار أنه الطريقة الوحيدة للمحافظة على كيانهم المتميز حتى بلغ عدد الذين يحفظون القرآن في الجزائر حوالي ٦٠٪. من أهلها، وهذا دليل على حيوية مذهلة في مواجهة عمليات المطاردة التي يتعرض لها محفظو القرآن الكريم وعلماء الدين عمومًا .. كان هؤلاء كالنار تحت الرماد ينتظرون اللحظة المناسبة.

ومن هؤلاء خرج الشيخ عبد الحميد بن باديس .

ابن باديس والقضية الفلسطينية :

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يمتلك وعيًا كبيرًا وفذًا، وبرغم الظروف القاسية التي كان يعيشها شعب الجزائر في ذلك الوقت فإن ذلك لم يمنع ابن باديس من الاهتمام المبكر بالقضية الفلسطينية والتنبيه المبكر للخطر الصهيونى.

يقول ابن باديس في سنة ١٩٣٨، أي قبل اكتمال المخطط الصهيوني بعشرة سنوات « تزاوج الاستعمار الإنجليزي الغاشم من الصهيونية الشرهة فأنجبا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى، وقذف على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة بهم، فأحالوها إلى جحيم لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحًا لا يندمل، جاء الزوجان المشئومان – الصهيونية والاستعمار – فكان بلاءً على فلسطين، وليست الخصومة بين عرب فلسطين واليهود فحسب، بل بين الإسلام كله والصهيونية والاستعمار كله، وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند الله تعالى إن لم يعمل على رفع الظلم عن فلسطين بما استطاع ».

ولعل هذا الفهم الدقيق لطبيعة المعركة مع الصهيونية والذي قدمه لنا الشيخ ابن باديس مبكرًا جدًّا، ومازلنا حتى الآن نكتشف صحته يومًا بعد يوم.

يؤكد الوعي الكبير للشيخ ابن باديس، ولعله أول من نبه إلى أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، وأن كل مسلم مسئول أعظم المسئولية عن هذه القضية وعن حقيقة التحالف العنصري بين الغرب وإسرائيل وطبيعة الصراع على أساس أنه صراع حضاري شامل وليس مجرد صراع بين عرب فلسطين وبين اليهود، كما آن هذا الاهتمام المبكر من الشيخ ابن باديس

بالقضية الفلسطينية يؤكد وحدة المصير الإسلامي في كل مكان، وأن المعركة واحدة في فلسطين أو في الجزائر.

جمعية العلماء المسلمين في الجزائر:

نشأت جمعية العلماء المسلمين في الجزائر عام ١٩٣١، وشارك فيها نحو ١٢٠ عالمًا من علماء الجزائر المشهورين بالعلم والتقوى، وكان أول رئيس لها هو الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومنذ أول يوم للجمعية قامت بمهمتها التاريخية في تأكيد إسلامية الجزائر وعروبتها ورفضها للخضوع أو الاندماج في فرنسا فقام الشيخ أحمد توفيق المدني بتأليف ونشر كتاب عن تاريخ الجزائر سنة ١٩٣١، ليكون أداة بين الجزائريين تؤكد أصالتهم وتميزهم، كما قام ابن باديس وعلماء الجمعية وتلاميذها بالتصدي لدعاة الفرنسة أو الدعوات العرقية واستطاعوا أن يفسدوا تدبير المستعمر في الوقيعة بين العرب والبربر، بل وجعل البربر أنفسهم يؤكدون على إسلاميتهم وعروبتهم وإسلامية الجزائر وعروبته، وفي نفس الوقت انبث علماء الجمعية وتلاميذها في كل مكان من الجزائر ينشئون المدارس والمساجد وتعليم الصغار والكبار اللغة العربية وعلوم الإسلام وتاريخ الجزائر وملحمتها الجهادية ضد الحملات الصليبية.

ويعد موقف جمعية العلماء إبان الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ م، من أروع مواقفها، فقد رفض الشيخ ابن باديس وعلماء الجمعية أن يعلنوا تأييدهم لفرنسا، وقال الشيخ ابن باديس كلمته المشهور « كيف نكون مع فرنسا وهي التي لم تقم لنا وزنًا، ولم تعترف لنا بحق، وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا، فكيف تجدنا ساعة الخطر أعوانًا وأنصارًا ؟ يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقا ولا نقول لها كلمة ».

كانت الجمعية مع إسلامية الجزائر وعروبته، وتحرير الجزائر تحريرًا كاملاً من الاستعمار الفرنسي، وأنه ليس هناك أية أرضية مشتركة للقاء مع الاستعمار، فالصراع صراع حضاري وثقافي وعسكري يمتد في التاريخ والجغرافيا.

يقول ابن باديس « والله لو قال الاستعماريون لي قل لا إله إلا الله محمد

رسول الله ما قلتها .. والله لن أوقع تأييدًا لفرنسا ولو قطعوا رأسي » .

وإذا كان دور الجمعية التربوي والتعليمي معروفًا ومشهورًا، حيث بلغت عدد المدارس التابعة للجمعية عند وفاة الشيخ ابن باديس ١٧٠ مدرسة عربية حرة، وبلغ عدد التلاميذ ما يزيد على الخمسين ألفًا بين ذكور وإناث يقوم بتعليمهم أكثر من ٩٠٠ معلم، معظمهم من خريجي الأزهر الشريف في مصر أو جامعة الزيتونة في تونس، وبعد وفاة الشيخ ابن باديس تزايدت أعداد المدارس التابعة للجمعية، حيث بلغت ٣٠٠ مدرسة تعلم أكثر من ٧٠ ألف طالب عام ١٩٥٣، كما أنها شكلت لجنة للتعليم بالجمعية وأوفدت عددًا من الطلاب لاستكمال الدراسة في المعاهد العليا بمصر وتونس، ووصل الأمر إلى حد أن الجمعية كانت تمنح الشهادات العلمية باسم الشعب الجزائري بدون موافقة الإدارة الاستعمارية، وإذا كان لذلك من دلالات سياسية تربوية، فإن لها أيضًا دورًا سياسيًا لا ينكر.

اهتمام الجمعية بقضايا العالم الإسلامي وفلسطين:

لم تقتصر جهود جمعية العلماء على الاهتمام بقضايا الشعب المسلم في الجزائر، بل اهتمت بأوضاع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وخاصة قضية فلسطين، فقد قامت الجمعية بالدعوة إلى إنشاء « لجنة إعانة فلسطين »، وترأس تلك الجمعية الشيخ أحمد الإبراهيمي رئيس الجمعية في ذلك الوقت، أي عام ١٩٤٨م، ودعا الشيخ الإبراهيمي جميع مسلمي العالم للكفاح ضد الإمبريالية والصهيونية، وأن يتم تقديم الاحتجاجات على ما حدث في فلسطين إلى الهيئات الدولية، كما قامت اللجنة بإرسال عدد من المجاهدين الجزائريين إلى فلسطين للمشاركة في القتال ضد الصهيونية، وكذلك تم إرسال مبلغ أربعة ملايين فرنك، ثم ثلاثة ملايين فرنك أخرى لدعم الجهاد الفلسطيني.

ومن أقوال الشيخ الإبراهيمي في هذا الصدد « أيها العرب، أيها المسلمون، إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إذًا نحن خاسرون »، ويقول أيضًا « أيها الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة، تنسي فلسطين أو تضعها في

غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها، لا والله ويأبى ذلك شرف الإسلام ومجد العروبة ووشائج القربي إن الاستعمار يريد أن يباعد بين أجزاء الإسلام لكيلا تلتئم، وهيهات لما يروم ».

دور جمعية العلماء في الإعداد للثورة الكبرى(١٩٥٤- ١٩٦٢)

ما إن اندلعت الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤ حتى أعلن الشيخ توفيق المدني في أبريل سنة ١٩٥٦ تأييد الثورة وانخرط المجاهدين من أتباع الجمعية في صفوفها، ولكن ليس بهذا فقط ساهمت الجمعية في الثورة، بل إن تمهيد أرض الثورة بالكامل الفضل فيه يرجع إلى جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، إذ لولا ظهور الجمعية سنة ١٩٣١، بعد أكثر من مائة عام من ليل الاستعمار الطويل، وبعد عمل الاستعمار على إبادة شعب الجزائر حضاريًا وثقافيًا وبشريًا، لولا ظهور الجمعية في ذلك الوقت لكانت المخططات الاستعمارية قد أوشكت على تحقيق أهدافها أو جزءًا كبيرًا منها على الأقل.

إن الجمعية قد مهدت الأرض للثورة، وذلك بجهودها في التعليم ونشر اللغة العربية، وإيقاظ الجزائريين في كل مكان والتصدي بحزم لكل ما من شأنه تدمير الوجود المستقل للجزائر، ويكفي أن نقول في هذا الصدد أن ٧٠ ألف طالب كانوا يتخرجون من مدارس الجمعية، كانوا هم أنفسهم قيادات الثورة وعناصرها النشيطة.

إن الثورة الجزائرية لم تكن لتظهر لولا التأكيد على خصوصية شعب الجزائر المتمثلة في الإسلام والعروبة،ولولا تأكيد الإسلام والعروبة في ضمير الجزائريين لما كان للثورة أن تظهر وتستمر أو تنتصر، وإذا كانت الجزائر الجاهدة المجاهدة قد خاضت المعارك ضد الاستعمار الصليبي الفرنسي منذ عام ١٨٣٠ تحت قيادة الباي أحمد، وعبد القادر الجزائري ثم المقراني والحداد وغيرهم، فإنه مع بداية القرن العشرين كانت الحركة الوطنية في الجزائر على شفا الهاوية بعد أن اتخذت شعار الولاء لفرنسا والمطالبة بالحقوق الجزائرية في إطار فرنسا الأم، ولولا جهود الجمعية لاستمر وتزايد هذا النهج الذي كان سيؤدي حتمًا إلى ضياع

الجزائر، أي أنه لولا المعارك التي خاضتها جمعية العلماء على أكثر من مستوى من أجل تأكيد طريقها في تحرير الجزائر في إطار إسلاميته وعروبته والتمسك بخط الكفاح المسلح ووصل ما انقطع منه، لما وجدت الثورة الجزائرية الكبرى أرضية للانطلاق والاستمرار والانتصار.

إن جمعية العلماء برفعها شعار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ قد وضعت يدها على الطريق الصحيح لتحرير الجزائر اعتمادًا على القدرات الذاتية للشعب الجزائري .

وعلى أساس هذا كله، فليس من العجيب أن يؤكد هذه الحقيقة كل الباحثين التاريخيين بلا استثناء، وكذا قيادات ثورة الجزائر أنفسهم حتى لو كانوا من ذوي الاتجاهات اليسارية أو اليمينية، يقول الأستاذ عبد الباقي محمد أستاذ التاريخ بجامعة قسنطينة « إن الدور الذي اضطلعت به جمعية العلماء في الجزائر، كان هو الدعامة التي قامت من خلالها، وفي إطارها الثورة الجزائرية الحديثة.

ويقول الدكتور أبو الصفصاف عبد الكريم في رسالته للدكتوراه : « إن جمعية العلماء هي التي أخرجت الجزائر من عزلتها الثقافية، وأعادت ربطها بالأمة الإسلامية وحطمت المقولات التي خلقها الاستعمار، وعمدت إلى إحياء اللغة العربية والتاريخ الوطني، وطهرت الإسلام من الشوائب التي علقت به، ووحدت الشعب الجزائري تحت راية الإسلام، وأحبطت حركة الاندماجيين الرامية إلى ربط الجزائر بفرنسا بواسطة جنسية المستعمر ولغته، وكونت الإطارات المخلصة التي فجرت ثورة ١٩٥٤، وكانت الدعامة الأساسية لعملية التعريب بعد أن استردت الجزائر سيادتها الوطنية سنة ١٩٦٢ ».

ويصف الدكتور محمود قاسم في كتابه « الإمام عبد الحميد بن باديس » بأنه الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية.

ويقول محمد على ديوز « أن الثورة الجزائرية قد تأثرت بأفكار حركات الإصلاح الإسلامي التي قادها جمال الدين الأفغاني في مصر والمشرق العربي عن طريق جمعية العلماء الذين كانوا بدورهم تلاميذ للأفغاني ومتأثرين به، وأن

الجزائريين كانوا باكورة القرن العشرين يترقبون بشوق ملتهب وصول بريد المشرق العربي الذي كان يحمل لهم كتب علمائه ومجلاتهم التي تنشر مقالات وأفكار مصطفي كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم ».

ويقول عباس فرحات رئيس حكومة الثورة الجزائرية في المنفي « كان الجزائريون المتخرجون من جامعة الزيتونة في تونس والأزهر في مصر – وهم الذين شكلوا جمعية العلماء – يجعلون من نهضة الإسلام والعروبة الشرط الأول لنهضة الجزائر، وكان أنصارهم من جماهير الفلاحين يشكلون أعدادًا ضخمة فقد كان الشعب الجزائري ينطوي على نفسه ويتمسك بقوة بعقيدته الدينية في مواجهة القهر الاستعماري والعنصري، وكان لابد لهذا التيار أن يؤثر بقوته على كل التيارات السياسية في الجزائر باتجاه الثورة» .

المجاهد الليبي عمر المختار

في إطار الموجه الصليبية المسماة بالاستعمار، قامت أوروبا الصليبية بعد أن حققت نهضتها بعملية غزو واسع لبلاد العالم عمومًا والعالم الإسلامي والعربي خصوصًا، واستطاعت أن تحتل الكثير من بلاد العالم العربي الإسلامى، وأن تسلم فلسطين لليهود، وكان المطلوب والهدف من هذه الموجه الصليبية الجديدة القضاء على الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، وبرغم نجاح دول الاستعمار الأوروبي في السيطرة السياسية والعسكرية على بلاد العالم العربي والإسلامي فإنها فشلت في القضاء على دين الأمة وهويتها الحضارية والثقافية، وكان ذلك بفضل رجال قاموا بالجهاد العسكري والثقافي في مواجهة الاستعمار، إذ لولا جهاد هؤلاء لتحولنا إلى أمة من الهنود الحمر، أي انقرضنا حضاريًا، هؤلاء الرجال الذين حملوا مشعل المقاومة استطاعوا تعطيل المشروع الاستعمارى، وصحيح أنهم لم ينتصروا على الأعداء ولم ينجحوا في وقف الزحف الاستعماري إلا أنهم بصمودهم وجهادهم حافظوا على جذوة المقاومة تحت الرماد وحافظوا بالتالي على هوية الأمة، ولم ينظروا إلى ما تحت أقدامهم، بل نظروا إلى المستقبل وأدركوا أنها مجرد جهادهم ومقاومتهم مهما كانت النتيجة هي الضمانة الحقيقية للمستقبل واستمرار وجود الأمة وتواصل حضارتها وثقافتها، كانوا يمتلكون تفاؤل المستقبل رغم يأس المرحلة.

ومن هؤلاء الرجال عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي في المغرب، وأحمد باي قسنطينة، الأمير عبد القادر، ومحمد المقراني والحداد، ولالا فاطمة، وابن باديس في الجزائر،

وعبد العزيز الثعالبي في تونس، وعمر مكرم ومحمد كريم والأفغاني والنديم وعرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا في مصر، وعز الدين القسام وأحمد ياسين وفتحي الشقاقي في فلسطين، وأيضًا كان من أبرز هم عمر المختار في ليبيا.

الحركة السنوسية

عمر المختار هو أحد أبناء الحركة السنوسية، وقائد المجاهدين السنوسيين ضد الاحتلال الإيطالي لليبيا، وكان عمر المختار معلم للقرآن الكريم في أحد الزوايا التي أنشأتها الحركة السنوسية، والحركة السنوسية هي حركة أسسها السيد محمد ابن على السنوسي سنة ١٨٣٧ وقد انتشرت الحركة فى لبيبا وأجزاء من مصر والسودان، ولكن المحور الأساسي للحركة كان في ليبيا وخاصة في واحه جغبوب، وقد استطاعت الحركة أن تؤسس عددًا كبيرًا من الزوايا كانت بمثابة مساجد للصلاة ودارا للعلم ومكاناً لإعداد المجاهدين والدعاة والنشاط الاجتماعي عمومًا، وقد لعبت الحركة السنوسية دورًا متميزًا في الجهاد ضد أعداء الأمة فقاومت الاستعمار الفرنسي في تشاد والسودان الغربي من ١٩٠١ حتى ١٩١١، وعندما احتل الإيطاليون ليبيا سنة ١٩١١ قام السنوسيون بدور هام في القتال والجهاد ضد الإيطاليين في كل أنحاء ليبيا ولمدة ثلاثين عامًا متصلة بدءًا من ١٩١١ وحتى ١٩٤٠م، وكان عمر المختار واحد من مقاتلي السنوسية ضد الاحتلال الإيطالي منذ عام ١٩١١ وحتى ١٩٢٢ م، ثم قائدًا للمقاومة من ١٩٢٢ وحتى ١٩٣١ م.

جهاد عمر المختار

كانت الفاشية قد وصلت على الحكم في إيطاليا عام ١٩٢٢، وقامت الحكومة الفاشية بإرسال عدد كبير من القوات إلى ليبيا بهدف القضاء على حركة المقاومة، واضطر المجاهدون إلى الانسحاب إلى الجنوب، وأنشأ عمر المختار الذي أصبح قائدًا للمجاهدين منذ عام ١٩٢٣ قاعدة في الجبل الأخضر، ومن هذه القاعدة شكل عمر المختار جيشًا قويًا، وشهدت أعوام ١٩٢٤،

١٩٢٥ نجاحات متعددة لقوات عمر المختار، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يتيقن أساليب الكر والفر، واستطاع عمر المختار أن ينزل خسائرًا فادحة بالقوات الإيطالية وأن يقطع طرق مواصلات الإيطاليين في أنحاء واسعة من الشمال، واستمر عمر المختار صامدًا طوال أعوام ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ثم أنزل بالقوات الإيطالية هزيمة كبيرة سنة ١٩٢٨ مما جعل الحكومة الإيطالية تقوم بتغيير وزير المستعمرات الإيطالي وتغيير قيادات الإيطاليين في ليبيا وإعادة تشكيل الإدارة الإيطالية في ليبيا.

وفي عام ١٩٢٩ نفذ رجال عمر المختار الكثير من العمليات الناجحة ومنها الهجوم على قصر بنقدم والقبض على الدرك الإيطالي بها « نوفمبر ١٩٢٩ »، ومع استمرار نجاح عمر المختار قام الإيطاليون بإنزال كل أنواع القسوة والتعذيب بالشعب الليبي وحاولوا دائمًا قطع صلات المجاهدين بالجماهير الليبية، ووصل الأمر إلى حشد الأهالي في معتقلات كبيرة امتدت من العقيلة إلى السلوم، وقامت السلطات الإيطالية بإعدام أي شخص يتصل بالمجاهدين وإنشاء ما صار يعرف في تاريخ الاستعمار الإيطالي باسم (المحكمة الطائرة) في أبريل ١٩٣٠، وهي المحكمة التي كانت تنتقل من مكان إلى مكان لإصدار الأحكام السريعة وتنفيذها فورًا.

وعمدت القوات الإيطالية إلى إغلاق الحدود المصرية لمنع الإمدادات عن المجاهدين في الجبل الأخضر وفي الواحات.

واستمرت المناوشات والصدامات بين قوات عمر المختار وقوات الإيطاليين طوال عام ١٩٣٠، ثم قامت الإدارة الإيطالية في ليبيا بمد سور الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية الليبية وبلغ طول هذا السور (٣٠٠ متر كيلو متر)، من (المساعد) إلى ما بعد (الجغبوب).

وبعد جهاد طويل استمر حتى عام ١٩٣١ سقط عمر المختار أسيرًا في يد القوات الإيطالية في ١١ سبتمبر ١٩٣١ م، وحوكم محاكمة صورية قضيت بإعدامه، ونفذ فيه الحكم في ١٦ سبتمبر ١٩٣١ فلقي ربه شهيدًا.

الشيخ المجاهد عز الدين القسام

* فلسطين قضية كل مسلم
* الإسلام والكفاح المسلح
* الطريق الصحيح لتحرير فلسطين

القسّام الرائد

بعد عشرات السنين من استشهاد الشيخ المجاهد عز الدين القسام على أرض فلسطين المباركة نجد أنفسنا نكتشف أن الطرح الصحيح للقضية هو ما طرحه ومارسه عز الدين القسام (الإسلام والكفاح المسلح)، بل نجد أن تجربة عزالدين القسام « وهو علم الدين – السوري المولد – المكافح ضد الاحتلال الفرنسي في سوريا – الراغب للجهاد ضد احتلال الطليان لليبيا – الرابط بين الكيان الصهيوني والاحتلال الإنجليزي – الذي يحرك الجماهير من خلال الإسلام – المنظم لخلايا الكفاح المسلح .. » نجد أن تلك التجربة تكشف عن فهم كل العوامل الصحيحة والمعاني الصحيحة في القضية الفلسطينية.

ترى كيف امتلك عز الدين القسام هذه الرؤية الصحيحة، وترى أين تعلمها، وترى كيف صاغها فكرًا وممارسة ؟ إنها عبقرية رجل الدين المجاهد، إنها عبقرية عز الدين القسام.

مولده وحياته :

ولد عز الدين القسام في قرية الأدهمية التابعة لمدينة

اللاذقية بسوريا سنة ١٨٨٢م، ووالده هو عبد القادر مصطفى القسام من علماء الأزهر الشريف، ووالدته هي حليمة قصاب من بيت نور الدين حملة العلم الكرام، تعلم عز الدين القسام في زاوية الإمام الغزالي بالقرية وحفظ القرآن الكريم والقراءة والكتابة، ثم الفقه، وسافر سنة ١٨٩٦ إلى مصر ليدرس بالأزهر الشريف حيث قضي بالأزهر دارساً لمختلف العلوم الشرعية حوالي عشرة سنوات، ثم عاد إلى سوريا سنة ١٩٠٦ م بعد أن حصل على شهادة الأهلية، وبعد عودته إلى مسقط رأسه في سوريا اشتغل بالتدريس وتولى الخطابة في مسجد المنصوري بالقرية.

وعندما اندلعت الحرب في ليبيا سنة ١٩١١ وحاول الإيطاليون احتلالها هب الشيخ المجاهد عز الدين القسام للدعوة للجهاد في ليبيا إدراكًا منه أن الدفاع عن أي بلد إسلامي واجب شرعي على كل مسلم وبالأخص على علماء الدين. واستجاب له الكثيرون في سوريا فاختار منهم ٢٥٠ متطوعًا وأعدهم للسفر إلى ليبيا عن طريق الإسكندرية للمشاركة في الجهاد ضد الطليان، ولكن السلطات في سوريا في ذلك الوقت منعته ومن معه من السفر.

وعندما اندلعت الثورة السورية الأولى ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩١٩ كان عز الدين القسام في طليعة دعاتها وقادتها والمجاهدين بأنفسهم فيها.

وعندما ظهرت الملامح الأولى للغزوة الصهيونية على فلسطين أدرك عز الدين القسام أن تلك الغزوة أخطر وأشد حلقات التآمر الصليبي اليهودي على العالم الإسلامي، وأن للجهاد في فلسطين الأولوية الأولى على كل القضايا رغم أهميتها جميعًا وعبر بذلك عن البادرة الأولى في وعي الأمة بأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، فتوجه سنة ١٩٢٠ إلى فلسطين مصطحبًا معه مجموعة من الشباب السوري المجاهد، واتخذ من مدينة حيفا مقرًا له وبدأ عز الدين القسام من حيفا في العمل على نشر الوعي الجهادي بين جماهير فلسطين والتنبيه المبكر على خطورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقام الرجل بإلقاء الخطب في المساجد أو في المناسبات الاجتماعية كالأفراح أو الاجتماعات أو غيرها، كما أسس المدارس وفصول محو الأمية وتعليم

الصغار، وأسس جمعية الشبان المسلمين في فلسطين لتكون أداة في المواجهة على مستوى الوعي والتعليم والجهاد، ثم شكل الشيخ عز الدين القسام تنظيمًا مسلحًا أختار عناصره من الفلاحين والباعة الجائلين والصناع، وقام هذا التنظيم بالعديد من العمليات الفدائية ضد المستوطنات الصهيونية، وضد الاحتلال الإنجليزي إلى أن أستشهد الرجل في أحد العمليات ضد القوات الإنجليزية مع اثنين من المجاهدين هما الشيخ يوسف الزيباوي وعطيفة المصري يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥، وكان لاستشهاده وكفاحه ودوره في نشر الوعي والثورة أثرًا هامًا في اندلاع الثورة الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٦م، واستمر التنظيم الذي شكله القسام يقوم بالعديد من العمليات الفدائية ضد اليهود والإنجليز بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسام.

فلسطين هي القضية المركزية لأمة الإسلام

لماذا ترك عز الدين القسام ساحة الجهاد في سوريا ضد الاحتلال الفرنسي، وقد كان أحد قادة ثورة ١٩١٩ وهي الثورة السورية الأولى لماذا ترك موقعه الجهادي هنا إلى موقع آخر في فلسطين ؟! أليس هذا إدراكًا مبكرًا بأن جوهر الجهاد وأهم مواقعه هو بالتحديد على الساحة الفلسطينية باعتبار أن أخطر وأهم فصول التآمر الصليبي اليهودي هو بالتحديد على أرض فلسطين، وأن على أرض فلسطين يتحدد مصير الصراع الطويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، أليس هذا وعيًا مبكرًا بأن القضية الفلسطينية هي القضية الأولى والأهم، وهي القضية المركزية للأمة الإسلامية ولذلك فضل الرجل أن يواجه التحدي الصليبي الغربي والتحالف مع اليهود في المكان الصحيح وفي الموقع الجوهري للصراع، وبذلك يكون عز الدين القسام السوري المولد والنشأة قد طرح وحفر بجهاده على أرض فلسطين أهم حقائق هذا العصر وهو جوهرية الصراع في فلسطين وكون القضية الفلسطينية هي قضية العرب والمسلمين الأولى، وفضلاً عن هذا المعني الهام فإن جهاد عز الدين القسام على أرض فلسطين يؤكد أهمية الجهاد في كل موقع يتعرض لخطر العدوان، ولعل

هذا درسًا بليغاً لكل المجاهدين الذين تركوا القضية الجوهرية « فلسطين » وراحوا يجاهدون في قضايا أقل أهمية وأحيانًا في المكان الخطأ !.

الإسلامية والكفاح المسلح ـ الجماهير الكادحة :

تعلم الجميع – ولكن بعد وقت طويل ضائع – أن عز الدين القسام قد وصل إلى لب المنهج الصحيح للمواجهة، فالذين تحركوا تحت شعارات مختلفة من وطنية وقومية وماركسية وغيرها قد فشلوا جميعًا في تحريك الجماهير ووصلوا بالقضية إلى أسوأ حالاتها أو سقطوا جميعًا إلا من رحم ربك في مستنقع التفاوض الآسن، ومنذ اللحظة الأولى وضع عز الدين القسام يده على الطريق الصحيح لتحريك الجماهير « الأيدلوجية الإسلامية » وهي الوحيدة القادرة على المواجهة والحشد، لأنها عقيدة الجماهير وبسبب طبيعة التحدي باعتباره صراعًا حضاريًا بين الإسلام والغرب المتحالف مع اليهود، صراعًا يمتد في الزمان والمكان في الجغرافيا والتاريخ، ولقد وعي الشيخ عز الدين القسام ذلك الارتباط بين اليهود الصهاينة باعتبارهم طليعة استعمارية عنصرية تستهدف أمة الإسلام وليس فلسطين وحدها، وبين الاستعمار الإنجليزي -- الوجه الآخر للتآمر الصليبي، وبالتالي فهم أنه لا طريق لمواجهة هذا التحدي الحضاري إلا بالإسلام وبالكفاح المسلح، لأنه ليست هناك أرضية للالتقاء وبالتالي فلا مجال للمفاوضات والحلول الوسط، ووصل الرجل إلى الأسلوب الصحيح للمواجهة. أما هؤلاء الذين فقدوا خيار الإسلام أو خيار البندقية فمازالت سقطاتهم تتوالى ومازالت الكوارث على فلسطين و على الأمة تتوالى بسببهم.

كان عز الدين القسام يدرك أيضًا أن الجماهير الكادحة هي القادرة على الجهاد والمواجهة فتوجه الرجل بخطابه إليهم وعاش بينهم وشكل تنظيمه المسلح منهم، أما الأسر الإقطاعية فقد كان يدرك عدم جدواها وعدم قدرتها على الكفاح المسلح وهكذا طرح عز الدين القسام الشعار الخطير وهو « المسلمون الكادحون على طريق الكفاح المسلح ».

ولم يغفل الشيخ عز الدين القسام الجوانب الأخرى في حركته فمارس

النضال السياسي كجناح آخر من أجنحة الحركة ومارس التعليم ومحو الأمية وألف لجانًا للدعوة والدعاية، فبحلول عام ١٩٣٥ كان عز الدين القسام قد نجح في تشكيل خمس لجان داخل تنظيمه هي « الدعوة والدعاية ـ التدريب العسكري ـ التموين ـ الاستخبارات ـ العلاقات الخارجية ».

***

هل كان عز الدين القسام يحلم بالانتصار ووقف الهجمة ودحرها ؟! بالطبع لا، ولكنه كان يدرك أن ظروف الأمة وظروف الهجمة لا تسمح إلا بحفر رافد للمنهج الصحيح من خلال الدم، رافدا للوعي والثورة،رافدا للإسلام والجهاد، يمكنه أن يكون أساسًا للبناء حتى لا تتوه معالم الطريق الصحيح فتضيع القضية برمتها.

صحيح أن الشيخ عز الدين القسام طلب من مفتي فلسطين في ذلك الوقت أن يعلن الثورة المسلحة في الجنوب في نفس الوقت الذي يعلنها فيه الشيخ عز الدين القسام في الشمال ولكن المفتي رفض، ومع ذلك، أي برغم الرفض الذي يعني بداهة أن إعلان الثورة في الشمال سيفشل حتمًا، استمر الشيخ عز الدين القسام وأعلن الثورة في الشمال رغم إدراكه بفشلها الحتمي، ولكنه أراد أن يخط ويحفر بدمه رافدًا عميقًا للتوجه الصحيح ونبعًا أصيلاً ونبراسًا للمستقبل، واستشهد الرجل مع رفاقه الذين قتلوا أو أسروا، ولكنه كان بالفعل قد وضع الطريق الصحيح وقطع الطريق الخطأ الذي يمكن أن يضيع القضية برمتها وإلى الأبد، وبعد ستين عامًا نجد أن كتائب عز الدين القسام هي نفسها التي تحمل عبء المواجهة وطريق عز الدين القسام هو الطريق الذي اختاره أبناء فلسطين « الإسلام والثورة والكفاح المسلح » في زمن سقط فيه الكثيرون في مستنقع التعايش مع اليهود.

كان عز الدين القسام يدرك حقيقة تفاؤل المستقبل رغم يأس المرحلة، وكان يعرف أن الاستشهاد وهو مفجر الوعي وأن الحسابات لا ترتبط باللحظة الآتية بل تنظر بعين المستقبل، كان عز الدين القسام قد انتصر في الحقيقة حين استشهد ونجح حين فشلت انتفاضته سنة ١٩٣٥م.

فتحي الشقاقي

تدخل حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التاريخ العربي والإسلامي والفلسطيني المعاصر كأهم حركة نضال معاصرة، ذلك أنها جمعت بين الكفاح العسكري الاستشهادى، وبين النضال السياسي والإسهام الفكري لقادتها ومفكريها في مجمل المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر.

تأسست حركة الجهاد عام ١٩٧٨ م على يد الدكتور فتحي الشقاقي وعدد من زملائه المجاهدين، انطلاقًا من أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية وللأمة الإسلامية، وأنه لا طريق لتحرير كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر، ومن الجنوب إلى الجنوب إلا بحرب التحرير الشعبية والعقيدة الإسلامية، فالكيان الصهيوني برمته كيان غير شرعي ولقيط، ولا يجب الدخول معه في أي مفاوضات أو حلول وسط، وهو كيان عدواني لا يجدي معه سوى سلاح البندقية وهكذا أعادت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التأكيد على الثوابت الأساسية للقضية في وقت كانت تتساقط القوى العربية والفلسطينية تباعًا في فخ التفاوض والمساومات والحلول الوسط

وتعتبر حركة الجهاد الإسلامي نفسها امتداد لمجمل الكفاح الإسلامي والفلسطيني المعاصر، وتعتز بصورة خاصة بالشهيد عز الدين القسام الذي قاد الكفاح الفلسطيني المسلح في الثلاثينات ضد الوجود اليهودي في فلسطين وضد

الاحتلال الإنجليزي على حد سواء، وقد مزجت حركة الجهاد الإسلامي بين الكفاح الإسلامي المعاصر، والكفاح الفلسطيني المعاصر بطريقة فذة ووعي كبير، وقد قامت حركة الجهاد الإسلامي بالعديد من العمليات الأستشهادية ضد الكيان الصهيوني، وتعتبر الأوساط الإسرائيلية أن حركة الجهاد هي الأسوأ من كل ما سبقها ذلك أنها غير قابلة للاختراق السياسي بسبب تمسكها بالبعد الإسلامي والبعد الجماهيري في نفس الوقت، وترفض الحركة كافة أشكال التفاوض والحلول الوسط مع إسرائيل وتعتبر الصراع مع إسرائيل صراع حضاري يمتد في الزمان والمكان وأنه أحد محطات الصراع الطويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وأنه على أرض فلسطين سيتحدد مصير الحضارة الإسلامية ومصير العالم كله بالتالي.

ويعد الدكتور فتحي الشقاقي هو مفكر الحركة وواضع نظريتها السياسية وهو بالإضافة إلى تأسيسه حركة الجهاد الإسلامي، كان مفكرًا إسلاميًا كبيرًا له أطروحات سياسية وفكرية غاية في الأهمية على الصعيدين الإسلامي والفلسطيني.

ولد الدكتور فتحي الشقاقي عام ١٩٥١ في مخيم رفح الفلسطيني في قطاع غزة، كانت أسرته قد نزحت إلى هذا المخيم عام ١٩٤٨ عندما احتلت إسرائيل جزءًا كبيرًا من فلسطين في ذلك الوقت، ومن ضمنه قرية زرنوقة الغربية من يافا التي كانت تنتمي إليها أسرة الشقاقي حتى عام ١٩٤٨ م.

درس العلوم والرياضيات في بير زيت وعمل مدرسًا في القدس ثم درس الطب في مصر وعمل طبيبًا في القدس أيضًا، انخرط في العمل السياسي والنضالي منذ وقت مبكر من حياته، والتحق بالحركة الإسلامية في فلسطين عام ١٩٦٨ م، ثم أسس مع زملائه حركة الجهاد الإسلامي عام ١٩٧٨ كفكرة أولى، اعتقل عدة مرات في كل من مصر وفلسطين، وأبعد عن الأرض المحتلة عام ١٩٨٨ بعد اندلاع الانتفاضة المباركة في فلسطين عام ١٩٨٧، وأخذ يتنقل بين البلاد العربية والإسلامية لمواصلة كفاحه ، اغتالته أجهزة الموساد الإسرائيلية في مالطا يوم الخميس ٢٦ أكتوبر ١٩٩٥م.

بطل استقلال الشيشان

الشهيد
جوهر داوديف
١٩٤٤-١٩٩٦م

دخـل جـوهر داوديـف التـاريخ كبطـل للمحاولـة الاسـتقلالية لشـعب الشيشـان سـنة ١٩٩١، وهـو إحـدى الحلقات المتميزة في سلسلة كفاح الشـعب الشيشـانى، الـذي أصـبح علمًـا علـى الحريـة وإرادة المقاومـة والصـلابة والصمود، ولعل ملحمة كفاح شـعب الشيشـان العنيـد مـن أجـل الحريـة والاسـتقلال هـي أروع الملاحـم في التـاريخ الإنساني قاطبة.

ولد جوهر داوديف عام ١٩٤٤، وعـاني مثـل شـعبه في ذلك الوقت من التشريد الذي فرضه ستالين على الشـعب الشيشانى، ثم عـاد إلى بـلاده عـام ١٩٥٧، وفي عـام ١٩٦٦ تخرج طيارًا إلى أن أصبح لواء في سلاح الطيران، ثم اسـتقال من منصبه سنة ١٩٩١، وعاد إلى بـلاد الشيشـان، وأجريـت انتخابات رئاسية حرة بها في ٢٦ أكتوبر ١٩٩١، وتم انتخاب جوهر داوديف كـأول رئـيس لجمهوريـة الشيشـان، فـأعلن استقلال الشيشان عن روسيا في الأول مـن نـوفمبر ١٩٩١، إلا أن روسـيا أرسـلت قواتهـا في ٩ نـوفمبر للقضـاء علـى استقلال الشيشان فقاوم الشـعب الشيشـاني ذلـك التـدخل ببسالة شديدة فاضطرت روسيا لسحب قواتهـا، ثـم عـادت روسيا فأرسلت جيشًا كبيرًا إلى الشيشان عام ١٩٩٤ لإعـادة احتلالها والقضاء على استقلالها، واستمرت المعارك حوالي ٢٠ شهرًا أظهر فيها الشـعب الشيشـاني بطولـة نـادرة نجـح

بعدها في إجبار الروس على الانسحاب مرة أخرى عام ١٩٩٦، وفي أثناء تلك المعارك التي امتدت من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦ م، استشهد الجنرال جوهر داوديف، الذي كان يقود بنفسه تلك المقاومة، ولكن المقاومة استمرت من بعده أيضًا .

وفي الحقيقة فإن شعب الشيشان الذي يبلغ عدد سكانه حوالي ١,٥ مليون نسمة يعد نموذجًا فذا في المقاومة والصلابة وعدم الاستسلام مهما كانت الظروف، ويصف المؤرخ الروسي سولجنستين صلابة أهل الشيشان قائلاً « لك أن تكسر ظهورهم ولكن أحدا لا يستطيع النيل من روحهم المعنوية العالية، لقد ظلت نفوسهم نمرًا مقيدًا بالسلاسل، لأنهم كانوا من الشيشان الذين لا يرهبون الموت ».

ومقاومة الشعب الشيشاني للاحتلال الروسي ملحمة متصلة لم تنقطع قط، يتعرضون للمذابح والإبادة والتهجير الجماعي ولكنهم يظلون متمسكين بخيار المقاومة المسلحة والهوية الإسلامية، ومنذ أن وطأت أقدام الغزاة الروس أرض الشيشان فإن المقاومة لم تنقطع أبدًا تخبوا أحيانًا ولكنها تعود وتتأجج، وهناك العديد من رموز المقاومة الشيشانية الذين أصبحوا رموزًا عالية للحرية والفداء منهم الإمام منصور الذي فجر المقاومة ضد الاحتلال الروسي منذ عام ١٧٨٥، ومنهم الإمام غازي محمد الذي فجر المقاومة في بدية القرن التاسع عشر ثم الإمام شامل الذي يعد أهم الرموز في هذا الصدد، فقد قام الإمام شامل عام ١٨٥٦، كان الشيخ شامل أحد علماء الدين تخصص في الفقه والشريعة، كما أنه أحد أبناء الطريقة النقشبندية وهي طريقة صوفية تنتشر في بلاد القوقاز، كما كان ينتمي إلى المذهب الشافعي، ولد الإمام شامل عام ١٧٨٧ م وانضم لنجهاد عام ١٨٣٠ وخاض الكثير من المعارك وانتصر على الروس في العديد منها خاصة عام ١٨٤٣، ١٨٤٤ م، ويكفي أن نعرف أن الروس حشدوا لقتاله حوالي ٤٠٠ ألف جندي واستطاعوا أخيرًا أن يأسروه عام ١٨٥٦ م حيث لبس في السجن ٥ سنوات ثم أفرج عنه ١٨٦١ م، حيث ذ هب إلى الحج ومات في المدينة المنورة.

وبعد الشيخ شامل استمرت المقاومة على يد كل من « تاشو حجي »

والشيخ «مادالي » و « بشير الكوميكي » و « نجم الدين غوتسو » طوال الفترة القيصرية، ثم خلال الحكم الشيوعي لروسيا الذي بدأ عام ١٩١٧، وقام الديكتاتور الشيوعي "جوزيف ستالين » بعملية « تهجير قسري » لشعب الشيشان إلى سيبيريا عام ١٩٤٤ حيث مات ربع مليون شيشاني في تلك العملية بسبب البرد والتعذيب في معسكرات النفى، أي أن الشعب الشيشاني تمسك بهويته وروحه العالية ونجح عدد كبير منهم في لعودة إلى بلادهم الشيشان على مدى سنوات طويلة بدءًا من عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٩١ حيث تم إعلان جمهورية الشيشان برئاسة الجنرال جوهر داوديف.

نجم الدين أربكان

بركة النضال السياسي

الزعيم التركي نجم الدين أربكان، هو أحد أهم زعماء الإصلاح الإسلامي في عالمنا المعاصر، ولا يرجع ذلك فقط للدور الهام الذي أسهم به في الدفاع عن تركيا المسلمة في وجه العلمانية والتغريب، ولا في نجاحاته المتواصلة في زرع الحركة الإسلامية التركية في قلب التركيبة السياسية التركية المعقدة فقط، ولكن أيضًا لانفراده بأسلوب وفكر متميز وأطروحته السياسية الفذة التي انفرد بها، والتي تعد نموذجًا وتجديدًا في الفكر الإسلامي السياسي المعاصر، ويمكن أن تطلق على تلك الأطروحة بركة النضال السياسي ، أو زرع الزهور الخضراء رغم العاصفة أو شجرة الزيتون تطرد أشجار الشوك والزقوم، ولا شك أنها تجربة تستحق الدراسة، وأربكان أيضًا كشخص يستحق الاهتمام.

ولد نجم الدين أربكان عام ١٩٢٦ في مدينة سينوب التركية، والده هو محمد صبري ناظر زادة أحد كبار القضاة والمتفقهين في الشريعة، أما أجداده فهم من كبار الموظفين والوزراء في الدولة العثمانية، ويعود نسبه القديم إلى أمراء القبائل السلمونية التي أسست أول دولة تركية إسلامية في أسيا الصغرى قبل ظهور آل عثمان بمئات السنين، درس نجم الدين أربكان في مدينة اسطنبول، وكان شديد التفوق فأدخل إلى السنة الثانية من كلية الهندسة الميكانيكية مباشرة، وتخرج فيها وعمره ٢٢ عامًا، وعين فيها معيدًا، ثم أرسل إلى التخصص في جامعات ألمانيا فنال فيها الدكتوراه، وعمل في

بعض المصانع الألمانية للسيارات وسجل عدة اختراعات باسمه في مجال المحركات وخصوصًا محركات الدبابات، وعندما عاد إلى تركيا عمل أستاذًا مساعدًا في كلية الهندسة في إسطنبول ثم مديرًا لأحد أكبر المصانع التركية. وفي عام ١٩٦٧ انتخب رئيسًا لغرفة التجارة والصناعة في تركيا، ثم بدأ العمل السياسي المكثف فأسس جمعية نشر العلم، ثم رشح نفسه للانتخابات البرلمانية في مدينة قونية بصفة مستقلة عن الأحزاب عام ١٩٦٩ م ففاز بغالبية كاسحة واعتبر فوزه حدثًا بارزا لتفوقه على كبار الشخصيات السياسية التقليدية. وفي يناير ١٩٧٠ م. أسس حزب النظام الوطني، وكان شعاره سياسة في هيئة التشهد، وجاء في بيانه التأسيسي أن الحزب سيعيد على الأمة أمجادها العظيمة، وبعد ١٨ شهر من تأسيس الحزب أي في منتصف عام ١٩٧١ لفقت له الحكومة التركية قضية وأحالته إلى محكمة أمن الدولة بتهمة التناقض .

مع الدستور، وصدر قرار بحل الحزب، وبعد الانقلاب العسكري في أواخر عام ١٩٧١ م أسس حزبه الثاني « حزب السلامة » ودخل به الانتخابات وحصل على نسبة من الأصوات أهلته للمشاركة في ائتلاف حكومي، فأصبح نائبًا لرئيس الوزراء عام ١٩٧٤م، واستمر ذلك لفترة قصيرة «تسع شهور فقط » كانت كافية لتظل آثاره ماثلة على الخريطة التركية حتى الآن، فقد كان وراء القرار الخطير عام ١٩٧٤ م بإرسال الجيش التركي إلى قبرص، و على الغرار نفسه استغل أربكان المناصب الوزارية العديدة التي شغلها بفضل تحالفات حزبه مع الأحزاب التقليدية التركية في السبعينات لينجز انقلابات صغيرة وتكتيكية لكنها خطيرة مثلما فعل عندما كان وزيرًا للداخلية فأدخل آلاف الإسلاميين إلى الشرطة وأجهزة الأمن، وعندما تسلم وزارة الاقتصاد كشف الضغوط الأمريكية وشروط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لتقليص النفقات العسكرية وتحجيم مشاريع التصنيع وشن حملة واسعة على تلك الجهات، معلنًا ان تركيا ستستمر في بناء جيشها القوى وتطوير صناعاتها الحربية بما في ذلك التعاون مع باكستان في مشروعها النووى، وقد استمر أربكان في نضاله السياسي وتحالفاته مع الأحزاب الأخرى وإنجازاته التكتيكية إلى أن وقع

الانقلاب العسكري الجديد في تركيا عام ١٩٨٠، وتم حل حزب السلامة واعتقال أربكان لمدة عامين، خرج بعدها لينشأ حزبا جديدا عن طريق شخصيات إسلامية غير معروفة حتى يتجاوز اعتراض المؤسسات العسكرية والدستورية، ودخل بهذا الحزب انتخابات عام ١٩٨٣م فحصل على حوالي ١٥٪. من الأصوات، ثم دخل بحزبه الانتخابات البلدية أكثر من مرة واستطاع الفوز في العديد من البلديات وتحقيق إنجازات ملموسة أحس بها الشعب التركي في تلك البلديات على مستوي محاربة الفساد وتحسين ظروف المعيشة وتقديم العديد من الخدمات، ولا شك أن ذلك كله أهله وحزبه للفوز في الانتخابات البرلمانية التركية عام ١٩٩٥ م بالمركز الأول فحصل على ٢١٪. من الأصوات، وحاولت الأحزاب العلمانية والمؤسسة العسكرية استبعاده من التشكيل الوزارى، إلا أنه نجح في النهاية من تشكيل الحكومة بالتحاف مع حزب تانسو تشيلر. وأصبح أول رئيس وزراء إسلامي لتركيا منذ عام ١٩٢٤، واستطاع أربكان أن يقدم في فترة رئاسته للوزارة العديد من الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية لتركيا والعالم الإسلامي مما أثار حفيظة القوى الكبرى عليه فتمت الإطاحة به من الوزارة عام ١٩٩٧، ثم حل الحزب عام ١٩٩٨م بمؤامرة واضحة اشترك فيها العسكر والعلمانيون وقوي الفساد الداخلي والخارجى. وبرغم أن حل الحزب والإطاحة بأربكان قد يبدو أمرًا سلبيًا إلا أنه من ناحية أخرى قد كشف زيف دعاوي الديمقراطية الغربية، وكذب العلمانية وأثبت أن العلمانية لا تقبل في حقيقة الأمر بالتعددية على حين يقبل الإسلاميون بذلك، ولعل هذا واحده كان إنجازًا كافيًا لأربكان، حيث حقق المعنى الكثير من المكاسب الإعلامية والسياسية للاتجاه الإسلامي في العالم كله وليس في تركيا وحدها، بل ووضعت العلمانيين خاصة في العالم الإسلامي في مأزق حقيقي وأنهت مصداقيتهم .

ولا شك أن مسيرة أربكان تمثل نوعًا من الأداء السياسي المتميز والذكاء المنقطع، سواء قبل حل حزب الرفاه أو بعد حل هذا الحزب، ثم إصراره على الاستمرار بطرق مختلفة إدراكًا منه للظروف التاريخية والجغرافية والاستراتيجية

المعقدة التي تحكم تركيا.

ولكي نفهم عبقرية أربكان وأداءه السياسي الفذ، ينبغي أن نـدرك شـيئا مـن حقائق التاريخ والجغرافيا والاستراتيجية، فلا شك أن تركيا تمثل أحـد محطـات الصراع الإسلامي الأوروبي، وعندما ظهـرت الخلافـة العثمانيـة استطاعـت أن توقف انهيارا كان محتوما للأمة الإسلامية، وأن تصـعد بهـذه الأمـة إلى الأمـام، فوحدت المسلمين وحققت المزيد من المكاسب الإسلامية في قلب أوروبا ذاتهـا، ففتحـت القسـطنطينية في عهـد محمـد الفـاتح ١٤٥٣م، وتوسـعت في أوروبـا فوصـلت إلى أسـوار فيينـا وحاصـرت رومـا فأجلـت المشـروع الاسـتعماري الأوروبي عدة قرون، وهكذا لم يكن الحقد الأوروبي والصليبي علـى تركيـا إلا أمرا طبيعيًا، تآمرت القـوى الصـهيونية واليهوديـة علـى تركيـا حتـى أسـقطت الخلافة عام ١٩٢٤، وبـدأت محـاولات ضـرب الإسـلام في تركيـا، بـل محاولـة استئصال جذوره ومنع شعائره التعبدية ذاتها، وبـالطبع كانـت هنـاك محـاولات إسلامية لمنع الانهيار تمثلت في العديد من حركات المقاومة والصمود مثل حركـة الشيخ سـعيد النورسـي وغـيره، ولكـن جـاء أربكـان ليكـون القائـد السياسـي والتاريخي لمحاولة استعادة الوجه الإسلامي لتركيا الذي غـاب طـويلا، ولم يكـن هذا سهلا بالطبع، فهناك أحزاب ومؤسسـات وقوى علمانية قويـة داخـل تركيـا ، وهناك أوروبا الساهرة الخائفة من نهضة إسلامية في تركيا والمستعدة لضرب هذه النهضة بأي ثمن، وهناك حلف الأطلنطي وأمريكا التي ترى أن تركيا مـن أهـم المناطق الاستراتيجية في العالم ولن تفـرط فيهـا بسـهولة، وهنـاك مشـاكل تركيـا الاقتصادية والاجتماعية خاصة مشكلة الأكراد التي باتت تهـدد الكيـان التركـي بأسره، وهناك قبل هذا وبعده أننـا كأمـة إسـلامية ومنهـا تركيـا في حالـة هزيمـة حضـارية أمـام الغـرب المتفـوق علينـا عسـكريًا واقتصـاديًا وعلميًـا وإعلاميًـا، والعلاقات معه معقدة وقـد نجـح في اخـتراق مؤسسـات وقـوى وهـو مسـتعد لتحريكها عندما يلزم الأمـر.

كان أربكان يدرك هذا كله، كان يدرك أن خطوات غير محسوبة قد تؤدي إلى تمزيق تركيا، ولذا رفض طريق العنـف والانقلابـات العسـكرية واختـار طريـق

النضال السياسي رغم مصاعبه العديدة، ورغم أن هذا الطريق يحتاج إلى كوادر قادرة وذكية ومرنة ومعاصرة، و على حين فشلت العديد من حركات الإصلاح الإسلامية في تبني هذا الطريق نظرًا لرؤيتها الضيقة وعدم اتخاذها القرار المناسب في الوقت المناسب، فإن أربكان استطاع بوعيه السياسي وذكائه المنقطع النظير أن يفز كل مرة في اللحظة المناسبة التي تكون فيها الظروف لا تسمح بمنعه أو ضربه، ينظم حزبًا سياسيًا ويدخل الانتخابات ويحصل على النجاحات التكتيكية المتواصلة، رغم أن هذا لن يحقق بالطبع مشروعه الحضاري الكامل.ولكنه خطوة على الطريق وزرع لجيل آت كما يقول هو، ورغم ما قد يبدو من تنازلات عن برنامجه، إلا أن إدراك أربكان للظروف الموضوعية لتركيا وإقليميا ودوليًا جعله يحقق أقصي استفادة ممكنة لمشروعه في ظل تلك الظروف.

اجتهد أربكان – سواء نجح أو فشل – وقدم تجربة مشاركة الإسلاميين في الحياة السياسية واختيار صندوق الانتخابات كطريق للسلطة أو بعضها، واستطاع أن يعبر العديد من الحواجز الخطيرة، وأن يختار في كل مرة اللحظة المناسب التي تكون فيها القوى الأخرى كالجيش أو القوى الخارجية أو الأحزاب والمؤسسات العلمانية غير قادرة على منعه بحكم ظروف معقدة داخلية وخارجية، ولا شك أن هذه التجربة ككل تجربة لها سلبياتها وإيجابياتها والأمر متوقف بالطبع على الأداء السياسي والمرونة والذكاء التي تدير بها الحركة الإسلامية معاركها وتحالفاتها ، ولكن من المؤكد أنه في ظل الدعاية والإعلام العالمي المعادي للمسلمين، وفي ظل الهزيمة الحضارية لأمتنا حاليًا، وتفوق الغرب وتدخله في شئوننا في كل مجال، فإن أربكان أستاذ الهندسة، الأنيق في ملبسه نجح في تغيير الصورة الإعلامية النمطية عن المسلم الإرهابي الذي يرفض الانتخابات ولا يحمل إلا قنبلة، ونجح في أن يثبت بالدليل العمل أن الإسلاميين يحترمون إرادة الناخبين، وأنهم يحترمون التعددية الفكرية والسياسية وأنهم قادرون على التفاهم مع الآخرين المخالفين لهم في الرأي أو الفكر أو العقيدة، بل يشتركون في ائتلاف حكومي مع حزب علمانى، وأن احترام الآخر الفكري والسياسي العقائدي، وهو أحد سمات الحضارة الإسلامية إبان

ازدهارها هو أيضًا أسلوب الأحزاب والقوى والحركات الإسلامية المعاصرة وليس العكس كما يروج البعض.

اختر أربكان منذ البداية أسلوب العمل السياسي العلني والقانوني ولم يتورط يومًا في العنف، اختار أن يؤسس حزبًا تلو الحزب وأن يخوض انتخابات بعد انتخابات، وصبر على الطريق الصعب برغم كل الظروف والملابسات والضغوط والاضطهاد التي تعرض لها هو وحزبه، ولا شك أن هذا الأسلوب ملائم لتركيا لظروفها وتركيبتها المعقدة داخليًا وخارجيًا، ولا شك أيضًا أن النضال السياسي هو لوسط الجدلي بين أسلوبين، أسلوب العنف وأسلوب التربية، وقد أثبت هذا الوسط صحته في حين فشلت الأطروحتان الأخريان (العنف ـ أو التربية) على الأقل حتى الآن.

الشيخ محمد الغزالي

(١٩١٧-١٩٩٦)

شغل الشيخ محمد الغزالي حيزًا كبيرًا من الفعل على مستوى الحركة الإسلامية ، من حيث معاركها الفكرية والسياسية، بل وخلافاتها الداخلية أيضًا، و على مستوي أطروحاته المتميزة والتي تعكس روح البرنامج السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحركة الإسلامية المعاصرة .

ولد الشيخ محمد الغزالي في قرية (نكلا العنب) بمحافظة البحيرة في ٢٢ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٧، حيث حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية وأكمل حفظه ولم يتم عشر سنوات من عمره، ثم تلقى تعليمه الإبتدائي والثانوية في معهد الإسكندرية الدينى، ثم التحق بكلية أصول الدين عام ١٩٣٧ وحصل منها على درجة العالمية سنة ١٩٤١، ثم حصل على إجازة الدعوة والإرشاد من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٣، وعمل واعظًا بالأزهر الشريف إلى أن أصبح مديرًا للدعوة والإرشاد سنة ١٩٧١ م.

اعتقل الشيخ محمد الغزالي مرتين : مرة في ١٩٤٩ م ثم مرة أخرى سنة ١٩٦٥ بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.

عمل الشيخ محمد الغزالي محاضرًا في عدد من الجامعات الإسلامية مثل الأزهر ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم رئيسًا للمجمع العلمي لجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية في الجزائر.

ارتبط الشيخ محمد الغزالي منذ شبابه المبكر بجماعة الإخوان المسلمين حيث عاصر هذه الحركة منذ بداياتها الأولى ومارس النضال السياسي والفكري في عهد الملكية ثم عهد الجمهورية (عبد الناصر ـ السادات ـ حسني مبارك)

وبقدر ما أثار الشيخ محمد الغزالي من قضايا حيوية أو من خلال مقالاته الكثيرة في الدوريات المختلفة أو من خلال محاضراته الهامة بقدر ما أثار من خلافات معه أو حوله أو ردود فعل مؤيدة أو معارضة، وهذا شأن أي مفكر يقرر أن يناقش القضايا الحية المطروحة على الساحة والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية ولا يلوذ بالقضايا الميتة أو التي لا رصيد لها في الواقع وهكذا فإن دراسة حياة الشيخ محمد الغزالي هي دراسة في الوقت نفسه لجزء هام من تاريخ الحركة الإسلامية في مصر وحركة الإخوان المسلمين خصوصًا بدءًا من الإمام الشهيد حسن البنا حتى الآن.

كانت أفكار الشيخ الغزالي وكانت اجتهاداته الفقهية مرتبطة دائمًا بأحوال المسلمين في وقتها، سواء أصاب أم أخطأ فإنه اختار الطريق الصعب، ولم يتدثر بعباءة السكون والاكتفاء بطرح القضايا الكلية دون الخوض في الواقع الذي تعيشه الحركة الإسلامية أو الذي يعيشه جماهير المسلمين.

ففي مواجهة الأوضاع الاقتصادية المتردية والاجتماعية الظالمة التي كانت تعيشها مصر قبل ١٩٥٢ من رأسمالية زراعية بشعة وظلم مستمر للفلاحين والعمال وتفاوت طبقي رهيب كانت كلمات ومقالات ودراسات الشيخ محمد الغزالي التي تدافع عن حقوق الفلاحين الفقراء والعمال المطحونين في مواجهة الرأسمالية والملكية وهكذا جاءت دراساته الهامة مثل (الإسلام والأوضاع الاقتصادية ـ الإسلام المفترى عليه بين الرأسمالية والشيوعية).

وفي مواجهة الاستعمار الإنجليزي الجاثم على صدر مصر في ذلك الوقت والاستعمار عمومًا الجاثم على صدور جماهير الشعوب المستضعفة في العالم الثالث كان كتابه (الاستعمار أحقاد وأطماع).

وفي مرحلة الستينات – حيث تزايد المد الاشتراكي في العالم الإسلامي – مع ما ارتبط به من قمع هائل للحركة الإسلامية جاءت دراسات الشيخ محمد

الغزالي لتؤكد هوية الأمة، وأن خلاصها ليس إلا في الإسلام مثل كتابه: (الإسلام والمناهج الاشتراكية) وكذلك مجموعة دراساته عن سيرة الرسول ﷺ أو دراساته التي تدعو إلى الصبر والصمود في مواجهة المحنة وتحدد أبعادها مثل (كيف نفهم الإسلام)، (من معالم الحق).

وفي المرحلة التالية حيث انتشرت مفاهيم القشرية والجمود والاهتمام بالقضايا الجانبية جاء كتابه الهام (السنة النبوية) الذي وصفه البعض بأنه بيروسترويكا إسلامية، وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل حادة ومنتقدة لدى بعض قطاعات الحركة الإسلامية التي تميل إلى الأخذ بالأصعب والأشد في أمور الإسلام إلا أن ذلك لم يفت في عضد الشيخ بل زاده تصميمًا على خوض المعركة ضد الجمود والشكلية والاهتمام بالقضايا الجانبية على حساب القضايا الجوهرية للأمة.

وقد كان الشيخ محمد الغزالي دائمًا كمفكر يبادر إلى الرد على كل هؤلاء الذين يحاولون النيل من الإسلام كدين شامل أو يروجون للمذاهب المادية مثل الشيوعية وغيرها، فقد أصدر كتابه (من هنا نعلم) ردًا على الأستاذ خالد محمد خالد الذي حاول أن يدعي أنه لا سياسة في الدين ولا دولة في الإسلام في كتابه (من هنا نبدأ) وقد تراجع الأستاذ خالد محمد خالد عن هذه الأقوال فيما بعد، كما أصدر الشيخ محمد الغزالي كتابه (الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر) كرد على الترويج للشيوعية في مصر والعالم الإسلامي.

وإذا حاولنا أن نكون رؤية في فكر الشيخ محمد الغزالي من خلال كتبه ودراساته المنشورة نجد أنه يميل دائمًا إلى فتح باب الاجتهاد والاهتمام بالقضايا الحيوية المطروحة، وينحاز صراحة إلى مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي على اعتبار أن الفقه الإسلامي قدانقسم منذ البداية إلى مدرستين هما مدرسة الحديث ـ ومدرسة الرأي،وكان الغزالي يرى ضرورة التقريب بين المذاهب المختلفة ويرى أن التعصب هو نقيض التدين وأنه لم يكن من أخلاق مؤسسي المذاهب ذاتهم.

والشيخ الغزالي يربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسي عمومًا وهو يرى أن الحرية هي أهم مبادئ الإسلام، ومن هنا فإنه دائمًا يدافع عن الحريات

باعتبار أن ذلك فريضة إسلامية وينعي على الاستبداد والمستبدين، ويرى أنهم أشد فتكًا وخطرًا على الإسلام من الكفار، ومن النادر أن نجد مقالاً أو كتابًا يخلو من الهجوم على الاستبداد والمستبدين، وقد أفرد لهذا الموضوع دراسة خاصة هي:(الإسلام والاستبداد السياسي).

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن العدل مع الكفر أدوم وأبقى من الإسلام مع الظلم وبداهة فإنه لا يتفق الإسلام مع الظلم، كما أن العدل لا ينبع إلا من الإسلام لأنه منهج الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ولكن الشيخ محمد الغزالي يقصد أنه يرفض الاستبداد والظلم ولو كانت اللافتة المرفوعة هي لافتة الإسلام لأن الأمر هنا يكون كذبًا وادعاءً.

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن على المسلم أن يناضل من أجل الحرية بأوسع مدلولاتها وأنه مع التعددية السياسية سواء في إطار الإسلام أو حتى في خارج الإطار،لأن الجماهير قادرة على لفظ كل ما هو غير إسلامي في حالة سيادة الحريات وفي جو الانفتاح الفكرى، وفي هذا الصدد يحرص الشيخ محمد الغزالي على التأكيد على حق تشكيل الأحزاب وغيرها من الحريات.

ولم تقتصر رؤية الشيخ محمد الغزالي على الحريات السياسية، بل دعا صراحة إلى ضرورة النضال من أجل الفقراء وضد كل ظلم اجتماعي أو اقتصادى، ويرى الشيخ محمد الغزالي أن المنهج الإسلامي هو منهج المستضعفين في مواجهة المستكبرين، وأن الإسلام يوفر حق الحياة الكريمة لكل إنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه وأن على المسلم أن يعمل من أجل تعديل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لصالح الفقراء والمستضعفين.

وينعي الشيخ محمد الغزالي دائمًا على القومية عمومًا والقومية العربية خصوصًا لأنها دعوة جاهلية من ناحية، ولأنها استثبات استعماري من ناحية ثانية، ولأنها تفرق المسلمين من ناحية ثالثة، وخاصة هؤلاء الذين يعيشون في البلاد العربية مثل البربر في المغرب العربي والزنوج في السودان والأكراد في العراق والنوبيين في مصر وغيرهم الذين لا يجمعهم إلا الإسلام وحده.

ولا يفتأ الغزالي في صراحة وشجاعة يقول أن المسلمين حاليًا متخلفون،أن هذا

يسيء إلى الإسلام ويسيء إلى المسلمين أنفسهم، وأنه يجب على كل مسلم أن يعمل بكد ودأب لتحصيل العلم والمعرفة والتفاني في عمله حتى لا نصاب بالمزيد من التخلف على اعتبار أن التقدم العلمي والصناعي هو تراث إنساني وأن علينا أن نحوز فيه السبق لا أن نكتفي باستهلاك منتجات غيرنا أو فتات موائدهم العلمية والصناعية، وفي الوقت نفسه علينا أن ندرك أننا أمة صاحبة حضارة متميزة ومتفوقة وأخص ما ندعو إليه هو العلم والتعلم والإيجابية في الحياة الدنيا وتعميرها.

إذن فالشيخ محمد الغزالي يمثل مشروعًا فكريًا متكاملاً مستمدًا من الإسلام بصورة أصيلة وواعية ومجتهدة في نفس الوقت فهو يؤكد على تميزنا الحضاري ويتصدى لمحاولات التغريب والتذويب الحضاري الذي نتعرض له، وهو أيضًا يقدم برنامجًا اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا مستمدًا من الإسلام ومراعيًا ظروف الواقع الذي نعيشه في نفس الوقت.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن أكثر التهم والانتقادات التي وجهت ومازالت توجه إلى الحركة الإسلامية هو غياب برنامج تفصيلي لتلك الحركة وبالطبع فإن هذه التهمة باطلة من أساسها لأسباب كثيرة ليس هنا مجال مناقشتها وهي تهمة تستخدمها العلمانية لمجرد ذر الرماد في العيون، إلا أنه على كل حال فإن مواقف وكتابات الغزالي تشكل برنامجًا سياسيًا متكاملاً فهو قدم أطروحة حضارية ناقشت طبيعة مجتمعاتنا وطبيعة تركيبتها الحضارية والإنسانية، كما قدم أطروحة في الانتماء رافضا الانتماء القومي الضيق ومنحازًا إلى الانتماء العالمي كمسلمين وكأمة إسلامية تستوعب في داخلها بدون قهر أو تعصب وبمنتهى الاحترام وتأكيدًا لذاتية كل المذاهب والأديان والآراء الأخرى وعلى المستوي الاقتصادي قدم أطروحاته الاقتصادية التي ناقشت أوضاع المسلمين، وحددت طرق علاجها، بل وطرق التصدي للظلم الاقتصادي والتفاوت الطبقى، و على المستوى ذاته جاءت أطروحاته السياسية والاجتماعية والتربوية وإن مجرد قراءة في عناوين كتبه وأبحاثه ومقالاته تعطيك برنامجًا متكاملاً، برنامجًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ومن خلال مواقفه العلمية نجد أنه مارس النضال

السياسي، دائمًا ضد الاستبداد، وضد الظلم الاقتصادي، وضد هؤلاء الذين حاولوا الإساءة إلى الإسلام أو رسول الإسلام محمد ﷺ، ودفع الغزالي الثمن من حريته مرتين : مرة سنة ١٩٤٩ وأخرى سنة ١٩٦٥، ثم ثالثة حيث أجبر على الهجرة عدم ١٩١٣ بعد أحداث الكلية الفنية العسكرية (١٩٧٣).

كان الشيخ محمد الغزالي من أكثر الذين حرضوا الفلاحين للثورة ضد ظلم كبار ملاك الأراضي ودافع بعلمه ونفسه عن هؤلاء الفلاحين الذين انتفضوا ضد كبار ملاك الأراضي في كفور نجم وبهوت وميت فضالة وغيرها من قرى الريف المصري سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ م.

وقاد الشيخ محمد الغزالي المظاهرات من الأزهر الشريف ضد تطاول رسام الكاريكاتير المعروف (صلاح جاهين) على الرسول الأعظم محمد ﷺ وفضل الهجرة إلى خارج مصر، وبعد عودة الشيخ محمد الغزالي قاد الرجل بنفسه المظاهرات الأسبوعية التي كانت تخرج من مسجد الفسطاط بضاحية مصر القديمة حيث كان الشيخ الغزالي يخطب ضد كامب ديفيد أو المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية أو التصدي لتغيير قانون الأحوال الشخصية بما يلائم هوى السيدة جيهان السادات حرم الرئيس المصري الراحل أنو السادات، ولم ينقطع الشيخ الغزالي عن حركته النضالية حتى بعد أن تم إبعاده قسرًا عن منبر مسجد الفسطاط في الثمانينات ومازال ينتهز الفرصة للخطابة من خلال (صلاة العيد) في الخلاء أو خلال الدعوات التي تاتيه من طلاب الجامعات أو التجمعات الحزبية والسياسية المختلفة وفي كل مرة يناقش الشيخ محمد الغزالي أوضاع الشعب المصري وكل الشعوب العربية والإسلامية ولا يترك فرصة إلا واستغلها للتنديد بالاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وحتى ممارسة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، وظل الرجل مدافعًا حتى آخر يوم في حياته، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة، وفي أوائل مارس ١٩٩٦، رحم الله الرجل وجزاه عن أمته خيرًا.

محمود نافع
مدرسة في العمل السياسي والنقابي والبرلماني

شكل المرحوم محمود نافع سبيكة فذة، قل أن تتكرر من العمل السياسي والنقابي والبرلماني والالتحام بالجماهير، وفي نفس الوقت امتلاك التواضع والزهد وحب الناس بلا حدود، بحيث أصبحت شخصية محمود نافع مدرسة كاملة في النضال السياسي وفي العمل في كل الظروف وفي القدرة على الاستمرار بلا كلل ولا ملل.

كيف استطاع هذا الإنسان البسيط الشديد البساطة، المتواضع بلا حدود أن يجمع حب الوالدين، وحب الأقارب، وحب زملاء المهنة، وحب أهل بلده، وحب أهل مركزه وأهل محافظته، حب الناس في كل مكان يذهب إليه .. الغني والفقير .. القوى والضعيف .. ومع ذلك وفوق كل ذلك قدرة هائلة على العمل السياسي والبرلماني والنقابي فكان النقابي الفذ والبرلماني البارز والسياسي القدير ولأن المعاني المتمثلة في شخصية هذا الرجل، أكثر من أن يحاط بها، ولأن عاطفة من الحب تربطني به فوق وقبل عاطفة القرابة فإن من الصعب الكتابة عن هذا الرجل وإعطائه حقه، وتجسيد أعماله وسلوكه وحياته كنموذج يقتدي.

عرفته عن قرب، وكيف كان يسأل عن الصغير والكبير، كيف كان يرعى الأيتام، كيف كان يواسي الناس في مصائبهم ويستطيع بكلمات قليلة أن ينتزع منهم الابتسامة رغم المأساة، ولعلها قدرة هائلة تلك التي امتلكها في هذا الصدد، ولعل الحديث إذا خرج من القلب يدخل إلى

القلب، كيف كان باراً بوالديه وبرغم كل مشاغله السياسية والبرلمانية والنقابية لابد أن يذهب يومياً إلى والديه ويسأل ماذا أكلا وماذا شربا، ليس والداه فقط بل أخاه وأخته وأبناء الأخ والأخت والأقارب من جميع الدرجات، بل وأهل بلده ومحيطه ومحافظته، وكنا نتعجب من هذا الرجل ومن أين يأتي بكل هذا الوقت وكأنه ألف إنسان في جسد واحد.

تراه في الصباح مستيقظاً قبل الفجر، يقوم الليل، ثم ينزل إلى الصلاة في المسجد، ثم يبدأ في استقبال الناس ذوي الحاجات فيحملها عنهم ويذهب إلى المصالح الحكومية لقضائها، وفي اليوم الواحد يمكن أن يمر على المصالح لقضاء حاجات الناس في ميت غمر والمنصورة والقاهرة بلا كلل ولا ملل . بحيث يستطيع في اليوم الواحد إنجاز عشرات المصالح، ثم تراه يعود ليذهب إلى والديه ثم أخوته، ثم يعود المرضى، أو يهنئ ويبارك في فرح أو يواسي في مأتم .. وبين كل هذا تراه ينجز أعماله النقابية كنقيب للمعلمين في محافظة الدقهلية، أو ينجز أعماله البرلمانية، وبالإضافة إلى كل هذا تراه يلقي الدروس الدينية ويخطب في الناس حيث امتلك ناصية الخطابة بصورة مذهلة فقد كانت نبرات صوته ومعاني كلماته من نوع نادر يعطي للأشياء شحنة من الصدق تصل إلى القلوب بلا عناء .

أذكر انه في إحدى الجولات الانتخابية، قام أحد الوجهاء بقرية كفر الشيخ هلال مركز ميت غمر، بإقامة وليمة تكريماً له. وكان ذلك في شهر رمضان المبارك فإذا به ومع أذان المغرب يصلي بالناس في المسجد، ثم يذهب إلى تلك الوليمة فيأكل منها لقمة واحدة، ثم يصطحبني مستأذناً من صاحب الوليمة ويذهب إلى أحد البيوت في تلك القرية، وهو بيت رجل فقير شديد الفقر، فيطرق الباب ويستأذن ويقول للرجل جئنا لنفطر معك .. ويتناول طعام الإفطار في منزل هذا الرجل .. ويقول لي هذا الرجل : إن النائب محمود نافع يعتبرني أهم أصدقائه في تلك القرية.

ولم يكن هذا الرجل وحده، بل كل إنسان تصادفه وتأتي معه على سيرة محمود نافع تفاجأ به يقول لك، إنه أهم أصدقاء محمود نافع، فكيف استطاع هذا

الرجل أن يجعل من كل إنسان الصديق الأول له ؟ .

هذا الرجل الذي رفض إغراء المال والجاه، وظل لا يمتلك سيارة ولم يغير شقته المتواضعة رغم كل المناصب التي حصل عليها من خلال ثقة الجماهير، كيف استطاع أن يصمد أمام إغراء المال وهو الذي كان يستطيع أن يغرف منه بلا حدود كعادة الوجهاء وأصحاب المناصب أذكر أنه في عام ١٩٧٥ مـ، تقدم الحاج محمود نافع بمشروع قانون تحريم إنتاج الخمر وتحريم بيعه وتداوله وشربه وفقاً للشريعة الإسلامية الغراء، وبالطبع فإن مثل هذا القرار يضر بمصالح مصانع الخمور وتجارها أيما ضرر، وأرسلوا إليه أحدهم يقول له إن منتجي الخمور وتجاره يعرضون عليه مبلغ ١,٥ مليون جنيه إذا ما تخلي عن هذا المشروع، ويقول الرجل بتواضع وهدوء : إن الكفن بلا جيوب، فيقول التاجر هذا ما توقعته ولكنني أقوم بمهمة كلفني البعض بها، رغم أنني قلت لهم إن هذا الرجل من طراز لا ينفع معه هذا الإغراء، فقالوا لي – لو لم يقبل سنتصرف ونجهض الموضوع بطريقتنا ولن نعدم وسيلة .

ومع حرب طاحنة داخل مجلس الشعب، في لجنته التشريعية وفي المجلس ذاته تقوم القوى المعروفة بمحاولة عرقلة المشروع دون جدوي لأن الرجل أصر على موقفه، ويصلون في النهاية إلى تحريم الخمر وقصره على الأماكن السياحية،ويقول الرجل إن شاء الله، سوف أستمر ثم يذهب إلى بعض المحافظين في محافظتهم والذين توسم فيهم الخير ليقنعهم بتحريم الخمر داخل محافظتهم وينجح في ذلك في بعض المحافظات مثل بني سويف والفيوم والدقهلية وغيرها .

بدأ محمود نافع، وهو خريج كلية التجارة جامعة القاهرة .. سنة ١٩٥١ م .. عمله كمدرسًا للمحاسبة في المدارس التجارية .. وقد اختار العمل بالتدريس لأنه مهنة الأنبياء كما كان يقول، وفي عام ١٩٥٧م بدأ العمل النقابى، كان منذ أن تم تعيينه مدرسًا قد فرض شخصيته النقابية من خلال مواقفه المتميزة بالرجولة، ومن خلال خطبه البليغة ودروسه الدينية التي كان يلقيها في المساجد، ودخل عضوية نقابة المعلمين في عام ١٩٥٧ م ثم أخذ يسلك طريق العمل

النقابي حتى أصبح نقيباً للمعلمين منذ عام ١٩٦٩ م وحتى مماته ١٩٩٢ م حيث مات وهو مازال نقيبًا للمعلمين بالدقهلية برغم خروجه على المعاش، ولعل هذا في حد ذاته دليل على الثقة التي نالها من المعلمين بلا منازع حيث انتخب وهو على المعاش كنقيب للمعلمين وهذا معناه أن أحدًا لم يجامله بسبب وظيفته بل لمجرد شخصه حيث كان بالمعاش، ولعلك تجد أن المعارك الانتخابية كنقابة معلمين الدقهلية، كانت تدور دائمًا مع التسليم من الجميع بأن محمود نافع هو النقيب، يتفق على هذا الجميع بكل طوائفهم ومصالحهم واختلافاتهم، وكان الجميع يزعم أنه في قائمة محمود نافع حتى يفوز برضا المعلمين .

أذكر أن كثيرا من المعلمين كان يظنه مدرسًا للغة العربية ، أو خريجًا من الأزهر، وذلك لأنه كان يحفظ القرآن الكريم، ويلقي الدروس العلمية والفقهية في المساجد ويستشهد دائمًا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أحاديثه، وكنت أؤكد لهؤلاء أنه لم يكن خريجًا من الأزهر، بل كان خريجًا من كلية التجارة جامعة القاهرة .. وأنه حفظ القرآن الكريم وتفقه في علوم الشرع بمبادرة شخصية من نفسه، وكان هذا يثير عجب هؤلاء .

وقد ختم محمود نافع حياته كقائدًا للمعلمين على مستوي الجمهورية حيث شارك في الدعوة والإعداد لانتفاضة المعلمين من أجل مطالبهم المشروعة في تحسين ظروفهم الوظيفية والمعيشية ومع صبره ودأبه وحركته التي لا تهدأ وسفره في الدعوة إلى هذه المطالب في الفيوم والإسكندرية والشرقية وغيرها، ولأنه كان خير من صاغ مطالب المعلمين في خطبه وأحاديثه، اعتبرته هذه الانتفاضة القائد الفعلي لها .. لأن النقيب على مستوي الجمهورية وهو الدكتور مصطفى كمال حلمي رئيس مجلس الشوري وبحكم موقعه السياسي لم يكن متجاوبًا مع تلك الانتفاضة، ومع صعود محمود نافع كزعيم لتلك الانتفاضة شعرت الحكومة بأشد الحرج، لأنها تعرف أنه شخصية قادرة على الحشد والتعبئة وأنه طاقة هائلة وأنه شخص يمكن أن ينال ثقة المعلمين بلا استثناء، وأن أحدا لن يجد طريقًا إلى تشويهه أو الإساءة إليه فضلاً عن إغرائه أو تخويفه، وأنه كذلك يحظى باحترام النقيب مصطفى كمال حلمي الذي كان يذكر محمود نافع بكل خير

دائمًا، ويذكر الأستاذ صلاح شلبي نقيب المعلمين بالشرقية، أن موت محمود نافع المفاجئ كان خسارة كبيرة للانتفاضة لدرجة أن مدير المباحث بالشرقية هو الذي أخبر الأستاذ صلاح شلبي بموت محمود نافع قائلاً له : الآن فقدتم زعيمكم !

مدرسة في العمل البرلماني :

دخل محمود نافع مجلس الشعب المصري عام ١٩٧١ م، من خلال برنامج انتخابي ينص على المطالبة بالشريعة الإسلامية وكان صادقًا وقادرًا في نفس الوقت على شرح برنامجه الانتخابى، وقد استطاع أن يتحرك في دائرة ميت غمر من خلال الخطب في المساجد وحظي على ثقة الناخبين ودخل إلى البرلمان المصري وبدأ نضاله البرلماني المتميز، فقدم مئات- وليست هذه مبالغة -.. من المشروعات لقوانين تتصل بتطبيق الشريعة الإسلامية،أو بالإصلاح الوظيفي واستطاع أن يحصل على موافقة المجلس على العديد من تلك المشروعات منها على سبيل المثال لا الحصر القانون ٨٣ الخاص بالإصلاح الوظيفى، ومنها تخصيص نسبة من العمل للمعوقين، ومنها إنشاء قناة تليفزيونية للقرآن الكريم، ومنها جعل نسبة ١٠٪ لطلاب الإعدادية الحافظين للقرآن الكريم، و٥٪ لطلاب الثانوية العامة، ومنها قانون حظر الخمور وقصره على الأماكن السياحية، ولكن أهمها كان تعديل المادة الثانية من الدستور المسماة بحرب الألف واللام .

حرب الألف واللام

كان الدستور المصري ينص على أن تكون الشريعة الإسلامية مصدرًا رئيسيًا للتشريع، وتقدم محمود نافع بتعديل للدستور يجعلها المصدر الرئيسي للتشريع، وكان يحتاج لمجرد مناقشة الاقتراح إلى إمضاء ثلث أعضاء المجلس « ١٢٠ عضوًا » واستطاع بعلاقاته الشخصية وصبره أن يحصل على توقيع ١٤٠ عضوًا من المجلس، ثم طرح الموضوع للمناقشة داخل المجلس ووقف محمود نافع مهددًا الأعضاء الذين يرفضون المشروع بأنه سيذهب إلى دوائرهم الانتخابية ويفضحهم فيها، وكان لهذا التهديد أثره في قبول المشروع بأغلبية الثلثين اللازمة، ثم طرح المشروع للاستفتاء الشعبي وتم إقراره ونجحت حملة الرجل في تغيير الدستور ولعله

أول وآخر من غيَر الدستور من غير رؤساء الجمهوريات في مصر .

منظمة سيناء الفدائية :

وقف محمود نافع عام ١٩٧١ م في مجلس الشعب المصري، مطالبًا بإطلاق العمليات الفدائية في سيناء، وعدم تجميد الجهاد الشعبي انتظارًا لمعركة المصير و على أثر ذلك تكونت منظمة سيناء العربية الفدائية التي قامت بالعديد من العمليات خلف خطوط العدو .

أول من قام بإنشاء حزب إسلامي في مصر :

في عام ١٩٧٤ م ظهرت فكرة المنابر في مصر، وكان محمود نافع أول من أقام المنبر الإسلامي وقدم برنامجًا تفصيليًا لهذا المنبر، ثم مع تحويل المنابر إلى أحزاب قام بإنشاء الحزب الإسلامى، وأرفق بطلب إقامته البرنامج السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحزب سنة ١٩٧٥ م وكان بذلك أول من قام بإنشاء حزب إسلامي في مصر، ولكن هذا الحزب لم ير النور لأسباب كثيرة ليس هنا مجال ذكرها، ومع دخول الإخوان المسلمين لانتخابات مجلس الشعب دخل المرحوم محمود نافع على قوائم الإخوان ونجح في الانتخابات، وعندما قاطع الإخوان الانتخابات سنة ١٩٩٠ م التزم الرجل بقرار المقاطعة رغم قدرته التي لا شك فيها على النجاح على أية قائمة كانت، وكان هذا موقفًا عظيمًا من الرجل ختم به حياته ونال تقدير الجماهير والإخوان على حد سواء .

الشيخ عبد الحميد كشك

(١٩٣٣-١٩٩٦م)

الخطاب الجماهيري

لا شك أن الشيخ عبد الحميد كشك يمثل ظاهرة هامة على أكثر من مستوى، وهو نموذج فذ لعالم الدين المرتبط بقضايا أمته والقادر على التعاطي الواسع والمؤثر مع أوسع الجماهير، بل أبسطها أيضًا، فالشيخ عبد الحميد كشك استطاع أن يوصل صوته إلى الملايين وربما عشرات الملايين، وربما لم يتفوق عليه في هذا الصدد إلا الإمام الخوميني رحمه الله، وهو قادر على تحريك هذه الملايين وقادر على مخاطبتها بلغة سهلة وبسيطة ومفهومة ومؤثرة، وعاطفية وعقلية في نفس الوقت،إنه شيخ جماهيرى بكل معنى الكلمة، والأخطر في المسألة أن جماهيره كانت من الفلاحين الفقراء والعمال الكادحين، وأصحاب الحرف وفي نفس الوقت من الموظفين والمهنيين وسكان المدن، بل وكبار المثقفين أحيانًا.

وإلى جانب هذا فهو رجل دين لم يركع لحاكم قط، ولاراعي مصالحه الشخصية، ولا خاف يومًا في الله لومة لائم، وهو منذ بدء حياته وحتى مماته تعرض لمحطات كثيرة من الاضطهاد بدءًا من السجن مرتين وانتهاء بمنعه من الخطابة على منبره في مسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة حتى يوم موته!.

والطريف أيضًا أن الشيخ عبد الحميد كشك امتلك لغة ساخرة ومثيرة للابتسامة وفي نفس الوقت شديدة القسوة على ما يراه فسادًا أو استبداد.

ولا شك أن مدرسة الشيخ كشك في العمل الدعوى والجماهيرى تستحق الدراسة، باعتباره رمزًا كبيرا أولاً، وباعتبار قدرته الفذة على الوصول إلى أوسع الجماهير الشعبية مهما كانت درجة ثقافتها، بل وقدرته على إقناع وحشد الملايين وتعبئتهم من أجل قضايا الإسلام.

ولا شك أن الشيخ عبد الحميد كشك قد قدم للإسلام والمسلمين خدمات ضخمة من خلال خطبه وأحاديثه ودروسه وكتبه، ولا شك أنه تمتع بموهبة خطابية نادرة، وأنه كان شيخا مناضلا ومجاهدا وشريفا، وليس غريبًا أن تجد أشرطة الشيخ عبد الحميد كشك تذاع ليل نهار في حواري المدن والقري وفي الأزقة والنجوع، وفي المناطق الأرستقراطية على حد سواء، بل وأن تسمعه من ميكروفونات معلقة فوق المساجد، أو من محلات العصير أو الكباب، أو حتى من المسجلات على عربات الباعة الجائلين أو سيارات نقل الركاب، وأن تجده في كل مكان في مصر، وأيضًا يمكن أن تجده في أمريكا وأوروبا وآسيا، وأيضًا في المغرب والجزائر أو الأردن وسوريا والعراق أو داخل الأرض المحتلة وهكذا، حتى لقد أطلق عليه البعض ظاهرة « كشك فون »، ليس هذا فحسب، بل إن شخصا ما مصريًا أو عربيًا أو أجنبيًا لو جاء إلى مكان في القاهرة وسأل عن عنوان الشيخ عبد الحميد كشك لوجد على الفور من يعرف هذا العنوان، ويدله عليه، ولو أنك أرسلت خطابًا مثلاً على المظروف كلمات الشيخ عبد الحميد كشك ـ القاهرة، لوصل الخطاب إليه بلا أي معاناة، ولهذا الأمر دلالته على كل مستوى

ولد الشيخ عبد الحميد كشك عام ١٩٣٣ م في قرية شبراخيت بمحافظة البحيرة، في مصر، أصيب بالرمد الحبيبي في طفولته وفقد بصره تمامًا في سن الثانية عشرة، حفظ الشيخ عبد الحميد كشك القرآن الكريم مبكرًا، ثم التحق بالمعهد الابتدائي الأزهري بمدينة الإسكندرية، ثم التحق بالمدرسة الثانوية الأزهرية، ثم بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وحصل على الليسانس في أصول الدين وعين في وظيفة إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية، وأخذ يتنقل من مسجد إلى مسجد حتى استقر بمسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة

١٩٦٤م، واستطاع بفضل أسلوبه المتميز في الخطابة وبفضل شجاعته في نقد المسئولين والتصدي للفساد والاستبداد، أن يشكل المعارضة العلنية الوحيدة في مصر في تلك الفترة، مما جعل الجماهير تتوافد على مسجده بكثرة، وقد أزعج هذا السلطات المصرية وقتها فاعتقلته سنة ١٩٦٦ م بتهمة الإثارة ! وظل معتقلا حتى عام ١٩٦٨، ثم تم الإفراج عنه، إلا أنه لم يعد إلى منبره إلا في عام ١٩٧٢، وتصاعدت شهرة الشيخ عبد الحميد كشك بدءًا من هذا العام وطوال السبعينات، فتصدي للكثير من قضايا الفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي بأسلوب متميز ساخر وقوى، وكان يخطب الجمعة مركزا على القضايا العامة كما يقوم بإلقاء الدروس في مساء كل يوم تقريبًا في المسجد، وكانت مئات الألوف من البشر تتوافد على مسجده لسماعه، ورغم توسيع المسجد عدة مرات في السبعينات ليسع هذه الأعداد المتزايدة، إلا أنه لم يسعها بالطبع رغم التوسعات فكانت تلك المنطقة كلها تتحول إلى مسجد، مما يعطل حركة المواصلات تمامًا في كل يوم جمعة، ليس هذا فحسب، بل آلاف المسجلات كانت تلتقط خطبة الشيخ عبد الحميد كشك، لتعيد إذاعتها في كل مكان من العالم، وكان البريد يحمل الأشرطة إلى المصريين المغتربين، لأن تلك الأشرطة كانت طلبًا ثابتًا في خطاباتهم لذويهم، ليحملها المسافرون معهم إلى خارج مصر حتى أصبحت جزءًا تقليديًا في حقيبة كل مسافر.

وقد نجح الشيخ عبد الحميد كشك منذ عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٨١ في تحقق نوع منتشر وفعال من التثقيف الديني النضالي والانتقادي مما أسهم في زيادة رصيد الصحوة الإسلامية في ذلك الوقت وتوصيلها إلى أعمق الطبقات الشعبية وأوسعها، بل وأصبح هناك عدد كبير من الخطباء الذين ساروا على منهج الشيخ عبد الحميد كشك في الخطابة شكلاً وموضوعًا، فتصدى الكثيرون منهم لقضايا الفساد والاستبداد والاهتمام بقضايا العالم الإسلامي عمومًا مثل القضية الفلسطينية وغيرها، وقد نبع من هؤلاء الشيخ أحمد المحلاوي الذي شكل في مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية صورة أخرى من مسجد عين الحياة بالقاهرة، وفي عام ١٩٨١ م تم اعتقال الشيخ عبد الحميد كشك وعدد من

الخطباء الذين ساروا على منهجه في إطار اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١ التي قام بها الرئيس الراحل أنور السادات، وكانت تهمة الشيخ عبد الحميد كشك في ذلك الوقت وتهمة تلاميذه من الخطباء هي معارضة كامب ديفيد، والازدراء بدولة صديقة هي إسرائيل. ومن الملفت للنظر هنا، أن المظاهرات لم تخرج في ذلك الوقت احتجاجا على تلك الاعتقالات، إلا من ثلاثة مواقع فقط، وكلها للشيخ وتلاميذه في مسجد عين الحياة بالقاهرة (مسجد الشيخ عبد الحميد كشك) ومسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية (مسجد الشيخ أحمد المحلاوي) ومسجد النور بالعباسية بالقاهرة (مسجد حافظ سلامة)، في حين غابت المظاهرات والاحتجاجات تمامًا من مساجد الإخوان المسلمين مثلاً، وهذا يدل على العمق الجماهيرى لمدرسة الشيخ عبد الحميد كشك.

وبعد مصرع السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١، تم الإفراج عن الشيخ عبد الحميد كشك في يناير ١٩٨٢، إلا أنه كان قد صدر قرار بعدم رجوع الشيخ عبد الحميد كشك إلى مسجده ومنبره في مسجد عين الحياة بحدائق القبة، ورغم كل الضغوط الشعبية فإن هذا القرار ظل ساريا حتى وفاة الشيخ عبد الحميد كشك في ٦ سبتمبر سنة ١٩٩٦ م.

مالك بن نبي
نحات المفاهيم والأفكار

تستطيع أن تقرأ مالك بن نبي عدة مرات، وفي كل مرة تكتشف جديدًا، تستطيع أن تقرأ مالك بن نبي ثم تنسى كل ما قرأت، ومع ذلك تتأثر بالرجل وبأفكاره بشكل عميق، ذلك أنه لا يضيف إلى معارفك جديدًا متميزًا فقط، بل يحدث تغيرًا نوعيًا في ثقافتك وفي طريقة تفكيرك، وتكتشف دائمًا أنك متأثر بما طرحه الرجل دون أن تدرى، وربما ظننت أنك نفسك الذي وصلت إلى هذه المفاهيم الصحيحة، ثم تعرف أنها من تأثير مالك بن نبي غير المنظور عليك وعلى ثقافتك.

فكر مالك بن نبي متجدد دائمًا، ذلك أنه طرح أوجاع الأمة وأمراضها التي مازلنا نعاني منها، وضرب في جذور أسباب التخلف وطرح أسباب النهضة بشكل عميق متجدد.

ذلك هو مالك بن نبي الذي كان الأكثر تأثيرًا على الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، ولأنه كان من العمق والاتساع بمكان فإن أحدًا لا يستطيع أن يوفيه حقه أو يدرك ملامح هذا التأثير أو يحيط بها.

مالك بن نبي هو نحات في عالم الثقافة، ذلك أنه نجح في أن ينحت بصورة عبقرية مجموعة من المفاهيم والمصطلحت كانت كلها معالم في طريق الثقافة ومحطات في طريق البحث الثقافي العربي المعاصر.

مولده وحياته :

ولد مالك بن نبي سنة ١٩٠٥ في مدينة « تبسة » وهي

مدينة جزائرية صغيرة تابعة لولاية قسنطينة في الجزائر، حفظ مالك بن نبي أجزاء من القرآن الكريم في كتاب المدينة، ثم التحق بالمدارس الابتدائية، ثم الثانوية بالجزائر، ثم توجه إلى باريس فدرس الهندسة الكهربائية، حيث تخرج مهندسًا كهربائيًا سنة ١٩٣٥ م.

اختلط في باريس بالشباب العربي والإسلامي المغترب وعاش معهم نضالهم من أجل الاستقلال واهتم اهتمامًا خاصًا بحركة الاستقلال في المغرب العربي حتى اطلق عليه البعض زعيم الوحدة المغربية.

وانخرط مالك بن نبي في أتون الحركة الجزائرية من أجل الاستقلال من خلال عمله السياسي والنضالي كنائب لرئيس نادي الشبيبة الإسلامية في باريس والذي كان يرأسه المجاهد الجزائري الشيخ العربي التبسى، وكان مالك بن نبي ينوب عن الشيخ العربي التبسي في رئاسة النادي عند غيابه.

ثم انتخب مالك بن نبي مديرا لمركز المؤتمرات الجزائري الإسلامي للثقافة في فرنسا ومن خلال المركز قام بتثقيف العمال الجزائريين في فرنسا، كما انتخب ممثلاً للطلبة الجزائريين في جمعية الوحدة المغربية.

عاد مالك بن نبي إلى الجزائر بصورة نهائية واستقر بها عام ١٩٦٣، وتولى عددًا من المناصب مثل مستشار التعليم العالى، ومدير جامعة الجزائر، ومدير التعليم العالى، وفي هذه الفترة كان مالك بن نبي ينظم ندوة ثقافية دينية بالعاصمة الجزائرية وهي الندوة التي عرفت باسم « ملتقي الفكر الإسلامي » .

وفي عام ١٩٦٧ م استقال مالك بن نبي من جميع وظائفه وتفرغ للعمل الفكري وتنظيم الندوات الثقافية وإصدار الكتب، وتوفي مالك بن نبي في ٣١ / ١٠ / ١٩٧٣م .

وأهم كتب مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ـ بين الرشاد والتيه ـ تأملات ـ دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ـ شروط النهضة ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ فكرة الأفرو آسيوية في ضوء مؤتمر باندونج ـ في مهب المعركة ـ المسلم في عالم الاقتصاد ـ مشكلة الثقافة ـ ميلاد مجتمع ـ وجهة العالم الاسلامي .

المسألة الحضارية

اختار مالك بن نبي عنوانًا واحدًا لكل كتبه وإسهاماته الفكرية هو «مشكلات الحضارة» فوضع يده بذلك على جوهر المشكلة وهي أن المسألة حضارية وثقافية في المقام الأول وأن الاستعمار، والتخلف – النهضة وغيرها والتي شغلت العالم في ذلك الوقت ليست إلا مسألة حضارية في المقام الأول، حيث هناك محاولة لإخضاع العالم للقيم الحضارية الغربية، وأن الانعتاق من الاستعمار والتخلف مرتبط بالتأكيد على القيم الحضارية الإسلامية وفهم المسألة في إطار الصراع الحضارى، ولا شك أن هذا الوعي المبكر بالمسألة الحضارية والثقافية، وهو الأمر الذي أصبح فيما بعد محور العمل الفكري والسياسي للقوي السياسية والثقافية بل والعسكرية في العالم شمالاً وجنوبًا يدل على عبقرية الرجل، ولعل المثقفين الإسلاميين والوطنيين قد فهموا هذه المسألة فيما بعد فعملوا على إثرائها وقتلوها بحثًا ولكن كان هناك رائدًا هو مالك بن نبي الذي وضع يده على مفتاح المسألة منذ وقت مبكر.

أدرك مالك بن نبي أن التأكيد على الخصوصية الحضارية الإسلامية هو أول شروط التحرر وأول شروط النهضة، وأدرك أن القرآن الكريم هو بمثابة القلب في تلك المعركة فكان أول كتاب أصدره الرجل هو كتاب الظاهرة القرآنية كنوع من التحصين الفكري الذي يحول دون الخضوع أو الاندماج في حضارة الغرب وأكد مالك بن نبي دائمًا على أن الإسلام هو مفتاح التحرر والنهضة على المستوى السياسي والثقافي والاقتصادي وفي تحليله لعناصر النهضة لخصها الرجل في «الإنسان ـ التراث ـ الزمن» وهي عناصر موجودة في كل مجتمع ولكن الذي يخلق شرارة التفاعل بين هذه العناصر ويحولها إلى نهضة هو «الشرارة» وهو بالنسبة لأمة المسلمين «الإسلام» وبدون هذا الشرط فإن العناصر تظل خامدة بلا تفاعل، وأكد مالك بن نبي أن لكل مجتمع الشرارة الخاصة به، ولذلك فإن أندونسيا مثلاً التي تمتلك كل الثروات والأقاليم المناخية والمعادن والمزارع والإنسان لن تنهض بنفس الطريقة التي نهضت بها ألمانيا أو أمريكا ، رغم تفوق أندونسيا من حيث الثروات على ألمانيا وأمريكا،ولكن تنهض إذا وضعت « الإسلام » أي الشرارة في

معادلة النهضة وهذا يرجع بالطبع إلى أن العوامل المحركة للطاقة والحركة والإبداع ترتبط بالتكوين الثقافي والوجداني للإنسان، وفي حالة أندونسيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي فإن الإسلام هو ثقافة ووجدان الناس.

أدرك مالك بن نبي مبكرًا جدًا قبل سقوط الشيوعية بعشرات السنين، أن التقسيم العالمي الموجود وقتذاك بين كتلة غربية وكتلة اشتراكية لا يعبر عن الحقيقة، بل التقسيم الصحيح يكون من محورين هما « محور طنجة جاكرتا ـ ومحور واشنطن موسكو» وها نحن اليوم ندرك مدى صحة هذا التقسيم الذي يعبر عن توجهين حضاريين مختلفين، أي أن الحضارة – وليس الأيدلوجية السياسية – هي التي تتحكم في تقسيم العالم.

نحت مالك بن نبي الكثير من المفاهيم والمصطلحات الرائدة والتي أصبحت اليوم مدخلاً لكل العمل الفكري أو معظمه فهو الذي نحت مصطلح القابلية للاستعمار، والذي عبر به عن أن هناك حالة اجتماعية واقتصادية وثقافية سمحت للاستعمار باحتلال بلادنا، وأن التخلص من الاستعمار دون التخلص من هذه الحالة لن يجدي شيئًا، ولعل تجارب البلاد العربية والإسلامية بعد مرحلة الاستعمار المباشر قد أكدت هذا الأمر، فمع استمرار عوامل وأسباب القابلية للاستعمار فشلت مشاريع النهضة، بل وعاد الاستعمار بصورة أو بأخرى.

وهو الذي نحت مصطلح « مشكلات الحضارة » والذي أكد به أن المسألة في جوهرها مسألة حضارية.

وهو صاحب مفهوم « محور طنجة جاكرتا في مواجهة محور واشنطن موسكو» الذي أثبتت الأيام مدى صحته، وهو صاحب عبارة « الإقلاع الحضاري » وشروط هذا الإقلاع أي شروط النهضة والذي أكد به أن غياب الإسلام كشرط أساسي يعني الفشل الحتمي لأي مشروع للنهضة والتحرر.

مالك بن نبي ذلك المفكر الرائد، هو الذي فتح أعيننا جميعًا على المفاهيم الصحيحة، وهو الذي وضعنا جميعًا على الطريق الصحيح للثقافة والحضارة وبالتالي التحرر والنهضة .

روجيه جارودي
الفارس المبارز

لعلنا لا نبالغ حين نقرر أن روجيه جارودي كمفكر كصاحب موقف، ومناضل هو أحد أهم رجال القرن العشرين، وقد تمتع جارودي طيلة حياته الخصبة والممتدة بضمير نزيه وشجاعة فارس وإقدام مبارز وأخلاق قديس، ومن الطريف أن جارودي حين اختار رياضة يمارسها اختار رياضة الشيش « المبارزة بالسيف »، وقد تفوق فيها حتى أصبح بطل الجامعات الفرنسية في رياضة الشيش عام ١٩٣٢، وكان هذا نوعًا من الانطباق بين الفكرة والرياضة أو التعبير عن تكوينه النفسي المبارز بطبعه والمقتحم لحقول الألغام والمخاطر .

جارودي المولود في ١٧ يونيه سنة ١٩١٨ بمدينة مرسيليا والذي اعتنق المسيحية أولاً، ثم دخل الحركة الشيوعية الفرنسية دون أن يكون ملحدًا، ثم مارس الكثير من النقد على مفاهيم وسلوك الشيوعية في العالم، ثم اهتدي بالبحث والتفكير إلى الإسلام، ودخل الإسلام عام ١٩٨٦، وطوال حياته الفكرية والسياسية قبل دخول الإسلام وبعده كان جارودي مدافعًا دائمًا عن حقوق الإنسان، ومن المدهش حقًا أن الرجل الذي دخل الإسلام متأخرًا استطاع أن يصل إلى جوهر القيم الإسلامية وأن يقدمها بلغة عصرية ملائمة للثقافة الأوروبية، وهذه قيمته وأهميته، بل يكتشف عددًا من نقاط الضعف والخلل في الفكر الإسلامي المعاصر، وأن ينبه عليها، ويجب ألا تأخذنا العزة بالإثم تجاه هذه المنطقة، فليس عيبًا أن يهدي رجلاً اهتدي إلى الإسلام حديثًا عيوبنا

إلينا كمسلمين أو كمفكرين إسلاميين أو دعاة أو علماء، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، والحكمة جاءت هذه المرة من فم رجل يمتلك خبرة وعقلاً ثريين، وكذلك فإن المواقف والأفكار التي فجرها جارودي أفادت القضايا العربية والإسلامية أيما إفادة، وهو بمثابة رجل مثل أمة في هذا الصدد.

علاقة جارودي بالإسلام ليست حديثة، ولا تبدأ من يوم إعلانه دخول الاسلام فقط، بل تمتد في حياته مبكرًا لأنه رجل رفض التعصب والانغلاق دائمًا، وأطلق لعقله العنان ليفكر بدون مسلمات سابقة، وهكذا فإن الرجل اطلع على الإسلام، وكتب عن الإسلام وهو لا يزال شيوعيًا أو مسيحيًا.

ويحكي جارودي عن نفسه أن الإسلام أنقذ حياته، فأثناء إقامته بالجزائر وقع غزو في المعسكر الفرنسي الذي كان موجودًا به في ذلك الوقت، وأصدر قائد المعسكر أمر بإطلاق النار على جارودى، وكان المنوط بتنفيذ هذا الأمر سرية من الجنود المسلمين، فرفضوا تنفيذ هذا الأمر، وعندما سأل قائد السرية الجزائري المسلم عن سبب هذا التصرف، أجابه بأن الدين الإسلامي يمنع قتل الأسير الأعزل، وكان هذا بمثابة الشرارة التي فجرت التفكير في الإسلام في عقل جارودى.

واللقاء الثاني لروجيه جارودي بالإسلام كان بعد إطلاق سراحه من معتقلات النازى، وكان هذا اللقاء بالثقافة الإسلامية، فألقي روجيه جارودي محاضرة عن دور الثقافة الإسلامية في الثقافة العالمية، عام ١٩٤٦ في مدينة الجزائر، قرر بعدها الجنرال ماس طرده من الجزائر، وكان السبب أن جارودي استشهد في تلك المحاضرة بمقولة « أناتول فرانس » التي يقول فيها « أن أسود عام في التاريخ الأوروبي هو العام الذي حدثت فيه معركة بواتييه التي اندحرت فيها الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية ».

ثم قدم جارودي عددًا من الكتب عن الثقافة الإسلامية – قبل أن يكون مسلما منها « الإسلام يسكن مستقبلنا »، « وعود الإسلام ».

ويقرر جارودي أن لعلوم الحضارة الإسلامية فضل كبير على النهضة الأوروبية خاصة في الطب والرياضيات والفلك والبصريات.وأن الغزو العربي لم يكن غزوا عسكريًا وإنما فتح للحضارة والثقافة، أو بتعبير أدق « ثورة ثقافية »،

وينقل جارودي في هذا الصدد عن ملك أسبانيا « خوان كارلوس » قوله « إن فترة الخلافة الإسلامية في الأندلس هي فترة عظيمة في التاريخ الأسباني » ويعلق جارودي على ذلك بقوله « بل هي حقبة عظيمة في التاريخ الأوروبي كله ».

يقول جارودي « لقد تدرجت من الإعجاب بالثقافة الإسلامية إلى روحية الإسلام إلى أن أصبحت مسلمًا ».

ويرى جارودي المفكر المسلم أن الإسلام في خدمة الإنسان وليس لتدميره، وأن الثقافة والعلم في الإسلام لخدمة الإنسان بينما تستخدم الحضارة الغربية العلم والثقافة لتدمير الإنسان، ويقول جارودي أن من دواعي إعجابه بالإسلام أن النظام الاجتماعي في الإسلام ينحاز إلى الفقراء، وأن الإسلام أيضًا دين للحوار والحرية والاعتراف بالآخر . ويرى جارودي أنه رغم عظمة قيم الإسلام قد تراجع لأن المسلمين تركوا الفضائل التي جاء بها الإسلام وخلطوا بين القوانين المقدسة «الشريعة » وبين التطبيقات التاريخية.

ويلفت جارودي نظرنا إلى أن هناك حملة تشويه للإسلام وأن ذلك يأتي في إطار محاولة أمريكا والغرب استمرار سيطرتهم العالمية ودوران آلة الحرب والسيطرة .

يعد موقف جارودي ونضاله ضد الصهيونية أحد أهم معالم حياة الرجل، وقبل إسلام جارودى، كان الرجل أيضًا يناهض الصهيونية فألف كتاب «القضية الإسرائيلية »، ثم بعد اعتناق الإسلام ألف كتابين « فلسطين أرض الرسالات »، و«الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية »، ويرى جارودي أنه لا حق للهيود في فلسطين. وأن الصهيونية خروج عن الدين اليهودي ذاته، وأن إسرائيل ليست إلا ذراع لأمريكا تولت بدلاً منها إشعال خمسة حروب في الشرق الأوسط بغرض إدماج كل دول الشرق الأوسط في السياسة الأمريكية وأن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربى، فهذه دولة خلقت في هذه المنطقة من العالم لتكون قلعة وحصنًا متقدمًا للحضارة الغربية ضد البربرية على حد اعتراف هرتزل أبو الصهيونية العالمية الذي نشر كتابًا قدم فيه التبريرات لإقناع الغرب بإنشاء هذه الدولة اليهودية وأن كل الأساطير التي قدمتها إسرائيل لتبرير وجودها مثل أسطورة الأرض الموعودة،

وأسطورة الشعب المختار وأسطورة الأرض بلا شعب لشعب بلا أرض وغيرها من الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية ما هي إلا مغالطات وأكاذيب، وليس لها أساس ديني أو تاريخي أو سياسى.

وقد تعرض جارودي بسبب موقفه من الصهيونية للكثير من الاضطهاد، ففي عام ١٩٨٢ أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان والذي تسبب في قتل ٢٠ ألف لبناني، نشر جارودي في صحيفة لوموند الفرنسية بيانا وقعه مع كل من الأب ميشال لولونج والقس ماتيو أدانوا فيه السياسة الإسرائيلية فقامت الجمعيات الصهيونية في فرنسا برفع دعوى على الثلاثة إلا أن المحكمة برأتهم، وعندما ألف جارودي كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية » قامت الجمعيات اليهودية أيضًا برفع دعوى عليه أمام المحاكم الفرنسية مستندة على قانون جديد هو قانون فابيوس جيسو الذي صدر عام ١٩٩٠ م والذي جعل من محكمة نورمبرج المرجع النهائي للحقيقة التاريخية بخصوص مذابح هتلر لليهود في أفران الغاز، واعتبر هذا القانون أن أي تشكيك في رقم ٦ مليون يهودي الذين تزعم الدعاية الصهيونية مصرعهم في غرف الغاز النازية بمثابة جريمة تستحق المحاكمة.

كما تعرض جارودي لتهديدات بالقتل، وكذلك تعرض للحصار الإعلامي في فرنسا وأوروبا وأمريكا، ولم يسمح له بالدفاع عن نفسه في الصحف أو التليفزيون الفرنسي، كما تعرض ناشرو هذا الكتاب و أي ناشر آخر أو موزع يوزع كتب جارودي للحرب سواء بالاعتداء عليهم أو على مكتباتهم أو بإفلاسهم، والحقيقة أن محاكمة جارودى، وكذلك دفاعه، وفضحه لقانون جيسو قد كشف عددًا من الحقائق، ربما تزيد على أهمية فضحه لإسرائيل وأكاذيبها في كتابه، فقانون جسو الذي يجعل أي مؤرخ أو مفكر أو باحث أو حتى كاتب مقال يتعرض للمحاكمة إذا ما شكك في واقعة تاريخية معينة أو ما أحاط بها من شبهات أو حقيقة الأرقام والوقائع يؤكد على أن الديمقراطية الغربية المزعومة ما هي إلا أكذوبة كبرى، فيمكنك مثلاً أن تشكك في وجود الله في فرنسا ولا تشكك في رقم ال٦مليون ضحايا النازية من اليهود ! وقانون جيسو وكذا محاكمة جارودي أثبتت أن الحضارة الغربية برمتها مزدوجة المعايير، وتضطهد ا لعرب والمسلمين وكل ما هو غير أوروبي

وفي فرنسا بلد الثورة الفرنسية والحرية والثوار ! تتم محاكمة مفكر على كتاب يصدره، إن قانون جيسو أسس للتمييز العنصري لصالح ضحايا هتلر من اليهود فقط مستثنيًا ضحايا البربريات الأخرى الاستعمارية والاستعبادية والأنظمة الشمولية ضاربا عرض الحائط شرعية حقوق الإنسان، بل وبالدستور الفرنسي المزعوم.

وفي الواقع فإن محاكمة جارودي وكذا صدور قانون جيسو يؤكدان على حقيقة قال بها جارودي من قبل ألا وهي أنه لا يوجد هناك شيء اسمه ديمقراطية في الغرب، إن الديمقراطية الأثينية كانت ديمقراطية الـ ٢٠ ألف سيد في مواجهة ١٠٠ ألف من العبيد الذين لم يكن لهم أي حقوق، والولايات المتحدة الأمريكية التي أعلنت ميثاقًا لحقوق الإنسان والمواطن عند الاستقلال وأن كل البشر متساوون، ولكنها أبقت مائة عام على نظام العبيد للزنوج، فالديمقراطية كانت إذن للبيض وليست للسود وميثاق حقوق الإنسان الفرنسي يقول كل البشر متساوون أمام القانون بينما الدستور يقول إن شروط الترشيح أن يكون مالكًا لثروة معينة، أي أنها ديمقراطية للأغنياء وليست للفقراء، لذلك ليس عجيبًا أن يكتب فيلسوف كبير من فلاسفة الثورة الفرنسية « هو ديدرو » إن المواطن هو فقط من يملك.

في الجزائر مثلاً نادي كل الديمقراطيين في الغرب بانتخابات حرة في الجزائر، فلما حدثت انتخابات حرة وجاءت على غير هواهم أوقفوا العملية الانتخابية، ثم قبل كل هؤلاء الديمقراطيين الغربيين بالديكتاتورية العسكرية.

ويتوقع روجيه جارودي انهيار الحضارة الغربية لأنها سببت للبشرية مآس ضخمة على مستوى النهب والظلم والقمع، ولا يمكن لنظام مثل هذا أن يستمر، فهناك مثلاً أقلية لا تتعدي خمس سكان العالم تسيطر وتستهلك ٨٠٪ من الموارد الطبيعية للعالم، والنموذج الغربي للتنمية يكلف العالم الثالث حياة ٤٥ مليون شخص سنويًا منهم ١٥ مليون طفل دون السنوات الخمس، أي ما يعادل عدد قتلي هيروشيما مرة كل يومين، ووحدانية السوق التي سميت الحداثة تأخذ شكل انهيار للعلاقة الاجتماعية لصالح منظور داروني اجتماعي وتتلخص في الحرية المحتومة للأقوى لالتهام الأضعف.

وفي رأي جارودي أن أمريكا هي الأسوأ في التاريخ، فزعماء أمريكا هم أكبر

إرهابيون في العالم وليسوا حماة حقوق الإنسان، وهي تسعى للهيمنة على العالم بقوة المدفع، وهي تدعم إسرائيل لهذا الغرض، وهي تعطي إسرائيل كل شيء البندقية والطعام، ولذلك فإن المواجهة مع إسرائيل هي مع أمريكا أولاً، ولذلك يدعو جارودي أن يقاطع العرب والمسلمين أمريكا وإسرائيل مقاطعة شاملة، وهذه المقاطعة بدءًا من السجائر والبيبسي كولا وانتهاءً بالسيارة والآلة والكمبيوتر سوف تؤثر على أمريكا تأثيرًا شديدًا لأن الاقتصاد الأمريكي – على عكس ما يشع –يحتاج المزيد من الكسب والهيمنة، وهي لا تستطيع أن تعيش بدون حروب ويمكن أن تقود هي وإسرائيل العالم إلى حرب عالمية ثالثة، والعدوان الأمريكي على العراق مثلاً هو رسالة أمريكية إلى كل من يريد أو يفكر في خروج من بيت الطاعة الأمريكي.

ولم يقتصر جارودي على القتال الفكري والسياسي ضد الصهيونية وضد الهيمنة الأمريكية، بل إنه قدم اقتراحات عملية لمواجهة الاستكبار الأمريكي والغربي والصهيوني وإنقاذ دول العالم الثالث والعرب والمسلمين، فيقترح جارودي عددا من المقترحات لهذا الغرض منها :

رفض تسديد الديون المزعومة للبنك الدولي، وتكوين صندوق تضامن يعوض بنسبة كبيرة المساعدة المزعومة التي كان مستغلينا يقدمونها.

رفض قرارات الحظر التي تتخذها الأمم المتحدة على بعض الدول وخرقها

إنشاء سوق مشتركة لشعوبنا، وأن يكون نظام التبادل بالمقايضة حتى لا نضطر إلى المرور من طريق العملات الأجنبية لدول الشمال وبصفة خاصة الدولار، والحرص على القضاء على المضاربة.

القضاء على الهيمنة الثقافية الغربية والهيمنة الاقتصادية أيضًا.

الانسحاب الجماعي من كل المؤسسات التي تدعي العالمية، والتي أصبحت أدوات لسيطرة دولة واحدة، وتغطية عمليات العدوان العسكرية والاقتصادية والثقافية، أي الانسحاب من كل من الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية.

أن نواجه جميعًا ومتحدين أي تهديد أو عدوان ضد واحد منا.

عادل حسين
سيرة مناضل

تعد حياة عادل حسين التي حفلت بالعديد من المعارك السياسية والمراجعات الفكرية واحدة من أخصب التجارب في الحياة السياسية المصرية المعاصرة، حيث ولد وعاش عادل حسين في بيت يمتلأ بالسياسة والنضال والثورة، حيث كان أخوه المرحوم أحمد حسين مؤسس ورئيس حزب مصر الفتاة الذي نشأ في النصف الأول من القرن العشرين، وكان من أكثر الأحزاب معارضة للملك والإنجليز وأكثرها ضمنيًا وحيويًا، ولد عادل حسين في هذا البيت في ٢٤/ ١١/ ١٩٣٢، في جزيرة الروضة بالقاهرة، والتحق عادل حسين بهذا الحزب.

ثم انتقل بعد ذلك في إطار تطوراته الفكرية والسياسية إلى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) والتي كانت أحد أهم التشكيلات اليسارية المصرية، وبرز عادل حسين كمفكر ومناضل يساري صلب، ودخل السجن عدة مرات في هذا الإطار – أولها عام ١٩٥٣ ثم عام ١٩٥٥، ثم في عام ١٩٥٩ واستمر خمسة سنوات في السجن إلى أن أفرج عنه عام ١٩٦٤ .

وقد حصل عادل حسين على بكالوريوس علوم قسم الجيولوجيا، إلا أنه عمل بالصحافة والكتابة، فأصدر مبكرًا سلسلة كتب عن اقتصاديات النفط في الفترة من ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩، وعمل صحفيًا ورئيس قسم في مؤسسة أخبار اليوم، ثم رحل من مصر عام ١٩٧٨ بعد أن تم فصله من العمل بأخبار اليوم، حيث عمل في مركز دراسات الوحدة العربية وفي

مجلة المستقبل العربى، ثم عاد إلى مصر وبدأت سيرة المراجعة الفكرية التي انتهت به وبعدد آخر من الرموز اليسارية مثل الدكتور محمد عمارة، والمستشار طارق البشرى، والصحفية صافي ناز كاظم إلى اعتناق فكر الإسلام السياسى، ولا شك أن ذلك كان حدثًا هامًا يرجع إلى العديد من الأسباب منها ما هو خاص وما هو عام وبالنسبة لعادل حسين فإن تيار الإسلام السياسي لم يكن غريبًا عنه، حيث كان أخوه أحمد حسين أحد رموز هذا التيار، ولا شك أن هناك مراجعات وحوارات تمت بين الرجلين أثمرت إلى حد كبير في تفكير ومراجعات عادل حسين، ولكن هذا لا ينفي وجود عقلية خلاقة ومبدعة لدى عادل حسين وفي الإطار العام فإن بوادر إفلاس اليسار فكريًا وسياسيًا كانت بدأت تتضح على مستوى العالم، ولا شك أن القدرات الفكرية لعادل حسين كانت قادرة على رؤية ذلك على البعد وقبل حدوثه، وكذا فإن إفلاس التجارب اليسارية العربية ووصول معظم القوي السياسية والفكرية إلى ما يشبه المأزق في نهاية السبعينات، وبداية الثمانينات وخاصة في أطروحاتها بخصوص القضية الفلسطينية وتآكل مواقفها في هذا الصدد، أدى في النهاية إلى أن يراجع الأستاذ عادل حسين مواقفه الفكرية والسياسية، ويبدأ مرحلة جديدة من مراحل نضاله الفكري والوطني من خندق الإسلام السياسى، فالتحق بحزب العمل الذي كان قد أسسه كل من المهندس إبراهيم شكري وهو أحد رموز حزب مصر الفتاة، وأحد تلاميذ أحمد حسين، مع الدكتور محمد حلمي مراد أحد الرموز السياسية البارزة ووزير سابق، وأسند إلي الأستاذ عادل حسين رئاسة تحرير جريدة الشعب منذ عام ١٩٨٥ ـ ١٩٩٣ – حيث بدأ الخط الإسلامي يأخذ مسافته الواسعة داخل الجريدة والحزب، ولا شك أن عادل حسين كمفكر وسياسي استطاع أن ينقل الخطاب الإسلامي من خانة خطاب العموميات إلى خانة الاشتباك مع الحالة السياسية والاجتماعية، ودعا عادل حسين في هذا الصدد إلى مواجهة أمريكا وإسرائيل ورفض مسيرة السلام المزعوم، ووقف بصلابة ضد التطبيع مع الكيان الصهيوني وضد بيع القطاع العام والخصخصة، ودعا إلى وحدة التيارين الإسلامي والقومي على قاعدة مواجهة إسرائيل وأمريكا.

ثم عمل عادل حسين أمينا عامًا لحزب العمل منذ عام ١٩٩٣ وحتى وفاته وفي إطار تواجده داخل الحزب سواء كرئيس تحرير لجريدة الشعب أو أمينًا عامًا، فإنه كان أحد رموز وقواعد التحالف الإسلامي الذي تحقق بين كل من جماعة الإخوان المسلمين وحزبي العمل والأحرار منذ عام ١٩٨٧ – وحتى وفاة عادل حسين ، وإذا كان البعض وخاصة في الدوائر الحكومية كان يرى عادل حسين هو مهندس هذا التحالف، إلا أن الحقيقة أن المهندس إبراهيم شكري رئيس الحزب كان الأكثر تمسكا بهذا التحالف، أما عادل حسين فكان يميل إلى فتح الحزب أمام رموز وجماهير الجماعات الإسلامية !

على أساس أنهم الأكثر صلابة، وأن ذلك يفيد المجتمع حيث يعطي هؤلاء فرصة النضال السياسي بعيدًا عن العنف، وقد استطاع عادل حسين بالفعل أن يحدث تغييرًا واسعًا في صفوف حزب العمل وهيئاته ومؤسساته باتجاه تقليص دور غير الإسلاميين وغير الموالين له شخصيا، وأمسك بخيوط اللعبة داخل الحزب.

كان عادل حسين مثيرًا دائمًا للصخب، ويتعاطى مع السياسة والنضال بشكل جاد وصلب في نفس الوقت، وسواء في فترته اليسارية أو الإسلامية فإنه كان معارضًا شرسًا ويدخل السجن عادة، وقد اعتقل في إطار نضاله الإسلامي عام ١٩٩٤، وخرج من السجن ليعاود جهاده ضد الفساد في إطار حملة طالت رموز كبيرة مثل وزير الداخلية المصري وقتها السيد حسن الألفى، ثم وزير الزراعة ونائب رئيس الوزراء والأمين العام للحزب الوطني الحاكم الدكتور يوسف والى، وقد أدت هذه الحملة إلى صدور أحكام بالسجن على عدد من الصحفيين والرسامين بالصحيفة وإلى أحكام بالغرامات على عادل حسين شخصيًا، ثم جاءت حملة الصحيفة على ما أسمته التطاول على العقائد والإسفاف في إصدارات وزارة الثقافة المصرية وخصوصًا وليمة لأعشاب البحر، جاءت هذه الحملة التي أدت إلى اندلاع مظاهرات واسعة في جامعة الأزهر، لتكون الذريعة التي اتخذتها الحكومة وبالتالي لجنة الأحزاب لتعطيل

الصحيفة وتجميد الحزب عام ٢٠٠٠م، واستمر هذا الأمر - وربما كان سببا في إصابة عادل حسين بنزيف في المخ ليسلم الروح إلى خالقها في ١٥/٣/٢٠٠١م بعد حياة حافلة بالكفاح والتحولات والسجون.

ويعد موقف عادل حسين إبان الأزمة وحرب الخليج الثانية من أهم المحطات السياسية في حياته وحياة تيار الإسلام السياسي، حيث وقف الرجل وجر معه التيار الإسلامي فيما عدا بعض الاستثناءات مع العراق. وكان حزب العمل وصحيفة الشعب أكثر الأصوات العربية تقريبًا رفضا للتدخل الأمريكي وتأييدًا للعراق، وهو الأمر الذي استمر بعد ذلك في صورة الدعوة إلى المصالحة مع العراق والتنديد بالحصار عليها.

مؤلفات عادل حسين

من أهم مؤلفاته « الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية »، « نحو فكر عربي جديد »، « الإسلام دين وحضارة »، « الخليج الأمريكي العربي سابقًا »، وكذا عدد كبير من المقالات والدراسات التي تؤسس للنضال الإسلامي المعاصر وتهاجم الفساد وتقف بجوار قضايا الأمة.

ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن عددًا كبيرًا من اليساريين المصريين كانوا قد تحولوا باتجاه خدمة المشروع العولمي الأمريكي عن طريق تأسيس ما يسمى بجماعات المجتمع المدني التي يتم تمويلها من جهات أمريكية وكندية وأوروبية، في حين أن عادل حسين ورموز يسارية أخري قد تحولت إلى الإسلام السياسي الذي أصبح رمزًا على مقاومة أمريكا، ورفض مشروع العولمة، ومواجهة التدخل الأمريكي في المنطقة والعالم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة